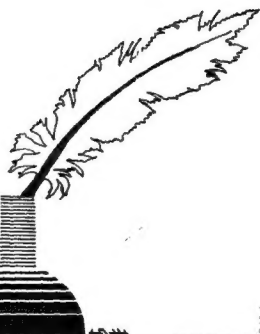


في أمم مصر الفاطمية

دكتور محمد كامل حسين



دار الفكر العربي

في الأمل الفاطمية

تأليف

دكتور محمد كامل حسين

مكتبة المطبع والنشر
دار الفكر العربي

وَالْأَرْضُ لِلْفَاطِمِيَّةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

هذا الكتاب « في أدب مصر الفاطمية » حلقة جديدة من سلسلة « أدب مصر الإسلامية » ، وكان من حقّه أن يكون بين يدي الجمهور منذ خمسة عشر عاماً ، ولكننا لم نفأ أن نخرجه للناس قبل أن نعطيهم صورة صحيحة لتلك النزعة الدينية التي تمايز بها عصر الفاطميين عن غيره من عصور مصر ، فقد خضعت مصر لهذا المذهب الديني واتخذها أئمة هذا المذهب قاعدة ملكهم ، فأصبح هذا المذهب هو المحور الذي تدور عليه الحياة المصرية من اجتماعية وسياسية وفكرية وأدبية ، بحيث لا نستطيع أن نعرف حقيقة هذه الألوان المختلفة من الحياة المصرية في عصر الفاطميين إلا على ضوء عقائد هذه الفرقة من فرق المسلمين . أدركنا هذه الحقيقة وقرأنا الكتب التي تحدثت عن الفاطميين وعقائدهم ، فرأينا هذه الكتب تعطينا صورة متناقضة أشد التناقض عن عقائد الفاطميين بحيث لا يستطيع أن يطمئن إليها باحث ، في الوقت الذي نرى فيه هذه الكتب تذهب إلى أن الفاطميين أقاموا دولتهم على أساس ديني إسلامي ، وأن الخلفاء الفاطميين اتخذوا سندهم من نسبتهم إلى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، وأن الفاطميين احتفلوا بالأعياد الدينية الإسلامية احتفالاً لم يعهد من قبل ، وأنهم أسسوا المساجد لإقامة الصلوات ، وكانوا يخرجون لإمامة الناس والخطبة في الأعياد إلى غير ذلك من المظاهر التي تشعر بأن الفاطميين كانوا من أشد الناس حرصاً على الإسلام وتقاليده المسلمين ، في الوقت نفسه نرى هذه الكتب أيضاً تذهب إلى أن الفاطميين كانوا يقولون بالإباحة وتحليل ما حرمه الله تعالى ، وينفذوا الصلاة والصوم والحج ، بل عملوا على طرح الأديان ، ودانوا بالتناسخ والحلول والتلاشي وادعوا معرفة النبي . . . إلى غير ذلك . قرأنا ذلك كله وصحبنا أشد الحب لهذا التناقض الذي وقع فيه القدماء والمحدثون ، فحرصنا على أن نرجع إلى كتب دعوة الفاطميين ، وراعنا أن القاهرة التي أنشأها الفاطميون وكانت

قاعدة ملكهم الراسع لا تحفظ بكتاب واحد من كتب الدهوى، فعينا إلى
البحث في غير مصر، وكان السرى شاقاً صعباً كلنا من الجهد والمال الشيء
الكثير، وما حيلنا إذا كانت أكثر كتب الدعوة في حوزة طاهر سيف الدين
الذى لقب نفسه بسلطان البهرة وزعم أنه الداعى المطلق لإمام مستور من نسل
الآلئة الفاطميين، وهو رجل شحيح بهذه الكتب على الباحثين بدعوى أنها
كتب الدعوة السرية، ولكن حجته هذه أو هي من بيت المنكوب فإن
الآلئة الفاطميين - الذين ورث دعوتهم - لم يقرأوا علومهم، بل عملوا على
نشرها وإذاعتها: شجروا العلم والملاء، وأنشأوا دار العلم وخزان الكتب
ليطلع عليها من يشاء. وكانوا يطلبون من العلماء تأليف الكتب على
النحو الذى سناه في هذا الكتاب، فطاهر سيف الدين الآن يعمل عكس ما عمله
الآلئة، ويأتى بأراء لم نهجها في عصر الفاطميين، ولعله يريد أن يظل أتباعه
في جهل مطبق حتى يستطيع أن يخدعهم بهذه الآراء الرجعية التى لا سند لها من
تقاليد الآلئة ونظمتهم، ومن يدعى لعله يريد أن يستغل ما عليه أتباعه من جهل
بحقيقة الدعوة الفاطمية كي يستولى على أموالهم باسم الدين، شأنه في ذلك شأن
كل دجال مشعوذ، ومع ذلك كله في طائفة البهرة عدد من المثقفين المستبشرين
الذين لا يهابون بطاهر سيف الدين ولا يقيمون وزناً لفضائله، زدودوا
بالكتب التى حرصنا على تقديمها للجمهور قبل أن تقدم إليهم هذا الكتاب
حتى يدركوا حقيقة الدعوة الفاطمية من كتب الدعاة أنفسهم، فقد نشرنا ستة
كتب فاطمية وسيقدمها كتب أخرى إن شاء الله.

والدعوة الفاطمية دعوة شيعية وقبل أن نتحدث عنها وعن أثرها في مصر

تسائل: إلى أى حد عرفت مصر التشيع قبل دخول الفاطميين بها؟

كان المسلمون في مصر بعد الفتح العربي يجمعون على مذهب واحد،
ويجمعون لأمام واحد، فلم يعرف أنه كان بين العرب الوافدين من عائل في
مسألة الإمامة، أو تحدث عن تفصيل خليفة على آخر، ولكن بدأ للمسلمين
في عهد عثمان بن عفان يتحدثون عن سياسته وتصرفاته، فانتبه بعض المسلمين
في مصر هذه الفرصة ودعوا لخلعه، ويروى الطبري قصة عجيبة عن ثورة
المصريين ضد عثمان، وإن ذلك كان بمثابة عبد الله بن سبأ ١١

يقول الطبرى : « كان عبد الله بن سبأ يهوديا من أهل صنعاء ، أمه سوداء ، فأسلم زمان عثمان ، ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم ، فبدأ بالحجاز ثم البصرة ثم الكوفة ثم الشام ، فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام ، فأخرجوه حتى أتى مصر ، فاعتصر فيهم ، فقال لهم فيما قال : لعجب من يزعم أن عيسى يرجع ، فهو يكذب بأن محمداً يرجع ، وقد قال الله عز وجل : « إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ، فحمد الله حق بالرجوع من عيسى ، قبل ذلك عنه ، ووضع لهم الرجعة فتكلموا فيها ، ثم قال لهم بعد ذلك : إنه كان ألف نبى ، ولكل نبى وصى وكان على وصى النبى ، ثم قال : محمد عاتم الإنياء وعلى عاتم الأوصياء . . . الخ (١) ، وهكذا ساق الطبرى هذه الرواية بين روايات عديدة عن سبب قيام المصريين ضد عثمان ، ونحن نحب لهذه الرواية إذ لم أجد في كتب التاريخ التى وضعها المصريون عن بلادهم وعن تراجم رجال مصر مثل كتاب قبح مصر لابن عبد الحكم وكتب الكندى وابن الداية وابن زولاقي ، أو في كتب المتأخرين الذين نقلوا عن هؤلاء المؤرخين القدماء ما يشير إلى وفود شخصية عبد الله بن سبأ على مصر ، أو أن أحداً من المصريين قال بمثل هذه المقالة التى زعم الطبرى أن ابن سبأ عليها للمصريين ، فلو سمحت رواية الطبرى لرأينا شيئاً من إنكار الصحابة الذين كانوا في مصر إذ ذاك لهذه البعثة السيئة ، ومعارضتهم لها ، ولا سيما أن ابن عبد الحكم وغيره رووا بعض الأحاديث عن محاربة مصر وترجموا لهم ولم يرد ذكر ابن سبأ ولا آرائه . ولم يذكروا شيئاً عن إنكار هذه الآراء أو معارضتها ، قصة ابن سبأ في مصر ، وأنه بث آراء التشيع بين المصريين هى أقرب إلى الخرافات منها إلى أى شيء آخر .

١ حقيقة ثار بعض المصريين على عثمان . وقام محمد بن أبى حذيفة بانزعاج الإمامة في مصر ، وطرد عامل عثمان من القسطنطينية سنة ٥٣٥ هـ وزج بعدد من شيعة عثمان في السجون ، ولكن ليس معنى ذلك أن ابن سبأ هو الذى أثر على الناس وألبهم على عثمان ، إنما كان ذلك بتدبير بعض أتباع الصحابة الذين كرهوا أن يكون أمير مصر هو عبد الله بن أبى سرح أخو عثمان في الرضاة ، وكبر في

فوسم أن يعزل عمرو بن العاص عن مصر ، فلم تكن ثورة المصريين ضد عثمان تحت بسبب إلى تشجيع المصريين إلى علي بن أبي طالب أو المطالبة بإمامته ، وعلى الرغم من أن المصريين هم الذين بايعوا علياً بالخلافة بعد مقتل عثمان ، فإن ذلك لم يكن عن حب عاص له أو عن عقيدة بأنه أحق الناس بها ، فالمفاوضات التي كانت قبل مبايعته تدل على أنهم نظروا إلى علي بن أبي طالب فظفروا به ، فكانوا قد عادوا إلى من الصحابة ، أضف إلى ذلك أن المصريين بعد أن بايعوا علياً عادوا إلى القضاة وهم يرجعون :

خفنا إليك واحذرن أبا الحسن
إننا نمر الحرب لإمرار الرمن
باليف لن نحمد نيران الفتن

ففي هذا الرجز تحذير للإمام الجديد علي بن أبي طالب ، فإن سار على نهج عثمان في سياسته في الحروب الدائمة والفتن المستمرة ، فهذا دليل على أن المصريين لم ينهبوا في علي بن أبي طالب ما رواه الطبري عن ابن سبأ ، وأن المصريين لم يقسموا علياً أو يقولوا بوصايته ، ثم إننا نرى المسلمين في مصر اقساموا بعد مقتل عثمان إلى فريقين : فريق يطالب بدم المقتول ، وفريق يؤيد خلافة علي ، وكانت مصر من الولايات التي خضعت للأمراء الذين أرسلهم علي ، ولكن أنصار علي لم يكن لهم شأن كبير في الأحداث التي جرت ، ولم يقيموا وزناً للزواج بين علي ومعاوية ، فقد سم الأشر النخعي على حدود مصر ، وقتل الوالي محمد بن أبي بكر الصديق ، وأدخلت جسده في إهاب حمار وأحرقت على مرأى من المصريين فلم يحرك شيعة ساكناً ، فلو كان التشيع في مصر قوياً لأسهم الشيعة في الزواج بين علي ومعاوية ولناصروا علياً ، ونحن نقسأ أيضاً ، أين كان شيعة مصر عندما قتل علي وبعد مقتل الحسين ؟ وأين كان شيعة مصر لإبان حركة المختار الثقفي ؟ هذه أسئلة لم يجب عنها المؤرخون ، فالمصادر التي بين أيدينا لم تذكر شيئاً من قيام الشيعة بمصر في المساعدة في الحركات الشيعة التي كانت في الأقطار الأخرى ، مما يجعلنا نذهب إلى أن الشيعة في مصر كانوا من النصف لدرجة أنهم لم يؤثروا في الحياة السياسية والفنية ، ولهذا نجب نقول

المؤرخين الذين يزعمون أنه بعد أن تم الأمر للأمويين أصبح الجند وأهل شوكة مصر عثمانية وكثير من أهلها علوية^(١). والمقصود بالعثمانية أهل الكف الذين قالوا : كن عبد الله القتل ولا تكن عبد الله القاتل . وإذا كان هذا موقف الشيعة في مصر من علي وابنه الحسين فكيف نرى عدداً من المصريين يخرج لناصر عبد الله بن الزبير في ثورته سنة ٦٤ هـ ضد الأمويين ، بل نرى ابن الزبير يرسل والياً من قبله علي مصر هو عبد الرحمن بن جندب القهري وهو من الخوارج ، وقد قدم مصر ومعه عدد كبير من الخوارج فأظهروا بحسب التحكم ودعوا إليه^(٢) ثم طالت شوكة والقوة العثمانية بعد فشل الزبيريين وعودة مصر لسلطان الأمويين ، وكان الأمويون يظهرهم في مصر سب علي بن أبي طالب دون خشية ثورة الشيعة وذلك لضعف شأن الشيعة في مصر ، ومع ذلك فقد دوى القرظي عن يزيد بن أبي حبيب المتوفى سنة ١٢٨ هـ أنه قال : ضأت بمصر وهي علوية قلبتها عثمانية^(٣) فإن صح هذا القول عن يزيد فالما يدل على أن بعض المصريين كانوا يتحدثون عن فضائل علي ، وأن يزيد استطاع أن يصرف الناس عن ذلك ويجعلهم يميلون إلى رأى أهل الكف والمسائل الفقهية ، ولا نستطيع أن نقول : إن المصريين شغلوا بالآراء الشيعية التي شملت شيعة العراق وفارس فإتسا استطاع أن تمر بالصر الأموي في مصر دون أن نسمع شيئاً عن الشيعة بمصر ، ومن يدري لعله كان بمصر شيعة هوام مع أبناء علي وقلوبهم مع أهل البيت ولكن سيوفهم كانت مع بني أمية ، وأعفلت كتب التاريخ الحديث عنهم فأصبحنا لا ندرى شيئاً عن نشاط الشيعة في مصر في هذا الصر الأموي ولا عن العقائد التي دانوا بها إلا ما قيل عن قصة فرار مروان بن محمد إلى مصر من وجه السودة ، فقد وجد الدعوة الجديدة سبقت إلى مصر ووجدت بين المصريين قبولاً . وقد ذكر الكندي أسماء زعماء هذه الحركة بمصر ، ففي الحوف الشرقي كان أول من لبس السواد شرحبيل بن مذبلقة الكلبي ، وفي الإسكندرية كان الأسود بن قافع ، وبالصعيد عبد الأعلى بن سعيد الجبشاني ، وبأسوان يحيى بن

(١) القرظي : الخط ج ٤ ص ١٥١ .

(٢) الكندي : الولاية والقماء ص ٤١ .

(٣) القرظي : الخط ج ٤ ص ١٤٦ .

مسلم^(١)، ونحن نعلم أن دعوة المسودة في أول أمرها كانت للرضا من أهل البيت، وتوهم الشيعة في جميع الأقطار الإسلامية أن الدعوة لهم فاستجابوا لها ونشطوا مع القائمين بها، فظل هؤلاء الذين دعوا للمسودة في مصر كانوا من الشيعة وتوهموا ما وحه غيرهم، فإن صح ذلك فتكون هذه أول حركة شيعية في مصر علينا بها. ومهما يكن من شيء فإن مروان استطاع أن يقضي على هذه الحركة وأن يقتل زعمائها، ولكن القتل لم يمهله كي يستمر في حكم مصر، فقد دخلت جيوش العباسيين مصر سنة ١٣٣ هـ وقبض على مروان بن محمد ومن معه من الموالين للأمويين وخضعت مصر للعباسيين، وكان العباسيون في مبدأ أمرهم يتحجبون إلى الشيعة، فحى من مصر سب على وآله، وظن الطويعون أن الأيام أقلت عليهم، وجاءت دولتهم التي طالما حلوا بها، ولكنهم سرعان ما فطنوا إلى أن العباسيين قمة حلت بهم، ذلك أن العباسيين تكلموا بأهل البيت ومن لا ذنب لهم أو من عرف بولايتهم، فلا غرابة إذا كنا نرى في العصر العباسي سلسلة حركات شيعية تظهر من وقت إلى آخر، وأمنن الشيعة في التقية وأكثروا من الدعوات السرية المختلفة وكانت مصر من الميادين التي ظهرت فيها بعض حركات الشيعة في العصر العباسي، ففي خلافة أبي جعفر المنصور قدم مصر سنة ١٤٤ هـ على بن محمد بن عبد الله ودعا لأبيه النفس الزكية، واقتشرت دعوته في البلاد على يد الداعي خالد بن سعيد بن ربيعة الصنفي، ولكن والي العباسي استطاع أن يقضي على هذه الحركة^(٢). وفي عهد المتوكل العباسي أرسل إلى والي مصر بإخراج كل أهل البيت من مصر إلى العراق فأخرج والي اسحق بن يحيى سنة ٢٣٥ هـ بعض أهل البيت بعد أن فرق فيهم الأموال ليشتعلوا بها فأعطى كل رجل ثلاثين ديناراً والمرأة خمسة عشر ديناراً^(٣)، فاضطر من كان بمصر من الشيعة إلى التقية خوفاً من بطش العباسيين. ولا سيما بعد أن أصبح أكثر الولاة في مصر من الأتراك الذين كانوا شديدياً للمعصب ضد الشيعة، ولعل أكثر الولاة الأتراك اضطهاداً للشيعة ومطاردة لهم هو والي يزيد بن عبد الله

(١) الكندي: الولاة والقضاة ص ٩٤ .

(٢) القرطبي: المخطوط ج ٤ ص ١٥٣ (٣) الكندي: الولاة والقضاة ص ٩٨

الذي ولي مصر سنة ٢٤٢هـ وظل على مصر حتى سنة ٢٥٥هـ وتذكر كتب التاريخ قصصا عديدة عما آتاه هذا الوالى من اضطهاد الشيعة ، من ذلك أنه ضرب رجلا من الجند في شيء وجب عليه فأقسم الجندى عليه بحق الحسن والحسين إلا أعضاء فزاده الوالى ثلاثين درة ، ورفع صاحب البريد أمر هذا الجندى إلى الخليفة في بغداد فأمر بضربه إمامة سوط ثم حل بهد ذلك إلى بغداد (١) ، وفي أيامه دل على علوى هو محمد بن على بن الحسن بن على زين العابدين فذهب الوالى وأحرق الموضع الذي به العلوى بعد أن قبض عليه (٢) ، وفي أيامه أيضا آتاه من بغداد بأن لا يقبل علوى حبيته ولا يركب فرسا ، ولا يسافر من القسطنطين إلى طرف من أطرافها ، وأن لا يخرجوا من اتخاذ المييد إلا القيد الواحد ، ومن كانت بينه وبين أحد العلويين خصومة قبل قول خصمه فيه ولم يحال به بينة (٣) وفي سنة ٢٥٠هـ أخرج هذا الوالى ستة رجال من الطالبين إلى العراق ، وفي رجب من السنة التالية أخرج ثمانية منهم (٤) ، وكانت هذه السياسة التصفية سببا في أن ينضم أحد العلويين وهو عبد الله بن أحمد بن محمد المعروف بابن الأرقط إلى ثورة جابر المدلجي سنة ٢٥٢هـ وقوى الثائرون بانضمامه إليهم وزاد عددهم فزعموا جيش الوالى الذي استعان بالخليفة العباسى فأمدته الجيش بقيادة مزاحم بن عاتق فأخذت الثورة واستأن ابن الأرقط العلوى فأخرج من مصر (٥) ، وفي سنة ٢٥٤هـ ثار بها الأكبر وهو أحمد بن إبراهيم بن عبد الله ابن طباطبا ولكنه هزم وقُتل ، وفي سنة ٢٥٥هـ في ولاية أحمد بن طولون خرج بنا الأصغر وهو أحمد بن محمد بن عبد الله بن طباطبا وانتشرت دعوته في الإسكندرية وبرقة والصعيد ولكنه قتل ، وفي هذه السنة أيضا خرج بصرى بن الصوفى وهو إبراهيم بن محمد بن يحيى من نسل عمر بن أبي طائب واستمر قائما يحارب ابن طولون أربع سنوات إلى أن هزم فاضطر إلى أن يهرب إلى مكة سنة ٢٥٩هـ . وكانت المصائب التي صيها الجند من السودان على الشيعة بصرى أصحاب مائال

(١) القرطبي : الخط ج ٤ ص ١٥٣ (٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٠٤

(٣) القرطبي : الخط ج ٤ ص ١٥٤ (٤) الكندى الولاة ص ٢٠٥

(٥) قس المصدر ص ٢٠٨ .

الشيعة من اضطهاد الولاة ، فقد كثرت عدد السودان في مصر واستفحل أمرهم ، فأصبحوا مصدر قلق بين أهل السنة والشيعة ، ففي سنة ٣٥٠ هـ خرج شيعة مصر إلى قبر كلثوم بنت النعمان بن محمد بن جعفر الصادق وأقاموا هناك ما أتم الحسين ، فتدخل الجند واضطربت الأمور بين الجند والشيعة ، وقتل جماعة من الفريقين فلم يكتب الجند من السودان بذلك بل ساروا في الطرقات يصيحون : معاوية خال علي !! حتى أنهم كانوا يصيحون بنقيب الأشراف الحسين بن جعفر مسلم ويحتفون بذلك في وجهه ^(١) ، ولما ورد الخبر بقيام بنى الحسن بمكة ومحاربتهم الحاج ، خرج خلق من المصريين ولقوا كافوراً الأخشيدي بالميدان وصاحوا : معاوية خال علي !! وسألوه أن يبعث جيشاً لمحاربة بنى الحسن ^(٢) .

وهكذا كان حال الشيعة في مصر ، فقد أصابهم ما أصاب غيرهم في الاضطار الإسلامية من اضطهاد العباسيين وقمعتهم ، وهذه الأمثلة التي أوردنا بعضها إن دلت على شيء فإنما تدل على أن التشيع بدأ يدخل مصر ، بل أخذ يقوى ويشدد أزره ، وأصبح الشيعة يؤثرون في الحياة العامة بمصر ويقومون بشورات ضد الولاة . أضف إلى ذلك أن مصر في هذا العصر شابهت عدداً من العلماء الذين كانوا يفضلون علياً على الشيخين ، ويخلصون في حبهم لأهل البيت ولعل الشافعي أصدق مثل لذلك ، ففي شعره ما يدل على عاطفة مخلصه قوية لأهل البيت فهو يقول :

يا آل بيت رسول الله حبكم فرض من الله في القرآن أنزله
يكفيكم من عظيم الفخر أنكم من لم يصل عليكم لاصلاة له ^(٣)

فهذا قول إمام من أئمة أهل السنة ، وصاحب مذهب فقهي من مذاهبهم ، فقد ذهب إلى أن حب أهل البيت فرض الله تعالى في القرآن ، وأن الله تعالى لا يقبل صلاة من لا يصل على أهل البيت ، وهذه آراء شيعية لا يقول بها إلا متعصب في تشيعه ، ونحن نشك في أن تصدر مثل هذه الآراء من الشافعي ونخشى أن تكون موضوعة ونسبت إليه ، ولكن الشافعي يظهر مرة أخرى أنه يحب علياً ولا ينكر فضل الشيخين ، وهذا الرأي يتألف الرأي السابق فالشافعي يقول :
إذا نحن فضلنا علياً فإنا رولخص بالتفضيل عند ذوى الجمل

(١) الحرزى : الموطأ ج ٤ ص ١٥٥ (٢) شرحه (٣) الجوهر النخيس ص ٤٦ .

وفضل أبي بكر إذا ما ذكرته رويت نصب عند ذكرى الفضل
فلذلك إذا رخص ونصب كلاهما بجيها حتى أوسد في الرمل
وهكذا كان القاضي في أحاديثه وأماله وأشعاره يشيد بفضل على وجهه ،
وأخذ المصريون عن القاضي فيما أخذوه هذا الحب لأهل البيت . واتخذ المصريون
عادة التبرك بأهل البيت أحياء وأمواتا ، فقد قيل : إنه في سنة ٢٠٨ هـ توفيت
بمصر السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد فأراد زوجها إسحق بن جعفر الصادق
أن يحملها ليدفنها بالمدينة ، ولكن أهل مصر سأله أن يتركها في مصر ليتبركوا
بها ^(١) فدفنت في مصر وبني قبرها الوالي عبيد الله بن السري بن الحكم ، ولا يزال
قبرها إلى الآن مقصد المسلمين في مصر يتبركون بها . ووضع النسائي الحديث
المعروف كتابا في فضائل علي بن أبي طالب رواه عنه المصريون ومنهم القاضي
الفيهي محمد بن أحمد بن الحداد ^(٢) وكان هذا القاضي ممن يفضلون عليا ولكنه لم
يستطع أن يصرح بذلك خوفا من السلطان ومن شغب العامة ، ويرى ابن زولاق
أن ابن الحداد كان في مجلس أبي القاسم بن الإخشيد مع جماعة ، فلما نهض ابن الحداد
أمسكه ابن الإخشيد وسأله : أيهما أفضل أبو بكر وعمر أم علي ؟ فقال القاضي :
الاثنان حذاء واحد . فكرر عليه السؤال فقال ابن الحداد : إن كان عندك فعل
وإن كان بزه (في الخارج) فأبو بكر ^(٣) وشيبه بهذا ما يرويه ابن زولاق أيضا
عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكيم قتيه مصر ورئيس مذهب مالكا في عصره
أن رجلا سأله : أيهما أفضل أبو بكر وعمر أم علي ؟ فاستغفاه ابن عبد الحكيم
فألح عليه الرجل ، فقال له ابن عبد الحكيم : إن أخبرتك أحدا مما أقول لك كنت
أحد من طولون الأمير فتنرك بالسياط ، علي أفضل ^(٤) . وقبل أن يموت ابن
المرزوق كان في حلقته يلقي دروسه الأدبية واللغوية على المصريين قطرب الحديث
عن أبي بكر وعمر وعلي فاقسم الناس إلى طائفتين طائفة يزيد فضائل علي ،
وطائفة تزيد فضائل أبي بكر ، وكانت هذه الطائفة الأخيرة أكبر ^(٥) فهذا كله

(١) الحميري : المجلد ج ٣١٥ .

(٢) ابن جرير الصفارني : رفع الأمر (نسخة خطية بدار الكتب المصرية) .

(٣) نفس المصدر . (٤) نفس المصدر .

(٥) ابن زولاق : أخبار سيوفه المصري ص ٢٩

يدل على أن المصريين أخذوا يتقسمون بين أبي بكر وعلى . وأن الحديث قد كثر في التفضيل بينهما ، ولكن الذين كانوا يفضلون عليا كانوا يفترون خروفا من شغب العامة وبلش الولاة وجندهم من السودان .

على أن أمر الشيعة بمصر أخذ يقوى عند استطاع دعاة عيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية بسط دعوتهم في شمال أفريقيا وتكوين أركان دولة بني الأغلب ، وقد كان للمهدي دعاة وأنصار بمصر ، ويحدثنا القاضي النعمان في كتابه افتتاح الدعوة ، أن المهدي نفسه دخل مصر مستترا في زى التجار هربا من العباسيين ، فأنت الكتب من بغداد إلى والى مصر بصفة المهدي والأمر في طلبه ، وكان بعض أهل خاصة ذلك الوالى وليا مؤمنا (بدعوة المهدي) فأسرع إلى المهدي بالخبر ، ولطف في أمره إلى أن خرج المهدي من مصر ومعه القائم وبعض صبيته (١) . ويروى صاحب سيرة جعفر بن على الحاجب . وسرنا (أى المهدي ورجاله) من الرملة إلى مصر ، فاستقبلنا أبو على الداعي ، وكان مقبلا بدعوىها وأكثر دعاة الإيمان من قبله . وكان فيروز الذى رعاه ورباه وزوجه ابنته أم أبي الحسين ولده ، فقتلهم إليه المهدي قبل دخولنا مصر بأن لا يزله عنده ولا عند من يشار إليه بشيء من أمرنا ، وأن يزله عند من يشق به فأنزله عند ابن عياش (٢) . ويقول في موضع آخر عن داعي المهدي بمصر أنه ولا صح عند فيروز خروج المهدي إلى المغرب تغيرت نيته وعزم على النفاق ، وكان قد زوج ابنته كما ذكرنا أولا بأبي على الداعي بمصر ، ومحمد أبو الحسين بن أبي على الداعي ولده ، وقد بلغ محمد أبو الحسين هذا مع الإمامة المهدي بالله والقائم بأمر الله والمنصور بالله والمعز لدين الله صلوات الله عليهم اجمعين المجلل العظيم وكان داعي الدعوة (٣) . ولما تم الأمر للمهدي بالمغرب سنة ٢٩٦ هـ راسله شيعته بمصر فنبهوا إليها ، وفضلا حاول الفاطميون غزو مصر عدة مرات ، منها تلك الحملة التي كانت بقيادة حسانة بن يوسف الكتانى التي نجحت في دخول الإسكندرية ولكن

(١) النعمان بن محمد : افتتاح الدعوى (نسخة خطية بمكتبتي) .

(٢) سيرة جعفر : نسخة خطية بمكتبتي .

(٣) نفس المصدر .

تكاثر جيوش العباسيين فانهمز حباثة (١) وشعر والى مصر أن بين المصريين من كاتب الفاطميين لنزول البلاد فتبهم الوالى وسجن منهم عددا كبيرا ، وطلب آخرين بقطع أيديهم وأرجلهم (٢) . وفى ذلك قال الشاعر المصرى ابن مهران :

وقد وافى حباثة فى كتابم بكل مهتد وبكل خطى
وقد حصدوا المصر ودون مصر له غرط القناد وأى غرط
وأقبل جلعلا حتى تخطى وجامز بجهل حد التخطى
بكتب جماعة قد كانوا من أقباط مصر وغير قبلى
وكل كانوا وقاصونا وكل فى البلاد له موطن
قل لحباثة إن كنت عنا مضيت فإن تلك ليس يخطى (٣)

كذلك نذكر الحلة التى كان يقومها القائم بأمر الله فى سنة ٤٠٧ هـ قد فتح القائم بأمر الله الإسكندرية ثم سار إلى الفيوم وكاتب المصريين بالثر تارة وبالشر تارة أخرى ، فكان القائد مؤنس الخادم يصادر هذه المكاتبات ويرسلها إلى الخليفة العباسى المتتدر ، وظلت أحوال القائم بمصر مضطربة حتى اضطر إلى العودة إلى المغرب سنة ٤٣٩ هـ ، وقد حفظ عريب بن سعد القرطبي صورة مقطوعة من الشعر قيل : إن القائم أرسلها إلى شيعته من المصريين يستشمن منهم ، ونصب عريب إلى أن هذه المقطوعة أرسلت إلى بغداد ، وأن الخليفة أمر محمد بن يحيى الصولى بالرد عليها : وهالك المقطوعة .

أيا أهل شرق الله زلت حلومكم لم اخشعت من قلة الفهم والأدب
صلاتكم مع من ؟ وحكم بين ؟ وغروكم فيمن ؟ أجيبوا بلا كتب
صلاتكم والمج والنزو ويلكم بشر لبخر حاكفين على الرب
لم ترى بهت الرقاعة بالمصرى وقت بأمر الله حقا كما وجب
سبرت وفى الصبر التجاح وربما تعجل ذورأى فأخطا ولم يصب
إلى أن أراد الله إعراز دينه فتمت بأمر الله قومة محقصب
وناديت أهل الغرب دعوة واتى رب كريم من تولاه لم يحبه

(١) السكندى : الرواة ص ٢٧١

(٢) ٢٨١ هـ . الخطب ج ١ ص ٢٨١ (٣) السكندى : الرواة والأفضاء ص ٢٧٢

لجأوا سراعا نحو أصيد ماجد يادونه بالطروح من جهة العرب
وسرت بجبل الله تلقاء أرضكم وقد لاج وجه الموت من خلل الحجب
وأردتها غيلا صافا يقودها رجال كأمثال الليث لها جنب
شمارم جمدى ومعتهم أبى وقولهم قولى هل التأى والقرب
فكان محمد الله ما قد عرقم وغوت بهم الفلج والنصر والقلب
وقلك نأى ما بقيت وذأبكم لغوتكم حربا تضرم كالهب (١)

وتابع غزوات الفاطميين لمصر فكانت تود مهزومة مدحورة ، فاضطر
شيعة المهدي إلى اتخاذ التقيّة وإلى الدعوة السرية حتى ولي كافور نيابة عن ابن
سيده الحسن بن عبد الله بن طنج وكان ابن طنج ضميما قطع فيه الجند وكرهوه ،
واستغل ضعفه أحد دعاة الفاطميين وهو أبو جعفر بن نصر وجب إليه دخول مذهب
ومكاتبه للمزدين الله (٢) ويذكر ابن زولاق أنه كان بمصر داعية آخر يسمى بأبي
عيسى عبد العزيز بن أحمد (٣) ، ويخيل لي أن أبا جعفر بن نصر الداعي كان
معروفا أكثر من صاحبه وأنه كان من جلساء كافور وبني طنج ، وعرف عنه
الدعوة الفاطمية في مصر ولا أدري سبب سكوت الأمير عنه ، ويذكر ابن
زولاق أن هذا الداعي بنى داراً له بمصر فر عليه سيويه المصري قال : كافور
الأسود غدا يؤخذ بأذنه ، إنما بنيت هذه الدار لصاحب المغرب يؤخذ فيها البيعة
على كل تابع ومتبوع ، وبذليل مرفوع ، تنفّر فيها الأحوال وتعمل إليها الأموال (٤)
معنى هذا كله أن الدعوة الفاطمية كانت أسبق إلى مصر من جيوش الفاطميين
وأن النجاة استطاعوا أن يبدؤوا بين بعض المصريين عقائد الفاطميين فاستجاب
لهم من استجاب وكانوا حركوا لجيش جوامع القائد في دخول مصر سنة ٤٣٥ هـ
إذ كان بمصر شيعة ، ولكننا لا ندري إلى أي فرقة من فرق الشيعة كان
المصريون ، ويطلب على ظني أن المصريين لم يستقروا مذهباً من مذاهب التشيع
كغيرهم من فرق الشيعة الأخرى ، ولم يتخذوا التشيع من ناحية العبادة الصليّة
كأهل غفرم ، إنما كان مواهم مع علي بن أبي طالب وأهل بيته ، ولكنهم لم

(١) عرب بن سعد : صفة تاريخ الطبري ص ٤٢ .

(٢) ابن زولاق ، أخبار سيويه المصري ص ٤٠ ، وأبو الحسن : النجوم ج ٤ ص ٧٣ .

(٣) نفس المصدر ص ٤٠ .

(٤) نفس المصدر ص ١٣ .

بما هموا كالجند الفينة في الأقطار الأخرى ، ولم يفسلوا عقبتهم الدينية على
التحر الذي نراه عند غيرهم ، بل اكتفوا بالقول بتفضيل على ، وحرموا على
حجهم وولاتهم لأهل البيت ، يكرمون الأحياء ويتركون بالأموات ، حتى دخل
جورهم مصر ، ووجد المصريون أنفسهم أن لا طاقة لهم بقتاله وصد من
ديارهم ، فأرسلوا إليه وفدا برئاسة أحد العلويين بمصر كان قبيب الأشراف
الحسيني بها ، وهو أبو جعفر مسلم بن عبد الله الحنفى ، وطلبوا من جورهم الأمان
والصلح ، فأجابهم . وكتب لهم الأمان وفيه نص بتأمين المصريين على عقيدتهم
قد كان السواد الأعظم من المصريين حريصين أشد الحرص على أن لا يتحولوا
من مذهبهم الدينى الذى كانوا عليه وهو مذهب أهل الجماعة والسنة . وأن
لا يتعرض الفاطميون لمقاتلتهم التى كانوا بها ، فألحوا فى أن يذكر جورهم ذلك
فى كتاب أمانه لهم . فهل وفى الفاطميون فى مصر بذلك ؟ الواقع أن الفاطميين
لم يحترموا الأمان الذى أعطاه جورهم للمصريين قد عملوا على تشجيع المصريين
على التحر الذى سراه فى هذا الكتاب ، فأصبحت مصر شيعية لما من الآراء
ما تميز به فى هذا العصر عن جميع عصورها التاريخية ، وأثرت هذه العقائد
الفاطمية الجديدة على الحياة المصرية بل تعدت مصر إلى غيرها من البلدان
الأخرى ولا سيما التى خضعت لتفوذ الفاطميين ، فأثرت فى الحياة العقلية
الإسلامية تأثيراً كان له خطره فى جميع البلدان الإسلامية .

وهذا الكتاب هو محاولة الكشف عن الحياة العقلية والأدبية بمصر فى
عصر الفاطميين ، وهو عصر فاعل لنا أشد الفعول على الرغم مما كتب حوله ،
وكان عصر الفاطميين عصر أزهى فى الأدب والعلم ولكن ما بقى لنا من آثار
هذه الفنون والعلوم شيء قليل جداً متفرق فى كتب مختلفة ، وقد حاولنا ما بقى
لنا أن نعطي صورة لما كانت عليه الحياة العقلية والأدبية ، ونرجو أن نكون
قد وفقنا فى هذه المحاولة ٩

محمد كامل حسين

جزيرة الروضة فى ١٥ أبريل سنة ١٩٥٠

٢٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٩

الكتاب الأول
في أحياة العقلمية

الباب الأول

في الدعوة الفاطمية

الفصل الأول

عقائد الفاطميين

جاء الفاطميون مصر يدعون إلى عقيدة تختلف عما كان عليه أكثر المسلمين ، فقد كان السواد الأعظم من مسلمي مصر ينقسمون بين مذهب مالك وبين مذهب الشافعي ، وقليل منهم من كان على مذهب أبي حنيفة . ومما كانت الفروق بين هذه المذاهب فكلها من مذاهب أهل السنة والجماعة التي تختلف عقائد الفرق الشيعية وتباينها ؛ والفاطميون فرقة من فرق الشيعة عرفت بالإسماعيلية نسبة إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق . قال الفاطميون بنبوة محمد عليه السلام ، ووصاية علي بن أبي طالب (١) ، وإمامة ابنه الحسن فالحسين ، قرين العابدین ، فمحمد الباقر ، فجعفر الصادق . فهم على هذا النحو يتفقون في تسلسل الإمامة مع الشيعة الاثني عشرية . وبعد وفاة جعفر الصادق سنة ١٤٨ هـ انقسمت الشيعة الإمامية إلى الإسماعيلية وهي الفرقة التي قالت بإمامة إسماعيل بن جعفر فإنه محمد بن إسماعيل قائم (دور الست) وهم عبد الله بن محمد ، فأحمد بن عبد الله فالحسين بن أحمد (٢)

(١) قال الفاطميون : إن مرتبة الوصاية أسمى من مرتبة الإمامة وأقل من مرتبة النبوة صل ابن أبي طالب في مرتبة أقل من مرتبة محمد عليه السلام وأرفع من مرتبة أبنائه الأئمة ولذلك لا يمدونه إماما من أئمتهم ، بل قالوا إنه : وصي النبي ، أما الشيعة الإمامية فقالوا بأن عليا وصي وهو أول إمام من أئمتهم .

(٢) اختلف المؤرخون في هؤلاء الأئمة المستورين ، فمنهم من قال بأن عبد الله بن محمد هو عبد الله بن ميسون القنداح الذي ينسب إليه بعض المؤرخين أصل الخلفاء الفاطميين ، ولعل السر الذي لم يعرف كنهه إلى الآن هو في هؤلاء الأئمة المستورين ، فالحديث بينهم أقرب إلى الخرافات منه إلى الواقع فالإمام المستور عند الإسماعيلية لا يعرف إلا أقرب الناس إليه ، وإسما فاني أنشأت

ثم أئمة دور الظهور وأولهم هبده الله للمهدى مؤسس الدولة الفاطمية . وإذا قرأنا كتب دعاة الفاطميين استعلمنا أن فطمت إلى أن الفاطميين نظروا إلى أنهم على أنهم من البشر ، يجرى عليهم ما يجرى على البشر من موجه حياة ، فهم في ذلك يخالفون الفلاة من الشيعة الذين ألهموا عليا والأئمة من ذريته ، وقالوا : إنهم أحياء يزقون . ويخالفون الشيعة الاثني عشرية الذين ذهبوا إلى غيبة الإمام محمد بن الحسن العسكري وأنه سيظل حيا حتى يعود ليلا الدنيا عدلا كاملا جورا . وقال الفاطميون : إن الإمامة تنتقل من الآباء إلى الأبناء . ولا تنتقل من أخ إلى أخ بعد انتقالها من الحسن إلى الحسين ابن علي بن أبي طالب ، فالآب ينص على ابنه في حياته . وهذه العقيدة أصل من أصول المذهب في تسلسل الإمامة عند الفاطميين ، وقد أولوا قول الله تعالى : وجعلها كلمة باقية في عقبه ، بأن الله سبحانه وتعالى لا يترك العالم خاليا من إمام ظاهر مكشوف أو باطن مستور تنتقل الإمامة إليه بعد أبيه الإمام من نسل علي بن أبي طالب .

والإمام حجة الله على عباده ومهديهم إلى الطريق القويم . فوجب على كل مؤمن أن يتبع هذا الإمام . وجعلوا ولاية الإمام أحد أركان الدين ودعاه ، بل ذهبوا إلى أن الولاية أفضل دعائم الدين وأقواها ولا يستقيم الدين إلا بها . قال المؤيد في الدين حجة الله الشيرازي في مجالسه : « قل أن رجلا عمل بفرائض الله تعالى وسنته التي جاء بها رسوله كلها ، ثم لم يقرن بعمله اعتقاد ولاية الرسول عليه الصلاة والسلام الآن بها لم يفتن عنه ماحل قتيلا ، ولم يتبع غير أهل التارسيل . إذ ولاية الرسول كللركز الذي تدور عليه دائرة الفرائض ، فلا يصح وجودها إلا بوجوده ، وإذا كانت هذه نصبة الرسول في حياته كانت نصبة من يوليه أمردينه مثلها ، ومثل ذلك نصبة من يليه ومن يلي من يليه ما انتقلت الولاية من واحد إلى واحد ، وورثها ولد عن والد ، إذ الولاية هي الأصل الذي يدور عليه موضوع

== بلقبه بقبه وبسبهم باسميكنهم بكنيته . ومن هنا التمس أمر نسب الفاطميين على المؤرخين بحيث لم يخطروا برأى فيه إلى الآن ، وكل حديث عن هؤلاء المستورين يحتاج إلى أدلة لإثباته . ومن الصعب الحصول على هذه الأدلة ، ولذلك قمنا بإقتال الحديث عن نسب الفاطميين إلى أنه تستطيع الحصول على نصوص يمكن الاعتماد عليها .

(١) المجالس المؤيدية ج ١ ص ٥ (نسخة خطية بمكتبة الخاصة) .

واتخذ القاطميون دليلاً آخر أخذوه من تاريخ الأنبياء الذين سبوا داور ومحمد عليه السلام فذهبوا إلى أن لكل نبي وصياً بكل إليه أمر المؤمنين ، وأن الله تعالى هو الذي يوصي إلى نبيه بإعلان من اختاره الله وصياً لثبته بخليفة له ، فكان وصي آدم هابيل ووصي نوح ابنه سام ، ووصي إبراهيم ابنه إسماعيل ، ولكن وصي موسى أعاه هرون ، ووصي عيسى بن مريم حواريه شمعون الصفا (سمعان بن يونا المعروف بالصفا) ^(١) ، فوجب أن يكون لمحمد وصي ، شأنه في ذلك شأن غيره من الأنبياء السابقين ، وأن الله تعالى اختار علي بن أبي طالب لمرتبة الوصاية ، وبخيل إلى أن القاطمين أخذوا هذا الرأي بما جاء في إنجيل يوحنا في مواضع متعددة أن سميان ابن يونا هو الذي سماه المسيح بطرس أو صفا ، وأمره المسيح أن يرعى بعده خرافه أي جماعة المؤمنين ، فصبح الشيعة هذه العقيدة بالصيغة الإسلامية ، اتخذوا لها لُحمة من القرآن والأحاديث ، على أن الإسماعيلية الذين جعلوا علياً وصياً للنبي جعلوا علياً من ناحية أخرى يشارك النبي في كل صفاته وخصائصه وفضائله إلا في مرتبة النبوة والرسالة اللتين خص بهما النبي وحده ، فكل الآيات القرآنية التي جاءت في النبي كقوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، « وما أنت منذر ولكل قوم هاد » إلى غير ذلك من الآيات هي في عهد وفي علي أيضاً ، بل جعلوها في كل الآية المنصوص عليهم من نسل علي ، ولم يكتف الإسماعيلية بذلك بل ذهبوا في تأويل كثير من آيات القرآن إلى أن الله تعالى يعير فيها إلى علي والأئمة من ذريته ، مثل قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » وقوله : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » وقوله : « هو أولى الأمر منكم » وقوله : « ثم أووتنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » وغير ذلك . فقد أولت جميع هذه الآيات بأن الإشارة فيها إلى علي ابن أبي طالب والأئمة من أهل بيته الذين اصطفاهم الله واختارهم دون غيرهم من البشر . فبعدد على حدهم صنوان متعاهان في كل الصفات إلا في مرتبة النبوة التي أطلقوا عليها اسم (مرتبة الاستبداد) فقد اختص بها محمد عليه السلام ، على حين اختص علي بمرتبة الوصاية والإمامة التي أطلقوا عليها اسم (مرتبة الاستقرار) ^(٢) ؛ ولذلك

(١) انقراوات والقرافات لجعفر بن منصور الميم (ص ١٢ ب) نسخة خطية بمكتبة الخزانة

(٢) راجع ما كتبناه عن هذا الموضوع في كتاب « جوان المريد في الدين داعي الدعوة »

يروون أن النبي قال : لم أزل أنا وأنت يا علي من نور واحد تنقل من الإصلاح
الظاهر إلى الأرحم الزكية ، كلما ضنا صلب ورحم ظهر لنا قدرة وعلم حتى أتينا
إلى الجسد الأفضل والأب الأكل عبد المطلب فأقسم ذلك النور تصفين في جسدائه
وأبي طالب . فقال الله تعالى : كن يا هذا عمدا ويا هذا كن عليا ^(١) ، وهذه العقيدة
التي يحمل من علي شريكا وشيئا للنبي في كل شيء قال الإسماعيلية بصحة الأنبياء
والأوصياء والآمة ، بل لعل القاطمين لم يدينوا بصحة الأنبياء ولم يؤولوا
فحص الأنبياء هذا التأويل الذي نراه في كتبهم ^(٢) إلا لإثبات صحة أئمتهم ،
ولا ينفرد الإسماعيلية بالقول بهذه المصحة ، إنما هو رأى جميع فرق الشيعة ،
وكان موضوع صحة الأنبياء من موضوعات الجدال بين علماء الكلام .

ولعل المشاركة الكبرى التي جعلوها بين محمد وعلي هي عقيدتهم في التأويل
الباطن ، وهو العلم الذي خصوا أنفسهم به ، وسموا من أجله بالباطنية ، وقد
جعلوا عمدا هو صاحب تنزيل القرآن ، وجعلوا عليا صاحب تأويله ، أي أن
القرآن الكريم أنزل على محمد بلفظه ومعناه الظاهر للناس ، أما أسرار الدين
وأسرار التأويل الباطن فقد أنزلت على محمد ولكنه خص بها عليا وأبناءه من
بعده دون غيرهم من البشر ، وأن عليا وأبناءه من الآمة هم الذين يدلون الناس
على هذه الأسرار ، أخذ الإسماعيلية بمسألة آيات القرآن الكريم دليلا على عقيدتهم
في وجوب التأويل كقوله تعالى ، وكذلك يجتنبك وبك وعلك من تأويل
الأحاديث ، وقوله : وكذلك سكنا ليوسف في الأرض وتعلمه من تأويل
الأحاديث ، وقوله : سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا ، إلى غير ذلك
من الآيات القرآنية التي ذهبوا في تفسيرها إلى أن الله تعالى : جعل لديه تأويلا
خاصا يختلف عما يقول به جمهور أهل السنة والجماعة الذين أطلقوا الإسماعيلية عليهم
قب أهل الظاهر أو العامة .

واستعملوا بقول الله تعالى : هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات

(١) المجالس الذهبية في مواضع متفرقة .

(٢) وراجع كتاب أساس التأويل لفاضل النعمان نسخة خطية بمكتبة مدرسة اللغات المصرية
بمبنى مكتب أسرار النفاذ ، وكتاب سرائر النفاذ لجعفر بن منصور المين والمجالس الذهبية .
وكلاهما نسخ خطية مكتبتى الخاصة .

عن أم الكتاب وأخر مقابلات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيقبعون ما تشابه منه ابتداء الفتنة وابتداء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ، على أن الأنبياء والأوصياء والآئمة هم الراسخون في العلم وهم الذين يعلمون تأويله ، ونخب عنازم إلى أن قوله تعالى (والراسخون في العلم) نسق على الله ؛ وقوله (يقولون آمنا به) أخرجه عن جرح الحال ، بمعنى أنهم ليعلمونه ويقولون آمنا به ، إذ لو لم يكن الراسخون في العلم يعلمونه لكان مستحيلا منهم أن يقولوا آمنا به لأن الإيمان معناه التصديق والتصديق بالشيء لا يثبت إلا بعد إحاطة العلم به ولا يجوز تصديق المرء بما لم يعلمه . ثم أنه ليس بخلو من أن يكون الشيء علم بتأويل ما أتى به أو لم يعلم ، فإن كان علم به بطل الوقت بعد لفظ الله ، في الآية الساجدة ، ويجب دخول الشيء في شرط من علمه ؛ وهو أول الراسخين في العلم وأفضلهم وعنه أخذ من أخذ من الراسخين في العلم ، وإن كان الشيء لم يعلم فأرسال الله تعالى إياه بشيء إذا سئل عنه لا يعلمه خارج عن الحكمة والإسالة ^(١) . فالتالي كل يعلم تأويل القرآن ، ومن يقوم مقام الشيء في كل عصر يعلم هذا التأويل أيضاً ، وضربوا مثلاً بقصة موسى مع الرجل الصالح التي وردت في القرآن الكريم بأن الله خص الرجل الصالح بأسرار لم يعرف كتبها نبي تاملق من الأنبياء . وهو موسى ، قصة موسى هذه دليل قديم على أن العامة من المسلمين أحنف وأخضر من التهور بأحباء تأويل القرآن الذي اختص به الراسخ والآئمة . وفي ذلك يقول المؤيد في الدين :

وإن أجراً ظاهر الكلام	في ذلك أسلناه النعاص
ففي اختلافات القرآن كثرة	من كل قول مع كل ذممه
يا قوم سر الملكوت هذا	بمجلس أستاذكم هذا
سر له صاحب صومى الحضرا	قال معي أن تمتطع صبرا
وقال موسى سوف ألقى صابرا	فلم يكن إذ ذاك إلا قهرا
تدبروا القصة هذا يما	من قصها إن لم تكونوا يوما
لعلكم أن تحبوا سمرا	إن أسأتم لنفوس نظرا

من كان ذا عقل وذا عينين يبلغ حفاً مجمع البحرين^(١) وهم أدلة عقلية على وجوب التأويل أخذوها أيضاً من القرآن الكريم كقوله تعالى: «سترجم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم» وفي قوله: «وفي الأرض آيات للمؤمنين» وفي «أنفسكم أفلا تبصرون» فذهبوا إلى أن مثالة الدين تؤخذ من خلقه السموات والأرض وتركيب الأفلاك: وجميع ما يتأمل مما خلقه الله تعالى، فقد ركزت في المخلوقات كل معاني الدين الذي حله القرآن الكريم، فأيات القرآن إذن في حاجة إلى من يخرج كنوز هذه المعاني^(٢)، وبناء على هذه الطريقة التي اتخذوها لأنفسهم لتأويل وهذه القاعدة التي بها يستدلون بما في هذه الطليعة والمخلوقات على الدين جعلوا المخلوقات قسمين: قسم ظاهر للعيان وقسم باطن خفي، وجعلوا الظاهريين على الباطن، وسموا الباطن بمثولا والظاهر مثلاً. ولذلك أستطيع أن أطلق على نظرية التأويل عندهم «نظرية المثل والمثول»^(٣)، وقد أخذت هذا الاسم بما كتبه دعاة الفاطميين، فالنقيد في الدين يقول في مجالسه «خلق الله أمثالا ومثولات جسم الإنسان مثل، ونفسه مثول، والدنيا مثل والآخرة مثول، وأن هذه الأعلام التي خلقها الله تعالى وجعل قوام الحياة بها من الشمس والقمر والنجوم لها ذوات قائمة يحل منها محل المثل، وأن قواها الباطنة التي تؤثر في المصنوعات هي مثول تلك الأمثال»^(٤) وقول صاحب المجالس المستنصرية: «معشر المؤمنين إن الله تعالى ضرب لكم الأمثال جملاً وتفصيلاً، ولم يسع من صغر المثل إذا بين به مثولا، وجعل ظاهر القرآن على باطنه دليلاً»^(٥)، ويقول المؤيد في الدين:

أقصد حتى مثوله دون المثل ذا لبر النحل وهذا كالمل^(٦)

١١١ (القصيدة الأولى) من ديوان المؤيد في الدين داعي الجماعة.

(٢) المجالس ج ٢ ص ٥٢

(٣) راجع نظرية المثل والمثول وأثرهما في شعر مصر الفاطمية — بحث فرى في مؤتمر

مصرينين الحادي والعشرين في باريس يوم ٢٩ يولية سنة ١٩٤٨

(٤) المجالس الزيدية: المجلس الثامن من المائة الثانية

(٥) المجالس المستنصرية ص ٩٨ — ٩٩ (طبع دار الفكر العربي)

(٦) القصيدة الأولى من ديوان المؤيد و الدين داعي الجماعة

وإذا قلنا قاعدة في التأويل عند الإسماعيلية هي تطبيق نظرية المثل والمشول .
 فظاهر القرآن مثل وباطنه مشولات . والظاهر هو هذه المعاني التي يعبرها العامة
 ويتعلق بها علماء أهل السنة . والباطن هو هذه المعاني التي يستخلصها الوصي والأئمة
 من أهل البيت دون سواهم من سائر المسلمين . وعلى الرغم من أن الإسماعيلية أتوا
 بأدلة من القرآن الكريم على التأويل وعلى نظرية المثل والمشول فإن هذه النظرية
 وإن كانت قد صبت بالصيغة الإسلامية فإنها هي نظرية المثل الأفلاطونية
 القديمة ، أدخلوها في عقيدتهم بعد أن غيروا فيها بما يتفق مع تعاليمهم وعقائدهم
 الإسلامية . ويحيل إلى أن فكرة التأويل الباطن على هذا النحو الذي نراه عند
 الإسماعيلية لم يعرف لدى المسلمين قبل عصر الترجمة والحركة العلمية التي ظهرت في
 عصر المأمون العباسي وبعده . وبعد أن ترجمت الكتب الفلسفية اليونانية ،
 فالعروف أن بعض فلاسفة الإسكندرية وعلى الأخص فيلون وتلاميذه حاولوا
 تأويل التوراة تأويلا باطنيا — إن صح هذا التعبير — وأن القديس أوغسطين هو
 أول من حاول تأويل الإنجيل تأويلا باطنيا كذلك . وجاء الإسماعيلية وأخذوا
 فكرة التأويل بما نقل إلى العرب من آثار هؤلاء الفلاسفة . ولكنهم صبغوا تأويلهم
 بالصيغة الإسلامية كما دأبوا في كل ما أخذوه عن العلوم والفلسفة الأجنبية .
 ومع ذلك كله لم يستطع الإسماعيلية ألا يتخولوا جملة عما أخذوه من العلوم والفلسفة
 الأجنبية ، فقد ظهرت في تأويلهم آثار هذه العلوم والفلسفة كظاهر تأثرهم بالعقائد
 والأديان القديمة التي ضرت العالم قبل الإسلام وبعده . ويحيل إلى كذلك أنهم لم
 يتخذوا هذا التأويل الباطن إلا إيمانا منهم في زيادة شرف علي بن أبي طالب
 والأئمة ، وخصهم بميزات يعمدهم بعض البدع من سائر البشر ، فكان الولاية هي المحور
 الذي تدور عليه جميع العقائد الفاطمية . فتأويلاتهم وفلسفتهم في الإبداع والخلق
 وكل عقيدة في النفس والعقل كلها تقبى إلى نتيجة واحدة هي الوصي والأئمة ، ففي
 التأويل الباطن أن وجه الله ، ويد الله ، وجب الله هم الأئمة ، والشمس
 محمد والقمر علي والأئمة ، والآلهة هم الأئمة ، بل ذهب بعض فلاسفة
 الإسكندرية إلى أن الله أبدع الكلمة (اللوجوس) قالوا : إن الكلمة هي
 دكن ، من قوله تعالى : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » ،
 وكلمة دكن ، حرفان كلف ونون : ولكننا في التأويل الباطن مثلاً للحدود

الروحانية المقررة إلى الله ، فالكاف رمز للعقل الأول أو (القلم) وهو أقرب
 الحسود إلى الله وهو الذي ورد فيه الحديث النبوي الذي رواه البخاري :
 « أول ما خلق الله القلم ، فقال له : أقبل فأقبل ، فقال له : أدبر فأدبر ، فقال :
 برزق وجملا ، ما خلقت خلقا هو أعز علي منك ، بك أنيب وبك أعاقب . الخ .
 والعقل الأول الذي ذكر في ظاهر القرآن بالقلم ولأنه أقرب الحدود إلى الله
 تعالى وأسبقهم إلى معرفة الله وتوحيده سمي بالسابق . أما النون فهي رمز
 للنفس الكلية ، وهي التي رمز إليها في القرآن بالروح وحيت بالثاني ، وبناء على
 نظرية المثل والمثول يجب أن يكون في العالم الأرضي عالم جسماني ظاهر يماثل العالم
 الروحاني الباطن . فالإمام هو مثل السابق ، وحجته مثل التالي ، وكل خصائص
 العقل الأول (السابق) جعلت للإمام ، فلا نرى الإسماعيلية يزعمون الله تعالى عن
 كل الصفات والأسماء ، وقالوا : إن أسماء الله الحسنى هي أسماء العقل الأول (السابق)
 وأن الله سبحانه تعالى على أن يتصف بصفة وأنه ليس أيسا وليس لبسا ، إنما كل
 ما جاء في القرآن الكريم من صفات الله فهي صفات العقل الأول (السابق) وإن
 هذه الصفات يوصف بها أيضا مثل العقل الأول في العالم الجسماني وهو الإمام ،
 وعلى ضوء هذه النظرية نستطيع فهم قول ابن هاني الأندلسي في مدح المعز لدين
 الله الفاطمي .

ما شئت لا ماشاءت الأقدار فاحكم فانت الواحد القهار
 فقد فهم القدر ، من هذا البيت وأمثاله من شعر ابن هاني أنه يؤله إمامه ،
 وحكوا بأن الأئمة الفاطميين ادعوا الألوهية بدليل هذا البيت وأمثاله ، ولو كان
 التمداد يعرفون حقيقة العقيدة الفاطمية ما وجدوا في هذا القول تأليفا ولا غلوا
 في العقيدة ، وستحدث عن ذلك كله في باب الشعر .

وإن فالتأويل الباطن عندهم لسبب واحد هو إغراق صفات التجديد والتفخيم
 لأنهم . على أن الإسماعيلية الذين قالوا بالباطن وضروره ، قالوا أيضا بالظاهر معه
 فلا يقبل الظاهر دون الباطن ، ولا ينفع الباطن دون الظاهر ، فإن الظاهر والباطن
 كل واحد والجسد إذا اجتماعا اقتدحت الفوائد وعرفت المقاصد ، (١) ومن هذا الله

تماني بشار دون باطن أو يباطن دون ظاهر فهو بمن يعبده على حرف^(١) والظاهر
عندهم هو هذه العبادة العملية من طهارة وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان
وحج البيت والمجاهدة في سبيل الله، فيجب على المؤمن أن يؤدي هذه الفرائض العملية
الظاهرة كما ورد في كتاب الله وما سنه رسول الله، وفي الوقت نفسه يجب أن يؤمن
بعلم الباطن الذي هو العبادة العملية التي تخص بها الوصي والآية، فالفاطميون إذن
لم يعملوا على طرح الآديان وإبطال العبادة كما وهم الكتاب والمؤرخون الذين
تحدثوا عن الفاطميين، بل كانوا كما قال شاعرهم المؤيد في الدين .

فَاتَّسَا لِأَهْلِ عِلْمٍ وَعَمَلٍ قَهْ دَنَا بِمَا هُوَ وَجْهٌ^(٢)

وشاركوا غيرهم من المسلمين في هذه العبادة الظاهرة، ودعوا إليها دعواتهم إلى
عبادتهم الباطنة، وإذا قرأنا كتب الفقه الإسماعيلي مثل كتاب دعائم الإسلام
لقاضي النعمان بن محمد وكتاب المجالس المستنصرية، الداعي قه الإمام علم الإسلام
وجدنا أن الفقه الإسماعيلي لا يكاد يختلف عن قه أهل السنة وقه مالك على وجه
خاص، مع أن الإسماعيلية لا يأخذون في أحكامهم الشرعية بالראى ولا بالقياس
إنما يأخذون بالأحكام التي يشرعها الإمام، ومع ذلك لم يختلفوا عن مذهب أهل
السنة إلا في بعض مسائل فرعية، لعل أهمها مسألة ابتداء شهر الصوم، فقد كانت هذه
المسألة من أهم المسائل التي أثارت سخط المسلمين عن الفاطميين، ذلك أن الفاطميين
لا يبدءون صوم رمضان برؤية الهلال على ما يذهب إليه جمهور أهل السنة، فقد
وجد الفاطميون أن الهلال إذا غم في بلد من البلاد بسبب سحب أو غيره فقد يظهر في
بلد آخر قريب، فلا يصوم أهل البلد الأول على حين يصوم أهل البلد الآخر، وكثيرا
ما يحدث اضطراب في بدء الصيام في البلد الواحد، فيقع ما يسمى بيوم الفلك، وهو
ما نشاهد كل عام إلى اليوم. ومن ثم لجأ الفاطميون إلى الفلك والحساب فعملوا
قروما قريبا يحسبون بمقتضاء سير القمر ويقدرّون منازله حتى يعرفوا أن هلال
ومضان قد أهل حقا. لجعلوا الشهور القمرية شهرا تاما ولتتألى له ناقصا دائما
وبذلك أصبح شعبان ناقصا دائما ومضان تاما دائما، ومن هذا التقويم الدقيق

(١) المجالس المستنصرية أيضا ص ٢٩ .

(٢) القصيدة الأولى من ديوان المؤيد في الدين داعي المصطفى .

عروا متى بدأ رمضان ومتى ينتهى دون الرجوع إلى رؤية الهلال رؤيه نظري بل جعلوا قول النبي الكريم صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، أنها رؤية استبصار لا رؤية إبصار . وهذا التقويم الفاطمي جعلهم يصومون قبل جمهور أهل السنة يوم أو يومين ويسعدون عيد الفطر قبل جمهور أهل السنة يوم أو يومين يومنا هذا أساء المؤرخون والعلماء الذين تحدثوا عن الفاطميين فهم حقيقة دعوتهم ورموزهم بالرجوع عن الجماعة وعن الإسلام .

ومن الخلافات بين الفاطميين وجمهور أهل السنة بل بين الشيعة عامة وبين السنيين مسألة ميراث البنت ، فالشيعة يورثون البنت كل ما تركه الأب إذا لم يترك ولدا ذكرا . ومن الخلافات أيضا مسألة مسح الرجلين في الوضوء ، فقد ذهب الشيعة إلى وجوب المسح ، على حين قال أهل السنة بوجوب غسل الرجلين ، ومن أم الخلافات التي بين الشيعة الاثني عشرية والإسماعيلية أن الفرقة الأولى تقول بأن إمامهم الثاني عسرى يرزق منذ اختفى في السرداب ، وأنه سيظهر يوما في الدنيا عدلا كما ملكت جورا ، على حين ينصب الإسماعيلية إلى أن الإمام من البشر يجرى عليه يجرى على البشر من حياة وموت ، فمن السخف أن يقال : إن إماما يعيش طول هذه المدة . ومن الخلاف أيضا قول الاثني عشرية بتحليل زواج المتعة على حين يحرمه الإسماعيلية .

ولم ينصب الفاطميون بالقول بالرأى كالمعتزلة ولا بالقياس كأهل السنة بل رخصوا الأخذ بالرأى والقياس ، وقالوا بالرجوع إلى الإمام المعصوم وإلى علوم أهل البيت التي خصهم بها الله تعالى دون غيرهم من سائر البشر ، فلم الباطن الذي خص به الآئمة نظام إلى القول بأن إجاز القرآن من ناحية المعنى أقوى من إجازة من ناحية اللفظ ، فالقرآن مسجور بلفظه ومعناه ، ولكن إجازة يظهر بما يحتويه من معاني وفي ذلك يقول المؤيد :

إن كالم إجاز القرآن لفظا ولم يدل معناه منطحا

صادق معنوه محولا من أجل أن أدكرتم تأويلا

وفكرة عصمة الإمام دعوتهم كادعت الشيعة عامة إلى القول بعصمة الأنبياء . أما ما ورد في القرآن الكريم عن معاصي الأنبياء فقد ذهبوا في تأويلها

لئلا أوجه لهم بغيرها المفسرون ، ولا أدري من أين أتوا بها رواج ما كتبناه عن تأويل الأنبياء في كتاب ديوان المريد في الدين .
وهكذا ترى الفاطميين لا يكادون يختلفون في عبادتهم العملية الظاهرة عن غيرهم من المسلمين ، فهم يحرمون ما حرمه الله تعالى ، ويتجنبون المآثم والمعاصي ، ويعلمون ما أحله الله تعالى للمسلمين ، ولكن التأويل الباطني للإجماعية هو الذي جعلهم يوسعون الحق بينهم وبين غيرهم من المسلمين ، فقد أرادوا بتأويلهم الباطني إسباغ الفضائل على الأئمة ليجعلوا يناسبون العقل الأول ، وصفات الله وأسماء الحسن المذكورة في القرآن الكريم لجعلوها للعقل الأول ، وتبعاً لذلك جعلوها للأئمة ، أما الله سبحانه وتعالى فقد زعموه عن كل صفة ووجوده التوحيد كله .

نوحسده الله ولا نشبه قد انتصف هنا بذلك الشبه (١)
فالإمام مثل سائر البشر مكون من جسم ونفس ، وسد موته يتحلل كل قسم إلى ما يناسبه ، فالجسم الترابي يعود إلى التراب ، والنفس الشريفة تعود إلى ما يجانسها ويناسبها ، فتصبح نفس الإمام عقلاً من العقول المدبرة للعالم ، فلا تتناسخ ولا تتلاشى ، لأن الفاطميين لا يدينون بالتناسخ ، وهي المنقصة التي رماهم بها خصومهم ، ولا يقولون بالتلاشي بل ناقضاً أصحاب هذه العقائد وسفوها آراءهم ، كما كفروا بالغلاة الذين ألوهوا علياً والأئمة من أبنائه ، قال المريد في الدين داعي الهدى :
فكيف شرع الأنبياء ندفع وما لنا إلا النبي مرجع بنوده في الدرجات نرتقى وبالكرام الصاكين نلتقى يلرب قالمنا جاحدى الشرائع وأدبهم بألجس الفجائع والتمن إلى من يرى الإباحة بلغة فاحشة محتاجة والتمن إلى غالياً وقالوا ولا تندر في الأرض منهم باقيا يلرب لنا منهم براء هم واليهود عندنا سواء فأخروم وأخر من دمانا برية ولله المواقاة (٢)
ويقول في الرد على القائلين بالتلاشي والتناسخ .

(١) من الصيغة الأولى من ديوان المريد داعي الهدى

أيا المعنى الثلاثى حقا ذا الذى تدعى عليك وكيل
أرى هذه الصنائع طرأ عبا ، ما لصانع حصول
حركت الأجرام قل لى لماذا ؟ ولماذا طلوعها والاقول ؟
ألم فى مجالها الفعل أم لا ؟ فغير إذا يجوز تحول
إن قل ذلك فعلها باختيار أنكرت منك ما ادعت القول
إن فبادنا من الماء والنار على ما علا لنا التكيل
ولئن قلت : ذلك غير اختيار قلت : كل مدبر محول
فإذا كان هكذا ثبت الحامل الفاعل اللطيف الجليل
فإذا كان فاعل متقن الفعل وما دونه له مفعول
فالتلاشى لفعله مستحيل حمل مما به عليه تحيل
والذى قال إنه النسخ والنسخ وماذا بغير دنيا حول
ضوء عن جوهر النفوس البسيطا ت ومن حيث بدوها مشول
فلن كان ثبت الأصل منها فكذا نحوه يكون القول
ولئن كان نافيا قيل مهلا فلهنى المشاهدات أصول
شواب يكون بالأكل والشرب فذلك العذاب والتكيل (١)

ومع هذا كله نرى المؤرخين والكتاب يرمون الفاطميين بالإبادة المطلقة والقول بالتناسخ والحلول ، إلى غير ذلك من الاتهامات التى أظهر البحث الحديث أن الفاطميين براء منها ، على أنى لا ألوم هؤلاء الكتاب الذين أظهروا العقيدة الفاطمية على أنها مباينة للإسلام وتوحيد الله بقدماء ألوم بعض الفلاة من الدعاة الذين غيروا المذهب الفاطمى وخرجوا به عن منهجه الصحيح ، حتى اضطر الأئمة إلى إعلان عصيان هؤلاء الدعاة وطردهم من الدعوة وتحذير الناس من ضلالهم تذكر من هؤلاء الدعاة على بن الفضل الذى كان من أسبق الدعاة فى أواخر دور السر الأول فى إظهار الدعوة فى اليمن ولكنه ضل طريق رشده ، قبرا منه الإمام وطلب من الداعى الحسين بن حوشب المعروف بمختوم اليمن أن يجاربه

(١) المقصود الخامسة من ديوان المؤيد داعى الدعوة .

ويحور أتباعه^(١) ونذكر أحد بن الكيال الذي كان داعياً للإسماعيلية فغير المنصب ودعا لنفسه^(٢) والقرامطة الذين استباحوا الحرمات ونادوا بالإبادة فاضطر عبيد الله المهدي قبل ظهوره بالمغرب إلى عزلم من الدعوة غاديوه وقتلوا بعض أهل البيت وسلبوا متاعهم ، فاضطر المهدي إلى الفرار منهم إلى الرملة فصر إلى أن رحل إلى شمال أفريقيا حيث أقام دولته^(٣) واستمر العداء بين القرامطة والفاطميين ردماً طويلاً من الزمان ، وقامت الحروب بين الفريقين على نحو ما ذكر في كتب التاريخ ؛ وكذلك قول من فرقة الدرزية التي ظهرت في صد الحاكم بأمر الله ، فأشال هؤلاء الدعاة كانوا أسلحة ماضية ضد المنصب ، حتى قال القاضي النعمان « ذكر المزلدين الله رجلاً أصابه بلاء عظيم في نفسه ووصف ما صارت حاله إليه ، وكان هذا الرجل قد ألحد في أولياء الله وغلا في دينه ، وقد كان قد شئتاً منه وناله بسبب ذلك من سخط الأئمة ما نعوذ بالله منه . فقال المزلدين الله لما ذكر ما صار حال هذا الرجل إليه : ما ألحد أحد فينا ولا أراد إدخال النقص على شيء من أمرنا إلا ابتلاه الله في عاجل الدنيا ببلاء يكون فشلاً ، ولعذاب الآخرة أغزى وأشد وأبقى .

ثم ذكر من تجاوز هذا الرجل وتعدى وما أدخل على الدين من الشبهة على ضعفاء المؤمنين ما يطول ذكره . قال : وتعرضد المنصور بآفة أنه يقول : عندنا من حكمة الله وعلمه ما نزيل به الجبال ولنا من أولياتنا في الدين من نزول السهوات والأرض ولا يحول ولا يزول . فأعظم ذلك المنصور بآفة من قوله وأحضر جماعة من الأولياء فذكر ذلك لهم عنه ولعنه . ثم قال المزلدين الله : أعظم آيات موسى قلق البحر ، فهذا الضيق ادعى فوق ذلك لنفسه ، وهو ينسب إلينا ، ويدعى علينا ومنبئنا وقوتنا . نحن نبرأ إلى الله من دعواه وقوله ، وما ينسب إلينا نفسه ، أن ينسب إلينا وإلى من يتصل بنا . ثم قال : سمعت القائم بأمر الله يقول : إنما أئمة الدعاة إلى النار الذين اتسبوا إلينا بما ينحطونا إياه أنا نعلم الضيب وما نحقق

(١) راجع كتاب افتتاح الدعوة للقاضي النعمان (نسخة خطية بمكتبة الحامدة) وكتاب كشف أسرار الباطنية لمحمد بن مالك البياضي ص ٢١ وما جمعا .

(٢) راجع الشهرستاني .

(٣) راجع افتتاح الدعوة واستنار الإمام وسيرة جعفر الحادج .

الصدور ، وأشياء ذلك مما أقرره علينا وسبوه إلينا أن يجعلوه عنة لنفائهم . .
 (١) وقال حميد الدين أحمد بن عبد الله الكرمانى : إن أعظم الفرق خللاً فرقة
 الغلاة ، ضلت وأضلت غيرها ، فأنسلخت عن جملة أهل الدين والديانة ، (٢)
 ويقول المؤيد فى الدين « استمينوا بقله من قوم يقولون بأفواههم أنهم شيعة ،
 وهم من طلائع الكفر والإلحاد شرطلية ، يستوطنون مركب الإلحاد ، ويميلون
 ميل الزاغة ، ويحتجون بكون الصلاة إشارة إلى حد من حدود الدين ، فإذا صرف
 سقطت الصلاة ، وأن الزكاة إشارة إلى مثله فإذا عرفت بطلت الزكاة ، وأن الصوم
 هو السكوت عن إلقاء سرهم إلى غير أهله ، فإذا هم سكتوا لم تبق بهم حاجة
 إلى الصوم واحتال كده ، وأن النهى عن شرب الخمر هو عن موالاة بعض
 الأصدقاء ، فإذا هم كفوا كل شربها خللاً سهل القياد ، ولا يزالون كذلك حتى
 يحلوا من تكاليف الشريعة كل عقد ، ويردوا من مهابى الردى فى تحليل المحرمات
 شروء ، وهؤلاء أضرب بالدين وبلؤمنين عن شهر سيفه وشرع رعيه إلى أنهم
 بالخضاء ، ولم يزل من معنى من أمير المؤمنين على والأئمة من ذريته إلى إمام
 الزمان براء إلى الله تعالى من هذه سيئه سراً وجهراً ينشرون فى صحف الخزى على
 من دار دينهم . الخ (٣) فهؤلاء الدعاة الذين نسبوا أنفسهم إلى الدعوة
 الإسماعيلية كانوا سيئاً فى أن ينسبوا المؤرخون القدماء ومن تبعهم من المحدثين إلى
 فساد عقيدة الفاطميين ، ومن يتعمق فى دراسة العقيدة الفاطمية كما جاءت فى كتب
 دعائهم وعلانياتهم — وهى الكتب التى لا يقربها إلا من بلغ درجة رفيعة فى الدعوة —
 يجد الفاطميين براء من كثير مما نسب إليهم ، ولولا هذا التأويل الباطنى الذى
 جعلوه قولهم عقيدتهم لتساووا مع غيرهم من المسلمين فى كل شيء ولما وجد خصومهم
 مطلقاً فى عقيدتهم .

والذى ألاحظه على عقائد الفاطميين أنها مزيج من مجموعة المذاهب والديانات
 القديمة التى عرفت وانتشرت فى الأقطار الإسلامية منذ زمن بعيد بتأثير امتزاج

(١) المجالس والنباتات ورقة ٨٦ م نسخة خلية بمكتبة الخاصة .

(٢) كتاب تنبيه الهادى والسهدى نسخة خلية بمكتبة .

(٣) المجالس للزهدية .

المسلمين بغيرهم من الشعوب المختلفة . واستطاع الفاطميون أن يخضعوا هذه المذاهب والآراء القديمة للآراء الإسلامية ويصنعوها بالصيغة الإسلامية ، فالباحث يستطيع أن يتعقب أكثر عقائد الفاطميين ويردها إلى أصولها القديمة ، فثلاً قال قداماء المصريين بأن روح المفوك تنتقل إلى العالم العلوي وتصبح من الآلهة ، فقال الفاطميون : لأن روح الإمام تصبح ملكاً من الملائكة وعقلاً من العقول الروحية المدبرة لعالم الكون والفساد ، وزعم بعض فلاسفة اليونان إلى أن الإنسان لا يستطيع أن يرى شيئاً إلا بمساعدة ضوء الشمس أو القمر أو الشعل ، فقال الفاطميون : إن العقل البشري لا يستطيع الوصول إلى معرفة شيء وإدراكه إلا بمساعدة خارجية تأتيه من الأئمة ، ومن أقوال فلاسفة اليونان أيضاً : إن النفس كانت صفحة بيضاء فإذا حلت في جسم تقش عليها ما اكتسبه الإنسان إن خيراً غير وإن شراً فشر ، فقال الفاطميون بهذه المقالة . وأخذ الفاطميون عن العبرانيين والبابلية القديمة عقيدة الأدوار السبعة ، وعن الأفلاطونية الحديثة مذهب الإبداع وظهور النفس الكلية عن العقل الكلي وخلق العالم بواسطة الكلمة ؛ مع خلاف أن الأفلاطونية الحديثة جعلت الكلمة هي العقل الكلي على حين قال الإسماعيلية بأن الكلمة هي السابق والتالي أي القلم والوح وأنهما كلمة كن من قوله تعالى «لما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون» ، كما أخذ الإسماعيلية عن الأفلاطونية الحديثة الفيوضات ومراتبها بأن جعلها الإسماعيلية الحدود الروحية والجسمانية ، وأخذوا عن أفلاطون نظرية المثل ، وعن الزرادشتية القديمة مذهب التخمين ، وعن الفيثاغوريين القدماء منهم في التوحيد وجعل الأعداد أصولاً لعقائدهم ، بل كان نظام دعوتهم هو التنظيم الفيثاغورية فيها ، وهكذا يستطيع الباحث أن يرد كثيراً من الآراء والعقائد الفاطمية إلى أصولها الأولى على الرغم من صيغ هذه الآراء والعقائد بالصيغة الإسلامية ، حتى ليتروم الباحث في كتبهم أن كل عقائدهم إسلامية لم يطرأ عليها أي علم أو رأي دخيل .

وخلصة القول في العقائد الفاطمية أن الولاية هي محور هذه العقائد ، وأنه فلسفتهم كلها تدور حول الإمام وتجهيده أكثر من أي شيء آخر ، وهم يعتقدون بكل ما يعتقد به غيرهم من المسلمين من موت وحياة وبعث ونشر ونواب وعقاب ،

ويقومون بفرائض الدين، ويحرمون ما حرم الله ولا يقولون بالتعطيل أو الإباحة ، ولم يمتنعوا التناسخ أو الحلول أو التلاشي ، غير أنهم قالوا بأدوار الأنبياء ، فكل نبي دوره ، ويأتي النبي الذي بعده يفسخ شرع النبي قبله ، فلما جاء دور محمد وهو خاتم الأنبياء جمع الله كل أدوار الأنبياء قبله ، فمحمد هو آدم وهو نوح وهو إبراهيم وهو موسى وهو عيسى ، وأن ما حدث في أدوار هؤلاء الأنبياء يحدث مثله في دور محمد ، وما حدث لأوصياء الأنبياء يحدث لموصي محمد والآمة بعده وأولوا ذلك كله تأويلا يتفق مع عقيدتهم هذه ، ونراه واضحاً في أشعار شعرائهم ورسائل كتابهم على النحو الذي نراه في باب الشعر من هذا الكتاب .

الفصل الثاني

مراتب الدعوة الفاطمية ومراكزها

رتب الفاطميون لدعوتهم نظاماً دقيقاً محكماً لا أجد له مثيلاً في تاريخ الدول والدعوات حتى في عصرنا هذا الذي عرف فيه للدعاية قدرها ومكانتها ، ولعل الفاطميين هم أول من أقاموا للدعاية مناصب رسمية في دولتهم ، ومن الحق علينا أن نذكر أنه كان للعباسيين تقباء يدعون لهم قبل أن يستولوا على الحكم ، ولكن هؤلاء التقباء لم يظهر لهم شأن بعد أن تم الأمر للعباسيين ، وكان للمعتزلة دعاة يدعون لأرائهم في الأقطار الإسلامية ، ولكن المعتزلة لم يكن لهم كيان سياسي ولم تكن لهم دولة لها حكومتها . أما الفاطميون فكان لهم نظم لدعوتهم قبل ظهور دولتهم على مسرح السياسة وبعد ظهورها ، بل لا تزال هذه النظم قائمة إلى اليوم بين من ورث دعوتهم . وهم المعروفون بالهرة والمعروفون بالإسماعيلية الأغانية .

وكما أنهم في تأويلهم الديني يطبقون نظرية المثال والممثل التي تحدثنا عنها في الفصل السابق ، كذلك نراه قد طبقوا هذه النظرية أيضاً على نظم الدعوة أي أنهم أخذوا هذه النظم من المشاهدات المحسوسة أي من نظام دورة الفلك وتقسيم السنة إلى شهور وأيام وساعات ، فالسنة اثنا عشر شهراً أو الشهر ثلاثون يوماً واليوم أربع وعشرون ساعة منها اثنا عشرة بالنهار واثنا عشرة بالليل ، فكذلك قسمت مراتب الدعوة . فالسنة التي تجمع الصهور والأيام مثل على النبي في عصره أو الإمام الذي يجمع جميع مراتب الدعوة هو الاثنا عشر شهراً مثل على رؤساء الدعوة في الجزائر^(١) ويسمون جميع الجزائر ، واكمل من هؤلاء الحجاج ثلاثون داعياً أو

(١) قسم الفاطميون العالم إلى اثني عشر جزءاً ، سمو كل جزء بخبره أي إقليم . وحلوت أن أعرف هذه الجزائر دون قائمة ، وينب الأستاذ ليطايف (هامش ص ٢٠ من كتاب Rise of Fatimite) إلى أن هذه الجزائر هي : العرب . الترك : البربر . الزنج . الحبشة . خزر . الصين . فارس . الروم . الهند . السند . الصقالبة . ولكن وجدت أن جيد الدين =

قياً ، ولكل داع من هؤلاء العدة أربعة وعشرون داعياً ما فوقاً أو مكرراً .
ولكل مرتبة من هذه المراتب محل خاص به ، فالإمام يختار من شئت أقوام
لساناً وأصدقهم جناناً وأختمهم بالحجة وأغزرم علماً ، فيجعله في مرتبة داعي الدعوة
أو باب الأبواب ، وهذه المرتبة أعلى مراتب الدعوة ، لأنها تلي مرتبة الإمام
مباشرة من الناحية للذهبية فهو المالك لجماعة الجميع والدعاة ، وإليه الإشراف
على الدعوة في جميع الأقطار . وقد وصف أحد علماء المنصب هذه المرتبة بقوله
« وحد الباب هو من الحدود الصفوة والباب : فهو أفضل الحدود ، وهو حد
العصمة ، ولا يمتد إلى ذلك إلى الأحاد والأفراد ^(١) » ، وقال آخر : « هو باب
صاحب الزمان الذي يؤتى منه إليه ، وحجته على الخلق ، وحامل طه ، وصاحب
دعوته » ^(٢) . فنسبة الحجة إلى الإمام كنسبة الرمي إلى الناطق ، واللجنة هو صاحب
التأويل في عصر الإمام فهو الذي يقعد بمجالس الحكمة ، ويتولى على المستجيبين علوم
أهل البيت أى علم الباطن .

ولكل إقليم أو جزيرة من الجزائر التي قسموا إليها العالم حجة ، هو كبير دعاة
الإقليم والمشرق على الدعوة فيه ، وهو الذي ينبع عن باب الأبواب في عقد
مجالس الحكمة وتلاوة المجالس ، وهذا الحجة هل صلة وثيقة بباب الأبواب الذي
اختاره الإمام ، ولكن ندرك مكانة حجة الجزيرة هذا في نفوس أتباعه أهل
ما كتبه أحدم وهو المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي في سيرته وهو يحدث أن وزير
شيراز : « معلوم ما بين وبين الدليم من الأحوال المبهدة ، والأسباب المؤكدة ،
وأن أحدم إذا اختصم مع أهله ليلا فإنه يياكرني شاكياً إلى ، ومورداً جملة أمره
وتفصيله على » ^(٣) . فكانت حجة الجزيرة في جزيرته لا تقل عن مكانة الوالي أو
القاضي ؛ ولكل حجة جزيرة ثلاثون داعياً قيباً يقومون بهداية الناس وبث

== الكرمانى كان يلقب بحجة العراقيين . ولم أجد العراقيين بين الجزائر التي ذكرها الأستاذ
إبراهيم . وكلية جزيرة مأخوذة من الأصل (جزر) بمعنى قسم .

(١) رسالة البيان لأوجب من معرفة اتصاله في نصف رجب (مخطوط رقم ٣٥٧٤٠ بمدرسة

الفتاة الشرقية بطنس)

(٢) حاشي جلع الحقائق ج ٢ ص ١٥٣ (مخطوط بمكتبة الخاصة)

(٣) البيرة المؤيدية من مخطوطات دار الكتابية المصرية .

الدعوة في نفوس المستجيبين ، وم الذي يفتحون الذين دخلوا في الدعوة بالعلم بعد أن يأخذوا عليهم العهد والميثاق ، وم الذين يجمعون التجوى منهم ويكون أمرهم لحجة الجزيرة . ولكل قيب من هؤلاء التقباء أربعة وعشرون داعياً مأذوناً مكاسراً ، وهو الداعي الذي يشكك المسلمين في عقائدهم المنهية ويوقع الوهم في نفوس المتدينين أنهم على ضلال ، ولا يزال بهم حتى يطلبوا إليه أن يذهبهم على الصواب المبين ، ولكنه يحاورهم ويداورهم حتى إذا وثق من اقتناعهم بأنهم على ضلال أحاطهم على الداعي أو القيب الذي يبدأ في مفاتحتهم بأسرار الدين شيئاً فشيئاً بعد أن يأخذ عليهم العهد والمواثيق ، وهكذا يصبح المستجيب أو الطالب في زمرة الدعوة ، ومن ذلك يتبين أن الداعي المأذون هو الذي يكاسر الناس بأن يعلمهم بأسسة لا يستطيعون الإجابة عنها ، ولذلك يشترط في من يتولى هذه المرتبة أن يكون على علم وافر بمذاهب الفرق الإسلامية جميعها ، وموضع الضعف في كل مذهب من المذاهب ، وأن يكون متمكناً من أصول مذهبه ، وأن يكون لسنا مجادلاً ، وقد حدد الفاطميون الصفات التي يجب أن تتوافر في الداعي ، فلخصها في ستة العلم والثقافة وشدة التقوى والورع والعمل بأحكام الشريعة ، وأن يكون حسن السياسة مع من يتصل بهم ولا سيما أتباعه ، وهذه المرتبة هي أقل مراتب الدعوة فبالك بالشروط التي يجب أن تتوافر في مراتب الحدود التي هي أعلى إنشاء من مرتبة المكاسر

وبعدتنا الداعي أحمد حيد الدين الكرماني في كتابه راحة العقل عن الحدود
المجانية الذين إليهم أمر الدعوة ورتبهم بالترتيب الآتي :

- ١ - التاطق وله رتبة التنزيل
- ٢ - الأساس وله رتبة التأويل
- ٣ - الإمام وله رتبة الأمر
- ٤ - الباب وله رتبة فصل الخطاب
- ٥ - الحجة وله رتبة الحكم فيما كان حتماً أو باطلاً
- ٦ - داعي البلاغ وله رتبة الاحتجاج وتعرف للمعاد

- ٧ - الداعي المطلق وله رتبة تعريف الحدود العلوية والعبادة الباطنية
- ٨ - الداعي المحدود وله رتبة تعريف الحدود السفلية والعبادة الظاهرة
- ٩ - المأذون المطلق وله رتبة أخذ العهد والميثاق
- ١٠ - المأذون المحدود الذي هو المكاسر وله رتبة جنب الأقبس المستحبة^(١).

هكذا ذهب الكرماني في ترتيب الحدود الجسمانية ولكننا نقابل عن الطريقة التي رتبوا بها هذه الحدود بعد وفاة الناطق والاساس ولا سيما وقد ذكر الفاطميون في كتب الدعوة أن الإمام يقوم مقام الناطق بعد وفاته، ثم نقابل مرة أخرى عن مرتبة الإمام في عهد الناطق إذ المعروف أن الناطق له جميع المراتب وأن الإمامة كانت له، فما معنى وجود الإمام مع وجود الناطق؟

وضع هذا النظام الدعوة بحيث لا يتخلو بلد من دعائهم. وفي ذلك قال الممر لدين الله الفاطمي: «إن أكثر الناس يجهلون أمرنا، ولا يظنون أننا لا نفني إلا بمن شاهدناه وكان بحضورنا، ولو كان ذلك لكننا قد ضيعنا من بعدنا، وقد أوجب الله على جميع خلقه ولايتنا ومعرفتنا واتباع أمرنا والمهجرة والسعي إلينا من قرب ومن بعد، ولكننا لراقة بهم ولما نرجوه ونغيبه من هدايتهم قد نصبتا بكل جزيرة لهم من يهديهم إلينا ويدلهم علينا»^(٢).

وعلى الرغم من أن الدعوة كانت سرية قبل العصر الفاطمي وكان الأئمة ودعائهم يتخلون السرّية على أنفسهم خوفاً من بطش العباسيين فقد استطاع الباحثون المحدوثون بفضل الكشف عن بعض مخطوطات الفاطميين أن يثروا على أسماء بعض الدعاة الذين كانوا في دور السرّ الأول، نذكر من هؤلاء الدعاة الحسين ابن حوشب بن زاذان الملقب بمنصور البين وهو الذي أوفده الإمام الثالث من أئمة دور السرّ - الحسين بن أحمد بن عبد الله - لدعوة بالين، وهو الذي أوفد عليه أبا عبد الله الشيعي داعية إلى المغرب^(٣) ومنهم الداعي فيروز وكان داعي

(١) الممرم السامعي من السور الرابع من كتاب راحة القل (مطبوعات الجمعية الإسلامية بلندن) .

(٢) المجالس والسيرات لقاضي النعمان ورقة ١٠٥ B مخطوط .

(٣) افتتاح الدعوة لقاضي النعمان نسخة خطية .

الدعاة في زمن المهدي قبل ظهوره بالمغرب ، وكان من أجل الناس عند الإمام ومن أصطلمهم منزلة والدعاة كلهم أولاده ومن تحت يده ، وهو باب الأيواب إلى الآخرة^(١) ، ومنهم أبو جعفر الجزري وكان له أيضاً محل جليل عند المهدي لأنه كان من كبار الدعاة . وكله المهدي بالحريم عندما فر من سلية^(٢) ، وتوفي هذا الداعي بقلعة بعد أن قتلها المهدي . وكان الداعي بمصر في وقت فرار المهدي إلى المغرب وجلا يعرف بأبي علي الداعي ، وكان رأس الدعاة بمصر وأبو علي هذا هو الذي ذكره جعفر بن منصور اثنين في كتابه « الفترات والقرانات » ملقباً بالشيخ الأجل المفيد وهو أحد تلاميذ فيروز وزوج ابنته^(٣) وأنجب ابنه محمداً أبا الحسين بن أبي علي الداعي الذي بلغ مع الآئمة المهدي بالله والقائم بأمر الله والمنصور بالله والمز لدين الله المحلل للجليل العظيم وكان داعي الدعاة^(٤) ، وجاء في كتاب استتار الإمام أن عدداً من الدعاة اجتمعوا للبحث عن الإمام المستور ، وهم أبو غفير وأبو سلامة وأبو الحسن بن الترمذي وحميد الحشمي وأحمد بن الموصل وأبو محمد الكوفي^(٥) وهؤلاء جميعاً لا تعرف عنهم شيئاً . أما في دور الظهور — الذي يبدأ بظهور المهدي بالمغرب إلى اقراض الدولة الفاطمية — فقد وصلت إلينا أسماء عدد كبير من الدعاة كما وصلت إلينا بعض كتبهم^(٦) .

قلنا : إن من أم أمثال داعي الدعاة ، عقد مجالس الحكمة التأويلية لقراءة علوم أهل البيت على جمهور المؤمنين ، فاتفقت مراكز لإلقاء هذه المجالس التأويلية ، ولعل أهم هذه المراكز في مصر هي :

(١) المساجد (٢) القصر (٣) دار العلم .

١ — المساجد : كانت المساجد تقوم مقام المدارس والجامعات في أيامنا

(١) سيرة جعفر الحامدي نشرت بمجلة كلية الآداب ، الجزء الثاني من المجلد الرابع ، عدد ديسمبر سنة ١٩٣٦ . (٢) المصدر السابق . (٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق ص ١١٤ .

(٥) استتار الإمام ، نشر بمجلة كلية الآداب بالجزء الثاني من المجلد الرابع عدد ديسمبر سنة ١٩٣٦ ص ٩٣ .

(٦) راجع بقعة كتاب المجالس المختصرة .

الحديث « قد كان الناس يتحلقون في المساجد حول العلماء يستمعون إلى ما يلقيه هؤلاء عليهم من علوم وآداب على النحو الذي نراه إلى الآن في بعض المساجد في مصر ، فالمساجد على هذا النحو لم تكن مكانا لإقامة الشعائر الدينية لحسب بل كانت دور علم أيضا . وعرف الفاطميون هذه الحقيقة فلم يتوانوا في اتخاذ المساجد مجالا لنشر دعوتهم الدينية وبث عقائدهم المذهبية ، ولعل هذا هو السبب الذي من أجله أكثروا من بناء المساجد وجعلها تتناسب مع عظم ملكهم أولا وما أرادوه من اتخاذها وسيلة من وسائل نشر دعوتهم ثانيا ، لذلك نرى القائد جوهر الصقلي عندما وضع أساس مدينة القاهرة لم ينس أن يبنى مسجده العتيق — الجامع الأزهر أنشأه بأمر مولاة الإمام المعز لدين الله ، وشرع في بنائه في يوم السبت لست بقين من جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وثلاثمائة ^(١) وتم بناؤه لتسع خلون من رمضان سنة إحدى وستين وثلاثمائة ، ثم جدد فيه العزيز بالله ، والحاكم بأمر الله الذي وقب عليه رباعا بمصر ، ثم جدد المستنصر بالله والحافظ لدين الله الذي أنشأ فيه مقصورة بجوار الباب الغربي ، وهكذا كان هذا المسجد في العصر الفاطمي محل رعاية الأمم وعنايتهم ، فلم يقصروا في تجديده والزبادة فيه ، حتى قيل : إنه كان يصد في عرابه منقطة فضة قلم صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٩ هـ فكان وزنها خمسة آلاف درهم سوى قتاديل الفضة وتورين من الفضة ، ووقفوا المؤذنين وخدمهم وسائل نظافته وإنارته وفرشه ماهر مذكور في كتب التاريخ ، والذي همنا الآن هو أن الفاطميين كانوا يشجعون العلماء والفقهاء لتحليق في هذا المسجد السيوف واعتزلوا منه جامعة طيبة ، فقد بحث أقدم جامعة عرفها التاريخ ، ففي هذا المسجد اتخذت الدعوة الفاطمية مكانا لها بين أماكن أخرى ، ففيه عقد أول اجتماع بمصر للاحتفال بعيد النذير — وفي ذلك يروي القريري عن المسيحي أنه في يوم التقدير ثمانية عشر من ذي الحجة سنة ٣٦٢ هـ اجتمع الناس بجامع القاهرة والقراء الفقهاء والمفسدون فكان جمعا عظيما أتوا إلى الظاهر ثم خرجوا إلى القصر فخرجت إليهم الجائزة ، وكان هذا أول ما عمل بمصر ^(٢) ، وبالجامع الأزهر كان داعي الدعوة يقعد مجلسا فضاء يلقى عليه شيئا من علوم أهل البيت ^(٣) وفيه جلس القاضي عبد العزيز بن محمد بن التهان

(١) خط القريري ج ٤ ص ٤٩ (طبع طبعة النيل)

(٢) القريري المجلد ٢ ص ٢٢٢ . (٣) خط القريري ج ٢ ص ٢٢٦ .

ورأيت في قراءة كتاب جده ، اختلاف أصول المذاهب ،^(١) ويذهب القرزى إلى أن أول ما عرف من إقامة قدس من قبل السلطان بمعلوم جار لطائفه من الناس بديار مصر في خلافة العزيز بالله زار ، وعمل ذلك بالجامع الأزهر^(٢) ، ويقول القفشندي : إن الوزير أبو الفرج يعقوب بن كلس سأل العزيز بالله في حله رزق جماعة من العلماء ، كانوا بمسجد القاهرة ، وأطلق لكل منهم كفايته من الرزق ، وبني لهم داراً بجانب الجامع الأزهر ، فإذا كان يوم الجمعة حلقوا بالجامع بعد الصلاة وتكلموا في الفقه ، وأبو يعقوب غاضى الخندق رئيس الحلقة والملقى عليهم إلى وقت العصر ، وكانوا سبعة وثلاثين قراء ،^(٣) وجاء في غاية النسخة الخطية من رسالة مباسم البشارات : « تمت رسالة مباسم البشارات بالإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين عليه السلام وصلواته وبركاته ونحياته على رسوله وخيرته من خلقه محمد وآله الأئمة الطاهرين ، وهي الرسالة التي كتبها علي بن حسين بن أحمد الأسباني المؤذن بالجامع الأزهر عن الداعي أحمد بن عبد الله بن محمد الكرمانى مؤلفها قس الله روحه ، كسبت من نسخته وقرئت عليه وعلى جمهور المؤمنين^(٤) » ويحدثنا الكرمانى في مقدمة هذه الرسالة أنه ركب إلى مصر - ويخيل إلى أنه جاء مصر لإبان ثورة البرزى - فاضطر إلى تأليف هذه الرسالة وقراءتها على الناس فقلها عنه مؤذن الجامع الأزهر . فهذا كله يؤيد ما ذهبنا إليه من أن الفاطميين اتخذوا من المسجد الجامع الأزهر مركزاً من مراكز دعوته ومهداً تلقى فيه علوم أهل البيت .

وهنا نقف لتسائل ، هل كان هذا المسجد معهداً لتعليم الدعوة الفاطمية فشب خلائجه أئمة الحقايق الفاضية والمالكية والحنفية ؟ يخيل إلى أن الفاطميين كانوا يتساحون مع علماء أهل السنة بأن أذنوا لبعض فقهاء أهل السنة أن يلقي دروسه وتعاليمه في الجامع الأزهر ، فقد قيل إنه في سنة ٣٨٣ هـ رتب رجل جعفرى الجيوس في الجامع الفتوى على منذهب أهل البيت فذهب عليه الفقهاء من أهل الجامع ، فبلغ القاضي ذلك فقبض على بعضهم^(٥) لكن هذا التصريح نستطيع أن نقبين أنه كان بالجامع

(١) دفع الإصر ص ٧٣ - (٢) خط القرزى ص ٤٠ ، ١٩٢ ، ص ٢٠٠ ، ٢٢٢ .

(٣) ص ٣٠٦ .

(٤) رسالة مباسم البشارات : نسخة خطية بمكتبة الخاصة .

(٥) الكنتى ص ٥٩٤ .

قها، يخالفون العقيدة الفاطمية، وأنهم كانوا يفتنون على حسب مذهبهم، وحيدتهم، فلما جاء هذا الفقيه ففتيا على المذهب الفاطمي شغبوا عليه فاضطر القاضي إلى أن يقبض على بعضهم لائس. سوى أنهم لم يتساعروا مع هذا الفقيه مثل ما تساعت الدولة معهم. ويروى أيضا أن الحاكم بأمر الله أمر بطلب قهين وأمرهما بتدريس مذهب مالك في الجامع ثم بدله قتلها بعد ذلك (١) أضف إلى ذلك أن مصر شاهدت في العصر الفاطمي عددا من فقهاء الشافعية والمالكية، كذلك وفد على مصر عبد السلام بن محمد ابن بندار أبو يوسف القزويني شيخ المعتزلة وأقام بها أربعين سنة (٢) يلقي تعاليمه التي تخالف تعاليم الفاطميين، وتستحدث عن ذلك كله في الفصل الخاص بفقهاء أهل السنة، وإذن نستطيع أن نقول: إن الفاطميين كانوا يسمحون لأصحاب المذاهب الأخرى بالقاء تعاليمهم بجانب ما كان يلقي من تعاليم الفاطمية. وقد تكون هذه سياسة وضعت لأن تقام المناظرات بين علماء هذه المذاهب وبين دعاة الفاطميين حتى يستطيع جبهة المستمعين أن يبينوا بعض المآخذ على المذاهب غير الفاطمية وأن يقتنعوا بجمع الدعاة وأدلتهم ونهرهم فصاحتهم فيدخلوا في الدعوة. وإلى جانب الجامع الأزهر ترى الفاطميين قد بنوا جامع الحاكم خارج باب الفتوح وجامع راشدة وجامع المقصر وجامع القراقة والجامع الأفقر وكثيرا من المساجد التي لا يزال بعضها ماثلا أمام أعيننا الآن، وقد قل الفاطميون إليها المصاحف وجلس فيها الفقهاء والعلماء ودعاة المذهب الفاطمي. فكانت هذه المساجد بمثابة مدارس لتلقي الدعوة الفاطمية.

٢ — التصريح: يحدثنا القاضي النعمان بن محمد بأنه لما فتح المعز لدين الله (ص) للبرونيين باب رحمة وأقبل عليهم بوجه فضله ونعمته أخرج إلى كتابا من علم الباطن وأمرني أن أقرأ عليهم في كل يوم جمعة في مجلس في قصره المعمور بطوله بقائه، فكثير ازدحام الناس وغص بهم المكان، وخرج احتفالهم عنه حد السباع وملئوا المجلس الذي أمر باجتماعهم فيه (٣).

وفي موضع آخر قال القاضي النعمان: وسمعت حلي الله عليه (أي سمع المعز) يقول

(١) التحريم الزاهرة - ص ١٧٨.

(٢) المصدر السابق - ص ١٥٦.

(٣) المجلس والمنازل - ورقة ٦٨ ب.

بعض الأولياء : ما تظرون اليوم في شيء تتفعلون به . ما تقرأون شيئاً ، ما تسمعون شيئاً ؟ فسكتوا . وكنت قبل ذلك قد سمعت بعضهم يحرض بعضاً في الاجتماع لقراءة كتاب دعائم الإسلام الذي يسلطه المزلدين لله (صلح) وجملة في مجلس من مجالس قصره ، وأباح لهم حتى أحبوا استماعه وقراءته وانتساعه والتعلم منه والتفتحه فيه ، وقال بعض من حرض على ذلك : ويحك أما تخافون إن قصرتم في هذا أن يكون حجة من الله ومن وليه عليكم أن يجتبركم فيه ، وقد أباحه لكم دهرأ طويلاً فيجتبركم فيه أو في بعض أبوابه فلا يجد كخفتم شيئاً منه ولا اتفتم به ، فيقال لكم : إذا كنتم لم تقوموا بما أعطيناكم من ظاهر دينكم الذي تعبدكم الله بالقيام به ، فكيف ينبغي لنا أن نعطيك من باطنه : (١) .

ولعل هذه القاعة التي أشار إليها الثعالب ، والتي التي فيها هذا العلم الباطن . هي المكان نفسه الذي خصمه الفاطميون للدعوة وعرف باسم المحول . . فكان المحول في العصر الفاطمي أشبه شيء بقاعات المحاضرات العامة في عصرنا الحديث ، وكان يؤم المحول الخاصة وشيوخ الدولة وخم القصر والطارئون على مصر وعامة الناس (٢) ، وهكذا جعل الفاطميون جزءاً من قصرهم الدعوة للمذهب ، ومكاناً يلقى فيه العلماء والدعاة علوم أهل البيت ، وهي المجالس التي عرفت بمجالس الحكمة التأويلية . ولم يكتف الأئمة الفاطميون بأن يكون المحول في قصرهم بل نراهم يهتمون اهتماماً خاصاً بكتابة القصر حتى عدت هذه المكتبة من مفاخر الفاطميين . فقد تميزت عن جميع مكتبات العالم الإسلامي في ذلك الوقت ، ويقول المقرئ قللا عن ابن أبي طي بعد ما ذكر استيلاء صلاح الدين الأيوبي على القصر : « ومن جملة ما باعوه خزانة الكتب ، وكانت من عجائب الدنيا . ويقال : إنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التي كانت بالقاهرة في القصر ، ومن عجائبها أنه كان فيها ألف ومائتا نسخة من تاريخ الطبري إلى غير ذلك . ويقال : إنها كانت تشتمل على ألف وستة آلاف كتاب (٣) . ويقول المقرئ : وما يؤيد ذلك أن القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي لما أنشأ المدرسة الفاضلية بالقاهرة جعل

(١) المجالس والمباريات ج ٢ ص ١٢٣ - ١٣٤ .

(٢) خطاط المقرئ ج ٢ ص ٢٢٦ .

(٣) خطاط المقرئ ج ٢ ص ٢٥٥ .

فيها من كتب القصر مائة ألف مجلد^(١) . و يروى عن المسيحي أن عدة الخزائن التي رسم الكتب في سائر العلوم بالقصر أربعون خزانة بعضها داخل القصر لا يتوصل إليها أحد وبعضها في خزائن القصر البرانية . وكانت هذه الخزائن تشتمل على مجلدات في كل فن من فنون العلوم الإسلامية ، فن فقه على سائر المذاهب إلى نحو و لفة و كتب حديث و تاريخ و نجامة ، و روحانيات و كيميا غير المصاحف الكثيرة ، و يقال : إن العزيز بالله ذكر عنده كتاب العين للخليل ابن أحمد فأمر خزان دقائه فأخرجوا من خزائنه ثلثين نسخة من كتاب العين منها نسخة بخط الخليل نفسه ، و حمل إليه رجل نسخة من كتاب تاريخ الطبري اشتراها بمائة دينار فأمر العزيز غارته فأخرج له من الخزانة ما ينيف عن عشرين نسخة منها نسخة بخط بن جرير^(٢) . وهكذا كانت خزانة كتب القصر . و لعلنا نستطيع أن ندرك من هذه اللوحة القصيرة مدى حناية الخلفاء الفاطميين باقتناء الكتب في كل فن و حرصهم على أن تجمع خزائهم الطراف و التفائس في كل علم ، و ذلك تشجيعاً منهم للعلم و العلماء . و لا غرو في ذلك ، فإن ملهمهم الدين يدعو إلى العلم و العمل و إلى الاستزادة من جميع العلوم و الآداب . حتى يقسق لغاتهم أن يكسروا خصومهم بأدلة عليية ، و أن يتخذوا من سعة أقتهم و مداركهم و ثقافتهم مجالا يحلون فيه حتى يبرزوا غيرهم . فلا تعجب إن رأينا داعياً من دعائهم مثل مبة الله بن موسى الشيرازي المعروف بلقيد في الدين كان يلم بجميع ألوان العلوم التي كانت معروفة في عصره ، و استطاع بما حصله من علم أن يرد على جميع المذاهب و الفرق الإسلامية ، و أن يهضح رأى الزنادقة المارقين أمثال بن الراوندي و الثنوي ، و أن يناظر بعض الحكماء أمثال أبي العلاء المرري ، و أن يجادل خصومه هؤلاء بأدلة عليية منطقية و حجج قوية ، فلو لا ما أوتي به من علم لما استطاع أن يعرف مواطن الضعف عند هؤلاء جميعاً فيهاجمهم و يهضح حججهم ثراً و شعراً و يترك لنا هذه الذخيرة في مجاله و ديوانه ، و نستطيع أن نقول كذلك عن الملعي أحمد حميد الدين الكرمانلي و عن

(١) حلة القرري

(٢) المصدر ص ٢٠٣

الداعي أبي حاتم الرازي وعن السجستاني وغيرهم من غزو دعة المنهب الذين
تم على أيديهم قلعة المنهب وتبلورت عقائده .

لكن هذه الكنوز العلية من قوائم الكتب التي حافظ عليها الفاطميون في
قصرهم أصابها ما أصاب الفاطميين أنفسهم ، وكان ابتداء هذه الحنة التي نكتبت
بها مكتبات القصر إبان الشدة المظلمة التي حلت بالبلاد أيام المستنصر بالله الفاطمي
وقد شاهد المسجي المؤرخ المصري شيئاً من هذه الحنة وصفها بقوله : « وكنت
بمصر في العشر الأول من محرم سنة إحدى وستين وأربعمائة فرأيت فيها خمسة
وعشرين رجلاً موقرة كتباً محمولة إلى دار الوزير أبي الفرج محمد بن جعفر المغربي
فسألت عنها فعرفت أن الوزير أخذها من خزائن القصر هو والخطير بن الموفق
في الدين بإعجاب وجبت لها عما يستحقانه وغلبتهما من ديوان الجليلين ، وأن
حصة الوزير أبي الفرج منها قومت عليه من جلوسه عليك وغلبانه بخمسة آلاف
دينار ، وذكر لي من له خبرة بالكتب أنها تبلغ أكثر من مائة ألف دينار .

ونهب جميعها من داره يوم انهزم ناصر الدولة بن حمدان من مصر في صفر من
السنة المذكورة مع غيرها مما نهب من دور من سارتمه من الوزير أبي الفرج
وابن أبي كدينة وغيرهما ، هذا سوى ما كان في خزائن دار العلم بالقاهرة وسوى
ما صار إلى عماد الدولة أبي الفضل بن المحرق بالإسكندرية ثم انتقل بعد مقتله
إلى المغرب ، وسوى ما ظفرت به لواتة محمولا مع ما حار إليه بالانتفاع
والنصب في بحر النيل والإسكندرية في سنة إحدى وستين وأربعمائة وما بعدها
من الكتب الجليلة المقدار المدومة المثل في سائر الأمصار محبة وحسن حفظ
وتجديد وعبارة التي أخذ جلودها عبيدوم وإماؤم يرسم عمل ما يلبسونه في أوجهم .
وأحرق ودهقا ، تأولا منهم أنها خرجت من قصر السلطان أحرأه أنصاره .
وأن فيها كلام المشارة الذي يخالف مذهبهم ، سوى ما غرق وتلف وحمل إلى
سائر الأقطار وبقى منها ما لم يحرق ، وسفت عليه الرياح التراب فصار تلالا باقية
في نواحي آثار تعرف بتلال الكتب^(١) هذا ما عاينه هذا المؤرخ المصري
الكبير وذكره في كتبه . وعنه أخذ من جاء بعده عن هذه الذخيرة العلية

ومقدار ما أصابها إبان الشدة المستنصرية من تلاعب الوزراء والخدم بعد أن ضعف أمر الخلافة الفاطمية وأصبح الوزراء والأمراء أعقاب الحول والفضول في البلاد ، ومع ذلك كله بقي في مكتبات النصر عدة آلاف من الكتب ، ويحدثنا ابن ميسر أنه وجد في ثرية الأفضل بن بدر الجمالي خمسمائة ألف مجلد من الكتب (١) لا أشك أن أكثرها كان في خزانة النصر وأبادها صلاح الدين الأيوبي كما أباد دولة الفاطميين وقد ذكرنا ما أخذه القاضي الفضل من خزانة النصر لمدرسته الفاضلية ، ويذكر المقرئ أن ابن صورة دلال الكتب باع منها جملة في مدة أعوام (٢) وكذا خاعت كنوز الفاطميين المليمة بيد التعصب المقيت . كان في هذه الخزائن كتب الدعوة وما ألفه الأئمة وكانت هذه الكتب مما يحافظ عليه الفاطميون أشد المحافظة حتى لا يصبه الفساد ، ويحدثنا منصور الجوزي الكاتب أن المنصور باه أرسل إلى جرد الصقلي رسالة نسخها : بعث إليك كتي وكتب الأئمة آبائي الطاهرين ، وقد ميزتها فأفررها عندك مصولة من كل شر ، فقد وصل الماء إلى بعضها فغير فيه ، وما من الدعاثر شيء هو أفسى عندي منها فأمر محمدا كاتبك بنسخ لك منها ثلاث كتب ففيها من العلوم والسير ما يبرك الله به (٣) فهذا يدل على شدة العناية التي كان يوجهها الفاطميون إلى كتب الأئمة وهي كتب الدعوة ومحافظتهم عليها . فلا شك أن مثل هذه الكتب العزيرة لديهم كانت تحفظ داخل القصر فلا يقرها إلا الأئمة والدعاة فقط ، أما المكتبات التي عبر عنها المسجيء بالبرانية ، فأرجح أنها كانت كالمكتبات العامة في عصرنا هذا ، ولا سيما في تلك الأيام التي كان يجتمع فيها الناس بالقصر لسماع مجالس الحكمة والتأويلية .

فهذه المكتبات التي كانت في القصر لعبت دوراً هاماً في الدعوة ونشرها ، لحرص الفاطميين على إقتناء الكتب على اختلاف قرون العلم والآداب ، وشغفهم بالمحافظة عليها ، سهل الدعاة الإطلاع وإدمان النظر فيها ، وإيجادها فيها بينهم ، والمناظرة في هذه العلوم حتى يتخذوا منها وسيلة لنأيهم ، وسلاحاً من أسلحة

(١) أخبار مصر لابن ميسر ص ٥٧ . (٢) خط المقرئ ج ٢ ص ٢٥٥ .

(٣) سير الأستاذ جرد ، نسخة مخطوطة بمكتبة الخاصة .

دعوتهم . حثاً لم يذكر لنا القدماء أن الفاطميين استخدموا هذه المكتبات التي كانت بالقصر في خدمة الدعوة ، فلم ينفذ فيها الدعاة مجالس الحكمة ، ولكن هذه الكتب الكثيرة لم توجد في القصر عبثاً ، ولم يحافظ عليها الفاطميون ليهابوا بها غيرهم ومنافسهم لحسب ، بل كانت أداة من أدوات تثقيف الدعاة وتعليمهم حتى تكون لديهم ذخيرة علمية للقيام بما تفرضه عليه طبيعة عملهم ، ولا سيما هذه الكتب التي كانت في داخل القصر والتي لا يقرئها إلا الخاصة ، وهي الكتب التي قلنا إنها كتب الأئمة أي كتب الدعوة ، فكيف يتأتى للداعي أن يقوم بما فرض عليه من الدعوة إلا بمرقة هذه الكتب ودراسة ما فيها دراسة كاملة شاملة ، ولا سيما أن الداعي كان عرضة دائماً للجاذبات والمناطرات مع علماء المذاهب الأخرى المخالفين لمنهجه ، وقد ذكرنا شيئاً من صفات الداعي العلمية ، وما يجب أن يكون عليه من سعة الاطلاع والإلمام بمنهجه ، وإذن قلنا أن قول : إن هذه المكتبات التي كانت في القصر استخدمت في الدعوة من طريق غير مباشر ، وهكذا استخدم القصر في العصر الفاطمي في نشر الدعوة الفاطمية بجموله ومكتباته ، وفي المحول كان يجتمع الناس لسماح المحاضرات — مجالس الحكمة التأويلية — وكان الجمهور يقسم إلى أقسام فكان للأولياء مجلس ، وللخاصة وشيوخ الدعوة وخم القصر مجلس ، ولعوام الناس مجلس ، ولعلماء مجلس ولعلماء مجلس (١) ، وهكذا ، وستحدث عن ذلك في فصل مجالس الحكمة التأويلية .

دار العلم : ومن مآثر الفاطميين تلك الدار التي أنشأها الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥ هـ وسماها بدار العلم وجعلها جزءاً من قصره ، ولعلها هي الخزانة التي أشار إليها المسبجى باسم الخزانة البرانية ، وقد حمل إلى هذه الدار الكتب من خزائن القصر من سائر العلوم والآداب ما لم ير مثله مجتمعاً لأحد قط من الملوك ، وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم بمن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها مجلس فيها القراء والمنجمون وأصحاب النجوم والفلك والاطباء ، فكان ذلك من الحسن المأثورة التي لم يسمع بمثله من إجراء الرزق السني لمن رسم له بالجلوس فيها والخدمة لها من قديمه وغيره . وحضرها الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين ثقافتهم وقوتهم

العلية ، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ، ومنهم من يحضر للنسخ ، ومنهم من يحضر لتعلم ، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الخبر والأفلام والورق^(١) ، مدار العلم إذ أن كانت مكتبة عامة على نحو ما نراه اليوم في المكتبات العامة ، ولكنها بجانب ذلك كانت جامعة عليية لتعليم ، وكثيرا ما كانت تقام المناظرات بين علمائها . من ذلك ما يرويه السيوطي أن جنادة بن محمد بن الحسين الأزدي الهروي أبا أسامة القوي التحوي قدم مصر وصحب الحافظ عبد الغني بن سعيد وأبا إسحق علي بن سليمان المعري التحوي ، وكانوا يجتمعون في دار العلم بالقاهرة وتجري بينهم مباحثات ومذكرات^(٢) ويروي المقرئ^(٣) عن المسيحي أنه في سنة ٤٠٣ هـ أمر الحاكم بإحضار جماعة من دار العلم من أهل الحساب والمتنق وجماعة من الفقهاء منهم عبد الغني بن سعيد ، وجماعة من الأطباء إلى حصره ، للمناظر بين يديه ، وكانت كل طائفة تحضر على انفراد ، ثم يطلع الحاكم على الجميع ويصلهم^(٤) .

ومن أشهر العلماء الذين ألقوا بعلمهم في دار العلم رجل مكشوف يقال له أبو الفداء جعفر ، قدم مصر فأعجب به الحاكم وخلع عليه ، ولقبه بعالم العلماء ، وجملة مجلس في دار العلم يدرس النحو واللغة^(٥) ، ومنهم أبو بكر الأنطاكي الفقيه المالكي الذي سمح له الحاكم ولشيخ مالكي آخر أن يقيا بدار العلم ويقيا دروسا في المنصب المالكي^(٦) . فهذا كله إن دل على شيء فإنه يدل على أن دار العلم كانت بمثابة جامعة فيها أساتذتها وبها مكنتها ، وفيها كل ما يبعث على النشاط العلمي والبحث والتحصيل ، فالفاطميون بإنشائهم الجامع الأزهر ودار العلم كانوا أسبق الناس إلى إنشاء الجامعات التي تتماز بها المدينة الحديثة في أيامنا هذه . جعل الحاكم بأمرائه النظر على دار العلم إلى عبد العزيز بن محمد بن النعمان قاضي

(١) خط المقرئ ج ٢ ص ٢٢٤ .

(٢) بنية الرواة للسيوطي ص ٢١٣ .

(٣) خط المقرئ ج ٢ ص ٢٣٥ .

(٤) رفع الإصر (ص ١٩ ب) نسخة خلية بدار الكتب المصرية .

(٥) العجوة الزاهرة - ٤ ص ٢٢٢ .

التقضاء^(١)، وظلت تزدى أغراضها العلمية، ويقبل عليها الطلاب والعلماء من كل صوب، إلى أن كانت أيام وزارة الأفضل بن بدر الجلال، وعلم الوزير أن جماعة من المترددين على دار العلم يحاولون بث دعوة إلحادية بين الطلاب وأن بعضهم ادعى الألوهية، فاضطر الوزير إلى أن يلقى هذه الفارسة سنة ٥١٦ هـ بعد أن عرفت أزيد من قرن، وكان إغلاق هذه الدار العلمية وقع وقع الصاعقة على الخليفة الفاطمي الأمر بأحكام الله وعلى بعض العلماء الذين كانوا في خدمته ولكن الخليفة كان مملوك الإرادة مع وزيره، فصر على مفض، حتى قتل الأفضل وتولى الوزارة المأمون البطاحي ففاته الأمر في إعادة دار العلم على ما كانت عليه، وما زال الخليفة يوزيره حتى قبل أن يبيد اقتسامها بشرط أن تكون بعيدة عن القصر، وأن يتولاهما رجل دين، وأن ينظر فيها الداعي ابن عبد الحقيق، وأن يقام فيها متصدرون برسم قراءة القرآن. فوافق الخليفة الأمر على ذلك كله، واستخدم في هذه الدار الجديدة أبا محمد حسن بن آدم^(٢)، ولكن هذه الدار الجديدة لم تضر طويلا إذ قضى عليها بالتقضاء على الدولة الفاطمية.

كانت دار العلم من مراكز الدعوة الفاطمية، فكان الداعي يجلس فيها ويستمع إليه من التلاميذ من يتكلم في العلوم المتعلقة بمذهبهم^(٣)، وكانت هذه الدار المكان الذي يجتمع فيه داعي الدعوة بالدعاة والفقهاء لتنظيم أمور الدعوة^(٤). ومن يدري لعل في دار العلم كانت تحضر مجالس الحكمة التأويلية التي كان يلقبها داعي الدعوة قائما عن إمامه.

ومهما يكن من شيء فالقصر والمساجد ودار العلم كانت أبرز مراكز الدعوة في العصر الفاطمي. ولما كانت هذه المراكز في القاهرة كن في كل بلد من البلدان مركزا للدعوة هو المسجد أو منزل الداعي في هذا البلد. يحدثنا المؤيد في الدين ولكن داهيا في أول الأمر بشيراز: «فلما كان يوم حد القطر من سنة تسع

(١) الرواة والتقضاء للكندي ص ٦٠٠

(٢) القرطبي ج ٢ ص ٣٣٧.

(٣) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٦٦.

(٤) خطب القرطبي ج ٢ ص ٢٦٦.

وعشرين وأربعمائة كنت يوم قبله مستعداً له في تحصيل فرش وآلة وسجادات
يصل عليها المصلون ولا يستغنى عنها المتعبون . فرفع الخبر بأئني أستجمع
الجموع للصلاة والخطبة في غد وأضرب في ساحة دارى المضارب والغازات ، ولما
كان في غد وهو العيد اجتمع الخلق الكثير من الديلم الصلاة فصليت بهم ، فلما
أنحمت عكفت عليهم بأوعظ والإندار ... الخ (١) فالداعي هنا كان يتخذ منزله
مركزاً للدعوة ولكنه كان في بلد يخضع لحكم العباسيين ، أما في مصر فقد كانت
الدعوة ظاهرة مكشوفة تؤيدها الدولة بمالها وسلاحها ، فكان الدعوة
يتخذون المنازل والمساجد الدعوة دون خفية ، وفي المساجد كانوا يلقون
بمجالسهم التأويلية .

الفصل الثالث

مجالس الحكمة التأويلية

من أجل أحوال داعي الدعوة ونوابه في الجزائر عقد مجالس الحكمة التأويلية ،
أو بمباراة أخرى إلقاء محاضرات على جمهور المؤمنين بدعوتهم يشرح فيها الداعي
مقائمه ومذاهبهم والتأويل الباطن للدين ، وهي العلوم التي عرفت بعلوم أهل
البيت ، والتي هي السر الذي يجب أن يظل مدفونا في صدور الأولياء لايوحون
به لأحد ، فكل المجالس التي عقدتها الدعوة هي مجالس تعليمية ، ولكن لهذه
المجالس درجت ، ولكل طبقة من المؤمنين مجلس خاص كما ذكرنا من قبل ،
فلقامة مجلس ، ولقضاء مجلس ، وللخاصة مجلس ، وهكذا . ولم تقسم هذه المجالس
على حسب الطبقات الاجتماعية لجمهور المؤمنين ، إنما قسمت على حسب مرتبة
المحاضرين في مدارج الدعوة ، فلا يلقى داعي الدعوة على دعائه ما يليق به على
المبتدئين في دخول الدعوة ، ولا يلقى على العامة من أهل البلد ما يليق به على الغريباء ،
فلكل طبقة من هذه الطبقات أسلوب خاص ، وعلوم خاصة ، بحيث ينتهي إلى
أسرار الدعوة التي يجب ألا يقربها إلا كل ذي قدم راسخة في الدعوة ، ومن بلغ
فيها مرتبة رفيعة كان يكون داعيا مثالا .

وداعي الدعوة - ويعرف باب الأبواب ، وباب حقة ، وبالحمية - هو
الذي يمد هذه المحاضرات ويرفضها إلى الإمام فيوقعها هذا بعلامته ويبيد ما إلى
كبير دعائه فيلقها على المستجيبين في المحل أو غيره ، فإذا انتهى من قراءتها
سمح على ردوس الناس بعلامة الإمام تبركا بها وتكتب هذه المجالس عادة
على أنها صادرة من الإمام فتظهر للجمهور وكان الإمام هو الذي كتبها
وأن داعي الدعوة هو قارئ لما كتب الإمام ، ولذلك يحتق اسم الداعي
ولا يظهر في كتب المجالس ، مع أن المعروف أن حجة الإمام هو صاحب
التأويل في عصره .

تبدأ هذه المجالس عادة بحمد الله والصلاة على نبيه وآلته من نسل علي .

ويردنها الداعي بشيء من الوضوح والإرشاد، ثم يبدأ في تأويل آية من آيات القرآن أو حديث نبوى أو أثر عن الأئمة أو يؤول شيئاً من فرائض الدين العملية، ويهتم بجله بالنساء والصلاة والحد. وتلقى هذه المجالس مرتين في الأسبوع: يوم الاثنين ويوم الخميس، ويخيل إلى أن مجالس يوم الخميس كانت للخاصة، وفيها يقول المؤيد:

يا صباخ الخميس أهلاً وسهلاً زادك الواحد المهيمن فضلاً
أنت عيد للؤمنين عتيد جمع الدين منهم فيك شلاً
نحن نحى ثمار جنة عدن كلها أقبل الخميس وولى
من رياض أنهارها جلديات وبها الخور في المقاصر تجلى
تفروى الأرواح منها بماء هو أشقى من الزلال وأحلى
رتبة نحننا بها صاحب المصير أمين الإله عز وجل (١)

وبين يدي الآن عدة كتب جمعت مجالس الحكمة التأويلية التي كان يلقها بعض الدعاة، مثل كتاب تأويل دعائم الإسلام للقاضى النعمان بن محمد، وكتاب المجالس المؤيدية ويحتوى على ثمانمائة مجلس من مجالس التأويل، وكتاب المجالس المستنصرية للداعى الموسوم بعلم الإسلام فقه الإمام (٢)، وهذه المجالس تختلف باختلاف الداعى، فمجالس القاضى النعمان في تأويل فقه الفاطميين، والمؤيد يميل في تأويله إلى فلسفة المذهب، أما ماجاء في المجالس المستنصرية فهو تأويل بدائى، ويخيل إلى أن المجالس المستنصرية كانت تلقى على المبتدئين في الدعوة، وقد رأيت أن أقدم صورة من هذه المجالس المختلفة.

المجلس العاشر من الجزء الرابع من تأويل دعائم الإسلام للقاضى النعمان
بسم الله الرحمن الرحيم: الحمد لله الذى جل عن تقدير المؤمنين، ولطف
عن لطيف بحث المؤمنين، وصلى الله على محمد وآله وعلى الأئمة من ذريته
الطاهرين، ثم إن الذى يثلم ما تقدم ذكره ماجله عن أمير المؤمنين على عليه

(١) ديوان المؤيد داعى الفتاة.

(٢) طبع هذا الكتاب سنة ١٩٤٦ بدار الفكر العربى بالقاهرة.

السلام أنه قال : أول الصفوف أفضلها ، وهو صف الملائكة ، وأفضل المقدم
 ميان الإمام . تأويله ما تقدم القول به من أن أمثال الصفوف في الصلاة أمثال
 درجات المستجيبين إلى دعوة الحق على مقادير فضلهم وسبقهم ، وأن أمثال
 الملائكة من الناس أمثال المملوكين أمور العباد ، وهم أولياء الله من رسله وأئمة
 دينه ومن ملكوه شيئا من أمور العباد وأرسلوه لهم وما أرسلوه لهم ، والمملك
 والملائكة فيما ذكر أهل اللغة مشتق أسماؤهما من الرسالة ، والأوك والملائكة
 في لغة العرب الرسالة ، وقد قال الله جل من قائل : « الله يصطفى من الملائكة
 رسلا ومن الناس » فالصف الأول من صفوف ظاهري الصلاة لا ينبغي أن يتف
 فيه إلا أفضل أهل المسجد من عنائهم ، كما قال رسول الله (ص) : ليلتي منكم
 أولي التهي والعلم . وينبغي أن يكون على يمين الإمام في الصف من خلفه أفضلهم ،
 ومن يصلح أن يكون إماما إن حدث به حدث يوجب خروجه من الصلاة ، لأن
 انصرافه إذا انصرف من الصلاة إنما يكون عن ذات اليمين ، فيكون من مقدمه
 هناك ، فيأخذ بيده ويقدمه مكانه ، وعلى هذا تجري مراتب أهل الدعوة في
 حدودها : أن يكون الذين يلون القائم بها في الدرجة العالية من درجات المؤمنين
 الذين هم أهلها ، وأن يكون أقربهم منه عن يمينه ، وهي أفضل درجاتهم ، من
 يصلح لمقامه من بعده ، ويتلو ذلك ما جاء عنه عليه السلام أنه قال : سدوا
 فرج الصفوف ، ومن استطاع أن يتم الصف الأول أو الذي يليه فليعمل ،
 فإن ذلك أحب إليكم ، وأتموا الصفوف فإن الله وملائكته يصلون على
 الذين يتلون الصفوف . وعن جعفر بن محمد صلوات الله عليه أنه قال :
 « أتموا الصفوف ولا يضرك أن تتأخر إذا وجدت تصديقا في الصف الأول قسم
 الصف الذي خلفك ، وإن رأيت خلا أمامك فلا يضرك أن تمشي منحرفا حتى
 تسد . يعني وهو في الصلاة . وعن رسول الله (ص) أنه قال : صلوا صفوفكم ،
 وحاذوا بين منابركم ، ولا تتخالفوا بينها فتختلفوا ويتخالفكم الشيطان كما يتخلل
 أولاد الخنزير . فتعديل الصفوف وسد ما فيها من الفرج وتماها واعتدال
 وقوف القيام فيها من واجب الصلاة وحدودها في الظاهر ؛ ومثله في الباطن
 اعتدال أهل الدرجات في دعوة الحق على درجاتهم وحدودهم التي حدث لهم ،

لا يتجاوز أحد منهم حده إلى غيره ، ومن رأى منهم خلافاً حد من الحدود التي فوقه أو دونه فيبني له أن يسعى ويجهد فيما يبلغه إلى تلك الدرجة ويوجب له حد ذلك الخلط وبأن يكون أهل كل حدود درجة قد استوت بهم الحال فيها ، وأوجبت لهم الأحوال والأعمال أن يكونوا متساوين في ذلك على ما أمروا به من التساوي فيه ، لا يتقدم أحد منهم أحداً في ذلك ، كما وجب في ظاهر الصلاة أن يحاذي أهل كل صف منها بين مناهجهم ، ولا يتجاوز أحد منهم أحداً ، وأنهم إن فعلوا ذلك اختلفوا وتخلطهم الشيطان ، وتأويل ذلك أن أهل مراتب الدعوة إذا تمدى أحدهم حده ، وخرج عنه إلى حد غيره ، أوجب ذلك اختلاطهم ، ودخل بينهم ما يجب أن يختلفوا عن أعداء أولياء الله الذين أمثالهم أمثال الشياطين ، وقوله : « كما يتخلل أولاد الحنف » . فالخلف ضرب من الغنى الصغار السود ، واحدها حنفة ، تتخلل الغنى وتمشي بينها ، فنه رسول الله (صلى) تخطها وتمشيها يتخلل الشيطان ومشيه بالتخريب بين المؤمنين لما يريد من قاطعهم وتدابيرهم وأمروا بلزومها . ويتلو ذلك ما جاء عن علي (ص) أنه قال . قال لي رسول الله (ص) يا علي لا تقوم في الميكل . قلت : وما الميكل يا رسول الله ؟ قال : تصلي خلف الصفوف وحدك ، فهذا مما يكره في ظاهر الصلاة ، أن يقف المصلي خلف الصفوف وحده ، وهو يجد فيها مكاناً يقوم فيه ، فإن لم يجد ذلك قام إلى أن يأتي من يقوم إلى جانبه أو يصل كذلك وحده إن لم يأت أحد ولم يجد في الصفوف موضعاً يقوم فيه ، وتأويل ذلك في الباطن : نهى رسول الله (ص) علياً عليه السلام عن أن يفعل في الظاهر لأنه ليس هو حده في الباطن ، وحده في الباطن أعلى الحدود وأرفع الدرجات دون درجة النبوة ، فكره له أن يقوم في الظاهر في مكان لا يشبه مكانه في الباطن ، وكذلك لا ينبغي له أن يخلف بنفسه وأن يتواضع عن الدرجة التي جعلها له رسول الله (ص) . ويتلو ذلك قول محمد بن علي عليه السلام : « لكن الذين يلون الإمام أولى الأحلام والنهي فإن تعابا تقوه ، وقد جاء في مثل ذلك ما ختم القول به من أن ذلك كذلك يجب في ظاهر الصلاة أن يكون الذين يلون الإمام إذا صلى بالناس ، علماء وأهل الفضل منهم ، فإن تعابا وتوقف في القراءة

لقوته وإن سها في الصلاة سبحانه له لينذكر ما سها فيه ، فيرجع إلى الواجب منه ، وإن ذلك في الباطن كذلك لايلى صاحب دعوة الحق في الرتبة والدرجة إلا أفضل أهل تلك الدعوة فإن سها عن شيء عندهم من علم ذكره إياه على ما تقدم القول به ، ويتلو ذلك قول أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام : « إذا صلى النساء مع الرجال قرن في آخر الصفوف لا يتقدمن رجلا ولا يحاذينه إلا أن يكون بينهما وبين الرجال ستره ، فهذا هو الواجب في ظاهر الصلاة . وتأويله ما قد تقدم القول به من أن الرجال أمثال المفيدين والنساء أمثال المستفiden ، وأن درجة المفيدين فوق درجة المستفiden ، ولا ينبغي للمستفيد أن يتجاوز حداً إلى حد المفيد ولا أن يدانيه ، بل ينبغي له كما ذكرنا أن يقع دونه ويتواضع له ، وأما قوله : « إلا أن تكون بينهما وبين الرجال ستره » ، تأويله أن يكون المفيد مستتراً لحال التقية ، فيعامل المستفيد منه في السر وفيهده ويتقدم إليه ألا يدل عليه شيء من إجلاله ولا التواضع له فيطرح ذلك المستفيد في ظاهر أمره تقية على مفيدة وعلى نفسه . فافهموا بيان التأويل يا ذوى النهى والمقول ، جعلكم الله من يفهم ويعلم ويعمل بما علم ، وصلى الله على محمد نبيه وعلى الأئمة من ذريته وسلم تسليماً ، وحسبنا الله ونعم الوكيل . »

صورة من المجالس المؤيدية :

المجلس التاسع منه المائة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله الذي علا عن كل معلوم ، وبما عن كل موسوم ، وكبر عن كل موهوم ومفهوم ، وصلى الله على ربيب رحمة المصور ، وبحر حكمة المسجور ، محمد المشر به في التوراة والإنجيل والزيور ، وعلى أخيه وابن عمه فادس يوم الهياج ، ومستودع سر ليلة المراج ، علي بن أبي طالب البرزخ بين البحرين العذب الفرات والملح الأجاج ، وعلى الأئمة من ذريته هداة من ذداً الله من خلقه ، والمستحفظين له بته وحقه ، والمتأمين كلة عدله وصدقه . معتم المؤمنين ، آمنتكم الله عن الفزع الأكبر ، وحشركم مع من يحبون في يو

المحشر، القليل الطيب غير من الكثير الخبيث ، فكفونا طيباً ، وكفونا
 في جانب الخير ولا تيسموا لشر جنابا ، والخير كله طاعة الله واتباع رسوله
 (صلح) فيما شرع ، والافتداء به في وصل ما وصل وقطع ما قطع ، فصلوا ما أمر
 الله به أن يوصل بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا
 الرسول وأولى الأمر منكم ، واقطعوا ما أمر الله به أن يقطع بقوله تعالى :
 « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ، يرض عنكم ، وبدلوا
 حرصكم على الدنيا فتودا ، وقوركم عن الآخرة حرصاً ، وعوضوا عن تقصمكم
 في طلب الباقي ازدياداً ، وعن ازديادكم في طلب الفاني قصاً ، من قبل أن ينشيكم
 غواشي النعم ، ويطوف عليكم طوائف العدم ، فلا دنيا أدركتم ، ولا بقى
 تمسكتم ، وأنصتوا لما يلقي إليكم من الحكمة فإنها تنقش صور نفوسكم المستجنى في
 الأجسام ، كما تنقش قوى الشراب والطعام صور الآجنة في الأرحام . واعلموا أنها
 نعمة الله سبحانه على خالصة عبادته ، وأنتم بها مشغولون ، وعلى حائلي حفظكم لها
 وإضاعتهكم لإحالة مسئولون . قال الله أسدق الثقلين : ثم لفسان يومئذ عن النعم .
 زعم الزاعمون أنه الماء البارد في اليوم الصائف ، وحمى الماء البارد للبهائم كما
 للإنسان مباح ، وأحق منه بالسؤال عنه ما هو للإنسان دون البهائم متاح ، وهو
 علم الحقيقة الذي يؤثر في النفوس الطيفة لصالح المعاد أكثر مما يؤثر الماء البارد
 لصالح الأجسام . وفسر بعض مفسري الشيعة أن النعم المسئول عنه هو ولاية
 علي بن أبي طالب (ص) وقد صدقوا إن اعتقدوا فيه أن الولاية مصبة التوحيد ،
 ومعرفة الحدود الوقوف على معالم الإيمان ، وعلم التأويل الذي تفك به أقوال
 القرآن ، وكذبوا إن اعتقدوا في معرفة الله سبحانه على ضلوعهم ، وادعوا وقوع
 القناء فيها عن الرسول والوصي ، على ما عليه رأى كثير من الشيعة برحمتهم من
 الاستظهار بالولاة والافتداء في معرفة التوحيد بذوي القبلتين والآراء والجهود
 بالتأويل الذي يتخذ من ظلمات الاختلاف ويقضى إلى نور الاتفاق ، وإننا
 الاقتدار إلى الرسول والوصي عليهما السلام بلوغ ما هم برحمتهم بالنور من معرفة
 الله جل جلاله ، فإذا كانت معرفة الله سبحانه تصح من دونهما فأى حاجة تبقى
 بعدما إلهما الناس ، وأية فضيلة تخلص لهما ، وسوى هذا فإن كانت المعرفة التي

هي الفئة المبرزة بدهاوى معرفة الله سبحانه بغير واسطة رسول نزولا على رأى بعض الفلاسفة وإشراف منهم بقوا مأمونين عند من أشرنا إليهم من الشيعة يقتدون بهم في توحيد ربهم والقول في العدل على قضاياء مذهبهم ، فلم يلايكونون مأمونين على الإمامة التي هي دوتها فيرجعوا إلى ربهم فيها ، ولا يناقضهم في قضئ مبانيها ، عهد من يكون مأمونا على انتظار ، ولا يكون مأمونا على دينار ، قد اختلف عليهم القول بولاية علي (ص) بقطعه ما أسرقه به أن يوصل من نظام الإمامة في ولده ، فصاروا في معالم توحيدهم وعدلهم على أضدادهم عيالا ، ولو قاموا إلى جهة المعتصمين بجبل الله الممدود بانصالحا لوردوا عيونا وظلالا ، ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله ، وكرهوا رضوانه ، فأجبت أعمالهم ، وقد كان قرئ عليكم من قول الله سبحانه : فأما الذين آمنوا فيملكون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا . ما شفع بالإبادة عن معنى الحق ، ولم سمى حقا ؟ وإن ذلك جهة كونه أصلا يحتمل الوضع عليه وانتهى الشرح إلى القول بأن الانشكال الجسمانية للكشفة موضوعة على القوى النفسانية اللطيفة ، ومثال ذلك : أن السموات والأرض وما بينهما عمولة على قوة إلهية لطيفة يبر عنها بأمر الله كما قال الله سبحانه : ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره . وكذلك أجسام البشر على قلبها عمولة على الأنوار اللطيفة التي هي من أمر الله سبحانه . ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي . . . الآية . . . قد ثبت العلم أن النفسانيات حاملة والجسمانيات عمولة عليها ، وأن النفوس المحققة بالثواب إذا انفكت عن عالم الجسم . ثابت إلى عالم النفس الذي هو الحق والأمل الحامل . وثبت أيضاً من اتلاف الجسم والنفس الإنسانية عن غير قصد منها ولا إرادة ، وقررتما عن غير قصد ولا إرادة على كون تألف النفس الكلية بالجسم الكلية وعالم الجسم من السلب والأرض وما بينهما أيضاً عن غير قصد منهما ولا إرادة ، بل بأمر المبدع سبحانه ، وأنه إذا أراد أن يبطل دار الدنيا بأفلاكها وانجسها وسفلها وعلوها أمكته القدرة منه على حسب الإمكان من التفريق بين الأفسى والأجسام الذي يعبر به طائر الأجسام خرابا . وأتم تسعون ما نفروه

الآن عليكم من قوله تعالى : « يضل به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين ، وما
تروح به في معناه وقال قوم : إن الضلال والهدى من الله سبحانه ، وهم جمهور
العامة ، واستشهدوا عليه بهذه الآية وما هو في معناها من مثل قوله : « ولوشئنا
لأنينا كل نفس هداها ، وقوله تعالى : « إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله
يهدي من يشاء ، وقوله حكاية عن نوح عليه السلام : « ولا ينفعكم نصحي إن أردت
أن أنصح لكم ، إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون ،
ونظائرهما كثيرة في القرآن ، وقال أهل الزمى : إنه إن كانت الصورة هذه فقد
بطل ثواب المحسنين وعقاب المسيئين ، وإن لهذه الآيات تأويلاً يرجع إليه
ويعمل الأمر عليه ، وهو مثل قرأهم في معنى الآية : يضل به كثيراً ويهدي به
كثيراً . أى يضل به عن الثواب الصالحين ، ويهدي به إلى الثواب المهتدين بفعلهم
وكسب أيديهم . واستشهدوا على ذلك بقوله سبحانه : « وقل الحق من ربكم فمن
شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، وما يجري مجراه وهو كثير في كتاب الله
تعالى . وقد مثل الصادق عليه السلام عن ذلك قتيلاً : يا بن رسول الله الناس
مجبورون على المصاعى ؟ قال : الله أعلم أن يجبر خلقه على المصاعى ، ثم يماقيهم
عليها . قيل : ففرض إياهم ؟ قال : هو أحر من أن يكون لأحد في ملكه
سلطان . قيل : فكيف ذلك ؟ قال عليه السلام : أمر بين أمرين لا جبر ولا
تقويض ، فقوله تعالى « يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً ، يوجب أن كثير
الصالحين قليل وقليل المهتدين كثير ، وذلك أن الإنسان كثير بنفسه البسيطة
لا بحسبه الكثيف ، فالنفس الصالحة مفرجة في فضاء عالم النفس متفخمة ،
وصاحبها قليل من حيث الجسم المندود المحصور ، كثير من حيث النفس
غير المحصورة ، قال الله تعالى : « إن إبراهيم كان أمة ، والنفس الطالعة ضيقة
حرجة كأقنص اليبائم لا خطر لها في العالم العلوى ، فأربابها وإن كثروا عدداً
تقد قروا بمحصولها كما قال الله سبحانه : « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع
الناس فيمكث في الأرض ، وكما قال سبحانه : قل لا يستوي الخبيث والطيب
ولو أعجبك كثرة الخبيث ، وقال رسول الله (صلى) لعل عليه السلام : لأن
يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت الشمس عليه . وقوله : « يضل

به كثير أو ما يجعل به إلا الفاسقين ، معنى فسوق الخروج من الطاعة وعقد
 البيعة ، وأما الفاسقين ، فنفس فسق عن أمر ربه دور آدم عليه السلام
 الذي هو أول الأدوار وهو إبليس لعنة الله عليه فتقضى بيعة الله ، وفيه قال
 الله سبحانه : وإذ قلنا لللائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من
 الجن ففسق عن أمر ربه ، ثم نزل عن مكانه في آخر الأدوار الذي هو دور
 محمد (صلى الله عليه وآله) فتقضى بيعة التدبير ، وسار الآخر على منهاج الأول ، فإبليس إمام
 الفاسقين أولاً ، وهو إمام الفاسقين آخر ، جعلكم الله براء من الفاسقين . والحكم
 بالصلحين ، لتكونوا لهم في منازلهم مراقبين ، والحمد لله الذي له في إظهار دينه
 أمر يخلو ويقتضى بالحق على الباطل فيلحقه ، وعلى الله على رسوله الأمين ،
 محمد المبعوث بالبرهان المبين ، وعلى وصيه السني الأقدار ، على بن أبي طالب
 معدن الفخار ، وعلى الأئمة من ذرية هداة الحق ، وأولياء الحق .

هكذا كانت مجالس الحكمة التأويلية التي كان يلقها كبار النخبة على جمهور
 المستجيبين ، كل بحسب درجته وحده في مراتب النخبة ، فكل مجالس التأويل
 كما ذكرنا هي تطبيق النظرية التي أخلقت عليها نظرية المثل والمثول ، وكل
 الغيبة الفاطمية إنما تدور حول الإمام وولايته ومحاولة إثبات أن الله سبحانه
 أشار إلى الأئمة في كتابه الكريم ورمز إليهم فيه ، وعلى المسلمين المؤمنين طاعة
 الأئمة وولايتهم وتصديق ما جاءوا به ، وأن الله سبحانه وتعالى خص الأئمة بعلم
 التأويل الباطن وأمرهم بستره لمستحقيه من المؤمنين .

الفصل الرابع

أشهر علماء الدعوة الفاطمية

١ - بنو النعمان^(١)

لا أؤكد أعرف في تاريخ مصر الإسلامية حتى نهاية الدولة الفاطمية أسرة كان لها من الأثر في الحياة العقلية والسياسية ما كان لباثني الأسرتين - أسرة عبد الحكم^(٢) قبل العصر الطولوني وأثناءه وأسرة النعمان في العصر الفاطمي ، فبنو عبد الحكم كانوا أساتذة المدرسة المالكية في مصر ، وكذلك كان بنو النعمان أساتذة مدرسة المذهب الفاطمي بمصر ، وكان بين بنى عبد الحكم من اتجه إلى التاريخ وتدوينه ، كذلك كان بين بنى النعمان من دون التاريخ . وكذا بنو عبد الحكم مفرين إلى الولاة في مصر ، كذلك كان بنو النعمان في مكة لا تقريباً مكة أخرى لدى أئمة الفاطميين ، فالأسرتان - بنو عبد الحكم وبنو النعمان - من أشد الأسرات أثراً في الحياة المصرية ، ولا سيما من الناحية العقلية .

أسس أسرة النعمان رجل عرف أنه من أشهر فقهاء المذهب الفاطمي ومن أكثرهم تأليفاً للكتب ، وتعد مؤلفاته من الأسس التي تبناها من جاء بعده من علماء هذا المذهب ، بل لا تزال بعض كتبه إلى اليوم من أهم الكتب وأقربها إلى طائفة البهرة الإسماعيلية ، هذا الرجل هو القاضي أبو حنيفة النعمان بن أبي عبد الله محمد بن منصور بن حيون أقيمى المغربي ، ويعرف في تاريخ الدعوة الفاطمية باسم القاضي النعمان تمييزاً له عن سيده أبي حنيفة النعمان صاحب المذهب السني المعروف . اختلف الناس في تاريخ مولده فذهب بعضهم مثل الأستاذ جوثيل إلى

(١) راجع ما كتبناه عن بنى النعمان في مقالة كتاب الحق في آداب اتباع الأئمة - (طبع دار الفكر العربي)

(٢) راجع ما كتبناه عن بنى عبد الحكم في كتاب أدب مصر الإسلامية - مصر الولاة

أنه ولد سنة ٢٥٩هـ^(١) وتبعه الأستاذ ماسينيون في ذلك الرأي . ولكن الأستاذ أصف فيظني خاطئهما وذهب إلى أنه ولد في العشر الأخير من القرن الثالث^(٢) وليس لدينا ما يرجح أحد الرأيين ، بل نصح بأنه لم يصلنا شيء عن نشأته الأولى ولا عن آبائه وأسرته إلا مارواه ابن خلكان : أن والده أبا عبد الله محمد قد عمر طويلاً ، وأنه كان يحكي أخباراً كثيرة نفيسة حفظها في كبره ، وتوفي في رجب سنة ٣٥١ وصلى عليه ولده أبو حنيفة النعمان ودفن بأحد أبواب القبروان^(٣) لحياة الأسرة غامضة أشد الغموض ، ولم يحفظ التابع شيئاً عنها ، ولا أدري من أين استقى الأستاذ جوئيل مارواه من أن والده النعمان كان من رجال الأدب ، إلا إذا كان قد فهم من نص ابن خلكان ذلك .

وليس لدينا شيء عن حياة النعمان قبل قيام الدولة الفاطمية سنة ٢٩٦هـ وقبل اتصاله بعبيد الله المهدي الفاطمي مؤسس الدولة الفاطمية ، إلا أنه كان مالكي المذهب وتحول إلى المذهب الفاطمي^(٤) ، ولكن مؤرخي الشيعة الاثني عشرية قالوا : إن النعمان كان مالكي المذهب ثم تحول إلى الشيعة الاثني عشرية ثم انتقل إلى الإسماعيلية الفاطمية^(٥) وينهب أبو المحاسن إن أنه كان حتى المذهب قبل أن يمتنع المذهب الفاطمي^(٦) . ولكن إذا أمعنا ننظر في هذه الخلافات وجدنا أن الأرجح هو مارواه ابن خلكان ، فالمذهب المالكي هو المذهب الذي كان يسود شمال إفريقيا والأندلس ، هل أن المذهب الحنفي كان قليل الانتشار بين المسلمين في إفريقيا وفي مصر أيضاً ، وأن عامة تلاميذ مالك كانوا مصريين ، ومن مصر انتقل هذا المذهب المالكي إلى شمال إفريقيا والأندلس وساد هذه البلاد حتى قل أن نجد فيها مذهباً آخر من مذاهب أهل السنة ، فن المرجح أن النعمان كان على مذهب أهل بلاده ، أما ما يذهب الأستاذ أصف فيظني أن النعمان كان إسماعيلي المذهب منذ نعومة أظفاره وأنه اتخذ التقي والستر خوفاً على نفسه

(١) ٢٨ O.S. 1907 pvol. XXVII p.227

(٢) LRS. 1 1 P.34

(٣) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٦٦

(٤) المصدر نفسه

(٥) السندوك ج ٣ ص ٣١٣

(٦) الجرم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٢

وعلى منعه فهو كلام يحتاج إلى ما يؤيده ، وكذلك لم يتحدث أحد من المؤرخين الذين ذكروا النعمان عن إسماعيليته إلا بعد صلته بالمهدى سنة ٣١٢ هـ أى بعد أن أظهر المهدى نفسه في المغرب ومزمز الأغالبة واحتل ديارهم . دخل النعمان في خدمة المهدى واتصل به ، ولا ندرى نوح الخدمة التي كان يؤديها ولا الصلة التي اتصلها به ، ولكن بعد وفاة المهدى اتصل النعمان بالقائم بأمر الله طوال مدة حكمه . وفي أواخر أيام القائم ولي النعمان قضاء مدينة طرابلس الغرب أما قبل ولايته قضاء طرابلس فلا نكاد نعرف عنه شيئا . ولما بنى المنصور مدينة المنصورة كان النعمان أول من ولي قضاها بل ولاه المنصور القضاء على سائر مدن إفريقية .

وأصبح النعمان شديد الصلة بالإمام الفاطمي مقيما عنه ، وظل قاضى قضاء هذه المدن ومن تحته قضاتها ، إلى أن ولي المعز لدين الله الإمامة فاشتدت صلة النعمان به حتى إنه كان يحالسه ويسايره وقل أن يفارقه بعد أن كان مستوحشا منه عقب ولايته . ولكن المعز طلب إليه أن يكون في هده كما كان في عهد أبيه المنصور بالله ، ثم قويت الصلة بين المعز والنعمان حتى أصبح النعمان جليسه ومسايره ، ووضع النعمان كتابه المجالس والمسائرات جمع فيه كل ما رآه وما سمعه من إمامه المعز . ولما رحل المعز من إفريقية إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ أصطحب معه إلى النعمان ، وكان النعمان إذ ذاك قاضى الجيش ، وكان من الطبيعي أن يظله النعمان قضاء مصر ، ولكن المعز بعد أن استقر بمصر ترك القضاء لأبي طاهر النحل محمد بن أحمد الذي كان على قضاء مصر منذ سنة ٣٤٨ هـ وطلب إلى أبي طاهر أن يحكم بفقهاء الفاطميين ، فكان لابد للقاضى من أن يسترشد في أحكامه بالقاضى النعمان ، وما زال كذلك حتى توفي النعمان سنة ٣٦٣ هـ .

ويقول ابن حجر : إن النعمان كان يسكن مصر أى القسطاط ويندو منها إلى التلمعة في كل يوم^(١) . ويرى ابن خلكان من المسيحي أن النعمان كان من أهل العلم والنفقة والدين والتبلي لا مالا مزيد عليه^(٢) ، وقيل ابن خلكان عن ابن زولاق

(١) دفع الإصرى ١٣٦ ب نسخة خطية بدار الكتب المصرية .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ .

أن الثمان بن محمد القاضي كان في غاية الفضل من أهل القرآن والعلم بمآنيه .
وعالما بوجوه الفقه وعلم اختلاف الفقهاء واللغة والشعر والفعل والمعرفة بأيام
الناس مع عقل وإضاف (١) . وكل من تحدث عن الثمان من المؤرخين يذكر
فضله وأعله وسعة ثقافته ، فلا غرابة إذن أن نرى هذه الكتب الكثيرة التي
ألفها الثمان والتي أمرت بحرقها في المذهب القاطمي بل أصبحت
الأصل الذي يستقى منه علماء المذهب ، فلا أكلد أعرف عالما من علماء الدعوة
القاطمية لم ينجح الثمان في قهره أو اختلف معه في رأى في المحائل الفقهية ،
وغير يكون ذلك لأن الثمان قال في كتابه المجالس والمساربات : إن الإمام المعز
لدين الله طلب إليه أن يلقي على الناس شيئا من علم أهل البيت ، غالفت الثمان
كتبه ، وكان يعرضها على المعز فصلا فصلا وبابا بابا حتى أتىها ، فهو يقول مثلا .
أمرني المعز لدين الله (صلح) بجمع شيء لخصه لي وجمعه وقنع لي بمآنيه
وإسطلت جلته فابتدأت منه شيئا ثم رفضه إليه ، واعتذرت من الإبطاء فيه
لما أردته من إحكامه ورجوته من وقوع ما جمعته منه بموافقه . (ص) فطالمت
في عقده ، فوقع لي : يا ثمان لا تبال كيف كان القدر مع إشباع في إيجاز ،
فكلما أوجزت في القول واستقصيت المعنى فهو أوفق وأحسن ، والذي خشيت
من أن يستعجلا في تأليفه فوافقه لولا توفيق الله عز وجل إياك وعونه لك لما
تعتقد من النية ومحض الولاية لما كنت تستطيع أن تأتي على باب منه في أيام
كثير ، ولكن النية يصحبها التوفيق (٢) .

وفي كتابه هذا كثير من النصوص التي تدل على أنه كان يعرض كتبه
على المعز قبل إذاعتها ونشرها بين الناس ، كما أنه كان يقرأ مجالس المحكة التأويلية
ومن هنا لقبه ابن زولاق بالداعي (٣) وليس لدينا من النصوص ما يثبت أن
الثمان كان من العامة ، ولأن كان مؤرخو المذهب المحدثون مثل الداعي إدريس
يحدثنا في كتابه عيون الأخبار أن الثمان كان في مكة رفيعة جدا قرية من الأئمة ،

(١) ابن خلكان .

(٢) المجالس والمساربات ورقة ٧٠ ب .

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ .

وأنه كان دعاية من دعائم الدعوة، ولكنه لم يصرح بأن النعمان ولي مرتبة داعي الدعوة، ويحيل إلى أن النعمان كان داعية في سياسة التقرب إلى الأئمة، وأنه استمع بجله وحقاقته أن يجنب إليه قلوبهم، فقرر به إليهم وعرف أسرارهم ونياتهم فوضع هذه الكتب الكثيرة وادعى أن الأئمة هم الذين فتوه إياها، بل لعل لا أغال إذا قلت: إن النعمان هو أول من دقق فيه المنصب الفاطمي، فلا أكاد أعرف قريبا من فقهاء المنصب قبله كتب في هذا الفن، وبين يدي الآن كتاب المرشد إلى أدب الإسماعيلية وهو ثبت لأسماء المؤلفين والكتب الإسماعيلية، وأمامي فهرست ابن التميمي، وبمجموعة خطية قديمة مؤلف مجهول جمع فيه أسماء الكتب التي ألقت منذ أوائل الدعوة الإسماعيلية، فلم أضر في هذه الكتب كلها على كتاب واحد في الفقه الإسماعيلي قبل القاضي النعمان ابن محمد. فلا غرو أن يعرف المعز فضل هذا العالم وأن يرفعه إلى أعلى الدرجات، ولا سيما أن النعمان ذكر في كتيبه أنه اقتبس هذه العلوم من الإمام !! حق قال المعز عن النعمان: من يؤدى جزءا من مائة مما أداه النعمان أحنى له الجنة بجوار ربه (١) ومجدنا المؤيد في الدين في سيرته أن الوزير البيازوري قال له: إن النعمان بنى هذا الأمر وإن أحق الناس بمكانه أبنائه (٢) فالنعمان إذن قد أدى الدعوة الفاطمية هذا الفضل الذي عرفوه له، إذ لا يزال علماء الدعوة يعيشون على الفقه الذي وضعه لهم النعمان، وربما على التأويل الذي ذكره في كتيبه.

لننظر الآن إلى هذه الكتب التي وضعها النعمان لأهل الدعوة، فيقول ابن خلكان: إن النعمان ألف لكل البيت من الكتب آلاف أوراق بأحسن تأليف وأملح سجع، وعمل في المناقب والمثالب كتابا حسنا، وله ردود على الحنابلة، له رد على أبي حنيفة وعلى مالك والشافعي وعلى ابن سريج، وكتاب اختلاف الفقهاء يقتصر فيه لأهل البيت، وله القصيدة الفخمية التي كتبها بالمتنجة (٣).

(١) كتاب عيون الأخبار ج ٦ ص ٤١.

(٢) السيرة المؤيدة.

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦.

ومبرد الأستاذ إيفانوف مؤلفات القاضي النعمان فإذا بها نحو أربعة وأربعين كتاباً بعضها لا يزال يحفظ به أتباع الذهب وم طائفة البهرة ، ومنها كتب جثر على بعض أجزائها ومنها ما قد ولم يعرف إلا أسماءه ، ولا تعرف مكتبات أوروبية إلا ستة كتب من كتب النعمان هي :

(١) جزء من كتاب شرح الأخبار بمكتبة برلين ، وأحضرت دار الكتب المصرية صورة قنوغرافية منه .

(٢) كتاب دعائم الإسلام بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن ، وفي دار الكتب المصرية صورة قنوغرافية منه .

(٣) تأويل دعائم الإسلام بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن ، وفي مكتبة جامعة القاهرة صورة قنوغرافية منه .

(٤) أساس التأويل بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن .

(٥) جزء من كتاب المجالس والمسايرات بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن ، وفي مكتبة جامعة القاهرة .

(٦) كتاب الهمة في اتباع الأئمة بمكتبة مكتب الهند بلندن . وعندي نسخة خطية منه .

ويعتفظ أصحاب الدعوة الآن في مكتباتهم الخاصة بالكتب الآتية :

(١) افتتاح الدعوة ، وعندي نسخة خطية منه كما تحتفظ مكتبة جامعة القاهرة

بصورة منه (٢) كتاب الإيضاح (٣) كتاب النبوع (٤) مختصر الآثار

(٥) كتاب الطهارة (٦) القصيدة المختارة (٧) القصيدة المنتخبة (٨) منهج

الفرائض (٩) الرسالة ذات البيان في الرد على ابن قتيبة (١٠) اختلاف أصول

المذاهب (١١) كتاب التوحيد والإمامة (١٢) مناقب بني هاشم (١٣) تأويل

الرقيا (١٤) مفاتيح النعمة .

أما كتبه التي لم يشر عليها وعرفت أسمائها هي :

(١) مختصر الإيضاح (٢) كتاب الأخبار (٣) كتاب الاقتصاد (١٤) كتاب

الاتفاق والافتراق (٥) كتاب المختصر (٦) كتاب يوم ولية (٧) كتاب

كيفية الصلاة (٨) الرسالة المصرية في الرد على الشافعي (٩) كتاب في الرد على أحمد بن سريج البغدادي (١٠) دافع الموجز في الرد على المتكي (١١) نهج السيل إلى معرفة علم التأويل (١٢) حدود المعرفة في تفسير القرآن والتبني على التأويل (١٣) كتاب إثبات الحقائق في معرفة توحيد الحقائق (١٤) كتاب في الإمامة في أربعة أجزاء (١٥) كتاب التعاقب والانتقاد (١٦) كتاب النفاة (١٧) كتاب الحل والسياب (١٨) كتاب الشروط (١٩) أرجوزة ذات المنوحي في سيرة الإمام المعز (٢٠) أرجوزة ذات المحن وهي في تاريخ ثورة أبي يزيد محمد بن كيداد (٢١) كتاب معالم المهدي (٢٢) كتاب منامات الآئمة (٢٣) كتاب التفرع والتعنيف .

هذه هي الكتب التي تركها النعمان بن محمد ، ولعل أهم كتاب غاله له هو كتاب دعائم الإسلام ، في ذكر الحلال والحرام ، والتضياع والأحكام ، وهو الكتاب الذي أمر الظاهر بأن يحفظه الناس ، وجعل لمن يحفظه مالا جزيلا ، ويشتمل هذا الكتاب على جميع فقه الفاطميين ، فدعائم الإسلام عندم الولاية والطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد ، وكل فريضة من هذه الفرائض لها أصولها وفروعها وآدابها فهو يتحدث عن ذلك كله بشيء من الإطناب ، ويروي عن كل فريضة ماورد عنها في القرآن الكريم وفي الأحاديث النبوية وما جاء عن الآئمة ، ومن يقرأ هذا الكتاب ويقارن بين الفقه فيه وبين فقه مالك لا يكاد يجد اختلافا إلا في بعض أمور لا تمس الدين في شيء ، اللهم ما ورد في القسم الخاص بالولاية .

والفصل الخاص الذي في أول الكتاب يتحدث فيه عن الإيمان وجعل بالولاية شرطا أساسيا للتؤمن ، أما ما سوى ذلك من أحكام فرائض الدين وسننه والمعاملات وغيرها فلا تختلف عن الأحكام الشرعية عند المالكية . وتظهر قيمة هذا الكتاب عند علماء المنصب - منذ عرف هذا الكتاب - إذ عرفنا أن طائفتين من أكبر علمائهم ذكراه في كتبهما واعتمدا عليه ونوها به ، أما العالم الأول فهو أحمد حيد الدين بن عبيد الله بن محمد الكرماني المتوفى ٤١٢ هـ فقد ذكر في مقدمة كتابه « راحة العقل » الكتب التي يجب أن تقرأ قبل قراءة راحة العقل ، ومن هذه الكتب كتاب « دعائم الإسلام » ، وأما العالم الثاني فهو

المؤيد في الدين هبة الله بن موسى الشيرازي المتوفى ٤٧٠ هـ قد ذكر في السيرة المؤيدية ، أنه كان يعقد مجلسا عاما كل يوم خميس يقرأ فيه على السلطان أبي كاليجار البرقي فصول كتاب دعائم الإسلام ، ويعتبر هذا الكتاب الآن من أهم كتب الإسماعيلية على الرغم من أنه في علم الظاهر ، ويعد من كتبهم السرية التي لا يقرها إلا علماء المذهب قط .

وقد أتبعه القاضي النعمان بكتاب تأويل دعائم الإسلام واسمه الكامل : كتاب تربية المؤمنين بالتوقيف على حدود باطن علم الدين في تأويل دعائم الإسلام ، وهو في ذكر التأويل الباطني للأحكام والفرائض التي وردت في كتاب دعائم الإسلام ، وهو من أهم كتب التأويل عند الإسماعيلية ، وعليه اعتمد الدعوة بعد النعمان (١) ، وقد توفي النعمان قبل أن يتم هذا الكتاب . ومما يمكن من شيء فاقاضي النعمان يعد من أكبر علماء الدعوة وفيها الأضطرب ، وتوفي هذا الرجل بمصر سنة ٣٩٣ هـ

كان هذا للفقير رأس هذه الأسرة ومؤسسها ، وجاء بعده أبناءه وحفدته وعرفوا جميعا بالعلم والفقه ، وتولوا الدعوة والقضاء بعده .

٢ - ولد ابنه الأكبر أبو الحسين علي بن النعمان بالقاهرة في رجب سنة ٣٢٨ هـ (٢) وقدم مصر مع باقي أفراد الأسرة في حجة المزدلين لله وللملوك النعمان اشترك علي بن النعمان في قضاء مصر مع أبي طاهر النحل فظلا يقضيان حتى توفي الميرز وولي الميرز وعرض لأبي طاهر القاضي مرض الفالج ، فقوض الميرز الحكم إلى علي بن النعمان وذلك في صفر سنة ٣٦٦ هـ وظل منفردا بالقضاء وافر الحرمة عند الإمام الميرز حتى أصابته الحمى وهو بالجامع يقضي بين الناس ، قام من وقته ومضى إلى داره وأقام عيلا أربعة عشر يوما ، وتوفي يوم الاثنين لست خلون من رجب سنة ٣٧٤ هـ وصلى عليه الميرز ، وهو أول من لقب بقاضي القضاء في مصر ، وكان عالما فقيها مثل أبيه ، وكان شاعرا أورد له الثعالبي شيئا من شعره ، مثل قوله :

ولي صديقي ما صني عدم مذ وقعت عينه على عدى

(١) راجع ما ذكرناه عن ذلك في مقدمة كتب المجالس المستمرة :

(٢) راجع الإبرورقة ٨٠

أغنى وأتى فأ يكلفني قيل كف له ولا قدم
قام بأمرى لما قدمت به ونمت حسن حاجتي ولم ينم^(١)
ومن شعره ، وقيل يل من شعر أخيه محمد بن النعمان^(٢)

رب خود عرفت في عرفات سلبتي بحسبها حساتي
حرمت حين أحرمت نوم عيني واستباححت دمي بذى اللطافات
وأفاضت مع الحجيج ففاضت من جفوني سواقي العبرات
لم أزل من متى متى النفس حتى خفت بالخيف أن تكون وفاتي^(٣)
ومن شعره أيضا :

صديق لي له أدب صداقة مثله نسب
رعي لي فوق ما رعي وأوجب فوق ما يجب
فلو قتلت خلقتك لهرج عندها الذهب^(٤)

فإن هذه الآيات القليلة نستطيع أن ندرك أنه كان شاعرا رقيق الشعر عذب
الديباجة متلاعبا باللفظ ، ومن سوء الحظ أن شعره لم يصل إلينا كاملا حتى
نستطيع أن نكون رأيا دقيقا في تآخريته .

ولا أدري أيضا من أين استقى الأستاذ آصف فيظلي أن أبا الحسن علي بن
النعمان كان في مرتبة داعي الدعاة ، فليس لدى من النصوص ما يؤيد ذلك ، بل
الذي ذكره المؤرخون أن أول من أضيف إليه الدعوة من قضاة الناطقين
هو ولده الحسين بن علي بن النعمان علي نحو ما سنذكره بعد .

٣ - ولما توفي علي بن النعمان أرسل الإمام العزیز بالله إلى أبي عبد الله محمد
ابن النعمان يقول : إن القضاء لك من بعد أخيك ولا تخريج من هذا البيت^(٥)
وهكذا ولي مرتبة قاضي القضاء بعد أخيه ، ولكن في حياة أخيه ينوب عنه في
القضاء ، فإنه لما سافر العزیز بالله إلى حرب القرامطة سنة ٣٩٨ وسار على في صحبته

(١) بنية البحر للناظم ج ١ ص ٣٠٥

(٢) بنية البحر للناظم ج ١ ص ٣٠٦

(٣) حمية النصر للباغزلي ص ٨٨

(٤) بنية البحر ص ٣٠٥ ، وابن خلصكان ج ٢ ص ١٦٧ .

(٥) ابن خلصكان ج ٢ ص ١٦٧ .

لمستخلف أعاه محمداً في القضاء . ولد محمد بالمغرب سنة ٣٤٥ هـ^(١) وقدم القاهرة مع أفراد الأسرة ، وما زال بها حتى ولي القضاء وكان جيد المعرفة بالأحكام ، متقناً في علوم كثيرة ، حسن الأدب والنداية بالأخبار والشعر وأيام الناس^(٢) . وقد مدحه الشاعر عبد الله بن الحسن الجعفرى السمرقندى بقوله :

تعاذلت القضاة على أما . أبو عبد الإله فلا عدل
وحيد في فضائه غريب . خطير في مفاخره جليل
أنى بهجة ومضى اعتزاما . كما يتألق السيف الصقيل
ويضئ والسادد له حليف . ويمطى والغمام له زميل
لو اختبرت قضايه لقالوا . يؤيده عليها جبرئيل
إذا رقى المنابر فهو قس . وإن حضر المشاهد فالخليل
فما قرأ محمد بن النعمان هذه القصيدة كتب إلى الشاعر :

قرأنا من قريضك ما يروق . بدائع حاكها طبع رقيق
كان سطورها ووض أنيق . نضوح يبتها مسك قتيق
إذا ما أنشدت أرجعت وطابت . منازلها بها حتى الطريق
وإنا نأهون إليك فاعلم . وأنت إلى زيارتنا تنوق
غرواصلنا بها في كل يوم . فأنت بكل مكرمة حقيق^(٣)
وما يروى له أيضاً قوله :

أيا مشبه البدر بدر السماء . لبيع وخس مضت وانتين
ويا كمثل الحسن في نته . شملت قواذى وأسهرت عين
فهل لي من مطمع أرتجيه . وإلا انصرفت بخي حنين
ويشت في شامت في هواك . ويضغ لي ظلت صفر اليدين
فأما مقت وإما قلت . فأنت التقدير على الحاليتين^(٤)

وفي سنة ٣٧٥ عقد لابنه عبد العزيز بن محمد بن النعمان على ابنة القائد جرهر

(١) ربح الإصرى ١٢٩ (٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٨ .

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٨ (٤) المصدر نفسه

الصقل في مجلس العزيز ، ثم قرر ابنه هذا في نيابته عنه في الأحكام بالقاهرة ومصر
وعلى منزلة محمد بن النعمان عند الإمام العزيز باقية حتى إنه كان يصعد معه
على المنبر (١) وكان مهيأ محترماً ، حتى إن أحداً لم يكن يخاطبه إلا بسيدنا (٢)
حيروى ابن خلكان عن ابن زولاق المؤرخ المصرى : « ولم نشاهد بمصر قاض
من القضاة من الرياسة ما شاهدناه لمحمد بن النعمان ولا بلغنا ذلك عن قاض بالعراق
ووافق ذلك استحساناً لما فيه من العلم والصيانة والتخلف وإقامة الحق والهمة (٣)
فكانت هذه المكانة التي حظي بها هذا القاضي سبباً في أن ينقم عليه الوزير
يعقوب بن كلس . ويخيل إلى أن الوزير كان يخشى اتساع نفوذ بني النعمان لمحاول
ما استطاع أن يكسر شوكتهم وينقص من قدرهم ، فكان يعد إلى أن ينقض أحكام
القاضي ، ويروى ابن حجر العسقلاني عن المسيحي أن الوزير ابن كلس كان كثير
المعارضة لبني النعمان في أحكامهم ، (٤) وروى قصة تدل على مدى خوف الوزير من
اتساع سلطانهم ونفوذهم وما كان يضره لهم ، وبعد أن توفي العزيز باقية سنة
٣٨٥ وولى الحاكم بأمر الله ، أقر القاضي محمد بن النعمان على ما يده من القضاء ،
وزادت منزلته عنده رتبة . ولكن محمداً تراحم عليه العلل ، فتوفي ليلة الثلاثاء
رابع صفر سنة ٣٩٩ وصلى عليه الحاكم ووقف على دفنه ، وحزن الحاكم لوفاته
فلم يول أحداً مرتبة القضاء إلا بعد شهر ، فقلد القضاء أبا عبد الله الحسين بن
علي بن النعمان .

٤ — ولد أبو عبد الله الحسين بن علي بن النعمان بالمهديّة سنة ٣٥٣ هـ وقدم
مع أسرته إلى القاهرة المهزبة ، ومهر في علوم الفقه حتى صار أحد أقطاب فقهاء
المذهب الفاطمي ، وكان ينوب أحياناً عن عمه محمد بن النعمان في القضاء حتى ولىه
بعد وفاة عمه . وفي صفر سنة ٣٩١ بينا كان القاضي جالساً في الجامع بمصر . قرأ
عليه الفقه أقيمت صلاة العصر فقام يؤدى الفريضة ، وبينما هو في الركوع إذ
هجم عليه رجل مغربي وضربه بمنجل في رأسه ووجهه ، لحمل القاضي جريحاً إلى
داره ، وظل حتى انقضى جرحه ، فصار من ذلك اليوم يحرسه عشرون رجلاً

(٢) السكندى ص ٥٩٤

(٤) وقع الإصر ص ١٢٩

(١) ابن خلكان ج ٢

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ١٩٨

بالسلاح ، وكان إذا صلى وقف خلفه الحرس بالسيوف حتى يفرغ من الصلاة ثم يصلي حره ، ولا تكاد نسمع أن قاضيا من قضاة المسلمين في التاريخ الإسلامي كله كان يصلي والشرطة تحرسه غير الحسين بن علي بن النعمان . وزاد الحاكم في إكرامه حتى أمر أن يضاف له أرزاق عمه وصلاته وإقطاعاته ، وغرض إليه الخطابة والإمامة بالمساجد الجامعة ، وولاية الدعوة وقراءة مجالس الحكمة والتأويلية بالتصبر وكتابتها وهو أول قاض أضيفت إليه الدعوة من قضاة الفاطميين^(١) ويظهر أنه في ذلك الوقت دب ديب الشقاق بين أبناء هذه الأسرة فهذا القاضي طالب ابن عمه عبد العزيز بن محمد بن النعمان يبعث ودائع كانت في الديوان أيام ولاية محمد بن النعمان على القضاء ، وتشدد القاضي في مطالبة ابن عمه بهذه الدائع حتى أزمه أن يبيع كل ما تملكه أبوه سدا لهذه المطالبة ، ولست في مركز يسمح لي أن أقول : أكان تشدد القاضي عنود ودين أم عن حسد وغيره وشقاق بين بني الأعمام . ومهما يكن من شيء فقد صرف هذا القاضي عن رتبة القضاء والدعوة في رمضان سنة ٣٩٤ هـ ، وأمر الحاكم بحبسه ثم ضربت سجنه مطلع سنة ٣٩٥ هـ وهكذا لقي حقه بيد الحاكم ، بعد أن كان مكرما لديه مقربا إليه .

هـ - وولى القضاء بعده ابن عمه عبد العزيز بن محمد بن النعمان المولود في أوائل ربيع الأول سنة ٣٥٥ هـ وهو الذي كان ينوب عن أبيه في القضاء ، وكان طالما من علماء الدعوة الفاطمية ينسب إليه كتاب البلاغ الأكبر والناموس الأعظم في أصول الدين ، وهو الكتاب الذي رد عليه القاضي أبو بكر الباقلاني^(٢) . وقيل : إن هذا الكتاب من تصنيف عمه علي بن النعمان ، ومهما يكن من شيء فالقاضي عبد العزيز بن محمد هو أول من ولى النظر على دار العلم^(٣) ، وكان يجلس في الجامع ويقرأ على الناس كتاب جده النعمان واختلاف أصول المذاهب ، وعلى الرغم من أنه خص بمجالسة الحاكم ومسايرته فإنه لم ينج من نزوات الحاكم وقتلته ، فخرجه عن القضاء سنة ٣٩٨ هـ ثم اعتقه في السنة التالية ثم صفا

(١) الكنتى ص ٥٩٦ وما بعدها

(٢) الكنتى ص ٦٠٤ .

(٣) المعبر عنه .

عنه وأعاد إليه النظر في المظالم وخلع عليه ، وفي سنة ٤٠١ هـ اضطرب هذا القاضى إلى أن يهرب من وجه الحاكم هو والقائد الحسين بن جهر الصقلى ، فساد الحاكم بيوتهما وحل كل ما كان فيها ، ثم كتب الحاكم لها بالأمان وخلع عليهما ، ولكنه أمر بعد ذلك بقتلها في ثاني عشر جمادى الآخرة سنة ٤٠١ هـ .

وبعد هذه المأساة ضعف أمر بنى النعمان وسادت حاكمهم ، ولم تبق لهم تلك السطوة ولا ذلك النفوذ ، حتى إن القاسم بن عبد العزيز بن محمد بن النعمان ولى القضاء سنة ٤١٨ هـ ولكنه لم يملك في هذه المرتبة سوى عام وشهرين ، وأعيد مرة أخرى إلى القضاء سنة ٤٢٧ هـ وأضيفت إليه الدعوة ويقول عنه المؤيد في الدين : « وتوجهت إلى الموسم بالقضاء والدعوة ، وهو يومئذ القاسم بن عبد العزيز بن محمد بن النعمان رحمه الله وإيانا ، فرأيت رجلاً يصلح لبلسان نبيه في الصناعة التى رسم بها دون لسان سيده ، فارغاً مثل فؤاد أم موسى عليه السلام ، وفيه جنون يلوح من حركاته وسكناته » (١) وعزل القاسم عن هذه المراتب سنة ٤٤١ هـ ويعد ثلثا المؤيد أن نساء بنى النعمان تشفعن للقاسم عند أم المستنصر والحفص عليهما بالسؤال لإعادته ، فعينه الوزير اليازورى ٤٤٢ هـ نائباً له في الدعوة ، فقبل القاسم أن يكون نائباً لداعى المطاة بعد أن كان أصلاً في هذه الخدمة ، واستمر للقاسم بن عبد العزيز نائباً لليازورى في مرتبة الدعوة حتى أقعده المرض ، فأصاب ابنه محمد بن القاسم في الدعوة بدله ، واستمر محمد نائباً عن والده في نيابة الدعوة حتى سنة ٤٥٠ هـ . ثم لم تعد نسمع شيئاً عن هذه الأسرة التى ظلت زهاء قرن في مكانة رفيعة عالية وفى اتصال بالأئمة الفاطميين ، كما كان لهذه الأسرة أثرها فى بعث القمائد الفاطمية فى قفوس الناس بما ألقوه من كتب وما ألقوه من مجالس الدعوة وبما كانوا يحكون به فى القضايا على حسب فهم المذهب الفاطمى الذى وضعه لهم النعمان بن محمد مؤسس هذه الأسرة .

٢ - يعقوب بن كلس

ومن أشهر علماء الدعوة الفاطمية الذين كان لهم أثر قوى فى الحياة العقلية

(١) الحيرة المؤيدية .

بمصر أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلث ، ولد ببغداد في أسرة يهودية ، ونشأ بها حيث درس شيئاً من الكتابة والحساب واتخذ التجارة متكسباً له ، شأن غيره من أبناء جلدته الذين لا يتورعون عن كسب المال بشق الطرق والوسائل ، ثم رحل مع أبيه إلى الشام في بعض مسائل تجارية فنزل مدينة الرملة وأقام بها فصار وكيلًا للتجار بها ، ثم فر منها إلى مصر . قيل : إن سبب ذلك أنه اجتمع قبله مال عجز عن أدائه فهرب ^(١) وقيل بل أرسله أبيه إلى مصر للتجارة بها ^(٢) ومهما يكن من شيء . فقد وفد يعقوب على مصر إبان ولاية كافور الإخشيدي ، فاستطاع بذكائه وكياسته أن يتصل بكافور ، وأظهر من علو النفس والجد ما جعل كافورًا يقربه إليه ويثق به حتى اشتمت صلة يعقوب بكافور ، فعرض عليه كافور الإسلام ، فترك يعقوب اليهودية ودخل دين الإسلام ، وذلك يوم الاثنين لثاني عشرة ليلة خلت من شعبان سنة ٢٥٦ وازم التعبد ودراسة القرآن ، ورتب لنفسه رجلاً من أهل العلم يدرس له أصول الدين الإسلامي ، وكانته في ذلك الوقت كان يتطلع إلى ما وصل إليه بعد ذلك ، فعمل على إتمام النص الذي كان يشعر به ، وهو يهوديته السابقة ، فأراد ألا يرى بضعف إسلامه إذا بلغ ما تأقت إليه نفسه ، فاجتهد في الدرس والتحصيل حتى بلغ فيهما درجة عالية ، وكان في بالوزير أبي الفضل جعفر بن الفرات المعروف بابن خزابة وزير كافور عرف ما كان يرى إليه يعقوب ، فغشى من صلة كافور بهذا اليهودي الناجر ، فإنه بعد أن أسلم يعقوب بن كلث اشتد مقت ابن خزابة له ، فنصب له الحبال لإخراجه من البلاد ، فلما توفي كافور سنة ٢٥٧ قبض ابن الفرات على جميع الكتاب وأصحاب الدواوين وطلب يعقوب بن كلث فوجده قد هرب إلى المغرب ، واتصل يعقوب بالمز لدين الله ، قربه المز إليه وصحبه معه إلى مصر بعد أن فتحها الفاطميون . وقيل : إن ابن كلث هو الذي أطلع المز على أمراد مصر وسهل له أمر فتحها بعد أن استعصت على جيوش الفاطميين من قبل . وبعد أن استتب الأمر في مصر للمز وقتل حامية ملكه إلى مدينة القاهرة ، ولي يعقوب بن كلث الخراج وجمع وجوه الأموال والحسبة وذلك في سنة ٢٦٣ هـ

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٢٢

(١) الفريزي ج ٣ ص ٧

ومن مثل ابن كلثوم يصلح الأمر المال !! فاستمر في عمله حتى سنة ٣٦٥ هـ فقد زادته صلته بالمعز واكتسب به وقته ، فولاه المعز النظر في جميع أموره في قصره . وبعد قليل توفي المعز لدين الله ففوض المعز بالله ، يعقوب النظر في سائر أموره وجعله وزيراً له ، وذلك في المحرم ٣٦٧ هـ ، وفي رمضان ٣٦٨ هـ خلع المعز عليه ، ولقبه بالوزير الأجل ، فكان يعقوب بن كلثوم أول وزير في مصر الفاطمية ، ويروي ابن زولاق مؤرخ مصر ومناصر ابن كلثوم أنه لما خلع على الوزير يعقوب بن كلثوم وكان مكيناً من العزيز وكنت حاضراً مجلسه ، قلت أيها الوزير : روى الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود أنه قال حدثني الصديق رسول الله ﷺ أن الشقي من شقي في بطن أمه ، والسعيد من سعد في بطن أمه ، وهذا علو سماوي ، فقال الوزير : ليس الأمر كذلك وإنما أفعالي وتوفيري وكفايتي ونيايتي ونيتي وحرصى الذى كلن يهيج ويناب ، قد مات قوم من كان يوقى قوم . وكان هذا القول بحضرة القوم الذين حضروا قراءة السجل التى خرج من العزيز في ذكر تشريفه ، قال ابن زولاق : فأمسكت ، قلت : وفق الله الوزير ، إنما رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً صحيحاً . وقت وخرجت وهو ينظر إلى ؛ وحدثني أبو عبد الله الحسين بن إبراهيم الحسيني قال : عاتبت الوزير على ما تكلم به قلت : إنما روى حديثاً صحيحاً بجميع طرقه ، وما أراد إلا الخير ، فقال الوزير : خفى عنك ، إنما هذا مثل قول المتنبي في كافور :

وقه سر في علاك وإنما كلام العدا. حارب من الهذيان

وأجمع الناس على أن ذلك هو في كافور لأنه أعلم أنه أقدم بنير سب ، وابن زولاق هجاء على لسان صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم ، فما أمكنني السكوت ، وكان في نفسي شيء . لجلست كلامه سبياً (?) فركب النقص عند يعقوب دفعه إلى أن يستعد أن تنته ابن زولاق هجاء له ، وشعوره يهوديته الأولى . وأنه أصبح وزيراً مقرباً إلى إمام من أئمة المسلمين دفعته إلى أن يتمنى في دراسة

الدين الإسلامي حتى أصبح علماً من أعلام علماء الدولة الفاطمية . ومع ذلك
عقبن لا ندرى السبب الذي من أجله اعتقل الوزير في التبر سنة ٣٧٣ هـ عدة
أشهر ، فالنورخون لم يذكرها لنا شيئاً عن ذلك ، ثم نرى العزيز يطلقه سنة
٣٧٤ هـ ويأمر بحمله على عدة خيول ، وقرئ سجل يرده إلى تدبير أمور الدولة
مرة أخرى ، ووجه العزيز بحماية غلام من الناشئة وألف غلام من المغاربة ،
فأنتمت دائرته وعلقت مكاتبه حتى كتب اسمه على الطرز وفي الكتب (١) .

بجانب هذه المكاة الرقيقة التي بلغها الوزير يعقوب بن كس ، وهذا السلطان
القوي الواسع الذي أحرزه ، كان هذا الوزير عباً للعلم والعلماء مشجعاً لمن طلب
العلم ، يصدق المنح والخطايا للكتاب والشمراء ، ويروي ابن خلكان : : كان
يعقوب يجمع عنده العلماء ، وكان في داره قوم يكتبون القرآن الكريم وآخرون
يكتبون كتب الحديث والفقه والأدب والطب ويعارضون ويشكلون المصاحف
وينقطعونها ، وكان ينصب كل يوم خزانة خاصة من أهل العلم والكتاب
وخراس أتباعه (٢) فكان من عادة جلساته الحسين بن عبد الرحيم المعروف
بالزلازل مصنف كتاب الاسجاع (٣) والقيمي المقدسي الطيب الذي صنف
لوزير كتاباً ضخماً في عدة مجلدات سماه «مادة البقاء بإصلاح فيباد الهواء
والتحرز من ضرر الأوباء» (٤) وأخذ الوزير علم المروض عن شيخه البديهي
وبفضحه وهدايته قال الشعر (٥) وبلغ هو نفسه في علم الفقه الفاطمي درجة أهله
لأن يؤلف الكتب ويقعد مجالس التأويل ، فقد رتب لنفسه مجلساً في كل ليلة
جمعة يقرأ فيه مصنفاته على الناس ، وكان يحضر هذا المجلس القضاء والفقهاء
والقراء والنحاة وجميع أرباب الفضائل والمدول وغيرهم من وجوه الدولة (٦) ،
كان نصب مجلساً في داره يحضره في كل يوم ثلاثاء الفقهاء والمتكلمون وأهل
الجليل للناظرة بين يديه (٧) فرعايته للعلم والعلماء ساعده على أن يؤلف هذه

(١) القرزى ج ٣ ص ٨ . (٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٣٤ .

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٣٤ . (٤) أخبار الحكماء ، لعنقل ص ٧٤ .

(٥) الإشارة لك من قال الوزارة ص ٢٢ . (٦) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٣٤ .

(٧) القرزى ج ٢ ص ٣٣٤ .

الكتب التي قرأها على الناس و التي منها كما ذكر باقوت (١)
 (١) كتاب في القراءات (٢) كتاب في علم الأبدان وصلاحها (٣) كتاب في
 الفقه بما سمع من المزمز والعزري (٤) كتاب في الأديان وهو في الفقه (٥) مختصر
 الفقه وهو المعروف بالرسالة الوزيرية (٦) كتاب في آداب رسول الله صلى الله
 عليه وسلم . هذه بعض الكتب التي ألفها هذا الوزير . ويقول إبن خنوف : إنها
 قصت جميعها ولم يبق منها إلا الرسالة الوزيرية في مختصر الفقه ، وهو الكتاب الذي
 طلب الإمام الطاهر إلى الناس أن يحفظوه ، وشجع على ذلك بترتيب أموال لمن
 حفظه (٧) ويحدثنا المقرئ أن الناس كانوا يفتون بكتابيه في الفقه ، ودرس فيه
 الفقهاء بجامع مصر ، وأن المزمز بالله أجرى جماعة قضاة كانوا يحضرون مجلس
 الوزير أرواكا كل شهر تكفيهم (٨) ، وقد ذكرنا أن هذا الوزير هو أول من
 جعل من الجامع الأزهر جامعة علمية ، ورتب لطلابها الأرواق . معنى هذا كله
 أن الوزير يعقوب بن كلس رعى العلم والعلماء ، فأتسمت بفضلته الثقافة ، وازداد
 الإقبال على العلم . وكذلك لقي الشعر على يديه التشجيع الذي لقيه العلم ، فقد كان
 الوزير بعد أن ينتهي من مجالسه العلمية يأذن للشعراء في إنشاده مدائحهم فيه (٩)
 وكان يندق عليهم الهبات والعطايا ، ولعل أكثر الشعراء مدحاه هو الشاعر
 أبو حامد أحمد بن محمد الأنطاكي المنبوز بأبي الرقيم وعبد الله بن محمد بن أبي
 الجوع ، فن قول ابن أبي الجوع ، وقد مرض الوزير من علة أصابت به :

يد الوزير هي الدنيا فإن أملت	رأيت في كل شيء ذلك الأمل
تأمل الملك وانظر فرط علة	من أجله ، وأسأل القرمطاس والقلبا
وشاهد البيض في الأغناد هامة	إلى العدا وكثيرا ماروين حما
وانفس الناس بالشكوى قد اتصلت	كأنما أشعرت من أجله سقما
هل ينفض المجد إلا أن يؤيده	ساق يقدم في لإنهائه قدما
لولا العزيز وآراء الوزير مما	تحيفتا خطوب تضعب الأما

(١) سيم الأدباء ج ١٠ ص ١١٨ طدار الأول .

(٢) خط المقرئ ج ٧ ص ١٦٦ (٣) خط المقرئ ج ٣ ص ٩

(٤) المصدر السابق

(٥) المصدر السابق

قل لهذا وهذا أنتما شرف لا آمن الله ركنيه ولا انهدما
كلا كالم يزل في الصالحات يدا مبسوطة ولنا ناطقا وفا
ولا أصابك أحداث دمركا ولا طوى لك ما عشتا علما
ولا انمحت عنك يا مولاي غاية قد عوت بما أوليتي العدا
ومن قول أبي الرصق :

إن يعقوب قد أقاد وأقني وأعاد الندى وأغنى الضميفا
سل سيفنا من البصرة والراى فأغضاه أن يسل السيوقا
بأذلا للعزيز دون حماه مهجة حرة ورأيا حنيفا
ما رأيت قط إلا رأيتنا خلقا طامرا وفلا شرفا
ورأيتنا قرما كبيرا هاما منعا مفضلا رحيا وموقا^(١)

ووجد بين شعراء مصر في ذلك الوقت من كان يهجو الوزير ابن كلس .
ويؤثنا ابن الأثير أن الشاعر الحسن بن بشر النمشقي هجا يعقوب بن كلس .
وهجا كاتب الإنشاء أبا نصر عبد الله الحسين القيرواني بقوله :

قل لأبي نصر صاحب القصر والمتأن ثقتن ذا الأمر
اقتن عر الملك للوزير تفز منه بحسن التناء والذكر
واعط أو امنع ولا تخف أحدا فصاحب القصر ليس في القصر
نرئيس يترى ماذا يراد به وهو إذا ما بدرى فما بدرى

فشكاه ابن كلس إلى الإمام العزيز وأشدته الشعر ، فقال له : هذا شيء .
اشتركنا فيه في الهجاء ، فشاركني في العفوة عنه ، ثم قال هذا الشاعر أيضا
وعرض بالفضل القائد :

تصر فالتصر دين حق عليه زماتنا هذا يدل
وقل بثلاثة عزوا وجلوا وعطل ماسواهم فهو عطل
فيعقوب الوزير أب وهذا العزيز ابن وروح القدس فضل
شكاه يعقوب إلى العزيز فامتعض منه إلا أنه قال : اعف عنه . فصفا عنه ، ثم

دخل الوزير على العزيز فقال له : لم يبق للعفو عن هذا معنى وفيه غض
من السياسة وتقض لبيعة الملك ، فإنه قد ذكرك وذكرني وذكر ابن زبارج
نديمك وسبك بقوله :

زبارجي نديم وكلس وزير
نعم على قدر الكفا يصلح الساجور

فغضب العزيز على هذا الشاعر وأمر بالقبض عليه ، ثم بدا للعزيز إطلاعه
فأرسل يستدعيه . وكان للوزير عين في التصرف فأخبره بذلك ، فأمر بقتل
الشاعر ، فقتل (١)

وهكذا كان لهذا الوزير أعداء كما كان له أخصاء ومحبون . وقد حزن
الناس حين ابتدأت عنته في الحادى والعشرين من شوال سنة ٣٨٠ هـ ونزل
إليه العزيز بالله يعوده وقال : « وحدث أنك تباع فأبتاعك بمالى أو تعدي
فأفديك بولدى » (٢) . وتوفى يعقوب بن كلس ليلة الأحد لخمس خلون من
ذي الحجة سنة ٣٨٠ هـ واجتمع الناس فيما بين القصر وداره لتشيعه إلى
مقره الأخير ، وخرج العزيز من القصر على بئلة ، والناس يمشون بين يديه
وخلفه بغير مظلة والحزن ظاهر عليه وأقام ثلاثا لا يأكل على مائدته ولا
يحضرها من عادته الحضور ، وأقام الناس عند قبر الوزير شهراً ، وغدا الشعراء
إلى قبره فقرأه مائة شاعر أجزوا كلهم . فهذا كله يدل على أنه كان للوزير
مكانة في نفس إمامه وفي نفوس معاصريه جميعاً ، وذلك لما عرف عنه
من إنصافه وكرمه وعلمه ، وما أظهره من شدة تمسكه بأهداب الدين الإسلامى
على منجى القوم .

٣ - المؤيد في الدين داعى الدعوة (٣)

وهل نستطيع أن نتحدث عن علماء الدعوة الفاطمية دون أن نتحدث

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٤٨ (٢) القرطبي ج ٣ ص ٩

(٣) راجع « ديوان المؤيد داعى الدعوة » وكتاب « النيرة المؤيدة » - طبع شره
الكتاب المصري .

عن هذا العالم الفنى بلغت علوم الدعوة البروة على يديه ، ذلك هو المؤيد فى الدين داعى الدعوة الذى عرف فى تاريخ الأدب العربى بمنظرته مع أبى العلاء الممرى فى تحرير أكل اللحم ، والذى أراد الأستاذ مرجوليوت المستشرق الإنجليزى أن يعرف شيئاً عن حياته لخائه التوفيق واكتفى بذكر اسمه دون حياته ، فعلى الرغم من أن المؤيد لم يكن مصرى المولد والنشأة فقد وفد على حضر ، وأقام بها زهاء ثلاثين عاماً ، واستمع له جمهرة من المصريين ، أخذوا عنه علوم الدعوة فأثر فى الحياة العقلية المصرية بمبادئه التى كان ينادى بها ، وفى مصر أخذ عنه ملك بن مالك قاضى الصليحيين باليمن فنقلت عن مصر علوم الدعوة إلى اليمن وأصبح اليمنيون يدينون للمؤيد بالأستاذية فى علوم الدعوة ، وفى مصر أنشد المؤيد أكثر قصائد ديوانه ، وألقى بحالته التى بلغت التامة مجلس ، فلا غرابة أن تحدث عنه فى كتابنا هذا ، وهو كتاب خاص بمصر .

اسمه حبة الله بن أبى عمران موسى بن داود الشيرازى ، وله بشيراز فى المشر الأخير من القرن الرابع من الهجرة فى أسرة اتخذت القيدة الفاطمية منجلاً لها ، وكان أبوه حبة جزيرة فارس أيام الحاكم الفاطمى ، فنشأ ابنه حبة الله ليأخذ مكانته فى الدعوة فى هذا الإقليم ، وأخذ منذ نشأته بالإمام بكل شيء يخص الدعوة وأسرارها ، وكاتب الحاكم بأمر الله بأن يولى ابنه حبة الله أمر فارس من بعده ، وبالفعل أصبح حبة الله حبة فارس بعد أبيه ، وما لبث أن أصبح يملك قوس أتباعه فاقادوا له الاقياد كله ، فكانوا يفشون إليه أسرارهم الخاصة حتى مع أهل بيته ، ويضعون فى سبيله بأرواحهم ، وكثر أتباعه حتى غشى السلطان أبو كاليجار البربرى سطوته ونفوذه ، ولم أن يقبه مراداً من شيراز ، ولكنه كان يخاف ثورة أتباع المؤيد ، وبلغت كراهية السلطان أبى كاليجار للمؤيد أنه كان يكرهماع اسمه فى مجالسه . ولكن المؤيد فى الدين احتال حتى استطاع أن يتصل بأبى كاليجار ، وأن يجعل السلطان يستمع إليه وأن يعقد مجالس المناظرة بين المؤيد وعلماء المعتزلة والشيعة وأهل السنة ؛ فكان المؤيد يبرز على خصومه ومناظريه

فاضطرب السلطان أمام قوة بيانه ودافع حجة إلى أن يخضع للمؤيد . بل لأن يدخل في دعوته وأن يقعد مجلسا خاصا يلتقى فيه المؤيد على السلطان شيئا من علوم أهل البيت والفقه الفاطمي من كتاب مقام الإسلام للقاضي النعمان . كان ذلك كله سببا في غضب جمهور أهل السنة في فارس ولا سيما القضاة والعلماء ، فأخذوا يوغرون صدور المقرين من أبي كاليبجار وندما هم على المؤيد ، واتهموا فرصة واتهم الإيقاع به ؛ ذلك أن المؤيد زار أتاباه في مدينة الأهواز فوجد مسجدا قديما تهدمت جدرانها فأمر شيعته بتجديده وقش على عمارته بالنصب أسماء الأئمة الفاطميين وطلب من قبائه الأذان فيه « بحى على خير العمل ، أذان الشيعة ، وخطب يوم الجمعة باسم المستنصر الفاطمي ، نهر بالدعوة الفاطمية دون خشية وأعلن عصيانه في بلد يدين للعباسيين ، فما جعل قاضي الأهواز يرسل إلى الخليفة العباسي ببغداد ينعي الدولة العباسية وضياح خلافتها على يد المؤيد في الدين كما ثار أهل السنة على أبي كاليبجار وجه الوزير العباسي ابن المسلة موقفا من قبل العباسيين لقبض على المؤيد ، وكان أبو كاليبجار إذ ذاك يرزق إلى ملك بغداد ، فكان بين عاملين إما ضياح هذه الفرصة من يده في سبيل رعاية ذمة المؤيد ، وإما أن يضحي بالمؤيد في سبيل أطاعه . وأدرك المؤيد تردد أبي كاليبجار في هذا الأمر ، ولأسيا بعد أن قطع السلطان مجاهله الليلة مع المؤيد ، ورغبته عن لقاءه ، فلم يجد المؤيد بدا من الزوج عن وطنه . فسار غتفيا متجنبا الحارق العامة ، سالكا البراري والتفار حتى وصل إلى مصر سنة ٤٣٧ هـ . جاء مصر يدوده الأمل فيها سيكون عليه شأنه من جاه وسلطان وتوقير ، لأنه خدم دعوته بما لم يحدها به أحد من الدعاة قبله . وظام بأمرها حتى قيام ، ولكنه من جهة أخرى كان يعلم أن الأمر في مصر ليس بيد إمامه المستنصر . بل كانت السلطة كلها بيد أم المستنصر ووكلائها أمثال القسرى واليازورى وغيرهما . يصرح المؤيد بذلك في سيرته بقوله . « بلغت بحق النفس الباب الطاهر . مترجعا بين أمل ويأس ، ومتغنيا لمتقى ما يقفان من طرفي إيماء وإيناس ، فأما الأمل فن جهة خدمة ما ختم مثلها غيري ، حداني حاديا ، وقاداني

بالأهل والمرحّب مناديا . وأما اليأس من حيث علت أن المقصود خمس نوازل بالحجاب ، ووجه نهار ترقع بالسحاب ، وأن المسافة لعلها تقضي من الإضاعة في يم . وتؤوي من حيث أرادت غشا إلى غم أدخلوني من باب القاهرة المعزية إلى قصر الخلافة ، عمرها الله تعالى - فاستلت على جلبي العادة في مثله الأبواب . ولجت الروايات تحت قدمي إذ ترشفت ذاك التراب ، وأجلسوني حنية لأفني من غنية الهيئات ملأت جوانحي ، لما غشيت المسرة بمشاهدة ذلك المقام قلى وجوارحي ، ثم أدخلوني إلى الوزير المعروف بالفلاحى - رحمه الله - فرأيت شيخاً عليه من الوتر مسحة ، ومن الإنسانية سمّة ، فأدنى وقرب . وأكرم ورحب . فأخذوني إلى دورة كانت فرشت لي ، هي من الكرامة في الدرجة الوسطى من الحان . لا بالإكثار ولا بالإقلال^(١) وهكذا استقر بمصر واتصل برجالها وحضر مجالس الدعوة فيها . ولكن الوشايات لم تقطع عنه ، والداسنس تحاك حبالها حوله ، فكان يقربه الوزراء حيناً وييمونه حيناً آخر ، فمات في مصر بين الرضا والتضبط ، وكثيراً ما فكر في الرحيل عن مصر ، ولكن القوم لم يسمحوا له بالرحيل ، وكان يأمل أن يول مرتبة داعي الدعاة ولكنّها كانت قفر منه كلما حاول الإمساك بها ، وأخيراً عينه الوزير اليازورى رئيساً لديوان الإنشاء ، وزاد في معاشه . فتحسنت حاله ، فظل في هذا العمل إلى أن علم بقيام طغرل بك التركمانى لامتلاك بغداد . وهنا تظهر لنا موهبة المؤيد وتوقد ذكائه ، إذ أدرك أن التركانية خطر على الدولة الفاطمية وأنه إذا تم أمر بغداد لطغرل بك فإنه لا يتبقى عن غارة أملاك الفاطميين في بلاد الشام وأعلى الجزيرة ، فأصرع المؤيد في دمه هذا الخطر عن أملاك إمامه ، فكانت رجاء طغرل بك يستميلهم إلى الدعوة الفاطمية . كما واصل الباسيرى وغيره من رجال العباسيين الذين يحدقون على التركمانية ويحذرون تملكهم البلاد ، ووعد هؤلاء بإمدادات الفاطميين إن قاوموا طغرل بك ، أما الباسيرى ورجاله فرحبوا بالعمل باسم الفاطميين على حين لم يستحب رجل طغرل بك . فأقن المؤيد أن الحرب لاشك ناشبة بين الفاطميين

(١) • المدة المؤبدية • - طبع شركة الكتاب مصرى .

والتركية ، فتنشط الدعوة بين الوزاره ورجال مصر لحرب طغريك ، ووجدت دعوته قبولاً منهم وأعدت مصر الخلع والسلاح والعتاد والأموال ، وأنفقت الدولة على هذه الحلة أموالاً ذكرها المؤرخون في كتبهم ، وهي الأموال التي أدت إلى ضعف مصر اقتصادياً وجرتها إلى ما عرف بالشدّة العظمى ، وطلب من المؤيد أن يكون على رأس هذه القافلة لتسليم هذه الذخائر إلى البساسيري ، فاعتذر المؤيد ، ولكن المستنصر الفاطمي أصدر أمره بأن يكون المؤيد على رأس الركب فلم يسع المؤيد إلا الخضوع لأمر إمامه . وطلب المؤيد لأن يلبس خلع الوزارة فأبى وأمن في الإيلاء ، وهكذا بدأ المؤيد حياة جديدة ، حياة الرجل العسكري وحياة السياسي الداهية ، فقد خرج من مصر وليس معه جندي واحد وإنما كانت معه ذخائر وأموال وعتاد حربي ، ورسم له أن يصطنع من الأعراب وأمراء البادية ومن العرب والأكراد من يشاء . ويغريهم جميعاً بالأموال والألقاب من قبل الفاطميين ، فإذا كانت إنجلترا تعرف لأحد أبنائها وهو «لورنس» بخدماته في تأليب العرب على العثمانيين في الحرب العالمية الأولى ، وتشيد بذكر أعماله وتمجد بطورته ، فكيف ينسى المصريون المؤيد في الدين وقيامه بما عهد إليه من حفظ ممتلكات الفاطميين ، بل ماأداه من نشر الدعوة الفاطمية في بلاد لم تذكر الدعوة فيها من قبل ، وفي إعادة بلاد أخرى كانت خرجت عن الدعوة وسلطانها . لقد وصف لنا المؤيد في سيرته حركاته ومكاناته مع أمراء العرب . وكيف استسلم جميعاً للهووس معه في حرب التركية ومساعدته في طردهم من العراق ، حتى تكرّر الانتصار حوله ، وسارع أمراء الكوفة وواسط وحلب إلى الدعوة باسم الإمام المستنصر ، فاستطاع المؤيد بما تجمع حوله أن يتصر على طغريك في موقعة سنجار التي ذكرها الشاعر ابن حيوس في قصيدة منها :

عجبت لدعي الآفاق ملكا وغايته ينفذ الرصود

وهذا النصر الذي أحرزه المؤيد دانت له الموصل والجزيرة وديار بكر ، ولكن جموعه كانت تضم نفوساً متباغضة متشاحنة فرعان ماذب بينها الثغور

وحل النفاق وقرق عنه أكثر الأعماء حسداً منهم لمن قريهم المؤيد إليه ووصف المؤيد حاله بأنه كان بين ذئاب تتخادش وكلاب تتهاوش . . وكان يحاول تهدئتهم وإصلاح ما بينهم فلم يوفق ، وعلم طغرل بك بحالهم فأسرع إليهم وهمهم ، وكان المؤيد إذ ذاك في الرحبة ، فاصطنع الصبر والثبات وأخذ يبحث من قرقوا عنه إلى الرجوع إليه ويعدم وبغيتهم . ولكنها كانت صيحة في واد ، وغشى أن يدرك العدو وهو حي ، فأثر أن ينسحب إلى حلب واتخذها مقراً لقيادته ، وكانت حلب في يد المرادسين الذين قضموا خطبة الفاطميين ، فأزال المؤيد بهم حتى سلخوا يدهم إلى الوالي الذي أرسله المستنصر الفاطمي ، وفي حلب استطاع المؤيد أن يتصل بإبراهيم بن ينال وأغراه أن يخالف طغرل بك ووعدته بالتقريب والخلع الفاطمية ، فكانت مؤامرة ناجحة إذ انفصل إبراهيم ابن ينال عن جيوش طغرل بك وخرج هذا بجاربه فتهرب المؤيد هذه الفرصة ، وأمر البساسيري بالسير إلى بغداد قم له ذلك سنة ٤٤٥ هـ ودعى على منابرها باسم المستنصر الفاطمي لمدة عام ، ولو كان وزراء مصر استمعوا لنصائح المؤيد لتغير وجه التاريخ الإسلامي ، ولكنها هذه الحركة سبياً في عو الخلافة العباسية منذ دخلت جيوش البساسيري بغداد سنة ٤٤٥ هـ ، ولكن المؤيد عاد إلى مصر دون أن يحفل به أحد ، ولم تحتفل مصر بامتلاك بغداد فلم ينفخ فيها بوق واحد ولم يقرع فيها طبل واحد ، ولا غرابة في ذلك فقد كان الوزير في مصر إذ ذاك هو الوزير المغربي الذي لم ينس ما فعله الفاطميون بأجداده وآبائه . وهكذا أضاع وزراء مصر تلك الفرصة الذهبية التي مياها لهم المؤيد بضعاه وسياسة .

عاد المؤيد إلى مصر فول مرتبة داعي النداء ، وبذلك أصبح في المرتبة التي شق بالتطلع إليها ودعاً طويلاً من الزمان ، ولكنه لم يمكث في تلك المرتبة طويلاً إذ غشى الوزراء مكاتبه وتقودته وسلطاته فتى مرة من مصر ثم أجد إليها وولى مرتبة الدعوة ، ثم حول عنها وولى ديوان الإنشاء مرة ثانية . وهكذا عاش حتى توفى سنة ٤٧٠ هـ بالقاهرة ودفن في دار العلم بمحوار القصر ، وصل عليه الإمام المستنصر رحمه .

كل المؤيد في الدين من أكبر علماء عصره ، وتدلتنا كتبه التي وصلت إلينا على أنه كان واسع الثقافة ملماً إلماماً تاماً بجميع العلوم التي عرفت في العالم الإسلامي إذ ذاك ، قوى الحجج في مناظراته وجداله مع مخالفيه ، وقد صدق أبو العلاء المهرى حين وصفه بقوله : دوسيدنا الرئيس الأجل المؤيد في الدين ، مازالت حجته باهرة ودولته عالية . . . ولو فاطر أرسطاليس لجأز أن يفضحه أو أفلاطون لنبذ حججه خلفه^(١) ويكنى أن تنظر إلى مناظرات المؤيد مع المهرى لتدرك كيف كان شيخ المرة يترب من هذه المناظرة ، وأنه كان يخشى قوة منطق المؤيد وحجته مع فصاحة بيانه فاعترف له بالتفوق في الجدل ، وأنه ورث علم الأولين .

وضع المؤيد في الدين سنة كتب أهمها :

١ - المجالس المؤيدية وهو أكبر كتاب وصل إلينا في الدعوة الفاطمية إذ يضم هذا الكتاب ثمانمائة مجلس من مجالس الدعوة التي كان يلقيها المؤيد ، ويثبت من هذا الكتاب أن الدعوة وعلومها بلغت ذروتها على يد المؤيد . ويعد هذا الكتاب من أقوى الكتب عند طائفة البهرة ولا يقربه إلا من لمع مرتبة خاصة من مراتب دعوتهم . وقد رتب حاتم بن إبراهيم الحامدي الداعي اليه هذا الكتاب وقسمه إلى أبواب حسب موضوعاته ، وسمى الكتاب « جامع الحقائق » ، وإذا نظرنا في كتب الدعوة لدعاة اليمن ، نرى أن جميع الدعاة كانوا يقتطفون من المجالس المؤيدية ويستشهدون بها . ونرجو أن نوفق إلى نشر هذا الكتاب القيم ، فهو موسوعة في علوم الدعوة الفاطمية وفي هذه المجالس نرى مناظرات المؤيد وردده على المخالفين .

٢ - ديوان المؤيد في الدين : كان المؤيد شاعراً كما كان أدبياً وعالمًا وقد وصل إلينا ديوانه فإذا به مجموعة من قصائده التي أنشعها في مدح الأئمة . وفي هذا الديوان نرى تطور حياة المؤيد ووصف أحواله وإشارات

(١) انظر الرسالة الثانية من الرسائل التي دارب بين المؤيد والمهرى وأبو العلاء المهرى ومجموع الأدباء ، ج ٣ ص ٢٠٢ طبعة دار المأمون .

إلى جمهوره ، كما ملأ قصائده بالعقائد الفاطمية ومصطلحاتها ، وطبع هذا الديوان بشركة الكتاب المصري في سلسلة مخطوطات الفاطميين .

٣ - السيرة المؤيدة ، ولعل هذا الكتاب أقوم كتاب تاريخي يفصل لنا الحياة السياسية والاجتماعية في فارس والعراق ومصر في المدة من سنة ٣٢٩ حتى سنة ٤٥٠ ، كما يعد سجلا للوثائق التي تبودلت بين المؤيد وأمرأ العرب ، وبينه وبين الوزراء المصريين إبان الثورة التي عرفت في التاريخ باسم ثورة البساسيري ، وكذلك لم أجد كتابا من كتب التاريخ تحدث عن هذه الثورة كما تحدث عنها المؤيد ، ولا غرو في ذلك إذ كان المؤيد سبب هذه الثورة ومديرها والمشرع عليها . وقد طبع هذا الكتاب بشركة الكتاب المصري في سلسلة مخطوطات الفاطميين .

وللؤيد غير هذه الكتب كتاب شرح المعاد ، وكتاب الإيضاح والتبصير في فضل يوم التذير ، وكتاب الابتداء والانتفاء وكتاب تأويل الأرواح وكتاب نهج العبادة وكتاب المسألة والمجواب ، وترجم إلى اللغة الفارسية كتاب أساس التأويل لقاضي النعمان وهو في تأويل قصص الأنبياء .

ويعتبر المؤيد أستاذ الدعوة في اليمن والحند ، فنه أخذ القاضي ملك بن مالك علوم الدعوة وعاد إلى اليمن يلقي على المستجيبين ما تلقاه عن المؤيد . كما يعد أستاذ ناصر خسرو الشاعر الفارسي المعروف ، فقد ذكره ناصر في أشعاره ووصف مجاله ، وهكذا كان للؤيد أثر في الحياة السياسية والعقلى والأدبية .

الباب الثاني

في الحياة العلمية

بعد عصر الفاطميين من أزهى عصور مصر الإسلامية من الناحية العلمية ، فقد بلغت الحياة العلمية في مصر الفاطمية درجة كبيرة من النمو والازدهار لكثرة العلماء الذين كانوا في مصر أو وفدوا عليها ، وكثرة المؤلفات في كل فن من فنون العلم .

وقد ذكرنا أن أئمة الدعوة الفاطمية كانوا يقربون العلماء ويشجعون الطلاب ، وأنهم أوفقوا أوزاقاً ثابتة للشغلتين بالعلم حتى يتبأ لهم التفرغ لما أهلوا أنفسهم له ، فكان الفاطميون على هذا النحو من الاهتمام بشئون العلماء . أسبق بما عليه كثير من الدول التي لم تعرف للعلماء قدراً ولم توفهم حقهم ، فشغل العلماء بأمر أوزاقهم أولاً ، فركبت الحركة العلمية عند هذه الدول . وقد رأينا كيف اهتم الفاطميون بإنشاء خزان الكتب في القصر وفي دار العلم حتى يقضى العلماء أن يظلوا ويستفيدوا بما تركه السابقون ، وبلغ من تشجيع الفاطميين لطلاب العلم أن القاضي النعمان سمع إمامه المزمع يقول : « لا لفسر بمن نراه من أولياتنا يطلب العلم والحكمة ويرغب في الخير كما نسر بذلك في الولد » (١) ففي ظل هؤلاء الأئمة ، وصل ضوء ما ذكره الإمام المزمع ، وجد العلماء ملاذاً يؤويهم من العوز ، ويحميهم من الفاقة ، بل وجدوا ما يتجههم على مواصلة البحث والدرس والتأليف .

ويذكر المؤرخون جداً من العلماء الذين وفدوا على مصر الفاطمية ووجدوا من التشجيع ما جعلهم يذكرون مصر والأئمة بالخير ، فيحدثنا ابن أبي أصيبعة أنه لا وصل المهذب بن القناش — وكان فاضلاً في صناعة الطب — إلى الشام

(١) المجالس والمعارف (ورقة ١٤٦) .

من بغداد أظم بدمشق مدة ولم يحصل له بها ما يقوم بكفائته وسمع بالديار المصرية وإنعام الخلفاء فيها وكرمهم وإحسانهم إلى من يقدم ولا سيما من أرباب العلم والفضل ، فتوجه إلى مصر واتصل بالقاضى الأجل السيد أبى المنصور عبد الله بن الشيخ السيد أبى الحسن على فوجب له الأموال وأقام فى مصر مكراً^(١) . وزدما ذكره المؤرخون عن القاضى عبد الوهاب بن على أحد فقهاء المالكية المجتهدين فى المذهب حتى قال عنه صاحب تاريخ بغداد : « لم أرفى المالكية أفقه منه ، إذ وفد على مصر لصديق حاله ينفد ، وأكرمه المصريون على الرغم من تذهبه بمنح يخالف مام عليه ، حتى تحول وحسنت حاله جداً . ولكن أدركه المرض ، وكان يقول وهو فى مرضه : لا إله إلا الله عندما عشنا متاً ، وتوفى بمصر سنة ٤٢٢ هـ وسنذكر غير هذين العالمين فى الفصول التالية .

فالقاهرة العزيزة أصبحت مطلع أنظار العلماء وعطراحال الطلاب . وفى العصر الفاطمى استطاعت مصر أن تتزع زعامة العالم الإسلامى فى الحياة العلمية ، وأن تبسط آراءها وتعاليمها على البلدان الأخرى ، حتى نرى بعض العلماء الذين كانوا ينقمون على الشيعة عامة والفاطميين خاصة يقدون على مصر ويتأثرون ببعض الآراء التى كانت سائدة فيها . وأقرب مثل قدمه لذلك هو الإمام الغزالى ، قد هاجم الفاطميين فى كتبه الصغاس والمنقذ من الضلال والمستظهرى أو الرد على الباطنية وغيرها من كتبه ، ولكنه وفد على مصر فى أواخر حياته ووضع كتابه مشكاة الأنوار متأثراً ببعض العقائد الفاطمية . ولا سيما نظريتهم فى ترتيب المقول .

ويحيل إلى أن السبب الذى من أجله شجع أئمة الفاطميين العلم والعلماء أن المذهب الفاطمى نفسه يقوم على العلم والعقل قبل كل شئ . ومن طريق العلم وبالجدل والمناظرات استطاعت الدعوة الفاطمية أن تنتشر فى العالم الإسلامى ، واستطاع الفاطميون أن يكونوا دولتهم المتينة ، فضيلة الفاطميين كانت تقوم على العمل والعلم . فالعمل هو الظاهر والعلم هو الباطن ، وعلم الباطن يقوم على

(١) ابن أبى أصيمة ج ٢ ص ١٠٩ (طبعة مصر سنة ١٨٨٢) .

استخدام تعقل ومطابقة المحسوس للعقول ، فلا غرو أن رأينا الفاطميين يشجعون العلم الذى هو دعامة من دعائم العقيدة الفاطمية . وقد أثرت الفلسفة اليونانية والمذاهب الدينية القديمة في أرباب هذه الدعوة وعلائها على نحو ما رأيناه في الباب السابق من هذا الكتاب . فكان الفاطميون يشتمون هذه الألوان من الدراسة الفلسفية والمذهبية . إما لإدخال بعض عناصر منها في عقيدتهم وآرائهم وإما للرد عليها وتجهيز هذه الآراء القديمة ، فمثل ذلك الفاطميون في الوقت الذى كان فيه أهل السنة في البلاد الأخرى يرمون من يشتمل بالفلسفة بالزندقة والإلحاد ، فالفكر اليوناني وجد ترحيباً من الفاطميين وتوسعوا في دراسته . وقد لاحظ المستشرق أوليري ذلك فقال : « إن الحركة الفاطمية بأكملها أخذت مكاتبتها في جو مشبع بالفكر الهليني ، وإحياء دراسة المواد اليونانية هو الإلهام المباشر لطائفة الإسماعيلية^(١) . وسرى في الفصل التالي مبلغ اهتمام الفاطميين بالعلوم الفلسفية واصطناعهم لكل من عرف بالاشتغال بفرع من فروع الفلسفة ، فقد قيل : إن العزيز بالله كاتب جبرائيل بن يحيى شوش واستدعاه إلى مصر فاعتذر^(٢) ، وأرسل الحاكم بأمر الله إلى ابن الهيثم يستدعيه فأجلب ، وكتب الوزير الفلاحى إلى والى حلب وأعمالها يحمل أبي العلاء المرسى إلى مصر لينتج له دار علم يكون متقدماً فيها ، وسمح بمراجع مرة الثمان له في حياته وبعده وإن والى حلب سار إلى مرة الثمان واجتمع بأبي العلاء وقرأ السجل عليه فاستمعه ، وكتب إلى الوزير الفلاحى يستدعيه من ذلك فأهضاه . وتسامح الفاطميون مع العلماء الذين لم يمتثلوا لأوامرهم ، بل كانوا متسامحين مع أصحاب الأديان غير الإسلامية . فأبو الفتح منصور بن مفرح كان طبيباً للوزير والحاكم بأمر الله ومن المقرئين إليهما ، وبعد وفاته استطب الحاكم إسحق بن إبراهيم ابن نسطاس ومطامن أهل الذمة ، ولكن الفاطميين ألقوا عليهما وعلى غيرهما من أصحاب الفلسفة الأموال والخلع والآقاب ، وحفظ لنا التاريخ أسماء عدد كبير منهم .

(١) O'Leary : Hist. of the Fatimid Khelifepp. 140 (London 1923)

(٢) أخبار المسماة . الفصل من ١٠٥ .

وقد ذكرنا أن الفاطميين كان لهم دعاة في جميع أرجاء البلاد الإسلامية يناقشون ويجادلون أصحاب المذاهب الأخرى ، ورأينا كيف اتف عدد كبير من المسلمين حول هؤلاء الدعاة وأخذوا عنهم علوم الدعوة ، فستطيع إذن أن ندرك في سهولة ويسر أن هذه الدعوة الفاطمية لم تؤثر في مصر حسب بل أثرت في جميع البلاد الإسلامية ، وتبع ذلك أن الآراء اليونانية وغيرها من المذاهب القديمة من إسرائيلية ومسيحية وزرادشتية ووثنية وهي التي صبغها الفاطميون بالصبغة الإسلامية قد انتشرت في العالم الإسلامي على أيدي دعاة الفاطميين . وإذا درسنا الحياة العقائدية في العالم الإسلامي في القرن الرابع وما بعده رأينا أكثر العلماء كانوا متأثرين بهذه الآراء التي بثها دعاة الفاطميين ، ونرى بعض الفلاسفة الذين نبغوا في القرن الرابع وما بعده كانوا على صلة قريبة أو بعيدة من العقائد الفاطمية أو العقائد الشيعية عامة ، فابن حوقل كان متشيعاً لهم حتى قيل : إنه من دعائهم ، والفارابي مثلاً في حديثه عن القلم والروح يكاد يتحدث بلسان دعاة الفاطميين ، ويكاد يشاركهم في حديثه عن التوحيد^(١) ، وابن سينا قيل : إنه إسماعيلي المذهب وإن أباه كان أحد دعائهم فنشأ متأثراً بعقائدهم ، وجماعة إخوان الصفاء الذين يرجح أنهم اذدهروا في ظل البويهيين الذين كانوا يميلون إلى التشيع ومنهم من اعتنق الدعوة الفاطمية وكان يرسل الخليفة الفاطمي ، وظهرت في رسائل إخوان الصفاء إسماعيليتهم . وابن الهيثم كان متصلاً بالحاكم بأمر الله الفاطمي وعاش في كنفه ، وأبو العلاء المعري حكيم المرة كان متأثراً تأثراً تاماً بهذه الآراء التي كانت تحيط به ، وقد امتد ظل الحكم الفاطمي إلى بلاد الشام وانتشرت فيها آراء الفاطميين كما انتشرت في كل البقاع التي خضعت أو لم تخضع لهم ، فترى في أشعار أبي العلاء وكتابه كثيراً من الآراء الفاطمية التي كانت تسود ذلك العصر ، ونذكر أحمد حميد الدين بن عبد الله الكرماني فينسوف الدعوة وحجتها في العراق وكرمان وصاحب الكتب الفلسفية الفاطمية مثل كتاب راحة العقل وكتاب المصاييح وكتاب الهادي والمستهدى وكتاب الأنوال

(١) راجع ما ذكرناه في كتاب راحة العقل في القارنة بين رأي الإسماعيليين ورأي الفارابي

الدمية وغيرها التي تدل على أن الكرمانى فيلسوف ناضج التفكير ، وأنه متأثر بما أخذ من فلسفة اليونان وغيرها ^(١) ، ونذكر المؤيد في الدين فهو من شيوع الدعوة وفلاسفتها . وهكذا نستطيع أن نتبع كثيراً من فلاسفة المسلمين الذين تأثروا بالفلسفة اليونانية وصبغوها بالصبغة الإسلامية ، وكان لهم فضل قريب هذه الدراسات إلى جمهور المسلمين ، فإن هؤلاء الفلاسفة تأثروا بالعقائد الشيعية عامة والفاطمية خاصة .

ولم ينس الفاطميون العلوم العربية الخالصة ، بل وجهوا إليها اهتماماً ملحوظاً وعناية خاصة ، وقد رأينا كيف كان الحاكم يجمع علماء اللغة والأدب للناظرة بين يديه ، ورأينا أثر يعقوب بن كلس في نشاط الحركة العلمية والأدبية ، ويعدنا حمادة البني أن مجلس الوزير الصالح بن رزيق لم تكن تنقطع إلا بالذاكرة في أنواع العلوم الشرعية والأدبية وفي مذاكرة وقائع الحرب مع أمراء دولته ^(٢) فكانت هذه العناية الخاصة التي وجهها الأئمة ووزراؤهم وأمراء دولتهم للعلوم سبباً في قيام هذه النهضة العلمية الرائعة التي ظهرت في مصر الفاطمية ، وفي أن يكثر علماء مصر من التأليف وإنتاج الكتب في مختلف الفنون والعلوم .

حقيقة كان علماء مصر في ذلك العصر يشرحون أو ينفذون ما خلفه علماء المسلمين قبلهم في هذه العلوم العربية . ولا نكاد نجد في مؤلفات المصريين في هذا العصر آراء أصيلة يتميزون بها عن الذين سبقهم ، ولكن ليس ذلك بغريب فالتاريخ يحدثنا أن العلوم إذا تم تكوينها ووضعت قواعدها تمر على العلماء فترة بعد ذلك طويّة أو قصيرة لشرح هذه القواعد أو قدها ، ويكثرون من التأليف حول هذه القواعد دون أن يحاولوا وضع قواعد جديدة ، بل يفرعون على هذه الأصول القديمة دون مساس بالتقديم . هذا ما كان عند اليونان بعد عصر الفلاسفة ، وهذا ما حدث أيضاً للمسلمين في جميع الانعطاف الإسلامية بعد أن وضعت قواعد اللغة ودون الأدب العربي بألوانه وفنونه ، وبعد أن صبغت

(١) راجع كتاب راحة العقل ١ من موضوعات الجمعية الإسماعيلية بالهند .

(٢) نكت المصرية ص ٨ .

القواعد الفقهية على اختلاف المذاهب ، فهذه الفترة فترة ركود ذهن العلماء عن وضع أصول جديدة وقواعد متباعدة عن القديم مرت بها مصر الفاطمية بل مرت بها جميع الأقطار الإسلامية ، بل أستطيع أن أقول : إننا لا نزال نعيش على هذه الأصول القديمة ، ولم نستطع أن نتحرر منها إلى الآن ، فقواعد الفقه التي دونها سيويه وأصول العرف كما تركها ابن جني وعروض الخليل بن أحمد وأصول الفقه كما دونه الشافعي ومالك وأبو حنيفة وابن حنبل هي التي تسيطر على حياتنا العلمية العربية إلى الآن ، على الرغم من أن عدداً كبيراً من دعاة حرية الفكر يناهون بضرورة التحرر من القديم وتعديل هذه العلوم تعديلًا يلثم حياتنا الحديثة ، ولكن لا نزال السيطرة للقديم ، ولم يستطع المصلحون إلى الآن أن يجدوا وسيلة للخلاص منه .

فعل الرغم من تشجيع الفاطميين لعلماء حتى ألفوا هذه المؤلفات الكثيرة التي تحتاج إلى مجلد ضخم لسرد أسمائها . وأن هذه المؤلفات كانت التراث العلمي للصور التي تلت عصر الفاطميين . فإن هذه الكتب الكثيرة ولا سيما ما كان منها في العلوم العربية لا تظهر فيها شخصية مصر ولا أثر مصر . إلا إذا استثنينا كتب التاريخ التي تحدثت عن مصر . ففي هذه الكتب استطاع مؤرخو مصر أن يأتوا بما حولهم وأن يظهرُوا شيئاً مصرياً لا يستطيع غير المصريين أن يأتوا به .

وهناك سبب آخر لعدم ظهور شخصية مصر في كتب العلماء المصريين في العلوم العربية ، ذلك هو رحلات العلماء في الأقطار الإسلامية طلباً للعلم ، فصر بموقعها الجغرافي الممتاز الذي جعل منها مركزاً وسطاً بين الشرق والغرب وطريق العرب إلى الأراضي المقدسة ، هذا الموقع الجغرافي جعل مصر مركزاً هاماً لتبادل الآراء العلمية بين الأقطار الإسلامية ، فعلماء الأندلس والمغرب وصقلية كانوا مضطرين إلى التبرج على مصر في رحيلهم لتأدية فريضة الحج . أو في رحيلهم لطلب العلم في العراق وفارس ، وتطول مدة إقامتهم في مصر أو قصر يأخذون عن علماء مصر أو يلقون على المصريين ما عندهم من علم فتتلاقح الآراء وتمزج وتصبح متشابهة لا فرق بين أندلسي ومصري ومغربي

وصقل ، ولا تظهر الشخصية الإقليمية في هذا النحو من العلم ، وكذلك قول
عن علماء مصر الذين رحلوا في طلب العلم من الأقطار الأخرى وعلماء الأقطار
الأخرى الذين رحلوا في طلب العلم أو للتعليم في مصر ، فهذه الرحلات الكثيرة
كانت سبباً في ألا تبايز العلوم العربية بتيار الأقطار ، حتى أصبحنا لا نفرق
بين كتب المشارقة وكتب المغاربة إلا عن طريق تاريخ المؤلفين أقسام . أما
من الناحية الموضوعية للكتب فن الصعب السير أن نصل إلى نتيجة يطمئن
إليها الباحث . والأقطار العربية التي كانت تتنازع فيما بينها في السياسة والمذهب
الديني ، وتنسب فيها الحزوب المختلفة ، كانت تربطها وتوحدها هذه الحياة
العلمية ، لمجتمعاتها كتلة واحدة تدرس علومها واحدة لا فرق بين قطر وقطر ،
ولا تزال هذه الظاهرة إلى الآن في العلوم العربية الخاصة والعلوم الإسلامية ،
وأملنا عظيم اليوم وقد توحدت البلاد العربية في آرائها السياسية أن تم وحدتها
في مختلف ألوان الثقافة حتى يعود للعرب مجددم القديم بهذه الوحدة التي لن تنضم
بعون الله وبفضل يقظة البلاد العربية .

الفصل الأول

العلوم الفلسفية

إذا قلت العلوم الفلسفية فإنما أقصد بها جميع العلوم التي كانت تشتمل عليها الفلسفة في القرون الوسطى . والتي تضمنها رسائل إخوان الصفاء من رياضيات وموسيقى وطب ورتجيم وطبيعيات وإلهيات ومنطق إلى غير ذلك من هذه العلوم التي كان يحذقها فلاسفة هذه العصور ، والتي لا يستحق طالب الفلسفة هذا اللقب إلا إذا ألم بهما جميعاً ، وقد رأينا كيف كانت العقائد الفاطمية تعتمد قبل كل شيء على العلم وتمييز الإلهيات من الطبيعيات ، فلا غرو أن نرى هذه العلوم الفلسفية على اختلاف ألوانها وقنونها تزدهر في العصر الفاطمي ويرعاها الفاطميون . بل كان من الخلفاء الفاطميين من اتقن هذه العلوم وبرز فيها ولا سيما رصد الكواكب ، فالزورخون يذكرون أن المرز لدين الله والعزير والحاكم بامر الله والمخاض كانوا يرصدون النجوم لاستقراء ما وراءها من أحداث . ويذكر المؤرخون أن اهتمام الأئمة بهذه العلوم كان وسيلة لادعائهم معرفة الغيب . ويروى المؤرخون بعض روايات هي أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة . كما يروون بعض الأشعار كان يتمك بها المصريون على ادعاء الفاطميين معرفة الغيب ، من ذلك ما روى أن العزيز بالله صعد المنبر ذات يوم فرأى رقعة كتب فيها :

بالظلم والجور قد رحبنا وليس بالكفر والحماة
إن كنت أعطيت علم غيب نقل لنا كاتب البظافة

وتصنيف الرواية أن العزيز بالله أطلع عن ادعائه الغيب بعد ذلك . ويروى ابن ميسر في تاريخه أن التيل زاد وبلغ الماء الباب الجديد أول الشوارع خارج القاهرة ، فلما بلغ المحافظ ذلك أظهر الحزن والاعتطاع ، فدخل إليه بعض خواصه وسأله عن السبب فأخرج له كتاباً فإذا فيه : إذا وصل الماء الباب الجديد انتقل الإمام عبد المجيد ، ثم قال : هذا الكتاب الذي نظم منه أحوالنا

وأحوال دولتنا وما يأتي بعدها^(١) فإن صحت هذه الرواية فهي تزيد ما أذاعه الناس وتناقله الرواة عن ادعاء الفاطميين الغيب وأن الأئمة يعرفون ما كان وما يكون إلى يوم القيامة . وبين يدي الآن كتاب « الفترات والفترات » المنسوب إلى جعفر بن منصور التميمي من علماء الدعوة في القرن الرابع الهجري - ولكنني أشك في نسبة هذا الكتاب إليه - يتحدث في هذا الكتاب عن أثر الكواكب في عالم الكون والفساد ويقتبأ بما سيحدث في الأيام المقبلة . وذهب مؤلفه إلى أن علم الفترات أو علم الجفر علم خاص الله سبحانه به آدم عليه السلام وورثه آدم وصيه شيث ، وقد أوتته الأنبياء والأوصياء والأئمة إلى الخلفاء الراشدين والفقهاء المتوحدين بالتأييد^(٢) ، ويروي علماء الدعوة أن علي بن أبي طالب كان يقول : « لو تيت لي وسادة وجلست عليها لحسكت بين أهل التوراة بتوراتهم وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم وبين أهل الفرائد بفرائدهم ، ولولا أن يقال : إن ابن أبي طالب سحر لأخبرتكم بما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة بما علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣) ، فهذا كله يزيد ما قيل عن الفاطميين إنهم كانوا يدعون الغيب وإنهم كانوا يستلون معرفتهم بحركات الأفلاك لادعاء الغيب . ولكن بجانب هذه النصوص التي ثبتت ذلك نجد نصوصاً أخرى تثبت عكسها ، فالقاضي النعمان يحدثنا في كتابه المجالس والمساربات : « ذكر الإمام المزمِّلين الله يوماً ، وأنا بين يديه ، النجاة والمنجمن . قال : من نظر في النجاة ليعلم عدة السنين والحساب ومواقب الليل والنهار ويعتبر بذلك عظيم قدرة الله جل ذكره ، وما في ذلك من الدلائل على توحيد لا شريك له ، قد أحسن وأصاب ، ومن تعامل بذلك علم غيب الله وتقصاه بما يكون قد أساء وأخطأ . ولقد كان المتصور باق من أهل الناس بها ، ولقد قال لي غير مرة : « والله ما نظرت فيها إلا طلباً لعم توحيد الله وتأثير قدرته ومجانب خلقه ، ولقد عانيت لمخاطبات من الحروب وغيرها فاحملت في شيء من ذلك باختبار مني

(١) أخبار مصر لآل ميسر حوادث سنة ٥٤٣ هـ والقرري ج ١ ص ٩٧ .

(٢) كتاب الفترات والفترات ورقة ٢ لسنة بمكتبة الخاصة .

(٣) المجالس المؤيدة والفترات والفترات ص ٥٧ والبيعة المؤيدة في القصيدة المسعدة .

(٧ أدب مصر)

دلائل النجوم ولا اتفت إليه ، ثم قال المزي : أتاني بعض المتحمين بكتاب الله يذكر فيه خلق آدم وكيف كانت الكواكب يوم خلقه الله عز وجل ، ومادك عليه بما آل أمره وأمر ذريته إليه ، ورأى أنه أتى في ذلك إلى بغائنة وعلم سبق إليه ، فلما وقفت على كتابه سألته . هل كان قبل آدم شيء ؟ قال : نعم قد كان قبله ، ومن كان ؟ وكيف كانت هذه الكواكب قبل ذلك ومادك عليه قبل خلق آدم ؟ فلم يحرجوا ، وقال : هذا شيء ما ظننت أني أسأل عنه ، قلت : وهذا الذي تكلفته وجئت به ما سئلت عنه أيضاً فكيف تكلفته ؛ فسجبت من قوم يفتنون فيما لا يعملون ويتماطون مالا يدرون (١) فهذا يدل على أن المنصور بالله والمرادين الله لم يدعيا الغيب ، ولم يدرسا الكواكب وحركاتها لم ما كان وما سيكون ، ويقول جعفر بن منصور الخمين في كتابه الكشف : « قال الله تعالى : قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك . وهذا قول نوح عليه السلام الذي ذكر الله في كتابه عنه ، وكل هذا دليل على أن الأئمة والرسل لا يعملون إلا ما أعلمهم الله بوحيه وتأييده ونوره وثبته عن الله جل ذكره (٢) » فهذا دليل آخر تقدمه في دفع تهمة ادعاء الفاطميين الغيب .

وقال القاضي النعمان في كتابه المهمة : « فإننا لا نقول ما قاله هؤلاء الضالون المبطون الصادون عن أولياء الله الفاضلون إمامتهم الزاعمون أنهم يعملون غيب الله وما تخفى صدور عباده ، تعالى الله الذي تفرد بعلم ذلك دون خلقه ، ولم يطلع على ما شاء منه إلا من ارتضى من رسله ، وإنما أراد هؤلاء الفسقة . بما نسبوه إلى الأئمة صلوات الله عليهم من ذلك دفع إمامتهم لأنهم لما زعموا أن الأئمة يعملون الغيب والناس يرونهم لا يعملون من أمور الناس إلا ما ظهر منها لم لم يكونوا أئمة عند أولئك الفسقة ولا عند من قبل منهم ، إذ لم تكن تلك الصفة التي وصفهم بها منهم (٣) » . ولعل سبب هذا الادعاء هو

(١) المجالس الساترات ورقة ٩٢ به .

(٢) كتاب الكشف لجعفر بن منصور الخمين (نسخة خلية بمكتبي) .

(٣) كتاب المهمة في أدلج اتباع الأئمة (طبع دار الفكر العربي) ص ٥١ .

تطرف بعض الدعاة في إسباغ جميع الفضائل على الأئمة حتى جعلوا أنفسهم
يعلمون الغيب ، وكان اختلاف الناس في هذا الأمر مصدر جدل بين
المصريين ، وصور لنا الأمير تميم في إحدى قصائده ذلك كله بقوله يخاطب
أعزاء الإمام العزيز بالله :

ولما اختلفنا في النجوم وعليها وفي أنها بالنفع والضر قد تجري
فن مؤمن منا بها ومكذب ومن مكثر فيها الجدل ولا يندى
ومن قائل تجري بسعد وأنصر ونسلم ما يأتي من الخير والشر
فعلتنا تأويل ذلك كله بما فيه من سر وما فيه من جبر
عن الطاهر المصور جدك ناقلًا وكان بها دون البرية ذا خبر
فأخبرتنا أن المنجم كامن بما قال والكهان من شبة الكفر
وأن جميع الكافرين مصيرهم إلى النار في يوم القيامة والحشر
لجميعنا بعد اختلاف ومرية وألفتنا بعد التنازع والجر
وأوضحت فيها قول حق مبرهن يحل ظلام الشك عن كل ذي فكر
فعدنا إلى أن الكواكب زينة وفيها رجوم الشياطين إذ تسرى
مسخرة مضطرة في بروجها تدير بتدبير الإله على قدر
وأن جميع الغيب لله وحده تبارك من رب ومن صمد وتر
وما علمت منه الأئمة إنما رويوه عن المختار جدم الطهر^(١)

وإن نستطيع أن نخالف المؤرخين الذين رموا الفاطميين بإدعاء الغيب فإن
هؤلاء المؤرخين استقوا أخبارهم من إشاعات العامة وأقوال بعض الغلاة ولم
يحققوا الأمر تحقيقاً علمياً ، قصيدة الأمير تميم وأقوال علماء الدعوة تنفي ما جاء
به المؤرخون وتبرئ الفاطميين من ادعاء الغيب .

حقيقة اسم الفاطميين بالنجوم ورصدها ، واستدعى الفاطميون إلى مصر
عددًا كبيراً من المنجمين ، فعندما دخل الموصلين الله مصر قدم معه منجمه محمد بن

(١) ديوان الأمير تميم بن العزيز ورقة ٩٣ ب نسخة خطية بمكتبة الجامعة .

عبد الله بن محمد المتقي^(١)، ووقع العزيز بأهله منزلة النجم أبي عبد الله بن الحسن إلى أن توفي سنة ٣٨٦ هـ^(٢)، وأنشأ الحاكم بالقطم منزلاً يرصد فيه النجوم وحمل له منجمه أبو الحسن علي بن يونس الزيج الحاكمي في أربعة مجلدات، ويقول ابن خلكان عنه: إنه لم ير في الأزياج على كثرتها أطول منه^(٣) ويقول القنطري: إن ابن يونس كان يقصد تحرير زيج جامع كبير يدل على أن صاحبه كان أعلم الناس بالحساب^(٤) وهذا الزيج هو الذي سار عليه منجمو مصر بعده، ويذهب القريري إلى أنه عمل للأفضل بن بدر الجبال مائة تقويم لاستقبال سنة خمسمائة من الهجرة، وكان منجمو الحضرة يومئذ ابن الحلبي وابن الهيثمي وسهلون وغيرهم يطلق لهم الجادري في كل شهر، والرسوم والكسوة على عمل التقويم في كل سنة، فإذا كان في غرة السنة حمل كل منهم تقويمه فيقابل بينها وبين التقويمات الحضرة من العام فيوجد بينها اختلاف كثير، فأكثر ذلك، فلما كان غرة ثلاث عشرة وخمسمائة عند إحضار التقاويم على العادة جمع المنجمين والحساب وأهل العلم وسألهم عن السبب في الاختلاف بين التقاويم فقالوا: الثاني يحسب ويعمل على رأى الزيج المجهور المأموني، ونحن نعمل على رأى الزيج الحاكمي لقرب عهده، وبين المتقدم والمتأخر تفاوت وخلف، ثم أشاروا عليه بعمل رصد بمستجد، وأشار عليه أبو الحسن بن أبي أسامة أن يتولى ذلك القاضي ابن أبي العيش الطرابلسي المهندس للعالم، ولكن الأفضل غضب على ابن أبي العيش وولى بدله أبا سعيد بن قرقة الطليبي فقطع في إقامة المرصد وساعده جميع المهندسين وعلماء

(١) أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الله بن محمد المتقي النجم كان مفتياً في عدة علوم، والفنان عليه علم النجوم، ولما وفد بمصر قرىه القاطميون ولم يرل مقرباً إلى أيام العزيز بأهله ولكن حدث أن سلف كتاباً في التاريخ ذكر فيه بنى أمية وبنى عباس وأخاد بعض محاسنهم وجبل أمالهم، وأطلع عليه الوزير يعقوب بن كلس فأنتاه إلى العزيز موبخ المتقي على ذلك وجع الوزير الطاء إلى داره ودم المتقي أمامهم، فانظر المتقي إلى أن يلزم داره كما صودرت أملاكه وتوفي سنة ٣٨٥ هـ وله عدة تصانيف منها كتب في النجوم وأحكامها وكتاب التاريخ الجامع صفته إلى بعض أيام العزيز، وكتاب في التوسيماء السبب لاسم العرب [راجع أخبار الحكاء القنطري ص ١٨٧] .

(٢) القنطري ص ٢٦٧ .

(٣) ابن خلكان ج ١ ص ٣٧٥ .

(٤) القنطري ص ١٥٥ .

الحساب والتنجيم إلى أن قتل الأفضل سنة ١٠١٥ هـ روى الوزارة المأمون البطائحي
 غائب أن يتم هذا الرصد على أن يعرف بالرصد المأمون المصحح، واستمر العمل
 إلى أن قتل الوزير البطائحي سنة ١٠١٨ هـ فوق العمل به. وكان من المهندسين الذين
 اشتركوا في إقامة هذا الرصد أبو جعفر بن حسداى والقاضى ابن أبى العيش،
 وأبو الحسن على بن سليمان بن أيوب، وأبو النجا بن سند الساعاتى الإسكندراني
 المهندس، وأبو محمد عبد الكريم الصقل وغيرهم، ومن الحساب والمنجمين
 ابن الحلبي وابن الهيثمي وأبو النصر تليذ سهلون وابن دياب والقلى وغيرهم^(١).
 وكان الخليفة الحافظ مفرما بعلم النجوم وله عدة من المنجمين^(٢)، وما يدل على
 شدة عناية الفاطميين بحركات الكواكب ما يرويه ابن السنيدي وكان من
 أهل الخبرة بعمل الأسطرلاب والحركات: أن الوزير الجرجاني قدم سنة ٤٣٥
 فأمر بعمل فهرست لخزانة الكتب ويرم ما أخلق من جلودها وأخذ القاضى
 الفضاضى وابن خلف الوراق ليتوليا ذلك، وحضر ابن السنيدي ليشاهد ما يتعلق
 بضاعته قال: قرأيت من كتب النجوم والمهندسة والفلسفة خاصة ستة
 آلاف وخمسة أجزاء وكرة نحاس من عمل بطليموس، وكرة أخرى من عمل
 أن الحسين الصوفي للملك عند الدولة وزنها ثلاثة آلاف درهم قد اشترت بثلاثة
 آلاف دينار^(٣)، من هذا كله نستطيع أن ندرك مدى عناية الفاطميين بهذا
 اللون من العلم. ولكن الفاطميين لم يكونوا يمتدوا بذلك كله، فهم ليسوا بأول
 من رصدوا النجوم، وجعلوا رابطة بين الكواكب العلوية والعالم السفلي
 وتأثير حركات الكواكب في الأرض، فهذا كله قديم معروف قبل ظهور الإسلام
 وبعد الإسلام في أوائل قيام الدولة العباسية عنى أبو جعفر المنصور بالتنجيم
 والنجوم، وترجم له السننند، وجاء خلفاء العباسيين واقتدوا به حتى أصبح
 التنجيم شأن كبير عندهم وجعلوا للنجمين دواهب واستقارم الخلفاء في
 أحوالهم الإدارية والسياسية، وليس يبعد عن أنهما قصة قبح عمورية
 وقصيدة أن تمام القى مطلبها.

(١) للقرزى ج ١ ص ٢٠٦.

(٢) للقرزى ج ١ ص ٢٠٦.

(٣) القلى ص ٢٨٦.

السيف أصدق إنباء من الكتب ق حده المحدثين المجد والعب

ويقول أستاذنا المرحوم كلرلو نالتنو: إن التنجيم كان له شأن في قصور الخلفاء والسلاطين وبين العامة، وظل كذلك إلى القرن الماضي فكان في دخول الحضارة الغربية عامة ومذهب كورنيغوس خاصة القضاء المبرم على التنجيم، بيد أنه لا يزال موجوداً في البلاد التي لم تصب من الحضارة الغربية إلا قليلاً^(١). فالفاطميون شاركوا غيرهم من المسلمين في التنجيم والفلك. وقد يكون من أهم الأسباب التي أدت إلى اهتمامهم بالفلك مسألة ابتداء شهر رمضان، فقد ذكرنا أن الفاطميين جعلوا شهر رمضان ثلاثين يوماً دائماً، ولم يبدأوا صومهم برؤية الهلال رؤية بصر بل رؤية استبصار، فرصدوا حركات الأجرام السماوية ليعرفوا مبدأ الشهر على حساب أن السنة القمرية ثلاثة وأربعة وخمسون يوماً وخمس يوم وسدس يوم، وأن سنة أشهر من السنة تأمة وستة أشهر ناقصة وأن كل ناقص منها يتلوه تام، ولشدة الفقه في هذا التوقيت اضطروا إلى استخدام عدد كبير من علماء الفلك والتنجيم والحساب والمهندسين وغيرهم من الفلاسفة الذين أقاموا المراصد والريجات.

ابن الهيثم

ولعل أشهر عالم رياضي شهدته مصر الفاطمية هو الفيلسوف أبو علي محمد بن الهيثم وقيل: إنه أبو علي الحسن بن الحسن بن الهيثم، اتفق المؤرخون على أنه بصرى المولد والنشأة، وإن كانوا لم يذكروا شيئاً من حياته في شبابه، فإن هذه الفترة من عمره غامضة أشد الغموض، والذي ذكره المؤرخون أنه رحل إلى الشام وعاش في كنف أمير من أمراءها، وأن الأمير أعجب عليه نفسه وصلاياه، ولكن ابن الهيثم كان يقول للأمير: «يكفي قوت يوى، وتكفي قوت جارية وعادم»، فإزاء على قوت يوى إن أمسكت كنت على ذلك، وإن ألقته كنت قهرماتك ووكيلك، وإذا اشتغلت بهذين الأمرين فمن الذي

(١) مادة تنجيم في دائرة المعارف الإسلامية.

يفتقر بأمرى وعلى ؟ فاقبل بعد ذلك إلا قفة احتاج إليها لباساً متوسطاً (١)
فإن صحت هذه الرواية فهي تدل على ما كان عليه ابن الهيثم من انصراف إلى العلم
ورغبة عن المال ، خوفاً من أن يفتقر المال عن العلم ، وكان حرصاً على أن يتسكع
بما يجب أن يكون عليه العالم الفاضل من خلق وترفع عن طلب الماديات ،
وأين هم العلماء الآن الذين لا يسعون وراء المال وإن كان ذلك بطرح العلم ؟
وأين العلماء الآن الذين يرفضون من متاع الدنيا ما يفيض عن حاجتهم
الضرورية ، فإن علماء عصرنا مع شديد الأسف يتكالبون على جمع المال بشئ
الطرق والوسائل ، والحقد يملأ قلب أحدهم إذا أترى له زميل ، أو أرتفع
قده ، ولعلنا نشاهد الآن ما عليه بعض من فطلق عليه لقب عالم يترك العلم
والبحث الجري وراء اقتناء الدور والأراضي ويكثر الأموال ، وهو في غنى
عن ذلك كله إن كان عالماً حقاً قائماً بقاعة ابن الهيثم وما تحلى به من خلق .

وبروي البيهقي قصة تذكرها الآن لعلها تجد عند سادتنا علماء عصرنا رادعاً لهم
حارم عليه ، فهي تدل على أن ابن الهيثم لم يأبه للباذة ولم يطلب سوى العلم العلم ،
تقول القصة : إن أميراً جاء يطلب العلم عليه ، فقال له ابن الهيثم : أطلب منك تعليم أجرة
وهي مائة دينار في كل شهر ؛ فبذل ذلك الأمير ما طلبه ابن الهيثم ، وما قصر فيه . وأقام
عند ابن الهيثم ثلاث سنوات يأخذ عن أستاذه العلم ، فلما عزم الأمير على الانصراف
إلى دياره ، قال له ابن الهيثم : خذ أموالك بأمرها فلا حاجة لي إليها وأنت أخوج
إليها مني عند هودتك إلى مقر ملكك ، وسقط رأسك . وإن قد جربتك بهذه
الأجرة ، فلما علمت أنه لا خطر ولا مرقع لئال عندك في طلب العلم بذلت مجهودي
في تعليمك وإرشاك . واطمأن أن لا أجرة ولا رشوة ولا هدية في إقامة الخير ، ثم
ودعه وانصرف (٢) . وهكذا كان ابن الهيثم يتصف بصفات العالم بما في هذه الكلمة
من معان وأوصاف . وظل ابن الهيثم بالشام حتى سمع به الإمام الحاكم بأمر الله
الفتاطسي ، وقيل : إنه قل إلى الحاكم أن ابن الهيثم قال : لو كنت بمصر لصلمت في

(١) تاريخ حكام الإسلام البيهقي ص ٥١ مخطوط جابر الكتب المصرية .

(٢) البيهقي ' تاريخ حكام الإسلام ص ٥١ وما بعدها نسخة خطية جابر الكتب المصرية .

نيلها عملا يحصل به النفع في كل حال فمن حاله من زيادة وقص ، فقد بلغنى أنه
يحدد من موضع عال وهو في طرف الإقليم المصرى (١) ، فأزداد الحاكم شوقا
إلى ابن الهيثم للاستفادة من علمه ، وأرسل إليه يرغبه فى الوجود إليه ، فاستجاب
ابن الهيثم إلى رغبته وخرج الحاكم نفسه لقاؤه والرحيب به وقربه إليه وأكرمه ،
ثم طلب إليه الحاكم أن ينظر فى أصوار النيل عشاء ينفذ ماخطر له وهو بالشام ،
فرجل ابن الهيثم فى النيل حتى بلغ موضع الشلال الأول قبلى أسوان ، ورأى فى
طريقه آثار قدماء المصريين فلم أنه لا يستطيع أن يأتى من الأعمال الهندسية مالم
يلج القدماء مرقته ، فأظهر ابن الهيثم مجزه وعاد إلى القاهرة معتدرا إلى الحاكم (٢)
وهذه قصة أخرى نسجلها لهذا العالم العظيم الخلق الذى خطر له رأى قلبا
كف يقفنيه أبى عليه تواضعه العلى إلا أن يترف بمجزه أمام ما وجدته من فن
القدماء ، ولو لم يكن ابن الهيثم على هذا الخطر من الخلق العظيم لكان فى مشروعه
ولكلف الدولة آلاف الدنانير ولاستفاد هو أيضا ، إن كان على خط علماء عصرنا ،
فاأحرافا وقد مضى نحو الضمائم على وفاة ابن الهيثم أن تتمثل به فى قناعته وتواضعه
وعلمه . وكان من المتوقع أن يضرب الحاكم بأمر الله على ابن الهيثم ، ولكن
الإمام الحاكم حفظ له مكانته وعرف قدر خلقه وعلمه ، فولا به بعض الدواوين ،
وقبل ابن الهيثم العمل رغبة لا رغبة . ثم عاف بطش الحاكم بهالة وقلبانته مع
من حوله ، فزوات الحاكم وتسرع فى إراقة الدماء أو التعذيب أمر عرف به هذا
الإمام ، فاضطر ابن الهيثم إلى أن يصنع الجنون والخيال ، فترك الحاكم فى منزله
وجعل له من يخدمه ويقوم بمصالحه (٣) فاعتكف ابن الهيثم حتى بلغه وفاة الحاكم
سنة ٤١١ قاطعا من زوائج على نفسه ، فأظهر العقل وعاد إلى ما كان عليه ،
واستوطن قبة على باب الجامع الأزهر ، وأقلم بها متنسكا ، واشتغل بالتصنيف
والتعليق ونسخ الكتب القديمة ، فكان يعيش من نسخ ثلاثة كتب كل سنة من
التقليد والتوسعات والجسطى ، ويبيعها بمائة وخمسين دينارا من مؤثرته سنة (٤)

(١) الفاضل ص ١١٤ .

(٢) الفاضل ص ١١٥ .

(٣) الفاضل ص ١١٥ وابن أبى أمية ج ٢ ص ٩٠ .

(٤) الفاضل ص ١١٥ وابن أبى أمية ج ٢ ص ٩٠ .

ولم يزل على ذلك إلى أن توفي في حدود سنة ثلاثين وأربعمائة .

اتفق المؤرخون الذين ترجموا لابن الهيثم على أنه كلن عالماً متقناً لعلوم كثيرة فيقول القفطي عنه : « ابن الهيثم صاحب التصانيف والتأليف المذكورة في علم الهندسة ، كان عالماً بهذا الشأن متقناً له متقناً فيه قياً بفرواضه ومبادئه مشارداً في علوم الأوائل ، أخذ عنه الناس واستفادوا منه »^(١) . ويقول البيهقي : « الحكيم بطليموس الثاني أبو علي بن الهيثم ، كان تلميذ بطليموس في العلوم الرياضية والمعقولات ، وتصانيفه أكثر من أن تحصى »^(٢) ، وينهب ابن أبي أصيبعة إلى أن ابن الهيثم كلن متقناً في العلوم لم يخاله أحد من أهل زمانه في العلم الرياضي ولا يقرب منه^(٣) . ويقول المبتشرقي دى بور : نجد في القاهرة في أوائل القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس من الهجرة) رجلاً من أعظم الرياضيين والطليعيين في الصور الوسطى هو أبو علي محمد بن الحسن بن الهيثم^(٤) . وسرد القفطي أسماء سبعة وستين كتاباً من تأليف ابن الهيثم ، أما ابن أبي أصيبعة فذكر له ما يقرب من مائتى كتاب ، خلا وسائل كثيرة ، فقد ألف ابن الهيثم في الهندسة والطبيعات والفلك والحساب والجبر وفي الطب والمطبخ والأخلاق ، فلا غرو إذا رأينا الجمعية المصرية للعلوم الرياضية والطبيعية تحفل بذكرى مرور تسعمائة سنة على وفاة ابن الهيثم ، وقد أظهر أعضاء هذه الجمعية الالة العلمية التى خلفها ابن الهيثم ، ونوهوا بمكاته في هذه الفنون التى نبغ فيها وعرض لها في مصنفاته ، فالاستاذ مصطفى نظيف بك ، قال : « إن ابن الهيثم قلب الأوضاع القديمة ، وأفقا طناً جديداً ، هو قد أبطل علم المناظر الذى وضعه اليونان ، وأفقا علم الضوء الحديث بالمعنى وبالحدود وبالاصول التى نراها الآن ، وإن عد نيوتن بحق رائد علم الميكانيكا في القرن السابع عشر .

(١) القفطي ص ١١٤ .

(٢) تاريخ حكام الإسلام ص ٥١ .

(٣) ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٩ .

(٤) تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ١٩٠ ترجمة الدكتور أبو دية .

قابن الميثم خلقى بأن بعد بحثي راد علم الضوء في مثل القرن الحادى عشر لليلاد^(١).

وقال الأستاذ محمد رضا مدور بكه : « إذا أردنا أن نأقرب ابن الميثم بعبارة عصرنا الحاضر فلا أكون مغاليا إذا اعتبر ابن الميثم في مرتبة تضاهى مرتبة العلامة أنيشتين في عصرنا هذا^(٢) » .

ويقول الأستاذ الدكتور مشرق باشا : « المطلع على كتاب ابن الميثم في حل شكوك إقليدس يلمس فيه دقة المؤلف في التفكير وتمتعة في البحث واستقلاله في الحكم ، كما يتضح له صحة إدراك ابن الميثم لمكان الهندسة الإقليدية من العلوم الرياضية على أنها دراسة منظمة للعلاقات والمقادير المكانية من ناحية كونها علاقات أو مقادير ، وبغير نظر إلى ما يمكن أن تدل عليه من موجودات . قابن الميثم في هذا الكتاب رياضى بحث بأدق ما يدل عليه هذا الوصف من معنى وأبلغ ما يصل إليه من حدود^(٣) ، فهذا كله قول مختصين يستطيعون على مكانة ابن الميثم في العلوم الرياضية والعلمية . ولكن ابن الميثم كان في مصر الفاطمية فوجدت تعاليمه وآراؤه ما وجدت مصر الفاطمية كلها بسببه تنصب من أن بعد الفاطميين ، وقد لاحظ الأستاذ ديور إعمال العلماء له فقال : إنه لم يكن لدعوة ابن الميثم ثمرة كبيرة في الشرق ، ولا يعرف من تلاميذه غير واحد بعد من الفلاسفة هو أبو الوفاء ميثم بن فائق القاعد^(٤) ولكنى أرى خلاف ما وآه ديور فقد كان لابن الميثم تلاميذ كثيرون ، وأنهم حافظوا على تعاليمه ودعوتهم ، ولكن كما قلت كان التصب الدينى عند الأيوبيين والباسنيين قويا حتى أنهم لم يفرقوا بين عقيدة الفاطميين أعدائهم وبين العلوم الرياضية ، فكل من اتصل بالفاطميين فهو من ذريتهم وكل ظلم بن مله مصر الفاطمية منهم بالخروج عن الدين ويجب أن تحرق كتبه ولا تتبع تعاليمه .

(١) الاجتماع السنوى لدرى ابن الميثم - ٢٧

(٢) المصدر السابق ص ٣١ .

(٣) المصدر السابق ص ٤ .

(٤) تاريخ الفلسفة ص ١٦٤ .

هذا ما حدث لابن الهيثم وغير ابن الهيثم من العلماء .

أما بشر بن فاذك الذي ذكر أنه تلميذ ابن الهيثم فهو الأمير محمود الفوة أبو الوفاء المبشر بن فاذك وكان من أعيان أمراء مصر وأفاضل علمائها ، دأب الاشتغال بحب الفضائل والاجتماع بأهلها ومباحثاتهم والاتفاص بما يتبعه من جهتهم ، وكان عن اجتماع به منهم ، وأخذ عنه كثيراً من علوم الهيئة والعلوم الرياضية أبو علي محمد بن الهيثم^(١) . ويقول أمية بن أبي الصلت : إنه أدرك أبا الوفاء وأخذ عنه شيئاً من المنطق وتخصص به وتميز عن أضرابه ، وأن أبا الوفاء أدرك أبا كثير بن الزقان تلميذ أبي الحسن علي بن رضوان وقرأ بعض كتب جالينوس ، ثم نصب نفسه لتدريس جميع كتب المنطق وجميع كتب الفلسفة الطبيعية والإلهية وشرح برده وفسر ولخص^(٢) . وكان أبو الوفاء أحد أدياء مصر العارفين بالأخبار والتواريخ . وكان في أيام الظاهر والمستنصر وله كتاب سيرة المستنصر في ثلاثة مجلدات ، وله تواليف في علوم الأوائل ، كما كان حريصاً على اقتناء الكتب لجمع منها ما لا يحصى عنده كثرة^(٣) . ويقول القفطي : إنه قرأ على المبشر فضلاء زمانه فسادوا^(٤) . ويذكر من تلاميذه الطيب سلامة بن رحون اليهودي الذي ناظر أمية بن أبي الصلت^(٥) .

ومن الرياضيين الذين كانوا في هذا العصر رزق الله المنجم التحاس الذي وصفه أمية بقوله : « وله في فروع النجامة بعض دربة ، وتجرباتها بعض خبرة » ، وهو شيخ أكثر المنجمين بمصر وكبيرهم الذي علمهم السحر ، لجسيمهم إليه منسوب وفي جريدته مكتوب وبفضله معترف ،^(٦) . وأبو علي المهندس المصري

(١) ابن أبي أمية ج ٢ ص ٩٨ .

(٢) الرسالة : نسخة من ٧٧ نسخة خطية بدار الكتب المصرية .

(٣) مسجد الأدياء ج ١٧ ص ٧٧ (مطبعة رقمية) .

(٤) القفطي ص ١٧٦ .

(٥) القفطي ص ١٤٢ وابن أبي أمية ج ٢ ص ١٠٦ .

(٦) القفطي ص ١٢٧ .

الذي كان قيا بلم الهندسة ، وكان يعيش في أوائل القرن السادس الهجري ، وكان مع ذلك أدبياً شاعراً ، ويظهر من شعره أنه متأثر بدراسته الهندسية فهو يقول مثلاً :

قسم قلبي في حبة مشر بكل قبي منهم هوأي منوط
كان فزادي مركزو رم له محيط وأهوائى لديه خطوط (١)
وقوله أيضاً :

إقليدس العلم الذي يحوى به ما في السماء معاً وفي الآفاق
تذكر فوائده على إنفائه يا حبذا ذاك على الإنفاق
هو سلم وكأنما أشكاله دوج إلى المنيا للطرارق
نرى به النفس الشريفة مرتقى أكرم بذلك المرتقى والرافى (٢)

وظهر في مصر في هذا العصر عدد كبير من الأطباء ، والطب كما نعلم كان في تلك العصر من علوم الفلسفة ، وكثرت في مصر الفاطمية مناظرات الأطباء ومجادلاتهم ، فكان ذلك من أسباب ازدهار هذا النوع من العلم واتساع أفقه وكثرة التأليف حوله ، وقرب الفاطميون الأطباء وأغدقوا عليهم من نعمهم وعطاياهم خلاف ما أوقفوا لهم من مرائب شهرية ، فن ذلك ما يروى أن منصور ابن مقشر النصراني طبيب العزيز ياقه اعتل سنة ٣٨٥ هـ وتأخر عن الركوب مع الإمام ، فلما تماثل من علة كتب إليه العزيز رقعة بخطه نسختها :

بسم الله الرحمن الرحيم .

طبيبنا سلمه الله :

سلم الله الطبيب وآتم النعمة عليه ، وصلت إلينا البشارة بما وهبنا الله من عافية الطبيب وبره ، والله العظيم قد عدل عندنا مازقنا نحن من الصحة في جسمنا ، قسم الله عليك النعمة ، وكل لنا صحتك وعجل بها ، ولا أتممت بنا فيك عدواً ولا حاسداً ، وردكيد من يريد الكيد في نحره ، وابتلاه بما لا طاقة له ، بعد كفاية فيك ، وإذاتلك الشرة ، ورجوعك إلى أفضل ما عودك ،

(١) الفضل ص ٢٧٧ .

(٢) المصدر السابق .

وصلى الله على خيرته من خلقه محمد النبي وآله وسلم تسلياً^(١)

فثل هذه الرسالة لا تصدر إلا من صديق حميم يخلص لصاحبه ويجب له الخير،
فا بالاك إذا صدرت من إمام مسلم إلى طيبه المسيحي ، فالإمام عرف لطيبه
قدرته في فنه وعلمه كعبه في صناعته ، فقربه واتخذته صديقاً ؛ وكذلك يقال :
إن المزمع لدين الله اصطفه لنفسه الطيب موسى بن العيزار ، وكان طيباً طاملاً
بتركيب الأدوية وطبائع المفردات ، وهو الذي ألف شراب الأصول^(٢)

ورفد على مصر في عهد المزمع والمزمع الطيب محمد بن أحمد بن سعيد التميمي
وهو من بيت المقدس ، واشتهر بنحو اس العقاقير وتركيب الأدوية ، ولحق الأطباء
بمصر وحاضرم وناظرهم ، واختلط بأطباء الخاصة القادمين من المغرب في صحة
المزمع . والمقيم بمصر من أهلها . ويقول النقفلي : إنه كان منصفاً في مذكراته ،
غير راد على أحد إلا بطريق الحقيقة ، وصف الوزير يعقوب بن كلس كتاباً
كبيراً في عدة مجلدات سماه : مدة البقاء ، بإصلاح فساد الهواء ، والتحرز من
ضرر الأوباء . . وتوفي التميمي بمصر في حدود سنة ٣٧٠ هـ^(٣) .

ومن أشهر الأطباء في هذا العصر سلامة بن رحون أبو الخير اليهودي المصري
الذي قال عنه أمية بن أبي الصلت : « وأنه من رأيت من أطباء مصر وأدخلم في
عداد الأطباء . رجل من اليهود يدعى أبا الخير سلامة بن رحون ، فإنه لقي أبا الوفاء
المبشر بن قاتك وأخذ عنه شيئاً من صناعة المنطق تخصص به وتميز عن أضرابه ،
وأدرك الكثير الزقاني فليد أبي الحسن بن رضوان وقرأ عليه بعض كتب جالينوس ،
ثم فصب نفسه لتدريس كتب المنطق جميعاً وجميع كتب الفلسفة الطبيعية والإلهية ،
وشرح بزعمه وفسر وخلص ، ولم يكن هنالك في تحصيله وتحقيقه ، بل كان يكثر
كلامه فيفضل ، ويسرع جوابه فيزل^(٤) ، وناظره أمية ، ولكن إجابات سلامه لم
تجد منه قبولاً ، فرماه بسوء التصور والنهم^(٥)

واعلم من أشهر أطباء هذا العصر هو أبو الحسن علي بن رضوان بولد بالجزيرة

(١) المصدر السابق ص ٢١٩ .

(٢) القطبي ص ٧٤ و ٧٥ .

(٣) مصدر السابق .

(٤) القطبي ص ٣١٠ .

(٥) القطبي ص ١٤٢ .

يكن أبوه تارانا ، ولما بلغ السادسة من عمره أسلم نفسه للدلمين وانتقل إلى مدينة
حصر وهو في العاشرة لطلب العلم . وبدأ في دراسة الطب وغيره من علوم الفلسفة
وهو في الرابعة عشر من عمره ، وفقره حاجته إلى ما يستعين به في الحياة اضطر
إلى أن يتكسب بالطب مرة وبالتنجم مرة أخرى وبالتعليم كذلك . وفي الوقت نفسه
كأن يواظب على طلب العلم ويحجد في التحصيل حتى بلغ الثانية والثلاثين من سن
حياته ، إذ بدأ يشتر بالطب ، وكفاه ما كان يكسبه عن طريقه ، بل تفوق على
غيره من الأطباء المعاصرين ، وصار له ذكر حسن في البلاد . وسمع به الحاكم
بأمره فاستخدمه وجمه رئيساً على سائر المتعلمين ، فأتت حاله ، وأقنى الأملاك
في المدينة ، كما ذاع صيته في البلاد الإسلامية ، حتى إن الأطباء فيها كانوا يناظرونه
مراسلة ، ويطلبون ماعنده من علم الطب ، فمن راسله الطيب أبو الفرج جرجس
بن يوحنا المعروف باليرودي النمشي الذي راسل ابن رضوان وغيره من
الأطباء المصريين . ويقول ابن أبي أصيبعة عنه : وله مسائل عدة ألهم طيبة
ومباحثات رفيقة ، وكتب بخطه شيئاً كثيراً جداً من كتب الطب ، ولا سيما من
جالينوس وشرونها وجوامعها^(١) . ويفهم من إحدى رسائل ابن
رضوان أن اليرودي زار مصر ، وكان كثير الاختلاط به للمناظرة والمناقشة
في المسائل الطبية^(٢) . كذلك ناظره الطيب أبو الحسن المختار بن الحسن
المعروف بابن بطلان النصراني البغدادى ، فكان بين الطيب المصرى والطيب
البغدادى مراسلات عجيبة ، ولم يكن أحد منهما يؤلف كتاباً ولا يتتبع رأياً إلا
حيرد الآخر عليه ويسفه رأيه فيه . ثم رأى ابن بطلان البغدادى أن يفد على
القاهرة لمشاهدة زميله ومناظره ابن رضوان ، فدخل مصر سنة إحدى وأربعين
وأربعمائة ، وأقام بها ثلاث سنوات ، وكان وجوده بالقاهرة المعزية من أسباب
شدة المناقشات والمناظرات العلمية بين الطبيين ، وخرج ابن بطلان من مصر
موضوع كتاباً تضمن الوقائع التي كانت بينه وبين منافه ابن رضوان وود

(١) عيون الأنباء ج ٢ ص ١٤١ .

(٢) خمس رسائل لابن بطلان البغدادى وابن رضوان المصرى ص ٤٣ (مطبوعات كلية

الأدب بجامعة القاهرة)

ابن رضوان عليه ^(١) ويقول ابن أبي أصيبعة في الموازنة بين الطليبيين
ابن رضوان المصري وابن بطلان البغدادي : كان ابن بطلان أعذب لفظاً
وأكثر ظرفاً وأميز في الأدب وما يتعلق به ، وكان ابن رضوان أطب وأعلم
بالعلوم الحكيمة وما يتعلق بها ^(٢) . وحفظ لنا خمس رسائل لـ هذين الطليبيين
في المناظرة بينهما وطبعت هذه الرسائل بكلية الآداب بجامعة القاهرة .

وكان ابن رضوان محترماً ببلده ومهادته في قته فكان يرد على جميع أطباء
عصره وغيرهم ، وكان كثير الرد على آراء من سبقه من الأطباء ، وكانت عنده
سفاعة في بجه وتشنيع على من يريد مناقشته ، وأكبر ذلك عندما كان يرد على
حنين بن إسحق وعلى أبي الفرج بن الطيب أستاذ ابن بطلان ، وعلى أبي بكر
محمد بن زكريا الرازي ^(٣) . وكان ابن رضوان دمج الحلقة مشوه الصورة أسود
اللون . ومن تأليفه مقالة في من عبره بفتح الحلقة ، وبين في هذه الرسالة أن
الطبيب الفاضل لا يجب أن يكون جميل الوجه ، وكثيراً ما كان ابن بطلان
البغدادي يتحدث عن قبح شكل ابن رضوان المصري حتى إنه قال في الرسالة
أني وسماه بوقعة الأطباء ، يصف ابن رضوان :

فلما تبسدى فنوابل وجهه نكصن على أعقابهن من الندم
وقلن وأخفين الكلام تسترا ألا ليتنا كنا تركناه في الرحم
وكان يلقبه بتسماح لأن لفظة قبح منظره وسفاعة لسانه ^(٤) .

وتعتبر عقل ابن رضوان في أواخر أيام حياته ، وقيل : إن السبب في ذلك أنه
في إبان الحقبة العظمى التي حلت بمصر أيام حكم المستنصر الفاطمي والتي اشتدت
وحظمت من سنة سبع وأربعين وأربعمائة كان ابن رضوان قد أخذ بقيمة رباهما
كبرت عنده ، فلما كان في بعض الأيام خلالها المزله وكان قد ادخر أشياء نفيسة
من الذهب نحو عشرين ألف دينار ، فأخذت الجميع وهربت ولم يظفر منها على
خبر ، فتغيرت أحواله منذ ذلك الوقت ، وتوفي سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة ،
وترك من مؤلفاته ونصائفه أكثر من مائة كتاب .

(١) عيون الأنباء ج ٢ ص ١٠١ (٢) عيون الأنباء ج ١ ص ٢٤٢

(٣) عيون الأنباء ج ٢ ص ١٠١ (٤) عيون الأنباء ج ٢ ص ٢٤٢

كان لابن رضوان أثر كبير في الحياة العقلية بمصر فهذه المناظرات الكثيرة التي كانت بينه وبين غيره من الأطباء ، وهذه الردود المختلفة التي كتبها في الرد على الأطباء السابقين كان لها أثرها في تربية الأطباء والفلاسفة إلى آراء ابن رضوان وآراء خصومه ، وكان لابن رضوان تلاميذ أخذوا عنه علمه وطبعه ، فمن هؤلاء التلاميذ الطيب الإسرائيلي إفرائيم بن الرقان وأبو كثير بن الحسن بن إسحق ، وكان من الأطباء المشهورين بمصر ، واستخدمه الائمة ، وكان كثير الاهتمام بجمع الكتب ونسخها حتى كانت عنده خزائن كثيرة من الكتب العلمية وغيرها ، وكان عنده النساخ يكتبون ، ولهم ما يقوم بكفائتهم منه ، ومن جلة هؤلاء النساخ محمد بن سعيد بن هشام المحرري المعروف بابن ملصاق ، وقيل : إن أحد ورثاق العراق أراد شراء كتب من إفرائيم ، فسمع الأفضل بن بدر الجبالى بذلك فأمر بفسخ هذه الصفقة وأن تبقى الكتب في مصر ولا تنقل إلى بلاد أخرى ، وأمر بنراتها وإضافتها إلى خزانة الأفضل ، وكتب عليها آقا به ، ويقال ، إن إفرائيم خلف ما يزيد على عشرين ألف مجلد (١) .

وصنف الطيب أبو جعفر يوسف بن حسداى شرحا لكتاب الإيمان من كتب أبرار ، سماه الشرح المأمونى ، فندبه إلى الوزير المأمونى بن البطائنى . ومن هذه الأمثلة التي ذكرناها عن حركة العلوم الطبية في مصر ، ندرك مقدار نشاط هذه العلوم وازدهارها إبان حكم الفاطميين ، وأن مصر استطاعت في هذا العصر أن تنافس غيرها من الأقطار الإسلامية في مضمار هذا العلم ، فوجد عليها غدد من الفلاسفة تذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر : أمية بن أبى الصلت الأندلسى جاء مصر سنة ٤٨٩ هـ وظل بها إلى أن قناه الأفضل بن بدر الجبالى سنة ٥٠٩ هـ ، وكان أمية عالما في فنون مختلفة شاعرا خللا ، وأديبا ممتازا بجانب علومه الفلسفية ، سجنه الوزير الأفضل فصف ودو بالسجن وساة العمل بالاصطراب وكتاب الوجيز في علم الهيئة وكتاب الأدوية المفردة ، وكتابات في المنطق ، وآخر سماه الانتصار في الرد على ابن رضوان في رده على حنين بن إسحق ، وكان له تلاميذ بمصر نذكر منهم أبا عبد الله الحامى وسليمان بن الفياض

(١) ميون الأباء ج ٢ ص ١٠٥ (طبعة مصر ١٨٨٢) .

الاسكندراني، وروى عنه ظافر الحداد وغيرهم، وستحدث عن أمة في باب
الشعر من هذا الكتاب.

ومن أشهر الفلاسفة الذين تحدثوا في الإلهيات في هذا العصر أحمد حيد
الدين بن عبد الله بن محمد الكرمانى، ويعرف في الدعوة الإسماعيلية
بـ «مبسم البشارات بالإمام الحاكم» : «قلنا لما وردت الحضرة النبوية مهاجراً،
والسدة العلوية زائراً، ورأيت السماء قد أظلت بسحاب حميم، والناس تحت
ابتلاء عظيم»^(١)، ويخيل إلى أنه وفد على مصر عقب ثورة الدوزى،
وظل بمصر نحواً من عشر سنوات، وصنفت بها عدة رسائل منها «الرسالة
الكافية» في الرد على الشريف المارونى الحسى، والرسالة الواظقة في الرد
على الفرغانى ابن الأخرم أحد دعاة الدوزية، ورسالة مبسم البشارات بالإمام
الحاكم، ورسالة الصوم، وغيرها. وإذا قرأنا رسائل الكرمانى وكتبه نجده
يتحدث في الفلسفة الطبيعية والإلهية كما في «راحة العقل»، وفي الفلسفة الإلهية
كما في «الرسالة الدرية»، ورسالة التظم في مقابلة المواقف، ورسالة الرضية في
جواب من يقول بغير الجوهر وحدوث الصورة، والرسالة الحاوية وهي
في البحث عن أيهما سبق الليل أم النهار. وهكذا، نجد الكرمانى تحدث
في جميع أقسام الفلسفة ولا سيما في كتابه «راحة العقل»، الذى يعد من أعظم
كتب الفلسفة في العصر الفاطمى، فهو في هذا الكتاب تلميذ من تلاميذ
الفلسفة اليونانية المصطبجة بالصبغة الإسلامية على المنهج الفاطمى، وحديثه
عن إبداع العقل الكلى وصفاته وخصائصه، وانبعاث النفس الكلية وصفاتها.
وعن العالم الروحانى وعلم الكون والفساد، يدل على أن الكرمانى كان من أكبر
الباحثين في هذه الموضوعات الفلسفية، ولا غرو أن كان لهذا الداعى أثره
في تاريخ المذهب الإسماعيلى إلى اليوم، فكل من جاء بعده أخذ عنه واقتبس
من رسالته وكتبه.

«ما سبق نستطيع أن نكرر ما قلناه من أن العلوم الفلسفية ازدهرت في

(١) رسائل الكرمانى (خدمة حطة مكتبتها).

العصر الفاطمي ازدهاراً لا نجد له مثيلاً في الأقطار الإسلامية الأخرى ، بل نجد غير الفاطميين كانوا يمنحون إلى اعتبار الدراسات الفلسفية-دراسة إلحادية ، وأن القائلين بها من العلماء زنادقة ، ولكن الفاطميين كانوا أوسع أفقاً في تفكيرهم ، وكان مذهبهم يقوم على الفلسفة لجمعوا إليهم علماءها ، وعقدوا مجالس المناظرات بينهم ، فازدهرت بذلك الحركة العلمية ، وقوى البحث للوصول إلى معرفة الحقيقة ، مستعينين بالمنطق وآراء الفلاسفة الأقدمين .

الفصل الثاني

علوم اللغة العربية والفقه

١ — علوم اللغة والنحو :

بجانب هذه الدراسات الفلسفية التي ازدهرت بمصر الفاطمية ، كان هناك دراسات عربية في علوم اللغة والنحو ، ورواية للأدب القديم وشرحه وقده ، وكانت هذه العلوم تسير جنباً إلى جنب مع غيرها من الدراسات التي أقبل عليها العلماء والمتعلمون في مصر ، وكان هؤلاء العلماء كعبة يفتد إليها طلاب العلم من البلدان الإسلامية الأخرى للاستفادة من علماء مصر والرواية عنهم .

لم تكن هذه الدراسات العربية جديدة على مصر ، فقد ذكرت في كتاب « أدب مصر الإسلامية » أن هذه العلوم وجدت في مصر منذ بدأ المسلمون في مصر يقرءون القرآن الكريم عن الصحابة والتابعين ، ويهتمون بإيجامه على نحو ما فعله أبو الأسود الدؤلي وعبد الله بن أبي إسحق ، حتى إذا دون علم النحو وظهر كتاب سيويه ونحاة الكوفة والبصرة ، أقبل المصريون على الأخذ عنهم ، واطرد نحو هذا اللون من الدراسة حتى غمرت مصر . وفاضت على غيرها من بلدان المغرب والأندلس ، وقد استمر تيار هذه الدراسات بمصر في العصر الفاطمي والمصور التي تلت ، وكثر العلماء الذين اقطعوا إلى هذا العلم وعرفوا به . وقد ذكرنا كيف كان الخلفاء الفاطميون يشجعون هذه الدراسات ويحبسون المرتبات للعلماء ، وكيف حرصوا على اقتناء الكتب النفيسة والنحوية وجعلوها مع غيرها من الكتب بين يدي العلماء والمتعلمين ، فلا غرو أن رأينا عدداً كبيراً ينبغون في هذه العلوم ، ويعصفون كتباً كثيرة في هذه الفنون ، ويكني أن تلقى نظرة على كتب التراجم لندرك كيف أقبل الناس على هذه الدراسات ، وكيف تضاعف عدد الكتب التي ألقت فيها . وكما كان الفلاسفة يهتمون للباحثة والمذاكرة في فنونهم ، كذلك فعل

علماء النحو واللغة ، فقد قيل : إن جنادة المروى والحافظ عبد الغنى بن سعيد ، وأبا إسحق على بن سليمان الممرى النحوى ، كانوا يجتمعون فى دار العلم بالقاهرة ، وهم بينهم مباحثات ومذاكرات^(١) . ويبلغ من اهتمام الفاطميين بعلوم اللغة والنحو أنهم جعلوا فى ديوان الإنشاء لغويين ونحويين يراجعون ما كان يصدر عن الكتاب من رسائل ، حتى لا يظهر فى كتابات الكتاب لحن فى اللغة أو خطأ فى النحو . وستحدث عن ذلك فى باب البكتابة الفنية

ومن أشهر العلماء الذين ظهوروا فى هذا العصر ، أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمى المعروف بالقزاز النحوى ، كان فى خدمة العزيز بالله الفاطمى ، ويقال : إن العزيز تقدم إليه أن يؤلف كتاباً يجمع فيه سائر الحروف التى أشار إليها النحويون فى قولهم : إن الكلام اسم وفعل وحرف جاء لمضى ، وأن يقصد فى تأليفه إلى ذكر الحرف الذى جاء لمضى ، وأن يجرى ما ألفه من ذلك على حروف المعجم ، وهو لون جديد لم يسبق إليه أحد من النحاة ، فقام القزاز بجمع مواد هذا الكتاب ، فبلغ جملة ما جمعه ألف ورقة . ويروى ابن خلكان عن أبي علي الحسن بن رشيق فى كتاب الأنموذج : أن القزاز فضع المتقدمين ، وقطع أسنة المتأخرين ، وكان مهيباً عند الملوك والعلماء وخاصة الناس ، محبوباً عند العامة ، قليل الخوض إلا فى علم دين أو دنيا ، يملك لسانه ملكاً شديداً^(٢) . ولأبى عبد الله القزاز كتاب الجامع فى اللغة ، وهو من الكتب المختارة المشهورة ، وتوفى سنة ائفى عشرة وأربعائة بالقاهرة .

ومن العلماء الذين شاهدتهم مصر فى العصر الفاطمى . على بن أحمد المهلبى ، فقد كان إماماً فى النحو واللغة . ورواية الأخبار وتفسير الأَشعار ، وكان من جلساء المعز والعزيز المقرئين إليهما ، وكان المهلبى قبل ذلك مقرباً إلى كافور الأختيشى وعن عامر المنبى فى مصر ، وكانت بينه وبين المتنبى بعض محاورات علمية . يروى ياقوت أن المهلبى قال : وقع بينى وبين المتنبى فى قول العدوانى :

يا عمرو لا تدع شتى ومتقصى أضربك حتى تقول الهامة اسقوى

(١) قصة البعث ، فى الطبقات من ٢٠٠ (٢) ابن خلكان - ص ١٠ :

وذلك أن المتنبى قال : إن الناس يغلطون في هذا البيت ، والصواب انقولني
حن شقات الرأس بالشفقة وهو المشط . قلت له : أخطأت في وجوه : أحدها
أنه لم يرو كنذلك . والآخر أنه يقال شقات بالهمزة ، وأيضاً فإن أظنك
لا تعرف الخبر فيه ، وما كانت العرب تقول في الهامة . إنها إذا لم يثار بصاحبها
لا تزال تقول : اسقوني ، فإذا ثأروا به سكن كأنه شرب ذلك الدم^(١) .

وللمهلبى كتاب في الرد على كتاب المقصور والمدود لابن ولاد المصري^(٢) ،
وقيل : إن المهلبى أخذ مادة هذا الكتاب عن المتنبى ونسبها إلى نفسه . وروى
كثير من المصريين عن المهلبى ، ومن أشهر تلاميذه أبو يعقوب يوسف
بن يعقوب النجدي وابنه بهزاد وعبد الرحمن بن إسماعيل العروضى زيل مصر
وغيرهم . وتوفى المهلبى سنة ٢٨٥ هـ^(٣) .

ومن أشهر علماء مصر في ذلك العصر أبو الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ
الذى عد إمام عصره في النحو ، وهو أحد الذين عهد إليهم تصحيح رسائل
الكتاب في ديوان الإنشاء ، يروى ابن خلكان : أن الخطيب التبريزى دخل
مصر في صنفان شبابه وقرأ عليه بها الشيخ أبو الحسن بن بابشاذ النحوى
وغيره علوم اللغة ، ثم عاد إلى بغداد^(٤) . ألف من الكتب كتاب المقدمة
المخسنة في فن العربية ويوجد من هذا الكتاب ثلاث نسخ خطية بدار الكتب
المصرية ، وله شرح على هذه المقدمة ، وشرح الجمل للزجاجى ، وشرح كتاب
الأصول لابن السراج ، وله في النحو كتاب بلغ خمس عشرة مجلدة سماها النحاة
بعده « تليق الفرقة » ذلك أن تلاميذه من بعده احتفظوا بهذا الكتاب عند
من تصدر موضع ابن بابشاذ في حلقته بجامع عمرو ، فقد انتقلت إلى تلميذه
عبد الله محمد بن بركات السمدى النحوى القوى ، ثم انتقلت بعده إلى صاحبه
أبي محمد عبد الله بن برى النحوى ، ثم بعده إلى أبى الحسين النحوى المنبوز

(١) معجم الأدباء ج ١٢ ص ٢٢٤ (طبعة رقاصى) .

(٢) راجع كتاب أدب مصر الإسلامية ص ٦٩ وما بعدها .

(٣) راجع بنية الرواة ص ٣٢٨ ومعجم الأدباء ج ١٢ ص ٢٢٤ ، وأبنا . الرواة ج ٤

ص ٤٦٤ . (٤) ابن خلكان ج ٢ ص ٧٣٣ .

بسط القيل ، فكان كل واحد من هؤلاء العلماء يهبها إلى أخص تلاميذه ويعهد إليه بحفظها . وقد اجتهد جماعة من الطلاب في نسخها فلم يتمكنوا من ذلك . وهكذا انتفع الناس بعلم ابن بابشاذ وبصانيفه ، وقد تزد في أواخر أيامه ، واستقال من عمله بديوان الإنشاء ، واقتطع في غرفة بجامع عمرو ، فخرج ذات ليلة من الغرفة إلى سطح الجامع فولت قدمه فسقط وأصبح ميتاً في اليوم الثالث من وجب سنة تسع وستين وأربعمائة^(١) .

ومن لم أذكر من علماء النحو واللغة ، على بن جعفر بن علي السعدي المعروف بابن القطاع الصقلي ، لم يكن مصرياً . ولكنه من صقلية ، فيها شب وقرأ على علمائها كابن البر أبي بكر الصقلي اللغوي وأمثاله ، ثم رحل عن صقلية لما أشرف الفرنج على تملكها . في حدود سنة خمسماية ، فولد على مصر متخذها وطناً له ، ووليه المصريون بالحفاوة وبالغوا في إكرامه وخصه الوزير الأفضل ابن بدر الجمالي بالرعاية وجعله مؤدباً لولده في علوم العربية وفنون الأدب ، وقد روى ابن القطاع عن أبي بكر الصقلي كتاب الصحاح للجوهري ، وعن طريق ابن القطاع اشتهرت رواية هذا الكتاب في الآفاق ، وله حواش على كتاب الصحاح اعتمد عليها محمد بن بزي النحوي المصري فيما تكلم عليه من حواش الصحاح ، ولابن القطاع عدة تصانيف أخرى منها كتاب الدرر الخطيرة في شعراء الجزيرة — أي جزيرة صقلية — اشتمل على مائة وسبعين شاعراً وعشرين ألف بيت شعر ، وكتاب الأسماء في اللغة ، جمع فيه أبنية الأسماء كلها ، وكتاب الأفعال المنب فيه أفعال ابن القوطية وأفعال ابن طريف وغيرهما في ثلاث مجلدات وله تاريخ صقلية ، وتوفي في صفر سنة خمس عشرة وخمسماية ودفن بقرب ضريح الشافعي^(٢) .

ولا يتسع المجال هنا للحديث عن جميع النحاة واللغويين الذين نبغوا في مصر في العصر الفاطمي أمثال محمد بن أحمد البازودي ، ومحمد بن أحمد العميدى ،

(١) راجع النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٠٥ وابن خلكان ج ١ ص ٢٣٥ وبنية الرواة ص ٢٧٢ (٢) راجع بنية الرواة ج ٢١ وابن خلكان ج ١ ص ٢٣٩ ، ومعجم الأدباء ج ١٢ ص ٢٧٩ : ح ٢٤٠ .

ومحمد بن أحمد الجرجاني ، ومحمد بن الحسين بن عمر البجلي صاحب أخبار
التحويين ومضاهاة أمثال كلية ودعة ، وهو أستاذ القاضي القاضي ، وأمثال
محمد بن حميد بن حيدرة ومحمد بن محمد أبو سهل الهروي الذي إليه كانت رئاسة
المؤننين بجامع عمرو وأحمد بن مطرف المتوفى سنة ٤١٣ الذي ولي قضاء
دمياط . وله تصانيف أدبية ولفوية . كما كان شاعرا له ديوان شعر ، وهو
الذي أجاز لأبي عبد الله الصوري الحافظ .

وبجانب هؤلاء العلماء المصريين أو الذين استوطنوا مصر من البلاد الأخرى ،
نرى عددا كبيرا من العلماء الذين كانوا يرحلون إلى الأقطار العربية في طلب العلم
أو الكسب به ، وفدوا على مصر وأقاموا بها ردحا من الزمان ثم تركوها إلى
بلادهم أو إلى غيرها من البلدان ، ولكنهم تركوا في مصر تلاميذ أخذوا عنهم
علومهم ، كما استفادوا هم من علماء مصر . نذكر من هؤلاء العلماء محمد بن عبد الله
ابن محمد بن ظفر المكي ، ولد بمكة وقدم مصر في صباه ورحل عنها إلى إفريقية
وأقام بالمدينة مدة طويلة ، انتقل بعدها إلى صقلية ومنها إلى مصر ، ثم وفد على
حلب وشاهد هناك الفتنة الكبرى بين الشيعة والسنة ، وفي هذه الفتنة نهبت
كتبه قصد حماة وأقام بها إلى أن مات سنة ٥٦٥ هـ ، وكان لغويا أكثر منه نحويا ،
وله من الكتب ينبوع الحياة في التفسير ، التفسير الكبير ، الاشتراك اللغوي ،
الاستنباط المنوي . القواعد والبيان في النحو ، الرد على الحريري في درة
الغواص ، المجلد في شرح المقامات ، وغيرها من الكتب (١) .

ومحمد بن أبي الفرج الكنتاني الصقلي المعروف بالفذكي النحوي ، كان من صقلية
وطاف العالم الإسلامي حتى وصل إلى الهند ، وكان من أتمة النحو ، وتوفي
بأصبهان سنة ٥١٦ هـ (٢) .

ومحمد بن يحيى مزاحم أبو بكر الخوارزمي تلميذ القاضي القاضي وروايته ،
وكان نهاية في علوم العربية ، وألف كتاب التامج القراءات بأشهر الروايات .
وأصله من لشبونة ، ورحل إلى مصر حيث أقام بها ردحا من الزمن ، ثم عاد إلى
مدينة بطليوس يحدث فيها بما رواه عن المصريين ، وتوفي بها سنة ٥٠١ هـ (٣) .

(١) مزاحم بنية الرواة ص ٢٩ . (٢) انبئية ص ٩٠ . (٣) البنية ص ١١٥ .

وإبراهيم بن محمد بن أحمد الهاشمي ، وهو كوفي رحل إلى الشام ومصر ثم عاد إلى موطنه وبه توفى في شوال سنة ٤٦٦ ، وكان له حظ من الشعر وتوفى في البحر والقة ، وهو صاحب التصيلة التي أخذها وهو في مصر ، ومنها .

فإن تسألني كيف أنت فأنتي تنكرت دهرى والمعاهد والقرى
وأصبحت في مصر كالا يسرق بعيدا عن الأوطان متزحاجربا
وإن فيها كمرى القيس مرة وصاحبه لما بكى ورأى الدبا
فإن أنج من بابي زوطه فتوبة إلى الله ألا مس خفي لها ترابا
ومن العاريف أن هذا العالم الشاعر حدثنا بأنه قال هذه الآيات وكان حصل
له من المستنصر بالله خمسة آلاف دينار مصرية (١) ومع ذلك فإنه كان يشعر
بشدة الغربة عن بلاده .

ونذكر من هؤلاء العلماء الرحالة عبد الله بن أبي سعيد الأندلسي النحوي
الذي كانت له حلقة في جامع عمرو للإقراء وتوفى سنة ٥٢٠هـ (٢) . وعبد الجبار
أحمد بن علي الماغري النحوي الذي قدم مصر وأقرأ بها العربية ، ورحل إلى
بغداد حيث أتى بها علومه وهو شيخ ابن بري المصري (٣) . ومنهم الحسن بن
الوليد القرطبي المعروف بابن العريف النحوي . فقد خرج إلى مصر ورأس فيها
ومات سنة سبع وستين وثلاثمائة (٤) ، كذلك نذكر نصر بن صدقة القابسي النحوي
قدم مصر وأخذ عن علمائها ثم توجه إلى معرة النيمان ، ولازم أبا العلا المعري
وأخذ عنه ديوان سقط الزند وكتب منه نسخة جيدة لنفسه ، وعاد إلى مصر
تقدمها الحاكم بأمر الله الفاطمي ، وقرأ عليه فأعجبه نظم المعري حتى قيل : إن
الحاكم أرسل إلى عزيز الدولة الوالي بحلب أن يحمل المعري إلى مصر
فاقتدر المعري (٥) .

إنني نستطيع أن نلبس هذا النشاط في درس علوم اللغة بمصر في هذا العصر ،
وكيف كثر عدد العلماء ، وكثر إحتاجهم ، كما تحدثت أماكن هذا العصر ، في

(١) انقيس ١٨٨ . (٢) البنية ص ٢٨٢ . (٣) البنية ص ٢٩٥ .

(٤) البنية ص ٣٠٢ . (٥) البنية ص ٤٠٣ .

الجامع الأزهر كانت تمام حلقات الدرس، وفي دار العلم كان يجتمع العلماء والطلاب وفي جامع عمرو بالنسطاط استمرت حلقات التدريس التي تحدثنا عن نشاطها في كتابنا « أدب مصر الإسلامية » ، ولم تكن القاهرة والنسطاط مراكز الدرس في مصر بحسب ، بل كانت الإسكندرية أيضا تزخر بالعلماء والطلاب ، وقد نقلت كتب التراجم عن الحافظ السلفي تراجم عدد كبير من العلماء والمتعلمين الذين شهدتهم الإسكندرية في هذا العصر ، والعلماء الذين وفدوا على الإسكندرية . كما يحدثنا السيوطي أن محمد بن حميد بن الأرقط الحسبي النحوي قرأ على القاضي الأديب بأسوان الأدب ، وظل بأسوان تؤخذ عنه علوم القرآن الكريم والأدب . وانتقل إلى قوص وتوفي سنة ١٠٤١ هـ^(١) . وكانت قوص من مراكز العلم في مصر ، وسنحدث عن ذلك كله فيما بعد ومعنى هذا كله أنه كان بمصر مراكز كثيرة للعلم والثقافة بجانب النسطاط والقاهرة .

القراءات وعلوم القرآن :

من المعروف أن العلوم العربية والإسلامية إنما نشأت بسبب القرآن الكريم وما يدور حول دراسة القرآن من ضبط حروفه وتفسير غريبه ومعركة أسرار إيجازه ، وتفهم معانيه ، فلم النحو وعلوم اللغة لم تنشأ إلا بسبب القرآن ، فلا غرو أن رأينا هذه العلوم التي كانت تدور حول دراسة القرآن موضع اهتمام المسلمين في جميع الأقطار الإسلامية ومنها مصر ، فقد عرفت مصر هذه العلوم منذ دخلها المسلمون على نحو ما ذكرناه من قبيل في كتاب « أدب مصر الإسلامية » ، واستمرت هذه الدراسات تتطور وتزدهر حتى جاء الفاطميون فأولوا هذه الدراسات عنايتهم ورحابهم ، ففي كل الحفلات التي كان يقيمها الفاطميون كان القراء في مقدمة الحاضرين يقرأون بين يدي الإمام ، وكان كل قارئ يحاول أن ينال القربى من الإمام ليفوز بأكبر قسط من العطاء ، وكذلك تقسم الحفلات بقراءة ما تيسر من القرآن الكريم ، فكان هناك قراء الحضرة الإمامية وم أشبه شيء يوظفون رسميين في الدولة ، ولهم جاريهم الشهري سوى

الهيئات والمخلع ، وكان عند العلماء الذين اهتموا بهذه الدراسات كبيراً جداً ، كما كثرت كتبهم التي وضعوها في علوم القرآن الكريم ، نذكر من هؤلاء العلماء أبا الحسن علي بن إبراهيم بن سعد الحوفي ، فقد كان عالماً بالعربية وتفسير القرآن ، أخذ عن أبي جعفر النحاس وأبي بكر الأدفوي ، ولقي جماعة من علماء المغرب وأخذ عنهم ، وتصدر للإفادة في العربية وإعراب القرآن وتفسيره ، وأخذ عنه خلق كثير ، وله تفسير اسمه البرهان في تفسير القرآن في ثلاثين مجلداً ، وله في إعراب القرآن كتاب علوم القرآن في عشرة مجلدات ، وصنف في النحو كتاب الموضح في النحو ، وهو أستاذ إسماعيل بن خلف الصقلي المقرئ صاحب كتاب إعراب القراءات في تسعة مجلدات ، توفي بالحوفي سنة ٤٣٠ هـ^(١) .

ونذكر كذلك عبد العزيز بن علي بن محمد بن إسحق أبا عدي المصري المعروف بابن الإمام مسند القراء في زمانه ، قرأ على أبي بكر بن عبد الله بن مالك وقرأ عليه عبد من العلماء المعروفين أمثال طاهر بن غليون ومكي بن أبي طالب وابن نفيس وغيرهم . وتوفي سنة ٣٨١ هـ^(٢)

ويقول صاحب التذذات . إن ابن الإمام كان عبقراً ضابطاً لقراءة ورش وأنه حدث عن محمد بن زبان وابن قديد وقرأ على أبي بكر بن سيف صاحب أبي يعقوب الأزرق^(٣) . وكان أبو بكر الأدفوي محمد بن علي بن أحمد المصري المقرئ . النحوي المفسر شيخ مصر وعالمها في عصره ، كان أصله خشاباً ثم أخذ العلم عن أبي جعفر النحاس النحوي ، وقرأ برواية ورش على أبي غانم المظفر ابن أحمد ، وبرع في علوم القرآن حتى ساد أهل عصره في مصر وانفرد بالإمامة في وقته في قراءة نافع ، وكانت حلقة من أكبر الحلقات العلمية . وله كتاب في التفسير في مائة وعشرين مجلداً سماه كتاب الاستفتاء في علوم القرآن . وتوفي في ربيع الأول سنة ٣٨٧ هـ^(٤) ويقول السيوطي بل في سنة ٣٨٨ هـ^(٥) .

(١) راجع ابن خلكان ج ١ ص ٣٣٢ ، والبيهقي ص ٣٢٥ وياقوت ج ٦ ص ١٦٥ .

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٨٠ .

(٣) حذرات القعب ج ٣ ص ١٠١ (طبع مصر سنة ١٣٥٠ هـ) .

(٤) حذرات القعب ج ٣ ص ١٠١ . (٥) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٨٠ .

ومن العلماء أيضاً عبد الجبار بن أحمد الطرسوسى ، وكان شيخ القراء بمصر في زمانه ، ومن أساتذة أبى الظاهر إسماعيل بن خفص الصقلى ، وله كتاب انجته في القراءات . وتوفى سنة ٤٢٠ هـ (١) . وكذلك تذكر فارس بن أحمد بن موسى بن عمران الضرير مؤلف كتاب المنشأ في القراءات الثماني . وهو المذکور في باب التكبير في الشاطبية وتوفى سنة ٤٠١ هـ (٢) . ويروى بإقرت عن الحافظ السلفى . أن عثمان ابن على بن عمر السرقوسى الصقلى كان من العلم بمكان . نحواً ولغة ، وقرأ القرآن على ابن النحام وغيره ، وله تواليف في القراءات والنحو والعروض . وصارت له في جامع مصر حلقة للإقراء ، وقرأ على كثير من أقرأ عليه كآبى صادق وابن يركات القراء الموصلى وآخرين ، (٣)

وهكذا كان لعلوم القرآن في مصر مكانة خاصة ، وكثرت فيها المؤلفات بجانب غيرها من العلوم والفنون بما كان له أثره في الحياة العقلية المصرية . ونستطيع من هذه اللوحة التى أسلفناها أن تبين أن الفاطميين الذين كانوا لا يتفقون في تفسير القرآن مع باقي المسلمين ، مدعين أن القرآن الكريم تأويل باطنياً يخالف ما يقول به المفسرون ، قد أقصوا صدورهم لتفسير هؤلاء العلماء الذين كانوا بمصر ، وسجوا لهم بالتخلق في المساجد وإلقاء دروس التفسير على طلاب العلم ، فهذا يدل على أن الفاطميين كانوا متساهلين مع غيرهم من أصحاب الفرق والنحل الأخرى . وسنوضح ذلك فيما بعد .

رواية الحديث :

نشطت رواية الحديث في مصر كما كان عليه الأمر في البلاد الإسلامية الأخرى ، وكثرت الرحلة في طلبه ، وكانت مصر من أهم مراكز الرواية منذ دخول الإسلام ، ومن أشهر المحدثين الذين كانوا في مصر الفاطمية : أبو بكر محمد بن على بن حسن المصرى نزيل تيس ، ولد سنة اثنتين وثمانين ومائتين وسمع القساقى وأبا علي وروى عنه الدارقطنى وغيره وتوفى سنة تسع وستين وثلاثمائة (٤) .

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٨١ (٢) حجين المحاضرة ج ١ ص ٢٨٢ .

(٣) باقوت معجم الأدباء ج ١٢ ص ١٣٠ (٤) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٩ .

ومعاصره الحسن بن رشيق، أبو بكر محمد العسكري المصري، روى عن النسائي أيضاً، وعنه أخذ الدارقطني وعبد الغني بن سعيد، وفيه يقول ابن الطحان في تاريخه الذي جمعه ذيلًا لتاريخ ابن يونس المصري: «ما رأيت طائفة أكثر حديثاً منه، ولد في صفر سنة ثلاث وثمانين ومائتين وتوفي في جمادى الآخرة سنة سبعين وثلاثمائة^(١)».

والحدث الجوال أبو الفتح عبد الواحد بن محمد المعروف بابن مسرور البليخي روى عن ابن سعيد بن يونس، وروى عنه عبد الغني بن سعيد، وأما بمصر وتوفي سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة^(٢).

ومن أشهر الحفاظ في هذا العصر أبو محمد عبد الغني بن سعيد الأزدي، ولد سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة، وتوفي والده بعد خمس سنوات من ولادته، ونشأ عبد الغني بحيا الحديث، فروى عن حمزة بن محمد المعروف بأبي القاسم الكنازي المصري^(٣) وأبي بكر محمد بن هلي وابن مسرور البليخي، ثم اتصل بالدارقطني ولازمه وروى عنه، وقيل: إن الدارقطني سئل: هل رأيت في الحديث أحداً يرجي عليه؟ فقال: نعم، رأيت شاباً بمصر كأنه شملة نار يقال له عبد الغني. ولما خرج الدارقطني من مصر جاءه المودعون، وتوزنوا على مفارقتهم وبكوا. فقال لهم: لقد تركت عنديكم خلفاً، يعني عبد الغني، وقيل أيضاً: إن عبد الغني لما صنف كتابه المؤتلف والمختلف عرضه على الدارقطني، فقال له: اقرأه. فقال: كيف أقرأه لك ومعظمه أخذته منك؟ فقال: نعم أخذته مني متفرقة والآن قد جمعتها^(٤) وروى عن الدارقطني أيضاً أنه كان يقول عنه: ما رأيت في طريق مثله، ما اجتمعت به وانفصلت عنه إلا بفائدة^(٥).

وكان بين عبد الغني بن سعيد وبين أبي أسامة جنادة النوري وبين أبي حلي المصري الأنطاكي مودة أكيدة واجتماع في دار العلم ومذاكرات ومعاذات، فلما أمر الحاكم بأمره بقتل جنادة وأبي علي الأنطاكي استتر عبد الغني خوفاً من

(١) حسن المحاضرة (٢) المصدر السابق (٣) النجوم الزاهرة

(٤) ابن خلكان ج ١ ص ٣٠٥ (٥) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٤٤

أن يدعى بهما لصداقته لهما ، وأقام مستخفياً مدة حتى حصل له على الأمر فظهر وتوفي في صفر سنة ٥٤٠٩ هـ ، وقيل سنة ٥٤١٠ هـ ، ولما أراد الحاكم بأمر الله بناء جامعهم جعل المحافظ عبد الفتى بن سعيد على بنائه ونظره ^(١) . وقد طبع كتابه المؤلف والمختف بالهند سنة ١٣٢٦ هـ

ولعل أشهر المحدثين الذي شهدتهم مصر في أواخر الدولة الفاطمية هو المحافظ السلفي وكان متقناً نافذاً ثباته دينا خيراً ، انتهى إليه علو الإسناد . كان أواخر زمانه في علم الحديث وأعلمهم بقوانين الرواية ^(٢) ، ويقول صاحب النجوم : وكان قد طاف الدنيا ولقي المشايخ ، وكان يمشي حافياً لطلب العلم والحديث ^(٣) . ورد بغداد فأخذ عن أبي الحسن المهراس علوم الفقه وعن الخطيب التبريزي علوم اللغة ، كما روى عن أبي محمد جعفر بن السراج وغيره ، ثم دخل دمشق وأخذ عن علمائها ودخل الإسكندرية سنة ٥٢١ هـ واستوطنها فقصده الناس وسموا عليه ، وبني له العادل بن الحسن علي بن السلار وزير الظافر الفاطمي مدرسة بالإسكندرية سنة ٥٤٦ هـ وفوض أمرها إليه ^(٤) ، وصار إليه الهجرة في الحديث حتى لم يكن في آخر أيامه مثله ، ومن أشهر تلاميذه جمال الدين عبد الرحمن بن حفص الصغراوي الإسكندري والمحافظ أبو الحسن علي بن فاضل الصوري والمحافظ شرف الدين السكندري ، وغيرهم من حفاظ الحديث الذين ظهروا في العصر الذي يلي هذا العصر الذي توارخه .

ولما وفد أبو حامد الغزالي على الإسكندرية لقي المحافظ السلفي وتباحثا في بعض المسائل ، أما كتبه وأماله فهي كثيرة ، وكذلك كان له بعض مقطعات من الشعر ، فن قوله في كبر سنه :

أنا إن بان شبابي ومعنى فربي الحمد ، ذهني حاضر
ولئن خفت وجفت أعظمي كبراً ، غصن علوي تاضر ^(٥)

(٢) حين المحاضرة ج ١ ص ٢٠٠

(٢) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٩ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٨٧

(٥) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٨٧ .

(٤) أن حله كان ج ١ ص ٣١ .

ذلك أن السن تقدمت به حتى قيل : إنه جاوز المائة بخمس سنين ، إذ توفي سنة ست وسبعين وخمسة . ومن الرحالين الذين وفدوا على مصر في هذا العصر في طلب الحديث ، الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي الأندلسي . ولقي بمصر والإسكندرية جماعة من المحدثين روى عنهم ، كما استفاد بعض المصريين منه ، وعاد إلى الأندلس سنة ٤٩٣ هـ^(١) . وأبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي المعروف بابن القيسرائي ، وكان أحد الرحالين في طلب العلم والحديث بوجه خاص . روى بالحجاز والشام ومصر والثغور والجزيرة والعراق وفارس . وتوفي ببغداد سنة ٥٠٧ هـ^(٢) .

دراسة مذاهب أهل السنة :

وهنا نعرض لموضوع كثرفيه اختلاف الكتاب منذ العصر الفاطمي إلى الآن ، فقد ذهب أكثر المؤرخين إلى أن الفاطميين كانوا شديدي التمسك لمذهبهم الديني . وتطرفوا في عصيتهم حتى إنهم أكرموا الناس على اعتناق مذهبهم رغبة لا رغبة ، وإنهم في سبيل ذلك اضطهدوا علماء مذاهب أهل السنة بل أفنوا قتيلا ، ويقول السيوطي : إن الفاطميين أفنوا من كان بمصر من أئمة المذاهب الثلاثة — أي الشافعية والمالكية والحنفية — قتلا وقضياً وتشريداً وأقاموا مذهب الرافض والشيعة^(٣) ، وزعم قليل من المؤرخين المحدثين إلى أن الفاطميين كانوا أهل تسامح ورفق بالرعية ، وأن جوهر الصقلي أعطى الأمان للمصريين بأن يمتدوا المذهب الديني الذي يرتضونه ولا إكراه في الدين ، وبلغ تسامح الفاطميين إلى أن استخدموا في أكبر وظائف الدولة من لم يكن مسلماً ، فكان من الوزراء والنواب في الأقاليم وكتاب دار الإفتاء من كان مسيحياً أو يهودياً ، أما الاضطهاد الذي حاق بأهل السنة فقد كان في أيام الحاكم بأمر الله الذي عرف بالتقلب في سياسته وأحكامه .

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٤٨٩ .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٤٨٩ .

(٣) حن الحاضرة ج ١ ص ٢٧٤ .

فقهاء الشافعية :

وإذا نظرنا في كتب الطبقات والتاريخ رأينا عدداً كبيراً من علماء مذاهب أهل السنة كانوا يعيشون في مصر الفاطمية ، ويقفون تماثيلهم على جهور المستمعين تحت بصر رجال الدولة الفاطمية ودعاة دعوتهم دون أن يحسبهم سوء . فن علماء من مذهب الشافعي القاضي أبو الفضل محمد بن أحمد بن عيسى البغدادي نزيل مصر فقد أُملي بها وأفاد حتى توفي سنة ٤٤١ هـ (١) ، وأبو القاسم نصر بن بشر بن علي فقد كان قفياً محققاً ومناطراً مبرزاً وتوفي سنة ٤٧٧ هـ (٢) . والقاضي أبو الحسن علي بن الحسين الموصل الخنسي المولود بمصر سنة ٤٠٥ هـ وكان قفياً مشهوراً له تصانيف وروايات متسعة وكان أدنى أهل مصر إسناداً ، وجمع له أبو نصر أحمد بن الحسن الشيرازي عشر جزراً وخرجها عنه وسماها « الخليعات » ، وبالرغم من أنه كان شافعي المذهب فقد ولاء الفاطميين القضاء سنة ٤٥٠ هـ ولكنه استقال بعد يوم واحد ومات بمصر سنة ٤٩٢ هـ وينسب إليه مسجد الخنسي بالقاهرة ، وكان والده أيضاً من فقهاء الشافعية ، توفي بمصر سنة ٤٤٨ هـ (٣)

ومن فقهاء الشافعية أيضاً في ذلك العصر أبو الفتح سلطان بن إبراهيم بن مسلم المقدسي ، الذي قال عنه الحافظ السلي : كان من أئمة الفقهاء بمصر فأوعظه قرأ أكثرهم ، ولد بالقدر سنة ٤٤٢ هـ وتقه على الشيخ نصر المقدسي ثم دخل مصر فظل بها إلى أن توفي سنة ٥١٨ هـ (٤) .

وكذلك قول عن أبي الحاج يوسف بن عبد المزي بن علي الميوري الذي اتخذ الإسكندرية موطناً له وصنف تجميعه في الخلاف بين الفقهاء ، وهو أحد الذين روى عنهم الحافظ السلي ، وتوفي بالإسكندرية سنة ٥٢٣ هـ (٥) وبجلي ابن جميع بن نجا الخزوي المصري صاحب كتاب النفاثر ، تقه على سلطان

(١) حصر المحاضرة - ١ من ٢٢٧ وتاريخ بغداد . (٢) المصدر السابق .

(٣) حصر المحاضرة - ١ من ٢٢٨ وابن عسمر ص ٣٩ .

(٤) حصر المحاضرة - ١ من ٢٢٨ . (٥) المصدر السابق .

المندى ويرى في فقه الشافعى حتى صار من كبار الائمة ، وتفقه عليه جماعة منهم العراقي شارح المنصب ، وعلى الرغم من تمجده بمنصب مخالف مذهب أولى الأمر في البلاد فقد ولى القضاء سنة ٥٤٧ هـ ومكث في القضاء عامين ، ومات سنة ٥٥٠ هـ ومن تلاميذه كتاب أدب القضاء وكتاب الجهر بالبسمة (١) .

وأبو محمد عبد الله بن رفاعه بن غدير السعدى المصرى الذى ولى قضاء الجزيرة . فقد كان قتيها ماهرا فى الفرائض ، أخذ عن الحلوى ولازمه مدة طويلة ، وهو آخر من حدث عنه ، ثم ترك القضاء واعتزل فى القراقة متعبدا إلى أن توفى سنة ٥٦١ هـ (٢) .

وستحدث فى فصل التاريخ عن القاضي القضاعى الشافعى وكيف ولى القضاء . وولى ديوان الإفتاء بالرغم من شافعيته ، وأنه صنف كتابا فى مناقب الإمام الشافعى وأخباره ، وكتاب الشهاب فى فقه الشافعية (٣) .

وكذا نرى عندنا كبيرا من فقهاء الشافعية كانوا يعيشون فى العصر الفاطمى ، ومنهم من ولى القضاء أو غيره من مراتب الدولة الفاطمية ، دون أن يكون لظاهر مخالفتهم لمذهب الدولة أثر فى حياتهم العلمية أو العملية .

فقهاء المالكية :

وكذلك قول عن فقهاء المالكية ، فقد وجد فى مصر الفاطمية عدد كبير منهم ، أمثال محمد بن سليمان المعروف بأبى بكر النعمان الذى كانت إليه إمامة المالكية فى وقته وإليه كانت الرحلة بمصر ، وكانت حلقة فى الجامع ندور على سبعة عشر عمودا ، لكثرة الطلاب الذين كانوا يقصدونه للاخذ عنه ، وتوفى سنة ٣٨٠ هـ (١) .

وأبو القاسم الجوهري عبد الرحمن بن عبد الله الشافعى المصرى صاحب مسند

(١) حس المحاضرة ج ١ وابن ميسر ص ٩٥

(٢) المصدران السابقان (٣) ابن خلكان ص ١٠٦

(٤) حس المحاضرة ج ١ ص ٢٥٦

الموطأ المتوفى في شهر رمضان سنة ٣٨٠هـ (١)

ورعن جميعا فلم قصة الفقيه المالكي عبد الوهاب بن علي ، أحد الأئمة المجتهدين في المذهب حتى وصفه الخطيب في تاريخ بغداد بأنه لم يرب في المالكية أفضه منه ، ونظم كيف وده إلى مصر لضيق حاله في بغداد ، وكيف أكرمه المصريون حتى تولد وحسن حاله ، ولما أدركه المرض كان يقول : لا إله إلا الله عندما عشنا متنا ، وتوفي بمصر ٤٢٢هـ

ونسبح في هذا العصر عن عبد الجليل بن مخوف الصقلي الذي قال ابن ميسر عنه : إنه أفتى بمصر أربعين سنة ومات بها سنة ٤٥٩هـ . وعن علي بن الحسن ابن محمد بن العباس الفهرى صاحب كتاب فضائل مالك وشارح الموطأ . وعن أبي بكر الطرطوشي محمد بن الوليد الأندلسي نزيل الإسكندرية ، وكان كثير الرحلة في طلب العلم فسافر إلى العراق وسمع ببغداد ثم استوطن الإسكندرية واتصل بالوزير المأمون البطايعي الذي أكرمه فصنف له الطرطوشي كتاب «سراج الملوك» . كان له عدة من التلاميذ أمثال سند بن عفان بن إبراهيم الأزدى الذي خلفه في حلقة ، والذي شرح المدونة . وتوفي الطرطوشي سنة ٥٢٥هـ وتوفي تلميذه سنة ٥٤١هـ .

إذاً نستطيع أن نعلم أن دراسة مذهب مالك استمرت في مصر في العصر الفاطمي بجانب مذهب الشافعي بالرغم من أن الفاطميين كانوا يوجهون النقد اللاذع إلى هذين المذاهبين ، وأن دعاة المذهب الفاطمي كثيراً ما كانوا يتناولون بالتجريح هذه المذاهب البنية في مجالس حكمهم وفي أشعارهم ، وما هو ذا الداعي المؤيد في الدين يقول :

فا أبو حنيفة والشافعي حيثهم قد تقفوا بنافع (٢)

ويقول مرة أخرى :

وتويل لبس الخافعي ومالك بيان زين العابدين وجعفر

(١) حسن الحاضرة ج ١ ص ٢٥٦

(٢) قصيدة الأولى من ديوان الموفق بن داود البغدادي (من مطبوعات دار الكتاب العربي)

(٩ - ألب مصر)

وقياس فقياس غدا متبرجا بالاعتزال وترهات الجبر (١)
 يريد أن الفاطميين تركوا لفقهاء هذه المذاهب حرية العقلية . وسبحوا لهم
 بالتحقق في المسجد وإلقاء تعاليم المذاهب السنية على من يشاء من الطلاب ، وقد
 ذكرنا أن الحاكم بأمر الله أمر بمهارة دار العلم ونقل إليها الكتب من القصر ،
 أسكنها من شيوخ السنة شيخين أحدهما أبو بكر الأنطاكي وخلع عليهما وقربهما
 وسمح لهما بحضور مجالسه وملازمته . وأنه جمع الفقهاء والمحدثين إلى دار العلم .
 ومحدثنا عمارة البني أن الملك الصالح طلائع بن رزيق كان يلقي في ولايته فقهاء السنة
 ويسمع كلامهم (٢) . مع ما كان عليه الملك الصالح من إفراط في التعصب لمذهبه (٣).

تعصب الفاطميين لمذهبهم !!

أما هذه المسألة التي أثارها المؤرخون حول تعصب الفاطميين أو تسامحهم ،
 فيخيل إلى أن الفاطميين كانوا يميلون إلى صبح البلاد كلها بصيغة مذهبهم ، أحيانا
 بالترغيب وأحيانا بالترهيب . فكان الدعاة يؤدون واجهم في تشكيل المسلمين
 في مذاهبهم السنية ويحببون إليهم المذهب الفاطمي . فن المصريين من استجاب
 لهذه الدعوة عن رغبة بعد أن اقتنع بأقوال المعتز . ومنهم من استجاب لفرض
 التقرب إلى الحاكمين عساه يجد حظوة لديهم وينال مأربه ، وهذا اللون من الناس
 كثير في كل العصور والأقاليم ، ومن المصريين من امتنع عن التحول عن مذهبه
 الديني ، واستمر يحافظ على عقيدته التي دان بها والتي نشأ عليها أبواه ولو أدى
 ذلك إلى تعسف الحاكمين معه ، وإذا كان الفاطميون استعملوا السيف في سبيل
 نشر عقيدتهم وإخضاع الخارجين على مذهبهم ، فهذا أمر طبيعي نجد مثيلا له في
 ظل كل الحكومات التي لها نزعة عامة حتى في عصرنا الحاضر . فقد رأينا اليوم
 ألوانا مختلفة من الحكومات الفاشية والشيوعية والنازية وكلها تحاول فرض
 سلطانها ومبادئها في بلادها وأن تصبغ هذه البلاد بصبغتها الخاصة ، وأن تحكم
 بالقوانين التي سنّها نظمها . ولو أدى ذلك إلى القتل والتضييق والتشريد لكل من

(١) من القصيدة السابعة من ديوان الأبيد في الدين .

(٢) التكت المصرية ص ٤٥ . (٣) التكت ص ٤٨ .

حاول مخالفة تلك النظم والقوانين ، رأينا ذلك كله ولمسناه في هذا العصر الحديث ، فلا نستطيع أن نتكر أن الفاطميين الذين حكموا مصر منذ ألف عام تقريباً كانوا يستعملون وسائل الإرهاب لمخالف عقيدتهم ، ولا سيما الشيعة عامة . ذاقنا من المذاب والتشكيل على أيدي خصومهم ما نتحدث به كتب التاريخ . كان الفاطميون منذ أوائل حكمهم يصر إلى آخره على الظاهر يحكمون بأنفسهم ولم يكن لوزراء قد بلغوا من القوة والاستبداد بالامر هذا المبلغ الذي نراه في عهد المستنصر ومن بعده من خلفاء الفاطميين ، ففي هذا العصر الأول كان اضطهاد أهل السنة أمراً طبعياً لتثبيت أركان الدولة وحمايتها من أعدائها أموي الأندلس في الغرب ، ومن العباسيين في الشرق ، فكانت السياسة تقضى على الفاطميين أن يكونوا على حذر من كل مخالفة لعقيدتهم ، وأن يشحنوا بالسيف لكل من تحداه نفسه بالخروج على سلطانهم . ولا سيما أن العباسيين وأموي الأندلس أخذوا يسيئون إلى الفاطميين في نسبهم وفي عقائدهم ، وحاربوا الفاطميين بالسيف طوراً وباللغة طوراً آخر ، فكثيروا المحاضر في نسب الفاطميين ، وطلبوا من العلماء والكتّاب الطعن في عقائد الفاطميين مثل ما نراه في كتب الغزالي وغيره فاضطر الفاطميون إلى أن يكونوا على يقظة من أمرهم إذا جد الجدد ، وأن يمتدوا كل من لم يعتقد عقيدتهم عدوا لهم ، وبهذا نستطيع أن نفسر تطورات الحال كما أمر الله في سياسته ، فكان حيناً يقرب أهل السنة ويبتعد عنهم أهواله وطرواً يشتت شملهم ويجمع فيهم بالقتل والسجن ، وهو في كلا الأمرين مضطر إلى اتخاذ هذه السياسة . تلك حاله حسب مقتضى الحال مع خصومه وأعدائه ، فلما كما بأمر الله لم يكن مجنوناً كما يصور في نسب ساداته ، وإنما كان سياسياً حازماً في سياسته ، ينفو في وقت الغفوة ويقتل حين يشتد به الأمر ، وهكذا كانت الحال في سياسة الفاطميين نحو أهل السنة .

لحيناً ترى الفاطميين لا يفرقون بين أصحاب الفرق الإلـامية أو الذمية فهم يستخدمونهم في وظائف الدولة ، ولا يترضون لهم بمقت ولا أذى ، وقد قال القاضي النعمان في كتابه المجالس والمسايرات (١) : «لما قلدني القضاء بالمنصورة رأيت قوماً

(١) المجالس والمسايرات ورقة ٧٣ ب (نسخة خطية بمكتبة)

لم يصلوا إلى الدعوة ورأيت فيهم مقاربة ورجوت أن يهديهم الله إن اتع في ذلك لعباده ، فلما جاء الله من ذلك بما هيأه لحلقه من فتح باب رحمته لعباده تخلفوا . ورجوت أن يحاسبوا أنفسهم ، ورمزت لهم وطارتهم فلم أرهم يقبلون على شيء ، فواجهتهم وكلمتهم واحتججت عليهم وناظرتهم حتى قطعتهم فلم يزدوا ذلك إلا تماديا في النفي وإصرارا على الجهل ، فثقل على أمرهم وكرهت جانبهم . أبغضت رؤيتهم وسمعت صحبتهم ، فأردت الاستبدال بهم ، فرغمت ذلك إلى العز ، فوقع لي فيهم : « أيقظهم على خدمتك فإن ينيء الله بهم فمعادة ساقها الله إليهم ونواب يصير اليك بما بذلته من النصيحة لهم ، وإلا فلا يمنحك جهل الجهر المستنيرة من الاتقاع بما في بعض مصالحك ويكونون بعدك قال الله عز وجل : « طامعة ناصبة تصلي نارا حامية »

وحينما آخر كان الفاطميون يضطرون اضطرابا إلى أخذ أهل هذه المذاهب بالشد والنف . حتى ولى المستنصر بالله سنة ٤٢٧ هـ فأخذ الوزراء ورجال الدولة كل سلطة من الخلفاء ، واستطاع الوزراء أن يكونوا هم أصحاب السلطة الفعلية في البلاد ، وأصبح الخليفة الفاطمي العويبة في أيدي وزرائه وليس له من الأمر إلا الخطبة . وظهر بين الوزراء من كان على مذهب يخالف المذهب الفاطمي ^(١) ، هنا نرى حدة العصبية الأولى تخف ، وتعود إلى الناس حرية العقيدة أكثر مما كانت من قبل ؛ بل ذهب الوزير أبو علي أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي إلى أن يعين البلاد أربعة قضاء ، اثنين من الشيعة واثنين من أهل السنة ، فالشيعيان أحدهما فاطمي المذهب والآخر إمامي المذهب ؛ والسنيان أحدهما شافعي والآخر مالكي ، وأعطى لكل واحد السلطة المطلقة في إصدار أحكامه على وفق مذهب ^(٢) . وقد ذكرنا أن الوزير أبا الحسن علي بن البلاد وزير الظاهر كان ظاهرا للشن شافعي المذهب وهو الذي أنشأ مدرسة الشافعية بالإسكندرية وفوض أمرها إلى المحافظ السابق ^(٣) ، وهكذا بدأ التنفيع يتبع في الدولة

(١) راجع ما كتبناه من ذلك في مقالة كتاب المجالس المستنصرية .

(٢) أخاه نصر الدين مهدي ص ٧٥ (٣) ابن خلكان ج ١ ص ٢٧٠ .

الفاطمية والمذهب الفاطمي منه ، حتى م بعض الوزراء في مصر إلى تسيير الدعوة لابن صاحب عدن ، ويقول عمارة البني في ذلك : إن الداعي ابن عبد القوي والأجل الفاضل ، وشاور ، والكامل ، عزموا على أن يتبرعوا ابتداء بتسيير الدعوة لولدى صاحب عدن بعد موته ، ثم قال شاور : أحضروا فلانا (يعني عمارة) وغذوا ماغذوه ، ولم يبق في التوبة إلا صرمها ، فلما حضرت وأعلموني منعتهم وقلت : إن أهل اليمن إنما يبتشون لكم الهدايا والتحف والنجاري ويتولونكم لأجل الدعوة ، فإذا تبرعتم بها فقد هونتم حرمتها ، فرجع الجميع عما كانوا عليه^(١) .

وقصة أخرى رواها عمارة أيضاً تدلنا على مابلغ إليه التهاون في عقيدة الفاطميين . ذلك أن سيف الدين الحسين بن أبي الهيجاء صهر الصالح بن رزيك توفراً ومسح رجله ولم يسلهما - على حسب عقيدة الفاطميين - فتناول عمارة الإبريق وسكب الماء على رجله ، فغذبهما وهو يضحك ، فقال عمارة : إن كان الحق معكم في مسح الرجلين يوم القيامة فما نعطى ولا نقاب على غسلها ، وإن كان الحق معنا في غسل الرجلين خرجتم من الدنيا بلا صلاة لأنكم تتركون غسل الرجلين وهو فرض . فكان سيف الدين يقول له بعد ذلك : واه لقد أدخلت على قلبك الشك والسواس بكلامك في مسألة الوضوء^(٢) .

وأمل قصة محاولة إدخال عمارة البني في الدعوة من القصص التي قرينا أن القائلين بأمر الدولة الفاطمية في أواخر عهدهما لم يأبها بأمر المنصب وأنهم كانوا يتسامحون مع مخالفيهم إلى حد بعيد ، فبالرغم من أن الملك الصالح طلائع بن رزيك كان شديد التعصب لمذهب الفاطمي ، وأنه أدخل عددا من المسلمين في منعبه فإنه لم يستطع أن يمنع في محاولته مع عمارة ، يقول عمارة : وكانت تجري بحضرته مسائل ومذاكرات ويأمرني بالحوض مع الجماعة فيها وأنا بمجول عن ذلك لا أنطق بحرف واحد ، حتى جرى من بعض الأمراء الحاضرين في مجلس

(١) التمسكت ص ٩٢ .

(٢) التمسكت ص ١٢٣ .

السمر من ذكر السلف ما اعتمدت عند ذكره وسماعه قول الله عز وجل : فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره ، ونهضت فخرجت فأدركني الغلبان فقلت : حمالة يعتادني وجمعا . فتركوني واقطعت في منزل أيا ما ثلاثة ورسوله يأتي في كل يوم والطبيب معه ، ثم ركبت بالنهار فوجدته في البستان المعروف بالمختص في خلوة من الجلساء ، فاستوحش من غيبي ، فقلت : إني لم يكن بي وجمع . وإنما كرهت ما جرى في حق السلف وأنا حاضر ، فإن أمر السلطان بقطع ذلك حضرت ، وإلا فلا ، وكان لي في الأرض سمة وفي الملوك كثرة . ففجأ من هذا وقال : سألتك بالله ما الذي تقتد به في أبي بكر وعمر ؟ قلت : أعتقد أنه لولاها لم يبق الإسلام علينا ولا عليكم ، وأنه مامن مسلم إلا وعجبتهما واجبة عليه . فضحك . وبعد أيام جاءت عمارة رقعة فيها أبيات بخط الملك الصالح ، ومعها ثلاثة أكياس ذهب ، وفي الرقعة :

قل للفقير عمارة يا خير من	أخفى يؤلف خطبة وخطابا
أقل نصيحة من دناك إلى الهدى	قل (حلة) وادخل إلينا البابا
تلق الأئمة شافعين ، ولا تجد	إلا لدينا سنة وكتابا
وعلى أن يعلموا علك في الوري	وإذا شفعت إلى كنت : مجابا
وقبضت آلافا ومن ثلاثة	صلة وحقق لا تعد ثوابا

فأجاب عمارة مع الرسول بهذه الآيات :

حاشاك من هذا الخطاب خطابا	يا خير أملاك الزمان نصابا
لكن إذا ما أفسدت طناؤكم	معمور معتدى وصار خرابا
ودعوتكم فكري إلى أقوالكم	من بعد ذاك أطاعكم وأجابا
فاشدد يدك على صفاء عيبي	وأمن على وسد هذا البابا (١)

ولا أدري كيف سكت الملك الصالح بعد أن طعن عمارة مذهب الفاطميين

باليث الثاني من هذه المقطوعة ، ولكن الأمر لم يكن أمر تعصب من المملك
الصالح بن رزيك، بل هو أمر تهاون بالمذهب شمل الأمراء وغير الأمراء ، ولعل
هذا الضمف الذي حل بالتيهه «عاطمية هو الذي سهل الأمر لصلاح الدين
الأيوبى فى أن يقوض أركان الدولة المتداعية وأن يعيد إلى الناس عقيدة أهل
السنة والجماعة ، وقبل الناس منه ذلك . فتحولت مصر بمد عشية وضحاها
من شيعية إلى سنية ، لأن الدعوة الشيعية لم تكن متغلغلة فى نفوس المصريين ،
وأن الذين اعتنقوا هذه الدعوة تهاونوا بها ، فسهل على الأيوبيين أن
يشزعوها منهم .

الفصل الثالث

التاريخ والسيرة

رأينا في عصر الولاة بمصر^(١) كيف أسهم المصريون في تدوين التاريخ منذ القرن الثاني للهجرة ، وعرفنا بعض المؤرخين الذين نبغوا في العصر الذي سبق العصر الفاطمي ، أمثال عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ، وعمار بن وسيمة المصري ، وابن يونس والكندي وابن الداية وغيرهم ، وقد استمر تيار هذا اللون من العلم طوال العصر الفاطمي ، فظهر عدد كبير من المؤرخين ، وحفظت لنا أسماء مؤلفاتهم ، وبعض مقتطفات من كتبهم متفرقة في كتب التراخي ، ففي كتب المقرئى وابن الحسن بن تغرى بردى والسيوطى وابن فضل الله العمري ، وتومرى والتشندى نقبسات كثيرة من الكتب التى وضعها مؤرخو الفاطمية ، وهذه المقتطفات تدلنا على أن مؤرخى مصر في العصر الفاطمي كانوا يهتمون اهتماما خاصا بمصر ، فأكثر كتبهم كانت تدور حول مصر ، وإن كان منها ما كتب في التاريخ العام .

فمن المؤرخين الذين شاهدوا هذا العصر ، أحمد بن عبد الله بن أحمد الفرغانى ، وقد بمصر في ذى الحجة سنة ٣٢٧ هـ ، وكان أبوه مؤرخا صاحب ابن جرير الطبرى ودوى عنه تصانيفه ، وأخذ أحمد بن عبد الله عن أبيه كتبه وكتب الطبرى وصنف عدة كتب منها كتاب التاريخ وصل به تاريخ أبيه ، وكتاب سيرة كافور الإخيدى ، وسيرة العزيز بالله الفاطمي ، وكان مقامه بمصر إلى أن توفي في ربيع الأول سنة ٣٩٨ هـ^(٢) .

ابن زولاق :

وشهد هذا العصر المؤرخ المصرى الكبير الذى أخذ عنه كل من جاء بعده

(١) راجع كتاب أهب مصر الإسلامية (من مطبوعات دار الفكر العربى) .

(٢) معجم الأدباء لياقوت ج ٣ ص ١٠٥ .

من المؤرخين الذين تحدثوا عن مصر . ذلك المؤرخ هو الحسن بن إبراهيم الليثى
المصرى المعروف بابن زولاق ، فقد كان من أعيان علماء مصر ولد سنة ست
وثلاثمائة ، وروى الحديث ، وأخذ عنه بعض المحدثين أمثال عبد الله بن دهبان
وغيره ، وأولع بالتاريخ فروى عن الكندى وابن قديد وابن الداية ، يقول
ابن زولاق : كان أبو جعفر أحمد بن يوسف بن إبراهيم الكاتب (أى ابن الداية)
قد عمل سيرة أحمد بن طولون أمير مصر ، وسيرة ابنه أبى الجيش ، وانفشرتا
في الناس . وقرأتهما عليه ، وحدثت بهما مع غيرهما من مصنفاته ، ثم عملت
أنا مائة من سيرتهما (١) .

وكان ابن زولاق من فرط حبه لزواية التاريخ كثيراً ما ينشد :

ما زلت تكتب في التاريخ مجتهداً حتى رأيتك في التاريخ مكتوباً (٢)
وصنف ابن زولاق عدة كتب منها سيرة محمد بن طنج الأحمدي ، وكتاب
أخبار سيوف مصر . وكتاب سيرة المادرائين — وقد طبعت هذه الكتب
كلها . وكتاب فضائل مصر (منه نسخة خطية بمكتبة الأزهر وأخرى بدار
الكتب المصرية وثالثة بالمكتبة الأهلية بباريس) وكتاب سيرة كافور ،
وكتاب سيرة جوهر . وكتاب سيرة المعز ، وكتاب سيرة العزيز ، وكتاب
التاريخ الكبير على السنين ، وله تذييل على كتاب الولاة للكندى وآخر على
كتاب القضاة للكندى أيضاً ، وكتاب خطط مصر ، وأكثر هذه الكتب
فقدت ولم يبق منها إلا شذرات متفرقة في الكتب . وإذا نظرنا إلى الكتب
التي حفظت إلى الآن نرى ابن زولاق يدون ما سمعه من القوادع العدول من
معاصره أو ما شاهده بنفسه من أحداث ، فهي سجلات حوادث يتلو بعضها
بعضاً دون أن يكون هناك رابطة بين الحادثة والأخرى ، فالكتب ليست
بكتب تاريخ على النحو الذى نفهمه الآن من كتب التاريخ ، بل هي أشبه تنويه
بجرائد الأخبار في عصرنا الحديث ، وإن كان الكتاب الواحد يجمع الحوادث

(١) المغرب في حل المغرب ص ٤ .

(٢) هذا البيت من قصيدة أنشدها أحد شعراء مصر في رثاء أبى سعيد عبد الرحمن بن

أحمد بن يوسف بن عبد الأعلى المؤرخ فصرى المتوفى سنة ٤٤٧ هـ .

التي حدثت في عصر ملك من الملوك ، ولم تقسم الكتب إلى أبواب وفصول ، بل هي كما قلت مجرد سرد للحوادث ، كما أن أكثرها ليس مرتباً على السنين أو على حسب وقوع الأحداث التي ذكرها ، فقد تجد حادثة في أول الكتاب وتاريخ حدوثها بعد الحوادث التي جاءت بعدها . ومهما يكن من شيء فقد كان تأليف كتب السير في ذلك العصر على هذا النحو الذي نراه في كتب ابن زولاق ، وبالرغم من ذلك فقد كانت كتب ابن زولاق مصدراً هاماً من المصادر التي اعتمد عليها المؤرخون الذين تحدثوا عن مصر بعده ، . وابن خلكان ، والنويري ، وابن حجر العسقلاني ، والسيوطي ، وابن دقاق ، وأبو المحاسن ، وإياقوت ، والقفقشندي ، والمعبري وغيرهم نقلوا كثيراً من حادثة كتبهم عن كتب ابن زولاق ، وكانوا يطلقون عليه « مؤرخ مصر » ، مما يدل على قيمة كتبه وأخباره ، ولا غرو في ذلك فقد كان محدثاً ، والمفروض في المحدث أن يكون صدوقاً فيما به ، وقد نكون ميزة ابن زولاق الكبرى هي صدق أخباره ، حتى عرف بذلك بين معاصريه أنفسهم ، فاستطاع أن يكتب مكانة رفيعة في نفوسهم ، وقد ذكرنا قصته مع الوزير يعقوب بن كلس . وتوفي ابن زولاق في عهد الحاكم سنة سبع وثمانين وثلاثمائة من الهجرة ^(١) .

المسبحي :

ومن مؤرخي هذا العصر الذين كثر نقل المتأخرين عنهم ، المؤرخ الأمير المختار هو الملك بن أبي القاسم عبيد الله بن أحمد المعروف بالمسبحي ، الحارثي الأصل ، المصري المولد والنشأة ، ولد في رجب سنة ست وستين وثلاثمائة ، واتصل في صباه بمحنة الحاكم بأمر الله في زمرة جنده ، وما زال يرقى في مراتب الجندية حتى صار أميراً على إقليم البهنسا والقيس من أعمال صعيد مصر . ثم ولي ديوان الترتيب ، وينقل عنه أنه كان له مع الحاكم بأمر الله مجالس ومذكرات أودعها كتابه « التاريخ الكبير » ، الذي وصفه بقوله : « التاريخ الجليل قدره ، الذي يستغنى بمضمونه عن غيره من الكتب الواردة في معانيه ،

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١٣٤ ومجم الأدباء ج ٧ ص ٢٢٥ .

وهو أخبار مصر . ومن حلها من الولاة والأمراء والأئمة والخلفاء ، وما بها من العجائب والأنبية ، واختلاف أصناف الأطعمة ، وذكر نبتها ، وأحوال من حل بها ، وأشعار الشعراء ، وأخبار المغنين ، وبجاس القضاة . والحكام والمعلمين والأدباء والمتفكرين وغيرهم . وهو في ثلاثة عشر ألف ورقة . ويدلنا هذا النص على أن المسيحي لم يهتم بالتاريخ السياسي لحسب ، بل أراد أن يجعل من كتابه موسوعة عامة عن مصر من ناحيتها السياسية والاجتماعية والأدبية والاقتصادية ، ومن المؤلم حقاً أن يضيع مثل هذا الكتاب القيم ، ولم يبق منه إلا هذه الفقرات القليلة المتفرقة في كتب التاريخ ، وهذا الجزء الصغير المخطوط بمكتبة الأسكوريال بألمانيا .

لم يكن الأمير المسيحي مؤرخاً لحسب ، بل كان أديباً له ذوق فني وإطلاع واسع في ميدان الأدب ، وألف في ذلك الميدان كتباً كثيرة منها « كتاب التلويح والتصریح ، في معاني الشعر ، وكتاب « الشجن والسكن ، في أخبار أهل الحموى وما يلقاه أربابه . وكتاب « جورة الماشطة ، يتضمن غرائب الأخبار والأشعار والنوادر التي لم يتكرر مرورها على الأسماع ، وكتاب « الراح والارتياح ، في وصف الشراب وآلاته والنداء عليه ، واختيار أوقاته ، وذكر الأزهار والرياض والثمار والأشجار . وكتاب الفرق والشرق ، وكتاب مختار الأغاني ومغانها وكتاب المفاتيح والمناكة في أصناف الجماع . وكتاب الطعام والإدام في صفة ألوان الطعام وما يقدم على الخوان ، وكتاب دوك البغية في وصف الأديان والعبادات وذكر الملك والأنبياء والمتنبئين وذكر الفرائض والآداب ، وكتب الجوعان والعريان ، وكتاب النمران والتمام . وكتاب الأمثلة للدول المقبلة ، إلى غير ذلك من الكتب . كما كان شاعراً رفيق العاطفة دقيق الحس ، فن شعره في ذم أم ولده :

ألا في سبيل الله قلب تقطعا	وقادحة لم تبق للعين مدمعا
أصبراً وقد حل التبرى من أوده	قله هم ما أشد وأوجعا
فيا ليتني للوت قد امت قبها	ولا غليت الوت أذهبتا معا

وانظر إليه وهو يرثي والده سنة ٤٠٠ هـ :

خطب ألم من الزمان عظيم
خطب يقل له البكاء وينطوي
خطب يبيت من الصدور قلوبها
يادهر : قد أنشبت في محالها
يادهر : قد ألبستني حلل الأسمى
لو كنت قبل فدية أفديت من
يا من يلوم إذا رآني جليظا
بأبي لجعت فأى شكل مثله
قد كنت أجزع أن يلم به الأذى

قالل مع سح الصاب نجوم
عنه المزاء ويظهر المكتوم
أسفا ، ويقصد تأده وقيم
بالأسودين لوقمن كلوم
مدخل شخص في القراب كريم
رضت عظامي فيه وهو رميم
من طارق الحدثنان فيم تلوم ؟
نكل الأبوة في الشباب أليم
أو يعتريه من الزمان هموم

وبجانب هذه النفحة الأدبية كلل المسيحي يلم بالنجامة . وله في ذلك كتاب
التضاييا الصائبة في معاني أحكام النجوم . من هذا كله نستطيع أن ندرك أن
المسيحي كان من أركان الحركة العلمية والأدبية في مصر الفاطمية . وقد استفاد
منه المؤرخون الذين جاءوا بعده فاقبسوا من مؤلفاته ولقبوه بمؤرخ الفاطميين
وتوفي المسيحي سنة ثشرين وأربعمائة ، ورثاه جماعة من شعراء عصره : ذكرهم
ولده في تاريخه وذكر مرآتهم (١) .

القضاى :

ومن المؤرخين النابيين في هذا العصر : أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر
القضاى ، فقه على مذهب الشافعى ، ومع ذلك فقد ولاء الفاطميون القضاء
ثم انفصل بالوزير المجرى لجملة الوزير كاتب علامته : ثم حل في ديوان
الإنشاء ، وأوفده أولو الأمر بمصر إلى القسطنطينية سنة ٤٤٧ هـ رسولا من
قبلهم إلى الامبراطورة تيودورا لإصلاح ما فسد من العلاقات بين نصريين
والبيزنطيين ولكن البيزنطيين لم يرجوا بصدقة المصريين إذ ذاك وفضلوا أن

(١) راجع ابن خلكان ج ١ ص ٥١٥ - النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢١ - نفوس
ص ٩٦ - حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٥ .

يتحالفوا مع طغرىك التركاز^(١)، ولما عاد القاضي القضاى من هذه السفارة اتخذ الوزير اليازورى كاتباً لإنشائه وعلامته . وهكذا كان مقدماً عند الفاطميين بالرغم من تمذهبه بمذهب يخالف عقيدتهم . ألف القاضي كتباً كثيرة نذكر منها كتابه فى مناقب الإمام الشافعى وأخباره . وكتاب الشهاب ، وكتاب الأنباء عن الأنبياء . وتواريخ الخلفاء . وكتاب خطط مصر : وقد وهم المقريزى حين قال^(٢) : إن أول من رتب خطط مصر وآثارها ، وذكر أسياها فى ديوان جمه ، هو أبو عمر محمد بن يوسف الكندى ، ثم يكتب بعده القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاى كتابه المنعوت بالختار فى ذكر الخطوط والآثار . ومات فى سنة سبع وخمسين وأربعمائة قبل سنى الشدة ، فدفن أكثر ما ذكره ، فإن أول من تحدث من مؤرخى مصر عن الخطوط هو عبد الرحمن ابن عبد الله بن عبد الحكيم فى كتابه فتوح مصر^(٣) وتبعه المؤرخون بعده

والقضاى القضاى كان أستاذ مدرسة فى رواية التاريخ أخذ عنه عدد كبير من المؤرخين أمثال محمد بن بركات . بن هلال السعدى النحوى المولود سنة ٥٢٠ هـ صاحب كتاب خطط مصر^(٤) ، وكان ابن بركات نحوياً لغوياً وله فى هذه العلوم كتاب الإيجاز فى معرفة ما فى القرآن من فاسع ومنسوخ ألفه للأفضل بن بدر الجالى ، وله تصانيف فى النحو حتى قيل إنه بحر العلم . ويحبه روى الحفاظ السلفى والبوصيرى صاحب البردة وأبو الميمون عبد الوهاب المالكي وهبة الله ابن صدقة المعروف بأبى الزداد وغيرهم ، وتوفى ابن بركات سنة ٥٢٠ هـ .

ومن روى عن القضاى أبو عبد الله الحيدى والحطيب أبو بكر أحمد بن على ابن ثابت صاحب تاريخ بغداد ، فقد قابل القضاى فى الحج سنة ٥٤٥ هـ . وروى عنه . وهكذا كان أثر القضاى فى معاصريه . كما أن الذين جلدوا بعده قتلوا كثيراً من رواياته ، واقتبسوا من أقواله ، وتوفى القضاى سنة ٥٧٧ هـ^(٥) .

(١) راجع ذلك بالتفصيل فى السيرة اللؤبية ونجد شيئاً من ذلك فى أخبار مصر لابن ميسر

(٢) الخط ج ١ ص ٦ (٣) راجع كتاب د فى أقرب مصر الإسلامية .

(٤) بنية الوفاء ص ٢٤ .

(٥) ان خديكان ج ١ ص ٤١٢ وابن ميسر ص ١٤ وحسن الحضرة ج ١ ص ٢٢٧

ومن المؤرخين في أواخر العصر الفاطمي ابن المأمون البطائحي ، وكان والده وزيراً للأمير بأحكام الله ، ونحن لا نعرف شيئاً عن هذا المؤرخ ولا عن كتبه . ولكن القرطبي اقتبس كثيراً من كتاباته في مواضع متفرقة .

فن السير :

أما فن السير وهو ذلك الفن الذي يعد من فنون التاريخ ، فقد كان له شأن كبير في الحياة الفكرية في مصر الإسلامية ، ذلك أن كتب مصر وعلماءها وجهوا عنايتهم إلى كتابة سير عظمائهم وأبطالهم ومجتهديهم ، وقد وصل إلينا بعض هذه الكتب مثل سيرة عمر بن عبد العزيز لعبد الله بن عبد الحكم رئيس المدرسة المالكية في مصر في القرن الثاني للهجرة ^(١) . وقد ذكرنا أن ابن الداية كتب سيرة أحمد بن طولون وسيرة ابنه أبي الجيش ، وكتب ابن زولاق سيرة الإخشيد وسيرة ابنه وسيرة كافور وسيرة الممزر لدين الله وسيرة العزيز وسيرة سيديوه المصري ، وكتب القاضي النعمان سيرة المعز لدين الله ، وكتب محمد بن محمد الجاني سيرة جعفر الحبيب ، ويطول بنا الأمر لو أحصينا كل ما وصل إلينا في فن السير مما كتبه المصريون مما يدل على كلفهم بهذا الفن . ويخيل إلى أن مصر منذ أقدم عصورها اهتمت بهذا الفن اهتماماً خاصاً ، نراه مثلاً فيما يتركته مصر الفرعونية من سير ملوكها وأمرائها منقوشاً على جدران المسابد والمقابر أو مسطراً على ورق البردي . ونراه في مصر القبطية فيما تركه الآباء البطارقة من سير من سبقهم من الآباء والقديسين ، وفي مصر الإسلامية ظهرت هذه الحلقات المتتابعة في فن السير ، ولعل أولها ما قيل من أن ابن إسحاق صاحب السيرة النبوية وفد على مصر وروى بها السيرة ، وقد ابن هشام على مصر وروى بعض أجزاء السيرة عن المصريين .

وبلغت عناية المصريين بالسير وكلفهم بهذا الفن أنهم وضعوا الشعب سيراً عن أبطال أحبهم المصريون وورد الشعب هذه السير في اجتماعاته ومفانيه ، مثل

== وطلعت القاضي ج ٣ ص ٦٣ .

(١) راجع كتاب « في أدب مصر الإسلامية » .

سيرة عنترة بن شداد وسيرة الهلالية . وستحدث عن ذلك فيما بعد .
وقد حصلنا أخيراً على مخطوطين في فن السير ، الأول : سيرة الأستاذ
جوذر ، والثاني : سيرة المؤيد في الدين .

سيرة الأستاذ جوذر^(١)

يتحدث هذا الكتاب عن حياة رجل من رجال الدولة الفاطمية الذين
أغفل المؤرخون ذكرهم . وهو الأستاذ جوذر الصقل ، مع ما كان له من مكانة
رفيعة في الدولة الفاطمية بالمغرب قبل انتقال المرابدين الله إلى مصر ، ومع
ما كان للأستاذ من منزلة قريبة عند الأئمة الفاطميين ، يحدثنا هذا الكتاب
عن دخول جوذر في خدمة المهدي بالله الفاطمي ، وأن المهدي أهدى هذا
الغلام إلى ولي العهد القائم بأمر الله وكيف اشتدت الصلة بين العبد وسيد .
إن القائم — وكان لا يزال ولي العهد — عندما خرج لغزو بلاد المغرب حتى
سنة ٤٢٠ هـ استخف جوذر على قصره وجميع من فيه من حرمه وأهله ، ولما
توفي المهدي بالله سنة ٤٢٢ هـ خسر القائم عبده جوذر دون سائر أهله ورجان
الدعوة بمرثية الامتداد لولي عهده المنصور بن القائم ، فظل هذا السر سبيح
سنوات حتى أعلن القائم ولاية العهد على الملائكة ، وفي خلافة القائم أصبح جوذر
صاحب بيت المال ووكيل بخزائن الكساء كما كان سفيراً بين الخليفة
وإثر الناس .

وهكذا ارتفعت منزلة جوذر وأصبح له نفوذ قوى في هذه الدولة الناشئة
قهاة الناس ، ولحبه للخير وعطفه على الشعب أحبه الناس . وتوفي القائم بعد ذلك
ولكن المنصور بالله لم يعلن وفاة أبيه فلم يعلم أحد الخبر إلا جوذر ، وخرج
لحرب الخارجيين عليه مستخفياً جوذر على دار الملك وسائر البلاد وسله
عقبات خزانة الأموال ، ولما عاد من حروبه أعلن موت القائم . وكافأ جوذر
على خدماته فأعفته وتقبه مولى أمير المؤمنين ، وأمره ألا يكتفى في رسالته أحداً

(١) هو الذي نسب إليه صفة وحارة وشوارع الجوزدية بضم الجوز بالأمر بالله الفاطمي .

ولا يقدم على اسمه اسماً إلا الخليفة وولى العهد ، وأن يرقم اسمه بالذهب على ملابس الخليفة وولى عهده . وأن يثبت اسمه على الحصر والبسط ، كل ذلك إماناً في تشريفه ، وفي خلافة المعز كان جوذر موضع سر مولاه ، إلى أن فتحت مصر وأراد المعز أن يسير إليها ، فأرجف الناس بأن أمر المغرب سيتول إلى جوذر ولكن جوذر أبى أن يغادر إمامه فساد معه إلى مصر ولكنه توفي بالقرب من مدينة برقة في مكان يعرف بيماسر سنة ٦٣٤ هـ .

لم تقف أهمية سيرة جوذر على هذه الناحية التاريخية من ترجمة أحد رجال الدولة الفاطمية الذين كان لهم أثر قوى في هذه الدولة منذ نشأتها ، وإنما يوضح هذا الكتاب بعض نواحي تاريخية هامة أغفلها المؤرخون القدماء أو مروا بها مراراً سريعاً ، ففي الكتاب حديث عن تلك الثورات الضخمة التي نشبت بالمغرب عقب قيام الدولة الفاطمية وكادت تقوض أركان تلك الدولة ، كما يطلعنا على العلاقة بين الفاطميين وصقلية . وعلى ما كان يمانيه الفاطميون من رجال هذه الجزيرة ومن قرصان البحر ، يظهر سبب الجفاء الذي كان بين المنصور وبين بني عمومه من أولاد المهدي . وكيف طلب إلى جوذر أن يشتد في تأديبهم ورصد حركاتهم . أضف إلى ذلك كله أننا نستطيع أن نعتبر كتاب سيرة جوذر من الوثائق الأدبية فقد جمع مصنفه جميع التوقيعات التي خرجت من المنصور والمعز إلى جوذر ورسائله إليهما ، وقد بلغ عددها في هذا الكتاب نحو المائة ، فالكتاب أشبه بديوان توقيعات لفاطميين ، ولا أكاد أعرف كتاباً جامع توقيعات الفاطميين سوى هذا الكتاب ، وكتاب المجالس والمساير للفاضي النعمان الذي جمع فيه مصنفه بعض توقيعات المعز إليه ، وكتاب السجلات المستعصرية الذي جمع فيه رسائل المستعمر إلى الصليبيين باليمن ، وأجد في سيرة جوذر بعض قطع من شعر المنصور باقة ، وخطبة المنصور في نصي القاتم . وخطبة المعز في نصي المنصور ، وهكذا نستطيع أن نستفيد من هذا الكتاب الصغير من الناحية الأدبية والتاريخية والاجتماعية في العصر الفاطمي بالمغرب .

أما مصنف هذه السيرة فهو رجل مفطور لا فكاد عرف عنه إلا أنه منصور الجوزدي المرزبي ، وأنه دخل في خدمة الأستاذ جعفر كاتبا له سنة

٣٥٠ هـ وأصبح موضع سره ، وظل في عمله إلى أن توفي جوذاً فأنصل بالمعز فالعزير . ويتضح من كلامه أن العزير جعله في مرتبة رفيعة هي نفس المرتبة التي كان فيها جوذاً ، ويضيف المقرئ أن أبا علي منصوراً الجوزدى زادت مكانته في عهد الحاكم بأمر الله ، فأضيفت إليه مع الأحباس الحسبة وسوق الرقيق والسواحل وغير ذلك^(١) .

هذا كل ما نعرفه عن واضح هذه السيرة ، ونستدل من هذه السيرة أنها صفت في عهد العزير بالله الذي ولى سنة ٣٦٥ هـ وتوفي سنة ٣٦٨ هـ ، ولكننا لا نستطيع أن نحدد السنة التي ألفت فيها^(٢) ونرجو أن نوفق إلى نشر هذا الكتاب قريباً .

السيرة المؤيدية :

لأأكد أعرف كاتباً من كتاب المسلمين ، سبق المؤيد في الدين به الله الشيرازي داعي الدعوة — الذي تحدثنا عنه من قبل — في تصنيف كتاب خاص لسيرته . فقد ترجم لنفسه في هذا الكتاب ، بفصل من تاريخ حياته . أي من سنة ٤٢٩ هـ إلى سنة ٤٥٠ هـ ، وأودع هذا الكتاب بعض رسائله ومناظراته العلمية المذهبية ، ولما كان المؤيد من أسهم في الحياة السياسية في هذه الفترة فهو يوضح جهوده وحركاته وسكناته منذ كان في بلاط أبي كاليجار البويهي بفارس ، فوصف المؤيد حياته في هذه البلاد ، كما وصف هذه الحياة التي كان يحياها السلطان مع التمداء ، وصلة السلطان بالعباسيين ، وكان المؤيد متعللاً برجال المستنصر الفاطمي من وزراء وكتاب ودعاة ، فاضطر إلى أن يتحدث عن شيء من أسرار هذا العصر الغامض المضطرب ، وأسرار وزراء مصر في ذلك العصر ، وذهب المؤيد لموازرة البساسيري في العراق واجتمع بعدد كبير من أمراء العرب والأتراك والأكراد فتحدث عن هذه

(١) خطط المقرئ ج ٢ ص ٦ .

(٢) راجع ما كتبناه من هذا الكتاب في مجلة المخطوطات المصرية المجلد الثامن عدد ٣١

(أبريل سنة ١٩٢٨)

الحركة السياسية التي كادت تقوض أركان العباسيين ، فالكتاب على هذا النحو ليس ترجمة للمؤيد حسب ، بل هو مصدر هام للحياة السياسية والاجتماعية في القرن الخامس الهجري . لأن المؤيد ترجم لنفسه من حيث علاقته بالمجتمع الذي عاش فيه . والكتاب قيم جداً في دراسة هذه السنوات الإحدى والعشرين التي كان بها أحداث وخطوب ، وكان لها أثر قوى في مجرى الحياة الإسلامية عامة ، ولقيمة هذا الكتاب نشرناه^(١) فهو في متناول القراء الآن . وهكذا كانت حركة التاريخ والسير قوية في مصر الفاطمية كما كانت قوية . قبل عصر الفاطميين . فمن التاريخ وروايته من الفنون التي ازدهرت في مصر في عصورها المختلفة ، شغف به المصريون فأكثروا من روايته وتدوينه .

خاتمة القول في الحياة العقلية

قلنا إن العقائد الفاطمية كانت ميداناً فيحياً للعقل ، وإن الفاطميين أفسحوا صدورهم للدراسات الفلسفية في وقت كانت فيه هذه الدراسات موضع جهات عيفة في الأنظار الإسلامية الأخرى . بل رأينا الفاطميين يأخذون من النظريات والآراء الفلسفية والدينية القديمة ويصنفون هذه الآراء والديانات بالصيغة الإسلامية بما يتفق مع العقائد التي بشروا بها ، فأعطوا لأنفسهم من حرية التفكير وفي الأخذ عن القديم ، والاجتهاد في المذهب . ما لا نراه عند غيرهم من الفرق الإسلامية الأخرى ، ولكن هذا الاجتهاد وهذه الحرية الواسعة في الفكر كانت مقيدة بموضوع الإمامة . فكل مؤلفات الدعوة الفاطمية ، وبجلاس حكمتهم ، كانت تدور قبل كل شيء حول صاحب النص المصوم وثبتت إمامته وإظهار الإمام بمظهر الجلال والقدسية فكان الفاطميين في مصر قد أعادوا إليها شيئاً من الحياة الفكرية التي كانت بالإسكندرية منذ عهد بطليموس . إذ كل أهم الدراسات بالإسكندرية استقرضاء الحكام وإشباع غرورهم بإسناد الفضائل كلها إليهم وإلى أجدادهم ،

(١) سيرة المؤيد في الدين داعي النعامة (من مطبوعات دار الكتاب المصري) .

يبد أن دعاة الفاطميين اتخذوا التعاليم الدينية ذريعة للوصول إلى غرضهم فأدخلوا في الدين ما وصلت إليه الفلسفة الهلينية والأفلاطونية الحديثة ، وبعض الإسرائيليات والمسيحيات وآراء هرمنس الحراقي وغيرها من الآراء القديمة ، وذلك كله لإسباغ الفضائل كلها على الأئمة من أهل البيت ، فكانهم قالوا بجمرية الفكر إلى أبعد مدى هذه الحرية ، ولكنهم مع ذلك قيدوا هذه الحرية بالإمامة .

وكانت هذه الحزبية الفكرية سبباً في ازدهار الحركة الفلسفية في مصر وظهور عدد كبير من الفلاسفة على نحو ما ذكرنا من قبل ، ولكن هذه الدراسات الفلسفية كانت في أغلبها تتبع عقائد الفاطميين ، فدراسة الأفلاك والنجوم وإنشاء الرصد مثلاً كانت كلها بسبب معرفة ابتداء شهر رمضان ، ويطلب على ظن أن الفاطميين لو لم يدينوا برؤية الهلال رؤية استبصار وعلم لما ازدهرت هذه الألوان من الدراسات .

وربما أن مصر الفاطمية شاعت دراسات أدبية عربية ، ولكننا نلاحظ أن هذه الدراسات مقصورة على دراسة النصوص القديمة وشرحها والتعليق عليها دون أن تتج مصر شيئاً جديداً ، وهذا ماكلن أيضاً في مصر إبان ازدهار مدرسة الإسكندرية حين كانت الدراسات الأدبية تقوم على دراسة شعر هر ميروس ووضع المعجمات لمفردات هذه الأشعار وغيرها من الشعر القديم ، دون أن يكون الدراسات الوجدانية أثر قوى في هذه الدراسات التي قوى فيها حمل العقل والآراء العلمية أكثر مما يظهر تأثير العاطفة التي تستوحى من نفسية الشعب . ولذلك تتفق الدراسات الأدبية في العصر الإسكندري مع العصر الفاطمي في أن هذه الدراسات لا تظهر فيها شخصية مصر ، وكذلك في المزاجية بين الدراسات الأدبية الخالصة والآراء الفلسفية بمصطلحاتها وتصويراتها ، ومن هنا نرى سبب هذا التقيّد في أسلوب النفاة والعلماء ، حتى يجمل إلينا أن هؤلاء العلماء بعدوا عن التصويرات الأدبية التي تتمثل فيها البساطة والنفوس الموسيق والماعطى في اللفظ والمعنى ، ولكن النفاة والعلماء في العصر الفاطمي حشوا كتباً بهم بالتعبيرات الفلسفية ، واستعملوا مصطلحات اضطروا أن

ينحتوما من ألفاظ عربية ، وأن يتلاعوا بقواعد الصرف المعروفة لجاءت كتاباتهم غريبة عن الأسلوب العربي . حقيقة حاول بعض الدعاة والعلماء أن يستبدوا الأسلوب الأدبي وأن يتبعوا عن تعقيدات الفلاسفة ، ولكنهم وجدوا مشقة في تمييزهم ، وصعوبة في صناعتهم . فاضطروا إلى استخدام المحسنات البديعية والإغراق فيها ليفتتوا الجواهر بالزينة اللفظية ، فكانت نتيجة ذلك أنهم تجنبوا تعقيداً ليقموا في تعقيد آخر ، وهذه الشروح والمحاشيات التي وضعت حول النصوص القديمة احتاجت هي نفسها فيما بعد إلى شروح وحواش أخرى لتوضيحها وتعريلها إلى المتعلمين ، وهكذا كانت جناية الدراسات الفلسفية والمصطلحات العلمية على الأساليب العربية .

على أن هذه الظاهرة لم تكن في مصر فحسب ، بل كانت في جميع الأنظار الإسلامية منذ عرفت هذه الأنظار هذه العلوم التي عرفت بالعلوم الدخيلة . ومنذ أخذ أصحاب الفرق المختلفة الصياغات المنطقية والفلسفية للتعبير عن آرائهم ودحض رأى خصومهم ، ومن يدري لعل هؤلاء العلماء تعلموا تعقيد أسلوبهم حتى يقال عنهم إنهم علماء ، وما هو ذا الجاحظ يحدثنا عن هؤلاء الذين تعلموا التعقيد فيقول : « قلت لأبي الحسن الأخفش : أنت أعلم الناس بالنحو ، فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها ، وما بالناس نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها ، وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم ؟ فأجلب أنا رجل لم أصنع كتبى هذه قه ، وليس هي من كتب الدين ، ولو وضعنا هذا الوضع الذي تدعون لي إليه قلت حاجت الناس إلى فيها ، وإنما كانت غايى المنااة ، فأنا أضع بعضها هذا الوضع المفهوم لتدعوم حلالة ما فهموا إلى التماس فهم ما لم يفهموا ، وإنما قد كسبت في هذا التدبير . إذ كنت إلى التكبب ذهبت » (١) .

ومهما يكن من شيء . فقد كانت هذه الحركة العقلية في مصر الفاطمية في نحو مطرد في كل نواحيها وأوانها وقوتها ، وتعلمت مراكرها في مصر ، وكانت

(١) الخيوان الجاحظ ج ١ ص ٤٥ (طبعة الساسي) .

حلقات الدرس في المساجد أو الدور في القاهرة و الفسطاط وفي الإسكندرية
وتنيس في الشمال وفي أسوان وقوص وقط في الجنوب ، كما كان أمراء الأقاليم
يجمعون حولهم العلماء والشعراء ، وما هو ذا عمارة التي يمدتنا في « النكت »
عن بعض هؤلاء الأمراء وعن مجالسهم وشعرائهم ، فالحياة العلمية كانت
مزدهرة في مصر الفاطمية ، وعن مصر أخذ كثير من العلماء في الغرب والشرق
فلا غرر إن قلنا إن مصر الفاطمية كانت بدءاً للزخامة المصرية للأقطار الإسلامية ،
تلك الزخامة التي لا تزال مصر تحمل لواءها إلى الآن .

الكتاب الثاني
في الحياة الأدبية

الباب الأول

في الشعر

الفصل الأول

ازدهار الشعر

عرف الفاطميون بجرأة دولتهم ، وبذخهم الفني لا مثيل له بين ملوك الدول الأخرى ، وأكثروا من استحداث الأعياد والمواسم ، واقتروا في إقامة حفلاتهم ومواسمهم ، حتى يخيل إلى من يقرأ تاريخهم أن حياة مصر في ذلك العصر الزاهر كانت كلها أعيادا ومواسم ، وكلها لهوا ومرحاً ، بالرغم مما كان في هذا العصر من سنى شدة وقحط ضرب بها المثل ، ولكن هذه الأيام السخافة لم تمنع الفاطميين من الاحتفال بأيامهم التي اتخذوها لأنفسهم أعياداً بجانب تلك الأعياد التي يتخذها باقي المسلمين ، والأعياد التي يحجبها مسيحيو مصر ويفترق معهم فيها إخوانهم المسلمون . فكان الشعب في عصرهم يتظاهر بما يجلب السرور إلى نفسه ، حتى لو كان ذلك عن طريق النجون وارتكاب المعاصي ، وكانت الدولة تحتفل بهذه الأيام احتفالاً يتناسب مع عظم ملكهم واتساع سلطانهم ووفرة خيراتهم وأموالهم ، وقد تكون هذه المبالغة منهم في حياتهم لو أن من ألوان التنافس السياسي بينهم وبين أعدائهم ، يقف أعداؤهم على هذه الحياة البهجة المفرحة ، والتنفقات الطائلة . فيطنون أنهم أمام دولة قوية غنية . فتضيق صمتهم عن مهاجمتها ، أما هذه الأعياد التي استحدثوها في مصر فقد روى القرطبي عن ابن الطوير المؤرخ : أن الفاطميين كانوا يحتفلون بستة موالد : مولد النبي صلى الله عليه وسلم ومولد علي بن أبي طالب ، ومولد قاطمة بنت الرسول ، ومولد الحسن ، ومولد الحسين ، ومولد الخليفة الحاضر ^(١) .

وفي فصل آخر من خطط المقرري يتحدث المؤلف عن الأيام التي كان الفاطميون يتخذونها أعياداً ومواسم ، قال : وكان الخلفاء الفاطميون في طول السنة أعياد ومواسم ، وهي موسم رأس السنة ، وموسم أول العام ، ويوم عاشوراء ومولد النبي صلى الله عليه وسلم ، ومولد علي بن أبي طالب ، ومولد الحسن ، ومولد الحسين ، ومولد قاطمة الزهراء ، ومولد الخليفة الحاضر ، وليلة أولدجب ، وليلة نصفه ، وليلة أول شعبان ، وليلة نصفه وموسم ليلة رمضان وغرة رمضان وسباط رمضان وليلة الحتم ، وموسم عيد الفطر ، وموسم عيد النحر ، وعيد التذير ، وكسوة الشتاء وكسوة الصيف ، وموسم فتح الخليج ويوم النوروز ويوم الفطاس ويوم الميلاد وخمس المديس^(١) وأضاف إلى ذلك أيام حفلات صلاة الجمعة ، فقد كان الخلفاء يركبون في كل سنة ثلاث ركبات لصلاة الجمعة بالناس في جامع القاهرة المعروف بالجامع الأزهر مرة ، وفي جامع الحاكم مرة ، وفي جامع عمرو بن العاص مرة ، وينال الناس من الخليفة في هذه الجمع الثلاث رسوماً وهبات وصدقات^(٢) . وأضاف أيضاً أيام الركوبات التي كان فيها الخليفة يركب في كل يوم سبب وثلاثاء إلى شذحاته بالبساتين والمتنظر التي بنوها لفرجاتهم^(٣) ويوم سفر الحاج^(٤) وركوب الخليفة في أول شهر رمضان^(٥) وتحدث المقرري كذلك في مكان آخر عن ليالي الجمع من شهر رجب وشعبان ويليقي النصف منهما^(٦) فكل هذه الأيام التي كان يحتفل بها الفاطميون ، سواء كانت أيام حزن مثل عاشوراء ، أو أيام فرح تدم فيها السمت الفاخرة ، ويتفق فيها عن بذخ وإسراف ، ويصيب رجال الدولة وكل من يتصل بالقصر من التعم والخلع ، كل بما يقتاسب مع مكانته ، وينال الشعب الذي يشارك أمراءه في أفراسهم وأحزانهم حظاً مما كان ينفقه الخلفاء والأمراء عليه ، فإذا مصركلها تحتفل بهذه الأيام التي استهيا الفاطميون ، وقد يطول في الحديث لو توخيت وصف هذه الحفلات الكثيرة ، وأكتفي هنا بأن أعطي صورة ليوم واحد من أيام أعيادهم قلا عن المقرري

(١) الخط ج ٢ ص ٣٨٤ وما بعدها . (٢) الخط ج ٢ ص ٣٩٢ .

(٣) المصدر السابق . (٤) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٨٨ .

(٥) د د ج ٢ ص ٣٨٩ . (٦) د د ج ٢ ص ٣٩٠ .

به العادة والتوسعة فيها أكثر مما تقدمها ، وكذلك الهناء في صبيحة الموسم بالدار للأمنية والقصور ، وحضر من جرت العادة بحضوره الهناء ، وبعدهم الشعراء على طبقاتهم ، وعاتت الأمور في أيام السلام والركوبات وترتيبها على المهود ، وأحضر كل من المستخدمين في الدواوين ما يتعلق بديوانه من التذاكر والمطالعات ما تحتاج إليه الدولة في طول السنة وينعم به ويتصدق ، ويعمل إلى الحرمين الشريفين من كل صنف على ما فصل في التذاكر على يد المندوبين ، ويعمل إلى الثغور ، ويخزون من سائر الأصناف ما يستعمل ويبيع في الثغور والبلاد . . الخ^(١)

هذه صورة ما قلّه القرطبي على المؤرخين المعاصرين عما كان يجري تحت بصرم وسنهم في يوم من أيام هذه الأعياد الكثيرة التي استحدثها الفاطميون ، ومن هذه الصورة نقبين أن هذه الأعياد لم تكن أعياد خلفاء والأمراء ورجال القصر ، حسب . بل كانت أعياد الشعب أيضاً بما كان يقدم فيها من الصدقات والسمط ، فإذا للشعب يشارك الحاكين ، ويناله شيء من بذخ الفاطميين ، فإذا هو في فرح وبشر ، ولا يكاد يحصى عيد حتى يلحقه آخر :

في هذه الحفلات كان الشعراء يتبارون في إنشاد قصائدهم ، ويقباضون في الإجلدة والإتقان ، وينعمون بأخذ جلازيمهم وصلاتهم بما لم ينعم به الشعراء في الدول الأخرى ، فلا غرابة إن قلنا إن هذه الأعياد والمواسم كانت من دوافع ازدهار الشعر في العصر الفاطمي ، وموضوعاً من موضوعاته ، حتى إن عمارة النيف في قصيدته التي روى بها دولة الفاطميين لم يستطع إلا أن يذكر هذه الأعياد والمواسم فقال :

أبكي على ما تراءت من مكارمكم	حال الزمان عليها وهي لم تحل
دار الضيافة كانت أنس وأقدم	واليوم أوحش من رسم ومن طلل
وفلوة الصوم إذ أخفت مكارمكم	تشكو من النحر حيفا غير محتمل
وكسوة الناس في الفصلين قد دوست	ورث منها جديدهم وعليل

وموسم كان في يوم الخليج لكم يأتي تجملكم فيه على الجبل
وأول العام والسيد كم لكم فيمن من ويل جودايس بالوشل
والأرض تهتز في يوم الغدير كما يهتز ما بين قصركم من الأسفل
والخيل تعرض في وشى وفي شية مثل العرائس في حل وفي حل^(١)
ولعل هذه الصورة التي صورها الشاعر عمارة التيني لحفلات وأعياد
الفاطميين تدل على ما كانت عليه مصر في ذلك العصر المترف الغنى .

ولست الأعياد والمواسم التي استحدثها الفاطميون هي فقط أظهر ما كان في
الحياة الاجتماعية في مصر الفاطمية ، ولكننا نرى الفاطميين يكثرون من المباني
والمباني التي أقاموها في البلاد ، ولعل عنايتهم بالمتنزهات والمناظر والإكثار
منا من الأدلة التي نستطيع أن نقدمها على حب الفاطميين للفنون المختلفة ، فهذه
البساتين التي جملوا بها مدينتهم القاهرة وضواحيها ، لم تتخذ متنزها لهم فقط
دون غيرهم من الرعية ، بل أباحوا الناس دخولها والمتع بمنظرها وجوها ،
فأوجد ذلك عند المصريين لونا من ألوان الحياة الناضرة البهجة ، وسمت
النفوس إلى حب الطبيعة وحب الجمال معا . ولقد كان خروج المصريين في ذلك
العصر إلى المتنزهات جزءا هاما من مقومات حياتهم ، وهناك كانوا يقصفون
ويطربون ، وينعمون بجمال الرياض وأريج الأزهار ، وكان الشعراء يقصدون
هذه الرياض جماعات يتطارحون الشعر ويتبادرون في الإنشاد ، يسترحون
من جمال الزهر والطبيعة وحى شعرهم ، فإذا صح ماروا القدماء أن شعراء
الجاهلية كانوا يخرجون إلى الصحراء لاستلهم الشعر ، فكذلك خرج شعراء
مصر إلى البساتين يتغنون بيدائع الطبيعة ، فكانت هذه المتنزهات والبساتين
التي أكثر منها الفاطميون مصدراً خصباً لكثير من الشعر المصري
في العصر الفاطمي .

كانت الحياة المصرية إذن حياة ترف ، وكان سكان مصر على حظ من الثراء
والغنى يحسد على العباسيون في أوج مجدهم وسعة سلطاتهم ، وكان الخلفاء

(١) خطا المقرئ ج ٢ ص ٣٩٤ .

الفاطميون يسرفون في الإغداق على الشعب بما يملكون من مال ومتاع ورقيق ، بما كل يحمله إليهم الهداة من مال الخس^(١) وأموال التجوى ، ومن هدايا الأمراء في المشرق ، وكان الوزراء يقتبسون بالأنفة في الظهور بظهر الملك فأنفقوا عن سعة واقتن الشعب في التشبه بأمراتهم وحكامهم ، فظهروا بظهر صاحب الثروة واتخذوا من الحياة أبهجها ومن الزينة واللباس أزهاها ، وأكثروا من اقتناء الرقيق والقيان ، وإقامة المآدب واستدعاء الخللان لمجالس الهر والشراب ، حتى غيل إلينا أن حياة المصريين كانت مياة لهم ونصف وسامع غناء وألحان ، فكان ذلك كله وخيا الشعراء بالقريض .

ومن عوامل ازدهار الشعر في هذا العصر الفاطمي أن القائلين على شئون البلاد اتخذوا من الشعر وسيلة من وسائل دعوتهم السياسية على نحو ما تتخذ الأحزاب السياسية اليوم بعض الصحف لتعبر عن اتجاه هذه الأحزاب وآرائها ، وقد ذكرنا أن الفاطميين عرفوا قدر الهداية فاهتموا بها أيما اهتمام ، واصطنعوا كل ما يفيدهم في دعوتهم من علماء وأدباء وشعراء ، وكان الفاطميون على قدرة وكياسة في فن السياسة ، فعرفوا أن الشعر العربي منذ العصر الجاهلي كان من أهم وسائل الهداية القبيية في العصر الجاهلي والأحزاب السياسية والفرق الإسلامية بعد ظهور الإسلام ، وأن بعض الشعراء في العصر العباسي أمثال مروان بن أبي حفصة وأبان بن عبد الحميد اللاحق وغيرهما أدخلوا في شعرهم بعض الآراء الفقهية في الدفاع عن الخلافة العباسية ضد الطامعين من العلويين . فلم يشأ الفاطميون أن يتركوا سلاح الشعر دون أن يشهروه على خصومهم ، أو أن يستحسنوه في المقاطع عنهم والمباهاة بفضائلهم والإشادة بدولتهم ، فلا غرو أن وجدنا الفاطميين ينلون الطاء الضخم الجسيم لشعراء دولتهم ، ويحيطون لبعض الشعراء مرتبات شهرية ، وينقل المقرئ عن ابن الطوير أنه كان لشعراء رواتب شهرية من عشرين ديناراً إلى عشرة دنانير^(٢) وروى أيضاً أنه في يوم عاشوراء كان يخرج الراس المطلق للتصدين والقراء والوفاظ والشعراء وغيرهم

(١) راجع كتاب الهداة في آداب اتباع الأنفة (من مطبوعات دار الفكر العربي) .

(٢) خط المقرئ ج ٢ ص ٢٤٤ .

على ماجرت به عاداتهم^(١) ومعنى هذا أن الفاطميين كانوا يعطون الشعراء في أيام المواسم والأعياد رواتب خاصة غير ما كان يعطى لهم شهرياً . ويحدثنا المقرئ مرة أخرى في كلامه عن بركة الحبش أنه كان يها طاقات ، وعليها صور الشعراء ، كل شاعر واسمه وبلده وعلى جانب كل من هذه الطاقات قطعة من القماش كتب عليها قطعة من شعر الشاعر في المدح ، وعلى الجانب الآخر ف لطيف مذهب ، وأن الخليفة الأمر بأحكام الله لما دخل هناك وقرأ الأشعار أم أن توضع على كل رء صرة مختومة فيها خمسون ديناراً ، وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته بيده^(٢) .

فلا أكاد أعرف دولة من الدول الإسلامية أقامت للشعراء هذا التمجيد بأن يضموا صورة كل شاعر مع اسمه وبلده في طاقات في متزهات عامة مما يدل دلالة قاطعة على تمجيد لفن الشعر والشعراء ، فإن نحن الآن من مصر في العصر الفاطمي ١٤ .

ويذكر الهادي في الحريرة أن الفاطميين جعلوا من وظائف الدولة وظيفة « مقدم الشعراء » ، ويذكر أن مقدم الشعراء في عهد الأفضل بن بدر الجمالي هو الملقب بمعمود الدولة المعروف بابن حرير^(٣) . وكانت سيدات قصر الإمامة الفاطمية ينفدن الأموال على الشعراء كلما سمعن منهم شعراً جيداً في مدح الأنفة ، ويحدثنا حمادة البني أنه بعد أن أشد قصيدته الأولى في مصر أخرجت له السيدة الشريفة بنت الإمام الحافظ خمسمائة دينار^(٤) ، وهكذا يرى الفاطميين يولون الشعر والشعراء عنايتهم لأن الشعراء لسان من ألسن تمجيدهم والندود عنهم أمام أعداء كثيرين أقوياء ، فأغداق النعم الفاطمية على الشعراء كان من أشد الأسباب التي جعلت الشعراء يحرمون على إقنان الشرع مع الإكثار من الإنفاق ، فكثرت الشعراء وكثرت إنتاجهم ، واستغل الفاطميون هؤلاء الشعراء في رفع شأن دولتهم وخلفائهم حتى في القسم الأخير من العصر الفاطمي الذي ضعف فيه

(٢) خط ج ١ ص ٤٨٦ .

(٤) النكت ص ٣٤

(١) خط ج ٢ ص ٢٩٠ .

(٣) الحريرة ورقة ١٠٢

الائمة واستبد الوزراء بالملك قد طلب إلى الشاعر أبي عبد الله مسلم أن ينظم
السيرة المصرية ، وجعلوا له خمسة دنانير كل شهر على ذلك ، فسأل أن يجري
له شيء على الشعر مثل غيره من الشعراء ، فزيد نصف دينار ، فهجاه الشاعر
بجير بن محمد الصقلي المتوفى حوالى سنة ٥٥٤ هـ بقوله :

جرى الحديث فقالوا كل ذى أدب أضحت له خمسة تجري بمقدار
بأى فضل حواء ابن المسلم من دون الجماعة حتى زيد فى الجارى
أجروا له خمسة عن حق سيرته قال : لا تنقصونى حق أشعارى
نادوا عليه وسوق الشعر ناقة فلم يزد قدرها عن نصف دينار (١)
وهكذا كان الفاطميون يستملون شعر الشعراء فى تثبيت أركان دولتهم حتى
فى وقت ضعف سلطانهم :

شعر الأئمة :

بجانب ذلك كله كان الفاطميون يقدرون الشعر ويتذوقونه من حيث هو
فمن الضنون التى تجب العناية بها ، ويقدها كل من نال حظا من الثقافة ورقة
الشعور ودقة الإحساس ، بل يذكر المؤرخون أن من بين الأئمة الفاطميين من
كان يفشد الشعر ، وقد رأينا كيف غاطب القائم بأمرائه المصريين بالشعر إبان
غزواته ، ويذكر صاحب سيرة جودز عدة أبيات للنصور بالله ، منها :

تبدلت بعد الزعفران وطيبه صدا الدوح من مستحبات السوامر
ألم ترى بعد المقامة بالسرى ولين الحشايا بالخيول الضوامر
وقتيان صدق لاضغان بينهم يشرون ثورات الأسود الخواثر
أدوى فى يفتى غنائى ومشهدى إذا زهج الوادى لوقع الحوافر
أنا الطاهر المنصور من نسل أحمد بسينى أقد الهام تحت المغافر (٢)

(١) الخريدة ورقة ١١٠٢ .

(٢) سيرة الأستاذ جودز (نسخة خطية بمكتبى) .

ومن شعر المنصور باقة أيضاً يخاطب ابنه ولى عهد المعز لدين الله :
 كتابي إليك من أقصى القروب وشوق شديد عريض طويل
 أجوب القفسار وأطوى الزمال وأحمل نفسي على كل هول
 أريد بذاك رضا الإله وإعزاز دولة آل الرسول
 لى أن يرى الله أجسامنا وكل الزكباته والدليل
 فواضرتاه وواوحتاه وفي الله هذا قليل قليل
 وما عفت ذعرا ولكنى نهضت بقلب صبور حول
 وقد من ذوالعرش من فضله بفتح مبین وعز جليل
 وفي كل يوم من الله لى صفا جديد وصنع جميل
 فله حمد على ما قضى وحسبى ربى ونعم الوكيل^(١)

ولعلك تلاحظ معي أن المقطوعة الأولى أقوى وأجزل شعراً من المقطوعة الثانية التي هي أقرب إلى الكلام العادي منها إلى فن الشعر، فالمقطوعة الأولى من شعر المنصور تدل على أن صاحبها شاعر حاسي ملك ناصية الفن في اللفظ والمعنى، فهو يختار اللفظ الذي يتلاءم في موسيقاه مع المعنى الذي يقصده الشاعر فيلذ الأذن والعقل معاً، ولكن القطعة الثانية، فلا أستطيع أن أقول إلا أن ناظمها يعبث حين يدعى أنه يقول شعراً.

ويذكر ابن خلكان أن المعز لدين الله كان أديباً شاعراً، وينسب إليه هذه الآيات.

الله ما صنعت بنا تلك المهاجر في المهاجر
 أمضى وأضنى في النفوس من الخناجر في الخناجر
 ولقد تعبت بينكم تعب المهاجر في المهاجر^(٢)

هذه الآيات إن دلت على شيء فهي تدل قبل كل شيء على أن الشاعر كان من شعراء الزينة البديعية، فقد قن بهذه الملازمة اللفظية بين « المهاجر، و « المهاجر، وبين « أمضى و « أضنى، وبين « الخناجر، و « الخناجر، وبين المهاجر، و « المهاجر، ومع ظهور هذه الصنعة البديعية في هذه الآيات

(١) سيرة الأستاذ جودر « نسخة خطية بمكتبي » . (٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٠٣

كان خيال الشاعر كان قوياً في تصويره عما تفعله العيون التي تفتني تحت الحاجر
ولكنها تصيب هدفها ، وتعمل في النفوس أكثر مما تفعله الحناجر في الحناجر .
وكذلك ينسب القديما إلى المزددين آفة هذه الآيات :

أطلع الحسن من جبينك شمساً فوق ورد في وجنتيك أطلا
وكان الجمال عاف على الورود جفاً قد بانفسر ظلاً^(١)

هنا صورة جميلة من شاعر بلغ درجة لا بأس بها من الفن ، فهو يصف جمال
المحبوب بصورة من صور الطبيعة الحية إلى النفس فهي كالورد المتفتح قد غمرته
الشمس ، ولكن الشاعر كان دقيق الحس رقيق الشعور ، يخشى أن يذبل الورد
من حرارة الشمس فظله بمسلة من شعر الحبيب ، فالصورة هنا لا شك جميلة ،
ولا غرو أن رأينا القديما قد قفوا بها حتى قال ابن خلكان : « إن هذا معنى
غريب بديع »^(٢) . ولكن هل أستطيع أن أنسب هذه الآيات إلى المزددين آفة
كما روى ابن خلكان ، أم أنسبها إلى ظافر الحداد الشاعر الفاطمي النحل إذ
ورد في الحريدة أن ظافراً قال :

أطلع الشمس من جبينك بدر فوق ورد من وجنتيك أطلا
فكان المذار عاف على الورود جفاً قد بانفسر ظلاً^(٣)

لست أدري لمن أنسب البيتين ، فربما حاكى ظافر الإمام المزمع فأخذهما منه
بعد أن غير بعض الألفاظ ، أو ربما نسب أتباع المذهب البيهقي إلى المزمع عندما
أرادوا إثبات شاعريته . ومهما يكن من شيء فإن المؤرخ ابن أبي عمير تحدث
أيضاً عن شعر المزمع فقال : « كان المزمع عاقلاً حازماً ليلاً فصيحاً شاعراً ، وله
شعر جيد من ذلك قوله :

ما بأن عذري فيه حتى عذرا وبدا البنفسج فوق ورد أحررا
ممت بقبلته عتارب صدغه قاتل ناظره عليها خضراً^(٤)
وهكذا كان المزمع لدين آفة ينشد الشعر ، وعرف به ، وكذلك كان ابنه المزمع

(١) نفس المصدر السابق

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٠٣

(٣) تاريخ ابن أبي عمير ج ١ ص ٤٨

(٤) الحريدة ورقة (٨٧ ب)

بالق نزار ، وابنه المعروف بالأمير تميم ، يقول أبو المحاسن عن العزير : وكانت
لديه فضيلة ، وله شعر جيد^(١) . وروى الثعالبي في بقيته قول العزير ، وقد
وافق بعض الأعياد وفاة ابنه وعقد المأتم عليه :

نحن بنو المصطفى ذوو عن يمرعها في الحياة كاظمتنا
بعجبة في الأنام عحننا أولنا ميتل وعانمنا
يفرح هذا الوري بعيدم طرا ، وأعيادنا مآتمنا^(٢)

فالشاعر في هذه الأبيات صادق العاطفة يعبر عن ألم دفن وحزن كين ، فهو
لم يحزن لفقد ولده لحسب بل هو يألم لما أصاب أهل البيت من عن وكوارث
حتى أصبحت أعيادهم مآتم ، ويحيل إلى أن هذه العاطفة الصادقة هي التي دفعت
العزير لأن يقول :

ولما رأيت الدين رثت حاله وأصبح محو الضياء والمعالم
وأصبحت الأغنام من كل أمة تسوم عباد الله خوم المخاطم
وتحكم في أموالها ونعائمها بغير كتاب الله عند التحاكم
غضبت لدين الله غصبة فائز - غيور عايبا مانع للمحارم
وسيرت نحو الشرق بحر كتاب - تموج بأبطال رجال قائم
يفودون جرد الخيل تخطر بالقنا وبالمشرفيات الرقاق الصوارم
أنا ابن رسول الله غير مدافع تنقلت في الأنوار من قبل آدم
لي الشرف العالي الذي خضعت له رقاب بني حواء من كل عالم
بنا قمت أبواب كل هداية ومنا بحمد الله (خير الخواتم)
قتل لبني العباس مع ضعف ملكهم بأنهم أسرى بأيدي الأعمام
غصبت بني المروان ما غصبوه من فواريتنا ، نسحقا لظالم ظالم
ولم تحفظوا فينا وصايا محمد ولما اديتم من مناسب هاشم
سفيكم كاسا كما قد سقيتم أرائلنا والله أعبد حاكم^(٣)

(١) النجوم ج ٤ ص ١٢١ .

(٢) البقية ج ١ ص ٢٢٣ ولتجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١٣ .

(٣) ورقة ٦٣ من مجموعة أشعار إسماعيلية ، نسخة خفية بمكتبي .

ففي هذه الآيات نحن أمام رجل غيور على عقيدته ودينه ، شديد العداء لمن خافه من العباسيين ، يتوعد بالانتقام لما أصاب آباءه وأجداده من عنى على أيديهم ، شديد الغضب بنسبته إلى الرسول الكريم ، وهو في ذلك كله لا ينسى عقاقبه المذهبية التي كان إمامها ، فأشار إلى أنه تنقل في الأنوار من قبل آدم . فهذا المعنى لا يقوله إلا من اعتقد مذهب الفاطميين ، وذلك أن الفاطميين ذهبوا إلى أن الله سبحانه خلق نور محمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يخلق السموات والأرض ، وأن هذا النور تنقل في الأصلاب الطاهرة والأرحام الزكية حتى بلغ عبد المطلب ، قسم الله هذا النور قسمين قال لأحدهما : يكن يا هذا عمداً ، ويا هذا يكن علياً ، وأن هذا النور تجمع مرة أخرى بزواج علي من فاطمة بنت الرسول وتنقل في الأئمة من ذريتهما حتى كان العزيز بالله ، فكان العزيز وجد قبل آدم لأن النور الذي حل به وجد قبل آدم ^(١)

وكان الحاكم بأمر الله شاعراً أيضاً وينسب إليه صاحب النجوم الزاهرة :
دع اللوم عنى لست منى بموتى فسلا بدلى من صدقة المتحقق
وأستق جيانى من فرات ودجلة وأجمع شمل الدين بعد التفرق ^(٢)
ولكن هذين البيتين يعود صاحب النجوم مرة أخرى فينسبهما إلى الأمر وكذلك المقرئ ^(٣) . وعندى في المجموعة الخطية عدة أبيات للحاكم ، ولكن هذه الأبيات ضعيفة في صياغتها وفي مناسها ، ويظهر فيها الاتحال ، ويميل إلى أن قائلها هو أحد أتباع المذهب الذين لا يحسنون صناعة الشعر . والآيات هي :

إذا ما اتقضى ليس السواد أتيتكم بأبيض من فوق السماء يفور
على أشقر يغلى إذا ما ركبته ولا محبت رجل بعد حير
وأجلس طادق كما كنت قبل ذا ويمتال بى من بعد ذاك وزير ^(٤)

(١) راجع المجالس الزيدية في مواضع شتى وما كتبه من ذلك في مقدمة ديوان التوحيد في الدين طامى الهمة .

(٢) النجوم ج ٤ ص ١٩٦ .

(٣) خطط المقرئ ج ٢ ص ٢٧٠ .

(٤) ورقة ١٦٦ من المجموعة الخطية لأهوار الإسماعيلية .

ويحدثنا ابن بسام في الذخيرة أن الشاعر الواساني ، هجا يوسف بن علي المشرف على دمشق أيام الحاكم ، وسمع الحاكم بأمر هذا الهجاء فقال يوما : أريد سماع هذه القصيدة من رجل حسن التقيد ^(١) ، فهذا يدل على أن الحاكم كان يلاحظ له سماع الشعر من يحسنون التقيد .

ونؤكد تجمع المصادر على أن المستنصر بالله كان شاعرا مبدعا ، وأنه كان متسكنا من إفتاد الشعر يرتجله في مناسبات ، ويحجب عن بعض الرسائل التي كانت ترد عليه بالشعر . يروى صاحب النجوم أن ناظر الدولة جاء بالأتراك سنة ٤٩٠ هـ إلى الوزير ابن كدينة ، وطالبوا الوزير بالمالي ، فقال لهم الوزير : واني مال يقي عندي بعد أخذكم الأموال واقسامكم الإقطاعات ، فطلبوا من الوزير أن يرفع الأمر إلى المستنصر ، فكتب الوزير رقعة بما جرى وأوصلها إلى الإمام ، فأجلب المستنصر على الرقعة نفسها بخطه :

أصبحت لا أرجو ولا أتق إلا إلهي وله الفضل
جدي بني وإمامي أبي وقول التوحيد والعدل ^(٢)

ففي هذين يظهر الألم الشديد الذي كن في نفس الإمام لما حل وبه وفاق بالبلاد إبان الشدة العظمى المعروفة في التاريخ ، والبيت الثاني يذكرنا بما نسمعه عند دفن الموق بما يعرف بتقنين الأموات ، فلعل المستنصر أراد أن يتمم بمن جله يطالبه بالأموال فأجلب بما يلق به الموق . فهو يسخر بؤلاء الناس وهو في أشد حالات الألم والحزن ، فاللغة النفسية التي كانت عند المستنصر ، هي التي جعلته يسخر وينهك على هذا النحو .

وعما يروى عن المستنصر أيضاً أن المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي بعد أن حاد سنة ٤٥٠ هـ إلى القاهرة منحه الوزير ابن المقرئ من لقاء المستنصر ، فأخذ المؤيد يرسل إليه الكتب والرسائل وينشد فيه الشعر حتى بلغ المستنصر قول المؤيد :

(١) الفخيرة و عباس أهل الجزيرة ص ٦٩ من القسم الرابع (المجلد الأول) .

(٢) النجوم ج ٤ ص ٨١ . وفيها ابن منب الصير في كتابه الإهارة ص ٢٩ إلى

الحاكم بأمر الله . أما ابن خلدون فينسبها في تاريخه ج ٤ ص ٦١ إلى الأمر بأحكام الله .

أقسم لو أنك توجتى بتاج كبرى ملك المشرق
وأنتقى كل أمور الورى من قد مضى منهم ومن قد بقى
وقلت أن لا نلتقى ساعة أجبت يامولاي أن نلتقى
لأن إيسادك لى ساعة شيب فودى مع المرفق

فلما بلغت الرقة التى فيها هذا الشعر إلى المستنصر أجلب عليها بخطه :

يا حجة مشهورة فى الورى وطود علم أعجز المرتقى
ما خلقت دونك أبوانا إلا لأمر مؤلم مقلق
خفا على قلبك من سمه فصدنا صد أب مشفق
شيتنا قد عندوا وشدم فى الغرب ياصاح وفى المشرق
فأنشر لهم ما شئت من علنا وكن لهم كالوالد المشفق
إن كنت فى دعوتنا آخرا فقد تجاوزت مدى السبق
مثلك لا يوجد فى معنى من سائر الناس ولا من عبي^(١)
وتنسب إليه قصيدة وردت فى مجموعة أشعار الإسماعيلية مطلقا :

كفى ملامك يا ابنة الغمر ما بال وفر أريك من وفر^(٢)
ولكنى أرى هذه القصيدة موضوعة ونسبت إلى المستنصر ، فأكتفى الآن
بالإشارة إليها .

وينسب طائفة البهرة إلى المستنصر مجموعة رسائل قيل إنه كتبها إلى على
ابن محمد الصليحي باليمن ، ولكن من يطلع على هذه الرسائل يدرك أن مثل هذه
الرسائل لا تصدر عن الإمام ، إنما تصدر عن كتابه ، وقيل أن محمد خليفة من
خلفاء المسلمين أرسل مثل هذه الرسائل لأحد عائله ، إنما كان ذلك عمل كتاب
ديوان الإنشاء ، ونحن نشك فى نسبة هذه الرسائل إلى المستنصر . ونرجح أنها
كتبت بعد انتقال مركز الدعوة المستعلية إلى اليمن ، وأن كاتبها أحد الفقهاء فى

(١) انظر ديوان المؤيد فى الدين داعمى الدعاء .

(٢) ورقة ٦٣ ب .

العين ، وسنعود إلى هذه الرسائل في بحث آخر (١) .

ويقول صاحب النجوم عن الأمر بأحكام الله ، كان للأمر نظم ونظرف
الأدب (٢) وروى له عدة أبيات منها الأبيات التي نسبها حينئذ إلى الحاكم ، وحينما
آخر إلى الأمر ، كما ذكرنا من قبل . وينسب ابن ميسر إلى الأمر قوله :

أما والذي حجت إلى وكن يثته جرائم وكيان مقلعة شيا
لاقتحم الحرب حتى يقال لي ملكك زمام الحرب فاعتزل الحربا
ويؤزل روح الله عيني بن مزيم فيرضى بنا محبا وترضى به محبا (٣)

وينسب طائفة البهرة إلى الأمر بأحكام الله رسالة تعرف ، بالهداية الآمرية
في إبطال الدعوة الزارية ، وقد نشر هذه الرسالة صديقنا الأستاذ آصف فيظي
وذكر في مقدمته لهذه الرسالة أنها ليست للأمر في الحقيقة وربما كانت لأحد
كتابه ، فإن هذه الرسالة من السجلات التي يكتبها رجال ديوان الإنشاء ، وربما
كان الأمر هو الذي أوصى بها (٤) .

وهكذا كان بعض الأئمة الفاطميين ينفذ الشعر ، فلا غرو أن رأيتهم
يقربون الشعراء ويجزلون لهم المعاء ، ويلتف الشعراء حولهم ويتنافسون بين
أبدى أمرائهم في الإنشاء ، عا دحا إلى كثرة الشعر وازدهاره .

وكما كان الأئمة في عهد سلطانهم وقوتهم — أى في القسم الأول من العصر
الفاطمى — ينفذون الشعر ويقربون الشعراء ، كان بعض الوزراء في عهد غلبة
الوزراء في مصر — ينفذ الشعر ويشيب عليه ، ولا سيما أن الوزراء أصبحوا
كل شيء في الدولة فأصبحوا مقصد الشعراء ووجهتهم ، حتى إن الشعراء
حينما كانوا يريدون مدح الخليفة الفاطمى كانوا يذكرون بجانبه الوزير ،
ويطلبون في مدح الوزير أكثر مما يقولون في مدح الإمام . ويروى المقرئ

(١) السجلات المستنصرية نسخة خطية بحكمة مدونة الفات المرقية بلندن .

(٢) ج ٤ ص ١٨٢ .

(٣) تاريخ مصر لابن ميسر ص ٧٣ .

(٤) الهداية الآمرية تحقيق الأستاذ آصف على أصغر فيظي من مطبوعات (جمعية الدراسات

الإسلامية بلندن)

أن جميع الشعراء لم يكن لهم في الأيام الفضيلة ولا فيها قبلها على الشعر جبر ، وإنما كان لهم إذا اتفق طرب السلطان واستحسانه لشعر من أشد منهم ما ليس له الله على حكم الجائزة ، فرأى القائد أن يكون ذلك من بين يديه من الظروف ^(١) ، إذ كان الأفضل مجلس بدار الملك التي أنشأها في مجلس المطايا ، وقد أمر بتفصيل ثمانية ظروف ديباج أطلس ، من كل لون اثنين ، وجعل في سبعة منها خمسة وثلاثين ألف دينار في كل ظرف خمسة آلاف ، فمن هذه الظروف كان يندق مطايا على الشعراء الذين كانوا يقصدونه . ولعل أكثر الوزراء في العصر الفاطمي إغناء الشعر وتحبباً إلى الشعراء هو الوزير الملك الصالح طلائع بن بزريك ، قد جمع شعره في مجلدين كبيرين ، وجمع شعر الشعراء فيه فكان شيئاً كثيراً ، ولكن هذه الأشعار كلها فقدت ، ولم يبق منها إلا شذرات . وكذلك كان الوزير الناصر العادل بزريك بن الصالح الذي وصفه حمزة البقي بقوله : وأما فهمه فكان يعرف جيد الشعر ويستحسنه ويثيب عليه ^(٢) . فسوق الشعر قد ازدهرت في عهد الوزراء كما كان مزدهراً في عهد الأئمة على ما سنوضحه فيما بعد .

ضياح الشعر الفاطمي :

وكانت الحياة في مصر الفاطمية — كما رأينا جانباً منها — تسير إلى ازدهار الشعر وإلى كثرة ما أنتجه الشعراء في كل فن من فنون الشعر وكل موضوع من موضوعاته ، ولكن هذه الموجة الفنية التي طغت على مصر سرمان ما أبادها الأيوبيون فيها أبادوه من نراث هذا العصر الذهبي في تاريخ مصر الإسلامية ، فضاء الشعر ولم يبق منه إلا القدر اليسير ، أو قل لم يبق إلا اسم الشاعر أحياناً لأن قد لاسمه البقاء ، ونحن لا نتردد في اتهام الأيوبيين بجهالتهم على تاريخ الأدب المصري بتعمد أن يحرقوا كل أثر أدبي يمت لفاطمين بصله ، قد حرقوا كتبهم بما فيها من دواوين الشعر خوفاً من أن يكون بالشعر مدبر للأئمة ، وهو كفر بدهم . وعامو ذا كاتب الأيوبيين الجهاد الأصغراني عندما أراد أن يجمع

(١) المخطوط ج ٢ ص ٢٧٥

(٢) النكت ص ٥٥

في خريدته شعر شعراء المائة الخامسة ، قال عن ابن الضيف داعي الأمر وشاعره :
وكنت عازما لفرط غلوه على حظه ، لأنه أساء شعرا وإن أحسن شعرا ، بل
أظهر فيه كفرأ ، ولكنتي لم أر أن أترك كتابي منه صفرا ، لأن البحر الواسع
يركبه المؤمن والكافر ، ويقصده البر والفاجر ، ويحمل الفناء كما يحمل الدر^(١) .
وقال عن طاهر الحداد : أقول طاهر ، يحظى من الفضل ظاهر ، يدل فظمه على أن
أدبه وافر ، وشعره بوجه الرقة والسلاسة سافر ، وما أكله لولا أنه من مداح
المصري وأدب غافر^(٢) . ومع ذلك لم يرو البهادر لها شيئا في مدح الأئمة ، فقد
تعمد البهادر الأصمغاني أن يستبعد أكثر شعر مدح الأئمة من خريدته ، وتبعه
في ذلك غيره من الأدباء والمؤرخين ، فضاغ أكثر شعر مصر الفاطمية بسبب
هذا التعصب المنهجي .

أضف إلى ذلك أن الأحداث التي كانت في مصر ، ولا سيما في عهد المستنصر
بالله ، إبان اغتة الكبرى ، وفي الصراع الذي كان بين شادرو وضرام في
أواخر العصر الفاطمي ، كانت من أهم أسباب ضياع شعر الشعراء وكتب العلماء ،
حتى إن الشاعر عمارة البني عندما أراد أن يذكر لنا شيئا من شعره في مدح
علي بن شادرو قال : فإن جميع ما قلته فيه نهب من دار الخليفة^(٣) . ولم تذكر منه
شيئا يرويه ، فكانت هذه الأحداث والاضطرابات مأساة العصر الفاطمي نفسه
لذسيبت زوال دولة الفاطميين ، ومأساة الحياة الأدبية والفكرية أيضا ، وإلا
لحدثت عن شعر الشعراء المائة الذين رثوا ابن كسر . وأين ديوان ابن حيدر
العقيل^(٤) ، وأين ديوان أبي الحسن علي بن المؤمل بن غسان الكاتب المصري
وكان ديوانه في مجدين^(٥) . وأين ديوان أبي الحسن بن مطير^(٦) ، وديوان ابن
الشعباء أستاذ القاضي الفاضل^(٧) وديوان الملك الصالح بن وزيرك^(٨) ، وديوان

(١) المخطوطة ورقة ٥٣ ب .

(٢) المخطوطة ورقة ٥٣ ب .

(٣) المخطوطة ورقة ٥٤ ب .

(٤) التكملة ص ١٢٧ .

(٥) المخطوطة ورقة ١١٤

(٦) المخطوطة ورقة ١٩

(٧) المخطوطة ورقة ٣٧ ب

(٨) المخطوطة ورقة ١١٤

القاضي الرشيد ابن الزبير^(١) وديوان أخيه المهذب بن الزبير^(٢)، وديوان ابن الضيف، وديوان ظافر الجداد الذي وصفه أحد معاصريه، وهو الفقيه نصر بن عبد الرحمن القزاري بقوله: وله ديوان شعر مشهور وبالمجودة له مشهور^(٣) وأين ديوان الفقيه الصوفي ابن الكيراني، وأين شعر بني عرام شعراء الصعيد، وأين مقطوعات ابن الصياد في آثف ابن الحباب، فقد قيل: إن ابن الحباب كان كبير الآثف، وكان ابن الصياد مولما بأقنه وبجاهه بأكثر من آثف مقطوعة^(٤)، وأين شعر أولاد الكثر بأسوان^(٥)، وأين المجموعة التي جمعها عثمان بن عبد الرحيم المعروف بابن بشرون التي صنفها سنة ٥٦١ وسماها « المختار في النظم والنثر لأفضل أهل العصر »، وأين مجموع شعراء ابن وزيك^(٦). وأين كتاب جنان الجنان للمهذب ابن الزبير الذي صنفه سنة ٥٥٨ وجمع فيه أشعار شعراء مصر، وذيل به القيمة، وأين ديوان القاضي المفضل كافي الكفاة أبي الفتح محمود ابن القاضي الموفق اسماعيل بن أحمد الديماطي المعروف بابن قادوس وكان من أمائل المصريين وكتابهم مقدما عند ملوكهم^(٧) ؟

ويطول بنا الأمر لو طالبنا بكل شعر الشعراء الذين كانت تزخر بهم مصر الفاطمية. إنما ذكرنا هذه الأسماء على سبيل المثال لا الحصر، لتعرف بمدى هذه الحسارة التي لحقت بتاريخ الأدب المصري لتضياع هذه الثروة الأدبية المصرية ولتدل على أن مصر الفاطمية كانت غنية بشعرائها، خصبة في شعرها.

هناك جناية أخرى ارتكبتها التعالي والباخرزي والعماد وابن سعيد المغربي وغيرهم من المؤلفين الذين أولعوا أن يحفظوا في كتبهم شيئا من الشعر، فصدوا إلى عنة أبيات من قصيدة، ولم يدونوا كل القصيدة، فقد اكتفوا بمقطوعة من بيتين أو أكثر لكل شاعر، وقل أن نجد قصيدة كاملة في هذه الكتب، ما جعلنا لا نستطيع أن نكون حكماحيما على فن النحاة من هذه

(١) المخطوطة ورقة ٣٦ ب

(٢) المخطوطة ورقة ١٦٨

(٣) المخطوطة (٦) ورقة ٩٨ ب

(٤) المخطوطة ورقة ١٣٦

(٥) المخطوطة ورقة ٥٩ ب

(٦) المخطوطة ج ١ ص ٣٢٠

(٧) ابن ميسر ص ٩٧

المقطوعات التي رويت له ، لأن الناقد المدقق مهما بلغت مقدرته الفنية ، وانسحبت
حقائقه الأدبية وارتقى ذوقه الأدبي ، لا يستطيع أن يحكم على شاعر بمقطوعة من
قصيدة ، أو قصيدة واحدة من ديوان ، وإلا كنا كالقدماء الذين كانوا يفضلون
شاعرا على شاعر بيت شعر قاله . ف هؤلاء الكتاب الرواة كانوا من عوامل
ضياع الشعر القديم ، كما هم في الوقت نفسه من عوامل حفظ بعضه .

ومهما يكن من شيء فإن بين أديبنا الآن بعض آثار لحياة الشعر في العصر
الفاطمي ، وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على أن العصر الفاطمي كان خصبا
في إنتاج الشعر بحيث استطاع شعر مصر الفاطمية أن يقف بجوار غيره من
الشعر في الأنظار الإسلامية في أرقى صوره وصوره ، فالعوامل التي تحدثت
عنها ، والآثار التي وصلتنا . وما قاله الرواة عن شعر مصر ، كل ذلك يجعلنا
قول : إن شعر مصر الفاطمية كان يحتل هذه المكانة الممتازة في الحياة الأدبية
ويتطور هذا التطور الذي نلسه في العصر الفاطمي .

الفصل الثاني

الشعر والأئمة

ذكرنا أن الفاطميين جاموا بمصر يحملون مذهباً دينياً خاصاً يختلف عن العقائد التي كان يدين بها المصريون ، وأن للمذهب الفاطمي مصطلحات خاصة لا يعرفها غير المنتسبين لفرقتهم ، ولا يفهمها غيرهم ، فكان لهذه العقائد الفاطمية تأثير قوى في شعر مصر الفاطمية ، ذلك أن الشعراء الذين اتصلوا بالأئمة كانوا يمدحون هؤلاء الأئمة بالصفات التي صيغها المنصب على الأئمة . ويعتمد الشاعر أن يستعمل في شعره المصطلحات التي اصطلاح عليها علماء المنصب ودعائه ، وكلما أمعن الشاعر في استخدام هذه المصطلحات ، وإدخال هذه الصفات في شعره ، ازدادت قيمة الشاعر عند الأئمة وكبار رجال الدعوة ، وكثر عطاؤه وزاد جليوه ، فكان الشعراء على هذا النحو دعاة للأئمة والعقائد دون أن يكون لهم في مراتب الدعوة شأن . وفي الوقت نفسه كان الشعراء سبب اتهام المذهب الفاطمي بالغلو والميل إلى الخروج عن تعاليم الإسلام ، ذلك أن الشعر أسرع في الانتقال على أفواه الناس من كتب العلماء ، فإذا كانت كتب الدعوة لا يقر بها إلا أتباع مذهبهم ، وأن مجالس حكمتهم لا يحضرها إلا من استجاب لهم ، فالشعر يختلف عن ذلك كله ، فإنه يسير بين الناس وبروية الرواة ، فإذا سمع مستمع إلى تلك الآيات التي زخرت بعقائد الفاطميين دون أن يكون له الحسام بعقائد المنصب وما فيها من تأويلات باطنية فهو لا يستطيع أن يدرك معنى ما جاء في هذا الشعر ، وما قصد إليه الشاعر في مدائحه ، ومن هنا يتهم الشاعر ويتهم المنصب نفسه ، وقد رأينا كيف وصف المهاد الأصفياني شعر بعض شعراء الدولة الفاطمية . وقرأ الآن أقوال النقاد والمؤرخين عن ابن هاني الأندلسي . وما وصف به من شدة الغلو في مدح الأئمة حتى رماه بعضهم بالخروج عن الدين جملة ، فلو كان

هؤلاء النقاد يعرفون التأويل الباطني لأقوال ابن هاني ، أو أنهم حاولوا معرفة ما أراد الشاعر وقصد إليه ، رأيتهم يرجعون عن كثير مما اتهم به الشاعر ، وذكرنا أن هذا من الأسباب التي أدت إلى ضياع شعر مصر الفاطمية ، ولا سيما هذا اللون من الشعر الذي ملئ بالعقائد والذي قيل في مدح الأئمة . ولكن من حسن الحظ أننا عثرنا على ديوان المؤيد في الدين داعي العبادة ، وديوان الأمير تميم بن المعز وقصيدة في مدح المعز ، وكانت هذه النصوص في مكثبات رجال البهرة بالهند .

ففي مجموعة أشعار الإسماعيلية قصيدة تكاد تكون فريدة في نوعها في الشعر العربي كله ، وهي لشاعر مجهول من شعراء المعز بالله ، وتنسب هذه القصيدة أحياناً إلى المسعودي في الدين^(١) . وتنسب مرة أخرى إلى شاعر يلقب بالإسكندراني^(٢) ، ولكنني أرفض نسبة هذه القصيدة إلى المؤيد لأن المعز بالله أقدم عهداً من المؤيد في الدين ، وأن المؤيد لم يمدح المعز مطلقاً وإنما مدح الظاهر والمستنصر وهما الإمامان اللذان عاصرهما المؤيد ، ولم يمدح غيرهما من الأئمة ، أخف إلى ذلك كله أن هذه القصيدة تختلف عن شعر المؤيد من ناحية فن الشعر عند المؤيد .

أما الإسكندراني الذي تنسب إليه هذه القصيدة فلا نعرف عنه شيئاً ، ولم تذكره المصادر التي بين أيدينا ، وكل ما ورد عنه في المجموعة الخطية هو : هذه قصيدة الإسكندراني رحمه الله في مدح الإمام المعز بالله قدس الله روحه ، وهي الموسومة بذات الدعوة^(٣) .

قلت : إن هذه القصيدة فريدة في بابها في الشعر العربي ، ذلك أن الشاعر روى الحديث المنسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم : « أهل بيتي شجرة أصلها ثابت ، وفرعها في السماء ، وقول النبي أيضاً : « أنا شجرة وقاطمة حلها » وعلى لقاحها والحسن والحسين ثمرتها » وعبرونا أهل البيت وروفا ، حقا حقاً أن يكونوا معنا

(1) A Guide to Ismaili Literature. P. 49.

(٢) نسخة ديوان المؤيد الخطية الرموز إليها (ق) راجع ديوان المؤيد .

(٣) ورقة ٦٦ ب .

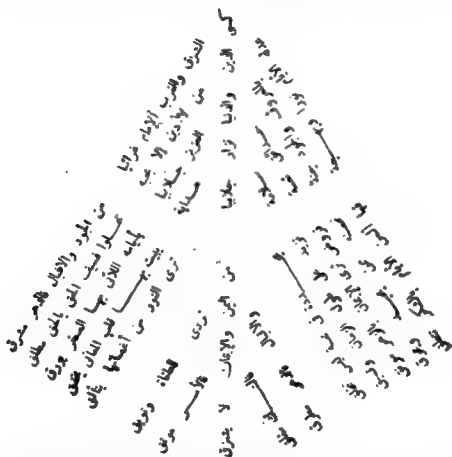
في الجنة^(١) ، وأمثال هذين الحديثين . فشاء له خياله أن يمدح إمامه العزيز بالله بقصيدة جعل لها جذعاً وفروعاً على مثال الفجرة ، وسمى قصيدته ذات الدرحة ، وأودعها كثيراً من المصطلحات والعقائد الفاطمية ، والقصيدة هي :

سنت من البين الذي ليس يصدق	فلست بنير الحق والصدق أنطق
أمدح رهطاً غير رهط عهد	وفي الجيد عهد للإمام موق
ولا فضل لي في ذا بل الفضل فضل من	بهم يحرم الله الأنام ويرزق
أئمة دين الله مذ قام دينه	وأنوار هذا الخلق من قبل يخلق
عجتهم فرض على الناس واجب	وعصيانهم كفر إلى النار موبق
م العروة الوثقى ، م منجى الهدى	م الناية القصوى التي ليس تلحق
ولولاهم لم يخلق الله خلقه	ولم يك في الدنيا ضياء وورق
م دوحه الدين التي شر الهدى	وبالين والتقوى تظل وتسبق
تجبر من الأيام من يستظلمها	وتحي من الموت الجهول وتطلق
سقامها غمام الوحى علما فأبنت	بمكنون علم الله قالدين موق
جرت في نجوم المحسكات عروقها	وفوق الثريا فرعها متعلق
م الأصل منها والأئمة فرعها	ففي كل عصر نورها يتألق
إلى أن تسامت بالعزيز ولم تكن	بنير أبى المنصور لو كان يلق
فباعت على الأيام أيامه التي	تكاد لها صم الجنادل تودق
سحائب جمود لا يغيب غمامها	وبحر سماح بالسدى يتدفق
لئن فقد الناس المحردين	لقد قام بالدين العزيز الموفق
تجددت الدنيا علينا بسنه	فلا العيش مذموم ولا النهر أخرق
ولا المجد ممنوع ولا المجد شامل	ولا العرف مقطوع ولا النكر مطلق
تصنوع نشر العدل في كل بلدة	ونشر الشاء الطيب الطيب يعين
ملأت قلوب العارفين محبة	فكل على مقداره يقتوق
فلا صامت إلا بحبك ناطق	ولا مضمر إلا بشكرك ينطق

(١) يروى الشبهة هذه الأحاديث . ونجدها في المجلس الخامس والستين من المائة الثانية من المجالس المؤيدية وفي كتاب بحار الأنوار وغيرها .

فضائل مولانا العزيز جليلة
غرس على بيت من الشعر دوحه
فألفت من بيت يوتا كثيرة
فبيع وسبع عن يمين وبسرة
بمدح أمير المؤمنين لأنها
عليه صلاة الله ما لاح كوكب

إذا عد فضل فهو بالفضل يسبق
لها أضمن في وزنه حين تبسق
ولكنها مع ذلك لا تفرق
على كل حرف منه بيت مطلق
لعمري به من سائر الخلق أليق
وما نأح في الأيك الحمام المطوق



قال الشاعر هنا قد أرم نفسه بأن يفتي بيتين من الشعر على كل كلمة من كلمات البيت
الآخر ، وأن يفرع عن يمين وشمال هذا البيت الآخر أربعة عشر بيتا ، سبعة أبيات
عن يمين ، وسبعة عن شمال حتى تتخذ القصيدة شكل الدوحة ، وما رأينا أحدا
من شعراء العربية يتلاعب بمثل هذا التلاعب قبل هذا الشاعر الفاطمي ، ومن
يبدى لمثل التشجير الذي ظهر في الشعر الفارسي في القرن السادس الهجري وما
بعده هو تطور هذا التلاعب الذي فراه في هذه القصيدة ، فقد أراد الشاعر أن

يهدى إلى إمامه مثالا من الشعر الفجرة التي ذكر في القرآن أن أصلها ثابت وفروعها في السماء ، وشاء الشاعر إلا أن يهدى لإمامه هذه الفدحة وجعل آيات الفروع والأصقان سبعة من بين وسبعة من شمال تمثيلا لرأى الفاطميين في الأدوار السبعة إذا انتهى دور سبعة من أئمة الدين تلاء دور آخر لسبعة آخرين ، وقد يكون ذلك أيضا لأن المركان سابع الأسبوع الثاني من دعوة النبي محمد ، وأن العزيز هو أول الأئمة في دور الأسبوع الثالث ، وهكذا كان هذا الشاعر في تلاجه في شكل القصيدة باطنيا ، وهو باطن أيضا في المعاني التي قصد إليها ، ففي مدحه لإمامه أملت عليه عقيدته الفاطمية هذه المعاني ، ففي البيت الثاني يتحدث الشاعر عن العهد أو الميثاق الذي يأخذه الإمام على شيعته والمستجيبين لدعوته . وفي البيت الثالث يشير إلى أن الأئمة مثل العقل الأول ، وبما أن الله سبحانه وتعالى قال العقل (وهو القلم أيضا) « بك أئيب وبك أعاقب »^(١) فهذه الصفات تنطبق أيضا على مثل العقل وهم الأئمة^(٢) فيستب الله من أطاع الأئمة وبما قرب من عاقبهم . وفي البيت الرابع يتحدث الشاعر عن تغل نور الله منذ بدأ خلقه أن حل هذا النور في إمام العصر^(٣) ، وفي البيت الخامس ذكر طاعة الأئمة وأن طاعتهم فرض فرض الله تعالى في القرآن الكريم بقوله تعالى « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » وفي البيت الثامن وما بعده يتحدث الشاعر عن العلم الباطن الذي خص به الأئمة دون غيرهم ، وأن هذا العلم هو الذي يحيي موتى النفوس ويجلو غياهب الشرك ، ثم يتحدث الشاعر بعد ذلك عن عقيدة الفاطميين التي شاركهم فيها غيرهم من المسلمين وهي العقيدة التي تقول : إن الله لم يخلق هذا الخلق سدى ، بل لمبادته وتوحيده . ولكن الفاطميين عانقوا المسلمين في الوسيلة التي تؤدي بهم إلى العبادة والتوحيد ، ذلك أن العبادة عندهم لا تقبل إلا بمواالات الأئمة من أهل البيت ، فكأن العالم لم يخلق إلا من أجل

(١) ذكرنا أنه ورد في صحيح البخاري قول النبي (ص) « أول ما خلق الله القلم قال له :

أقبل فأقبل ثم هل له : أدبر فأدبر ، فتأذى جزى وجلال ما خلقت خلقا هو أمر على منك ، بك أئيب وبك أعاقب . . . »

(٢) راجع « نظرية العقل والعلوم » . (٣) راجع فصيحة الإمام العزيز في الفصل السابق .

الائمة الذين هم يصل الإنسان إلى عبادة الله وتوحيد الله . فالشاعر في هذه القصيدة شاعر عقائد قيل كل شيء عرف عقائده فالتخذ هذه العقائد وسيلة للمح الإمام ، فالشاعر متأثر بهذه العقائد فظهرت في شعره .

وما هو ذا الأمير تميم بن المعز لدين الله ، الذي نعرف عنه أنه ابن إمام من الأئمة ، وأخ لإمام من أئمتهم ، كان شاعراً من أكبر شعراء عصره ، مدح أباه وأخاه الإمام بعدة قصائد حفظت في ديوانه ، وقد استطننا الحصول على نسخة خطية من هذا الديوان ، فرأينا الشاعر يصف الإمام بالمصطلحات الفاطمية ، وبلم في شعره بعقائده أسرته ، فهو يقول مرة المعز بالله :

جئت الخلافة لما أن دعيتك كا	وإني لمقاته موسى على قد
كالأرض جاد عليها الفيت منهلها	فزانها بضروب الروض والزه
ما أنت دون ملوك العالمين سوى	روح من القدس في جسم من البشر
نور لطيف تنامي منك جوهره	تناهيا جاز حد الشمس والشم
معنى من العلة الأولى التي سبقت	خلق الميول وبسط الأرض والمد
فأنت باقية دون الخلق متصل	وأنت لله فيهم خير مؤتمر
وأنت آية من نسل مرسله	وأنت خيرته الفراء من مضر
لو شئت لم ترض بالدنيا وساكنها	مضى وكنت عليك الاتهم الإمر
ولو تقاطعت الأبواب فيك دوت	بأنها عنك في مجز وفي حجر ^(١)

ففي هذه الآيات نرى الشاعر يمدح إمامه بأنه ليس كغيره من الملوك ، لأن نفس الإمام الشريفة الطيفة هي روح قسمة حلت في جسم كثيف ترابي ، وأن هذه النفس الطيفة تناسب العقل — الذي سماه هنا بالة الأولى على حسب الاصطلاحات الفلسفية والفاطمية أيضاً — وبما أن العقل هو أول ما خلق الله فهو سابق لخلق الميول ، ولما كان العقل الأول هو أقرب مبدطت الله إليه سبحانه ، فكذلك الإمام الذي هو مثل العقل أقرب المخلوقات إلى الله على هذه الفسبة وهو متصل بالله تعالى لأن مثوله العقل الأول متصل بالله تعالى ، وأن

(١) ديوان الأمير تميم ورقة ١٥٨ (نسخة خطية بمكتبتي) .

الإمام آية الله تعالى من نسل النبي محمد ، لأن مثوله العقل هو آية الله الكبرى .
وهكذا يستمر الأمر تيم في استغلال هذه الآراء والمقائيد الفاطمية في مدح
شقيقه الإمام العزيز بالله بحيث لا نستطيع أن نضل إلى فهم أشعاره في هذا
المدح دون التوصل إلى ذلك بتطبيق نظرية المثل والمثول . انظر إليه
وهو يمدح الإمام :

فيا بن الوصي ويا بن الرسول ويا بن نبي الهدى المصطفى
ويا بن المعاصر والمروتن ويا بن العظيم ويا بن الصفا^(١)

فهو يصف الإمام بثمان باطنية ، فناسك الحج في التأويل الباطني هي محمد
صل الله عليه وسلم ، وبما أن الوصي والآئمة يقومون مقام النبي بعد موته فهم
يوصفون بصفاته ، ويكرر هذا المعنى في أكثر قصائده كقوله :

واين الصفا والحبر ويا بن الهدى ويا بن الكتاب^(٢)

فيجاء به هذه الصفات التي وصف بها الإمام بأنه ابن الصفا ويا بن الحبر
نراه يصف إمامه بأنه ابن الكتاب ، والكتاب هو القرآن ، وفي التأويل
الباطني أن القرآن والزيور والنوادة والإنجيل هي مثل ، والمثول هو الوصي .
يقول في ذلك صاحب المجالس المستنصرية : « فالقرآن العظيم هو هذا الكتاب
الكريم ، وقرينه في التأويل الحكيم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه
أفضل الصلاة والتسليم لأنه في زمانه قرين القرآن ، والقرآن قرينه ، وإنما
يسمى الكتاب قرآنا لاقتراءه بالفترة ، يبين ذلك قول رسول الله صل الله عليه
وسلم (إني نازل فيكم التلاين كتاب الله وخرق أهل بيتي لأنهما لن يفترقا حتى
يردا على الحوض) . « فالقرآن قرين كل واحد من الآئمة الطاهرين ، »^(٣) .

ومرة أخرى يمدح الأمير تيم إمامه بصفات باطنية فيقول :

يا حجة الرحمن ضد عباده وشباهه في كل أمر مشكل
من لم يكن في صومه مقربا بك ، فصومه لم يقبل^(٤)

(٢) ديوان تيم ورقة ١٨ ب .

(١) ديوان الأمير تيم ورقة ١٥ .

(٤) ديوان تيم ورقة ١٢١ ب .

(٣) كتاب المجالس المستنصرية ص ٢٩ .

فهو هنا يصف إمامه بأنه حجة الله في الأرض وهو ممنى من المعاني الباطنية حوصفة من صفات الآئمة^(١) ، ويقول أيضا : إن الإمام هو النور الذي يبين للناس ما غمض عليهم ويوضح ما أشكل ، وفي البيت الثاني يشير إلى عقيدة الفاطميين التي تقول إن فرائض الدين الإسلامي لا تقبل إلا بإتباع المخصوص عليه من أهل البيت ، فلا صيام لصائم ما لم يعتقد ولاية الآئمة لأن الولاية كما قلنا هي محور عقيدة الفاطميين ، ويكرر هذا المعنى الأخير في قوله :

وأنتك أنت المصطفى الملك الذي بطاعته من ربنا نتقرب
ولولاك كان الملك في غير أهله وكان على أفق الشريعة غيب
عليك صلاة الله ما طلع الضحى وما حن للأوطان من يتقرب^(٢)

وهكذا نستطيع أن نستخرج من ديوان الأمير تميم أثر العقائد الفاطمية في شعره ، ونستطيع أن نفهم ما قصد إليه الشاعر من دمان إذا طبقنا (نظرية المثل والمثول) .

ولعل الشاعر المؤيد في الدين هبة الله بن موسى الشيرازي هو أول شاعر في هذا العصر وصل إلينا ديوان شعره ، فإذا بشعره كله متأثر بالعقيدة الفاطمية قال الشاعر بحمل كل قصائده التي في هذا الديوان في مدح الآئمة ، ولم يتناول موضوعا آخر من موضوعات الشعر ، ودلائل قصائده كلها بالمصطلحات الفاطمية حتى إنى لا أكاد أعرف لهذا الديوان مثيلا في الأدب الفاطمي بل في الأدب العربي كله ، فنحن نستطيع أن ننخذ هذا الديوان الشعري من كتب العقائد الفاطمية ، ولاغرو في ذلك فالؤيد لم يكن شاعرا متكسبا بشعره مثل غيره من الشعراء ، ولم يكن شاعرا من الشعراء الذين تسهواهم حياة الجون والصف والجور ، إنما كان عالما من علماء الدعوة ، بل كانت إليه مرتبة داعي الدعوة ، ولقبه إمامه المستنصر بالحجة نزوعا إلى رفع شأنه ، فليس غريبا أن ينقطع مثل هذا العالم الكبير إلى العلم وأد يتفرغ إلى كل ما يتصل بنشر الدعوة بين الناس ، فإذا أشهد شعرا فيتغلب على هذا الشعر عقل العالم لا عاطفته .

(١) راجع ما كتبه عن ذلك في كتاب ديوان المؤيد دلمي الهادي .

(٢) ديوان تميم ورقة ١٧ ١ .

ولذلك ترى هذه الأسماء الكثيرة التي فيها ديوانه ملك طبا وأولياءه
انظر إليه يقول في إحدى منظوماته التي وضعها لمكسرة، عاتق منعبه :

ما التون يا صاح ترى والكاف	فالحق يد وما أصداف
إن الذي ظنهما حرفي هما	مستوجب من ذي الحيا كل هما
هل كفل بالأرض واليه	يا أي حرفان من الهاء
تفهموا يا قوم ما الحرقان	إن نجمة المرء بالحرقان
ما فاعل الصلا كلفنول	كلا ، ولا الحامل كلفنول
والكاف والتون اللذان اقتلما	صنع الإله منهما والحقما
ومنها يألف الوجود	لمن هو الشاهد الموجود
أن يكونان من الموات	ومنها منافع الحياة (١)

تقارن مثل هذه الآيات من نظم المؤيد يدرك لأول مرة مقدار تأثرها
بالمصطلحات الفاطمية التي لا يعرفها إلا من تعمق في دراسة المذهب الفاطمي ،
فإن قضية الإبداع ، أو الحدود الروحية والجسمانية عند الفاطميين تكاد أن
تكون أدق موضوع ماله جميع النماة والكتاب ، فأفردوا لهذا الموضوع
كتبا خاصة ، وفصولا من كل كتاب من كتب النحوة ، والمؤيد في الدين في هذه
الآيات يشير إلى ، الكاف ، و ، التون ، وما الحرقان اللذان يألف منهما لفظ
«كن» . من قوله تعالى : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » غير
أن الفاطميين قالوا : إن «كن» هي الكلمة التي قامت بها السموات والأرض
وما فيها من خلق ، وإن ، الكاف ، و ، التون ، ليسا بحرفي هما ، كما يتوهم العامة
بل هما ملكان روحانيان جليلا لقد عظميا الشأن ، وقد أتم الله سبحانه وتعالى
بهما في قوله « نون والقلم » ، والله تعالى لا يقسم إلا بأمر عظمته ، « فالكاف ،
رمز من الله « بالقلم » ، و « التون » و « حرر إلى » اللوح المحفوظ ، « ويسمى القلم ،
عندم بالسابق وهو العقل الكلي عند الفلاسفة . وله كل صفات وخصائص ذلك
العقل كما تحدث عنه الفلاسفة ، وهو أول ما أبدعه الله سبحانه وتعالى من الحدود

(١) القصيدة الثانية من ديوان المؤيد دامي النماة .

الروحانية ، ومن طاء المنع من قال بأن وجود عالم الإبداع ظهر دفعة واحدة من المبدع الحق تعالى لا من شيء ، أى لا من مادة تقدمت عليه . ولا شيء ، أى لا بأية استعان بها عليه ، ولا فى شيء . أى لا مع غيره يشاكلة ويساويه ، ولا مثل شيء . أى لا مثل معلوم كان له نظير فيه ، ولا لشيء . أى لا حاجة فى زيادة ولا نقصان فى ملكة تعالى ومشيئته ، فكان وجود الكل كإدراكه الحكيم ولوح به العلماء منه تعالى بحرف « هـ كلف » ، و « النون » فكان ما كان (١) ، ولكن أغلب العلماء على أن « القلم » كان أسبق فى الوجود من اللوح ولذلك سمي « القلم » بالسابق و « اللوح » بالتالى ، و « اللوح » هو ما يسمى عند الفلاسفة بالنفس ، وجعل الفاطميون لهذا الحد جميع الصفات التى وصف بها الفلاسفة النفس الكلية ومن « القلم » و « اللوح » ، وبواسطتهما أوجد الله تعالى جميع المخلوقات فى السموات والأرض ، فهما كافلا للعالم (٢) ، لحديثهم فى الإبداع هو صورة لمراتب القيوضات فى الأفلاطونية الحديثة ، وإن كان الفاطميون صبغوها بالصبغة الإسلامية ، وبتطبيق نظرية المثل والمثول ، يكون النبي مثلا « القلم » ، والوصي مثلا « اللوح » ، وبعد وفاة النبي يصبح الإمام مثلا « القلم » والحجة مثلا « اللوح » ، وللشئ جميع صفات وخصائص المثول ، فكان الفاطميون لم يعيشوا مسألة الإبداع إلا لإثبات مكانة الأئمة بين الحدود الجسمانية وعائلتهم للحدود الروحانية فى العالم العلوى وإسباغ ألوان التقديس على الأئمة بهذه الملائكة ، ومن هذه العقيدة اشتق الفاطميون عقائدهم فى صفات الإمام ، وظهر أثرها فى الشعر الفاطمى . من ذلك ما أقده المؤيد فى الدين فى مدح إمامه المستنصر :

قد خفتم من طينة وخلقنا نحن منها لكن بنا ترتيب
إن أجسامكم لتأشع الطين . الذى منه شق منا القلوب (٣)

فهو يمدح إمامه بأن جسم الإمام عقل كله ، ذلك أن جسم الإمام خلق من الطينة التى خلقت منها قلوب البشر ، أى أن الطينة التى خلق منها جسم الإمام هى

(١) كتاب كنز المولد (نسخة خلية بمكتبي) .

(٢) راجع كتاب راحة الليل والمجالس المؤيدة فى مواضع مصححة .

(٣) القصيدة الثالثة .

تس الطينة التي خلق منها عقل البشر، فما هو كفيف عند الإمام هو لطيف عند غيره من عامة الناس. وتأويل ذلك أن عقل الإمام شريف ويجب أن يكون ما يحل فيه هذا العقل شريفا أيضا، ولكن بما أن الإمام من البشر وجسمه ترابي كغيره من آدميين، لجسمه خلق من تراب ولكنه اقتراب الذي خلق منه قلب البشر الذي يحل عقول البشر. وفي هذا المعنى يقول المؤيد أيضا :

فم قد ألقننا في البرايا قنطت من شكرها أخام
م نهايات كل من برأ الله وقايات خلقه والسلام
فإليهم تسمى النفوس إذا را حادلى الأرض تسمى الأجسام (١)
وقوله أيضا :

مول موليك الأعر ز كما معاديه الأذل
ذو نسبة بالمصطفى والمرضى يسو ويطو
بكشفه ولطيفه فأساسه نفس وعقل (٢)
وهذا المعنى كثير جدا في شعر المؤيد نراه في أكثر قصائده التي في الديوان ..
هناك عقيدة أخرى ردها المؤيد في شعره ، فهو يقول مثلا :

سلام على الصخرة الطاهرة	وأعلا بأنوارها الزاهرة
سلام يديا على آدم	أبي الخلق ياديه والهاضره
سلام على من بطوقاته	أديرت على من بنى الدائره
سلام على من أناه السلام	ضداه أخت به التائره
سلام على قاهر بالما	صلة فراصة جازه
سلام على الروح عيسى الذي	بحبه شرفت فاصره
سلام على المصطفى أحمد	ولى الشفاة فى الآخره
سلام على للرضى جيد	وأبشاه الأنجم الزاهره
سلام عليك ، فصولهم	ليك أيا صاحب القاهره
بنفس مستقرا بالإله	جنود السلام له فاصره

شهدت بأفك وجه الإله وجوه الموالى به فاضره
وأفك صاحب عين الحياة وعين خصومهم غافره
بحار الندى كفه والعلوم مدى الدهر في قرن زاخره
لأحياء أرواحنا الباقيات وإنشاء أجسامنا الباتره^(١)

فالشاعر هنا يعلم على جميع الأنبياء، وعلى الوصى على بن أبى طالب والأئمة من ذريته، ولكنه ذهب إلى أبعد من التسليم فقال : ه فصولهم لديك أيا صاحب القاهرة، وصاحب القاهرة في عصره هو الإمام المستنصر بالله، فهل معنى ذلك أنه جعل الأئمة في منزلة الأنبياء؟ قول عقيدة الفاطميين إن النبي محمدا جمع أدوار كل الأنبياء والمرسلين الذين جاؤا قبله، أى أنه في دوره مثل آدم في دوره فهو آدم على هذا النحو، وهو إبراهيم في دوره وهكذا، فكانه بذلك جمع أدوار جميع الأنبياء، بل قال الفاطميون إن دور النبي محمد يشبه أدوار الأنبياء السابقين، وما حدث الأنبياء وأوصيائهم وأئمة دورهم يحدث أيضا لمحمد ووصيه وأئمة دوره، فالأدوار واحدة ولكنها تتخذ أشكالا مختلفة. ولما كان الإمام يقوم مقام النبي فهو يجمع الأدوار أيضا على هذه الصورة، فالمستنصر هو آدم وهو إبراهيم وهو نوح إلى آخر الأنبياء، فالنور الذي تنقل بين الأنبياء حل في إمام الزمان، ليس معنى ذلك أن الأئمة كانوا بمنزلة الأنبياء. فقد ذكرنا أن لهم نفس صفات الأنبياء إلا صفة النبوة والرسالة، وهكذا نستطيع أن نفسر قصيدة المؤيد الساجدة. ومن الطريف أن المؤيد نفسه في قصيدة أخرى تardon بين الإمام وبين بعض الأنبياء. فقال في مقارفة المستنصر بنى الله عيسى بن مريم .

وصديق مثل العدو مداح لأراه إلا عدوا مضلا
جاءني حائرا، قال بجمل ما أرى للشيخ في الناس شكلا
لن عيسى قد كلم الله في الهدى صينا وكلم الناس كهلا

قلت : هذا مولى الأنام معد
قال : عيسى أحيى الموات جهادا
إن هذا مولى الأنام معد
قال : عيسى أبرأ العصى قلت : مولا
قال : حسبي أجبتني بحجاب
ثم ولي عني مقرا بفضل
قد حوى الملك والإمامة طفلا
قلت : مهلا يا فاضل الفهم مهلا
هو يحيى بالعلم من مات جهلا
ي معد يحلو العصى إن تجلى
باطقى بينت لي فيه فضلا
لإمام الهدى ورحمت مدلا (١)

وقس على ذلك مقارناته لباقى الأنبياء ، فهو يتحايل على المعاني حتى يأتي منها بما يلائم مقابلة أدوار الأئمة بأدوار الأنبياء ، وتكاد قصص الأنبياء التي وردت في القرآن الكريم أن تزول على هذا النحو الذي رأيناه في هذه القصيدة ويستمر المؤيد في كل قصائده يمدح الإمام بيمان باطنية هي من تأثير العقيدة في نفسه وفي شعره .

ويجئ إلى أن العقائد أثرت أيضا في جميع الشعراء الذين ظهروا في بلاط الأئمة في عهد ضعف الأئمة وسطوة الوزراء ، وفي عهد انتقال مركز الدعوة إلى اليمن ودخول الأئمة في دور الستر الثاني ، وقد ذكرنا أن الحافظ والطاهر والفائز والقاسم وآخر ملوك الفاطميين كانوا يحكون نيابة عن الإمام المستر ولم يكونوا أئمة ، ولكن شعراء مصر أبوا إلا أن يفتقروا صفات الأئمة على هؤلاء النواب بل من الشعراء من لقب هؤلاء الملوك بالأئمة ، قال الشاعر الشريف أبو الحسن علي ابن محمد الأنغش شاعر الأمر والحافظ مدح الحافظ بقوله :

صرف جبريال يرى تحريمها من يرى الحافظ فردا محمدا
بشر في الصين إلا أنه من طريق العقل نور وهدي
جل أن تدركه أعيننا وقمالي أن نراه جسدا
فهو في التسييح زلني رايح سمع الله به من حمدا
تدرك الأفكار منه بانيا كاد من إجلاله أن يبدا (٢)

قال الشاعر هنا مدح الحافظ بهذه الصفات الباطنية التي هي من صفات الأئمة

(١) القصيدة التاسعة والخمسون .

(٢) الحرية ورقة ١٤٧ ب .

ولكن المحافظ كان ينوب عن الإمام المستر فطبق العناصر صفات الإمام على نائبه ، فالإمام عن طريق العقل ، أى عن طريق علم الباطن ، هو نور أى أنه عقل كله ، والعقل الأول لا يدرك بالأيصار ، فهو تعالى أن يعبد بمحدود ذلك الجسد ، أما قوله « فهو في التسبيح زلنى راحه » فتأويل الركوع — كما يحدثنا القاضي النعمان في كتابه تأويل دعائم الإسلام — هو طاعة الإمام ، والإقرار بمحدود الدين الروحانيين والجسمانيين ، والتسبيح في الركوع تأويله البراءة والتزكية لله تعالى أن يقاس أو يشبه به أحد من حدوده أو من خلقه (١) وتأويل « سمع الله به من حمدا » أن كل من صار إلى الدعوة يجب عليه حمد الله على ما أساره من فضله إليه وأطلعه من أمر أوليائه عليه فيأمر الداعي بذلك من دعاء ويخبرهم أن الله تعالى يسمع حمدهم ، ويطلع على اصطدامهم في ذلك ، فإن كانوا قبلوه حتى القبول واغتمطوا به كما يجب وحمدوا الله على ما هداهم إليه منه فيحمد الله كما أمرهم (٢) أما البيت الأخير فالعاصر يشير إلى أن الإنسان إذا فكر في أمر الإمام ، وأن الإمام مثل العقل الأول وما يوصف به هذا العقل ، فيكاد المفكر من إعجابه العقل أن يعبد وأن يعبد مثله . وهذا البيت الأخير يشبه قول الموقد في مدح المستنصر :

لست دون المسيح سواه ربا أهل شرك ولا نسيك ربا
وهو مثل قول الشريف بن أنس الدولة في مدح المحافظ ، وقد صمد
المتبر يوم العيد :

خشوعا فإن الله هذا مقامه ومسا فهذا وجهه وكلامه
وهذا الذي في كل وقت بروزه تحياته من ربنا وسلامه (٣)
فهذا المعنى الذي ورد في جميع هذه الآيات هو من المعاني الباطنية ، وكلها
تخضع في التفسير لنظرية المثل والمثول أيضا . فالإمام مثل العقل الأول فهو
أشرف من جميع المخلوقات ، وأنه هو المقصود بوجه الله ويد الله وجنب الله

(١) المجلس الرابع من الجزء الخامس من تأويل دعائم الإسلام — نسخة خطية بمكتبة .

(٢) المجلس الخامس من الجزء الخامس من تأويل دعائم الإسلام نسخة خطية بمكتبة .

(٣) خط القرطبي ج ٢ ص ٣٣٠ .

التي وردت في القرآن الكريم . ثم انظر الى قول الشاعر :

هذا أمير المؤمنين يجلس أبصر في الوحي والتزبيل
وإذا تمثل راكباً في موكب عاينت تحت ركابه جبريلاً^(١)

« فجلس الوحي والتزبيل ، هو مجلس النبي صلى الله عليه وسلم الذي يقوم الإمام مقامه ، أما قوله : « عاينت تحت ركابه جبريل ، فأوريل الملائكة في حريدة الفاطميين هم السعاة ، فكأن الشاعر يقول : إن الإمام إذا سار في موكبه سار تحت ركابه السعاة الذين يدعون له ولذهب .

وكان الوزير الملك الصالح طلائع بن وزيرك من الشعراء الذين اتخذوا الشعر وسيلة لنشر عقائدهم ومنهج مذاهب أئمتهم ، فن ذلك قوله :

يا أمة سلكت ضللاً بينا حتى استوى إقرارها وجحودها
ملتم إلى أن المعاصي لم يكن إلا بتقدير الإله وجودها
لو صح ذا كان الإله بزعمكم منع الشريعة أن تقام حدودها
حاشا وكلا أن يكون إلهاً ينهى عن الفحشاء ثم يريد^(٢)

فهو هنا يشير إلى تلك المسألة التي شغلت أذهان المسلمين وأثارها المعتبرة ردحا طويلا من الزمان ، وأثارت مجادلات بين علماء المسلمين ، وهي مسألة الجبر والاختيار . لجمهور أهل السنة على أن الإنسان مجبر ، والمعتزلة تذهب إلى أن الإنسان مخير ، ولكن الفاطميين كانوا ينهون مذهباً وسطاً ، فالإنسان مجبر في أمور ، ومخير في أمور ، فهو ولد من غير اختيار بل هو مجبر ، وتقصيه بعض الأحداث في حياته قضاء وقدرًا ويموت بغير اختيار ، أما أفعاله فهو مخير فيها .

ولم يكن شعراء مصر الذين مدحوا الأئمة والوزراء هم الذين ألما في أشعارهم العقائد الفاطمية وأفادوا بها هذا التأثير الذي رأينا بعض نماذجها ، إذ المفروض أن جميع الشعراء الذين اتصلوا ببلاط الفاطميين كانوا يتنزهون بمذهب الأئمة ،

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٩٧ .

(٢) خطط القرطبي ج ٤ ص ٨٢ .

ولكننا نرى الشعراء الوافدين على مصر في ذلك العصر كانوا يحاولون أن يتخذوا العقائد الفاطمية وسيلة للوصول إلى مدح الأئمة ، وأن يزينوا شعرهم بهذه العقائد للتقرب إلى الأمراء والوزراء والأئمة ، وأكثر الشعراء الذين وفدوا على مصر لم يكونوا فاطميين المذهب ولكنهم اضطروا إلى أن يمدحوا الأئمة بالمعاني الباطنية على نحو ما كان يفعله شعراء مصر ، وبمحدثنا ياقوت أن الحسين بن عبد الله الشاعر المعروف بأبي حنيفة المعري المتوفى سنة ٤٥٧ هـ أوفد إلى المستنصر بالله ، وأنه مدح المستنصر بقصيدة منها :

ظهر الهدى وتجلل الإسلام	وابن الرسول خليفة وإمام
مستنصر بالله ليس يفوته	طلب ولا يمتاص عنه مرام
حاط البعاد وبات يسهر عينه	وعيون سكان البلاد تنام
قصر الإمام أبي تمام كعبة	وبينه ركن لها ومقام
لولا بنو الزهراء ما عرف التقى	فينا ولا تبع الهدى الأقوام
يا آل أحمد ثبتت أقدامكم	وتزلزلت بعداكم الأقدام
لستم وغيركم سواء ، أتم	لدين أرواح وم أجسام
يا آل طه حبكم وولاكم	فرض وإن عدل الحاقولاموا (١)

فالشاعر على الرغم من أنه من معرة النعمان يمدح إمام مصر الفاطمي بهذه الصفات الباطنية التي تجد حظا من القبول إذا مدح بها الإمام ، قصر الإمام كعبة والركن والمقام في التأويل الباطن مثل على الإمام ، ولولا الأئمة ما عرفت حقيقة الدين ، والأئمة عقول والناس أجسام والولاء للأئمة فرض من الله ، فهذه كلها من صفات الفاطميين ، واضطر الشاعر أن يزوج بها في مدحه للإمام الفاطمي ، ولهذا الشاعر قصيدة أخرى في مدح المستنصر أيضا منها قوله :

أما الإمام قد وفى بمقالة	على الإله على الإمام وآله
لذا بجانبيه فسم بفضله	ويندله وبصفوه وجماله
لا خلق أكرم من معبد ، شيمة	عموده في قوله وفضاه

(١) ياقوت - سجع الأدباء ج ١٠ ص ٩٠ (طبعة رطامي) .

فاتصد أمير المؤمنين فأتى يؤسا وأنت مظل بظلاله
 زاد الإمام على البحر بضفة وعلى البدر بحسنه وجماله
 وعلى سرور الملك من آل الهدى من لا تمر الفاحشات بياه
 النصر والتأييد في أعلامه ومكارم الأخلاق في سرباله
 مستنصر بالله حاق زمانه عن شبهه وظهيره ومثاله (١)

فالشاعر في هذه القصيدة مدح الإمام بالمعاني التي اعتاد الشعراء أن يمدحوا بها الملوك، ولكنه ألم فيها أيضا بالمعاني الباطنية التي تتميز مصر الفاطمية عن غيرها من الدول، وتميز شعر مصر الفاطمية عن باقي الشعر العربي بالصلاة على الإمام وآله وأن الإمام من نسل الرسول، وأن لاشبه للإمام ولا مثيل. كل هذه من العقائد التي كان يربطها بين الناس.

ولعل الشاعر عبارة النبي أصدق مثال لؤلاء الشعراء السنيين الوافدين على مصر؛ والذين ألما في شعرهم بالعقائد الفاطمية، ففي أول قصيدة أنشدها في مصر قال في مدح الخليفة الفائز، ووزيره الملك الصالح بن رزيق تلك القصيدة التي مطلعها :

الحمد لله ليس بعد العزم والمهم حمدا يحرم بما أولت من النعم
 وفيها يقول :

لأحمد الحق، عندى للركب يد تمتت الجسم فيها رتبة الخطم
 قربن بعد مزار العزم من نظري حتى رأيت إمام النصر من أمم
 ورحن من كعبة البطمان والحرم وفدا إلى كعبة المعروف والكرم
 فهل ددى البيت أنى بعد فرقته ما سرت من حرم إلا إلى حرم
 حيث الخلافة مضروب سرادقها بين الخيضين من صفو ومن قثم
 وللإمامة أنوار مقدسة تجلو اليخضين من ظلم ومن ظم
 والنبوة آيات تنص لنا على الخيضين من حكم ومن حكم (٢)

(١) ياقوت ج ١٠ ص ٩٢.

(٢) السكت ص ٣٢ (٢) ص ١٩٨.

ويستمر عادة في مدح الفائز ثم ينتقل إلى مدح وزيره الملك الصالح بن رزيك، ولكن الشاعر كان بعيداً عن مركز الخلافة فلم يستطع أن يعرف شيئاً كثيراً من عقائد الفاطميين، ولذلك لم يتحدث عن المعاني الباطنية إلا بقدر يسير، ولا سيما في البيت الأخير من هذه المقطوعة، حل أن الشاعر بعد أن استقر بصره وأقبل بالبيئة المصرية حوله وسمع جمل العلاء ومناقضاتهم في مجالس الملك الصالح، وعرف شطراً من العقائد الفاطمية، تأثر بهذه العقائد في شعره، وإن كان لم يستق دعوتهم، بل ظل على عقيدة الشافعية، فهو يقول في مدح العاضد:

وعليك من شيم النبي وحيدر	لناظرين أدلة	وشهود
والوحي ينطق عن لسانك بالذي	من دونه	يصمدح الجلود
شخصت إليك نواظر الأمم التي	ملكتم لك ربة	وعهود
يوم جلت فيه الإمامة عزها	ولها الملائكة الكرام جنوداً (١)	

في هذه الآيات يظهر تأثير البيئة الفاطمية في شعر مارة، فالشاعر هنا متأثر بالعقائد، حتى يغفل إلينا أنه أصبح على دينهم وعقيدتهم، قالوحي - وهو في التأويل داعي النجاة - ينطق عن لسان الإمام بالمجيب الدائمة والبراهين القوية التي لا تقف أمامها حجج أو براهين، والبيئة في حق جميع الذين تأمروا الإمام، والملائكة وهم النجاة جنود الإمام. ومرة أخرى يمدح العاضد بقوله:

لا يبلغ البناء وصف مناقب	أتى على إحسانها التنزيل
شيم لكم غراقي بمديحها -	فرقان والتوراة والإنجيل
سهر فسخناها من السور التي	ما شأنا نزع ولا تبديل
قامت خواطرها بخدمة نظمها	فيكم، وقلم مؤمها جبريل
شرف نيت به قريش كلها	عولا لكم وعليكم التمويل
إن الرسول أبوكم من دونها	فن الذي منها أبوه رسول
لقد دوت مقام قوم يستوى	منهم شباب في الملا وكهول
وجمت شمل خلافة لم يختلف	في فضائها المعول والمنقول
لما برزت إلى المصل معلنا	وشمارك التكبير والتهليل

وخطبت فيه المؤمنين خطابة ذات عيون عندها وعقول
وسلت عرب فصاحة نبوية شهدت بأنك للنبي سليل^(١)
فهو هنا يمدح العاصد بأن في سور القرآن والتوراة والإنجيل آيات في شأن
الائمة ، وهذا من أقوال الفاطميين في أئمتهم حتى قال شاعرهم المؤيد في الدين :
لهم معاني الوبر وفضل آى الزمر^(٢)

وقال حمارة أيضا في هذا المعنى نفسه :
يا خير من ظلم المديح لمجده ونزلت سور الكتاب بمجده^(٣)
وانظر إليه وهو يقول في مدح العاصد أيضا :

ولاؤك دين في الرقاب ودين وودك حصن في المعاد حصين
وحبك مفروض على كل مسلم يقول بحب المصطفى ويدين^(٤)
ولعل الآيات التي أشدها في رثاء الملك الصالح بن رزيك تدل دلالة واضحة
على مدى تأثير عمارة بالعقائد وبثأويل الفاطميين ، فهو يقول مثلا :

لا تسجين لقدار ناقة صالح فلكل عصر صالح وقدار
أحلك دار كرامة لا تنقضى أبدا وحل بغاتليك بواو^(٥)

فناقة صالح التي ذكرت في القرآن قول على حجة صالح ، وكذلك كلن
الوزير ابن رزيك حجة الخليفة الفائز ، ويتحدث حمارة عن الأدوار ، فلكل
عصر صالح ، من نبي أو إمام ، ولكل عصر ناقة صالح ، أى حجة للإمام ،
فهذا المعنى لا يأتي به إلا من عرف دقائق الدعوة وأسرارها ، وكلن حمارة
يمارس النعاة والعلماء يعرف الكثير من أسرارهم بجرى لسانه به ، وفي البيت
الثاني يتحدث الشاعر أيضا عن عقيدة الفاطميين في خلود النفس بعد الموت
وعودتها إلى العالم الروحاني ، فإن كانت قسراً شريفة بأن كانت نفس حدم من
حدود الدين الجسائية عادت إلى عالم الحدود الروحانية وتأخذ مرتبتها بين الحدود
الروحانية كما كانت مرتبتها بين الحدود الجسائية .

(٢) القصيدة الخامسة والعشرون من ديوان المؤيد

(٥) ص ٦٩ .

(٤) ص ٣٦٢

(١) الشكت ص ٣٠٦

(٣) الشكت ص ٢٠١

وفي مديحه الصالح قال :

كأن هو الباب الذي من لم يصل منه فليس له إليك وصول
إشارة إلى أن داعي الدعاة هو باب الأبرار ، وهو الذي يشير فيه إلى
الحديث النبوي : « أنا مدينة العلم وعلى بابها » ، فالإمام في عصره يماثل النبي
في عصره ، وداعي الدعاة هو الباب أيضا . وقد ذكرنا أن الملك الصالح بن رزيك
أشد يدعو عمارة إلى دخول المذهب واستعمل الصالح هذا المصطلح أيضا :

قل للفتية عمارة يا خير من أضى يؤلف خطبة وخطابا
أقبل نصيحة من دعاك إلى الهدى قل دحقة ، وادخل إلينا البابا ،
قلق الأئمة شافعين ولا تجد إلا لدينا سنة وكتابا (١)

وفي قضية أول رمضان ، حدث أن غم الهلال ولم يظهر بين الضباب فلم يره
الناس رؤية بصر ، ولكن المصريين صاموا على حسب رؤية الاستبصار والعلم
بدورة الفلك ، وظهر العاضد ووزيره شاور بين الناس ، فقال عمارة في ذلك :

ولما تراءت الهلال بصائر يغطي الهوى أبصارها بضباب
وقتنا فهنا الصيام بعاضد سناه مدى الأيام ليس بخباب (٢)

فروية رمضان التي تحتفل بها اليوم هي من فكرة ظهور الإمام الفاطمي معلنا
صوم رمضان .

وبعد انتهاء على الدولة الفاطمية وموت العاضد ، اتفق أن اجتمع الشاعر
يحيى أبو سالم بن الأحبب بن أبي حنيفة والشاعر عمارة اليمني في قصر القوثة
فأنشد أمير سالم في نحم الدين أيوب :

يا مالك الأرض لا أرضي له طرفا منها ، وما كن منها لم يكن طرفا
قد جعل الله منى النار تكبتها وقد أعد لك الجنات والفرا
تشرفت بك عن كل يكبتها قاليس بها العز ، وتلبس بك الفسفا
كانوا بها صدقا والهاذ قوثة وأنت قوثة صارت لها صدقا

فأجاب حمارة :

أتيت يا من جما السادات والخفا
جملتهم صفا حلوا بلؤلؤة
وإنما هي دار حل جوهرم
قال لؤلؤة عجا بهجتنا
فهم بسكنام الآيات إذ سكنوا
والجوهر الفرد نور ليس يعرفه
لولا تجسمهم فيه لكان على
قالكلب ياكلب أسن منك مكرمة
وقلت ما قلته في تلهم سنفا
والعرف ما زال سكنى اللؤلؤة الصفا
فيها ، وشف فأسناها الذي وصفا
وكونها حوت الأشراف والشرقا
فيها ، ومن قبلها قد أسكنوا الصفا
من البرية إلا كل من عرفا
منصف البصائر الأبصار عتظفا
لأن فيه حفاظا دائما ووقا^(١)

فانظر إلى قول حمارة : إن جوهرم هو الذي حل هذه الدار ، وإن الآيات
سكنتها وكانت تسكن الصحف ، وحديثه عن الجوهر الفرد الذي هو نور تجسم
في الأئمة .

أليس ذلك كله من الأدلة التي نسوقها على تأثر حمارة بالعقائد الفاطمية
على الرغم من تمسكه بمنهبه السني الشافعي ؟

من ذلك كله نستطيع أن ندرك كيف استطاع الفاطميون أن يقتنوا من
الشعراء ألسنة لهم في نشر عقائدهم التي أذاحوها بين هؤلاء الشعراء ، وكيف
استغل الشعراء علم الباطن وعاسة ما خلمه علماء المذهب على الأئمة من صفات
باطنية ، وكيف كان الشعراء يمدحون الأئمة والدعاة هذه الصفات حتى يتقربوا
إليهم وينالوا من حياتهم وعللهم ، ويقول القلقشندي : كان الشعراء جماعة
كثيرة من أهل ديوان الإنشاء وغيره ، وكان منهم أهل سنة لا يفلون في
المدح ، وشيعة يفلون فيه .^(٢) فكان القلقشندي كان يرى أن جميع الشعراء
الذين مدحوا الأئمة قد ألما في شعرهم بالعقائد الفاطمية ، ولكن بعضهم كان
يسرف في ذلك ، وبعضهم كان يقتصد .

(١) المخطوط ج ٢ ص ٢٥١ .

(٢) صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٧٧ .

وهما هذا الكاتب ولي التولية أحمد بن علي بن خيران صاحب ديوان
الإفتاء في عهد الظاهر والمستنصر ينشد شعراً يدل على أنه كان يفتشع ، ولكنه
كان يمارس الفاطميين في أمور ، فهو يقول :

أنا شيعي لآل المصطفى غير أني لا أرى سب السلف
أقصد الإجماع في الدين ومن قصد الإجماع لم يفتش التفت
لي بنفسى شغل عن كل من لهوى قرط قوماً أو قذى^(١)

ومهما يكن من شيء فقد كان تأثير العقائد في الشعر الفاطمي ولا سيما شعر
المدح الذي قيل في الأئمة واضحاً جلياً تراه في هذه النماذج من الشعر التي قدمناها ،
كما كان الشعراء من ألسنة الدعوة الدينية ، فقد سار شعرهم في البلاد ورواه الناس
واستفادوا منها في نشر المذهب ، وفي عصرنا الحديث لا تزال بعض قصائد
المؤيد في الدين تردد في المساجد ، فطاقة البهرة في الهند تردد إلى الآن قصيدة
المؤيد التي مطلعها :

سلام على العترة الطاهرة وأهلاً بأنوارها الزاهرة^(٢)
عقب صلاة الفجر كل يوم . ويرتلون قول المؤيد :

أبا حسن يا نظير النذير ولولا وجودك فأت التطير^(٣)
عقب صلاة التهجدة كل يوم ، وينشدون قصيدته التي مطلعها :

إلهي دعوتك سرّاً وجهراً أيا مالك الملك خلقاً وأمرأ^(٤)

عقب صلاة التواقل في رمضان ، ولا سيما في ذكرى مقتل علي . ويرددون
قول المؤيد أيضاً :

هلال بدا من خلال النجفة إمام زملان من النار جنة^(٥)

(١) مجموع الأدباء ج ٤ ص ١٠ (طبعة رفاقي)

(٢) القصيدة المأدية والأربعون من ديوان المؤيد .

(٣) القصيدة المأدية والأربعون .

(٤) القصيدة السادسة والمعروف

(٥) القصيدة الثامنة والشمسون

في أول كل شهر عربي . وهكذا يترنم طائفة البهرة بأشعار المؤيد شاعر
المستنصر الفاطمي وداعي دعائه على نحو ما يفضله الصوفية في ترتيب الأوراد .
على أن الشعر الذي يلم بالعقائد هو في أكثره شعر صنعة ، والشاعر كان
يمجد نفسه في أن يأتي في شعره ببعض العقائد ، وأن يلائم بين هذه العقائد
والألفاظ التي يختارها لشعره . ثم يوفق بين هذا كله وبين ضرورات الشعر ،
ذلك كله يدلنا على أن الشاعر كان يصنع شعره وكان ينفق جهدا كبيرا في إنشاد
الشعر . ولذلك نرى شعر العقائد أقرب إلى النظم منه إلى الشعر الجيد المجول .
ولا غرابة إذا رأينا في القصيدة الواحدة للشاعر الواحد لوفين من الشعر .
فالمقدمة التي كان يجعلها الشاعر قصيدته لون . والآيات التي بها العقائد لون آخر ،
يظهر في المقدمة فن الشاعر وطبيعته ، وتظهر في الآيات التي بها العقائد صناعة
الشاعر وتلاعبه . وقد أنجد شاعرا استطاع أن يوفق بين طبيعته وعقله .
أو بين فنه وعلمه . ومع ذلك كله فإن هذا اللون من الشعر الذي كثر في العصر
الفاطمي ظهر مرة أخرى في شيء من القوة في شعر الصوفية . وهو الشعر الذي
كاد يكون الشعر الرمزي في الأدب العربي — وسنرى ذلك في حديثنا عن شعر
الصوفية في العصور التي تلت عصر الفاطميين — وبكفي أن أقول الآن : إن
شعر الصوفية هو تطور شعر العقائد الفاطمية ، وكذلك تأويلات الصوفية هي
تطور لتأويل الباطن عند الإسماعيلية .

وأكثر الشعر الذي يتأثر بالعقائد كان في مدح الأئمة الفاطميين . هل أن
هناك شعراء مدحوا الأئمة ولم يقرروا العقائد من قريب أو من بعيد . بل كان
شعرهم في المدح صورة أخرى للمدح عند غيرهم من الشعراء . ولغير الفاطميين
من الأمراء ، فوصف بالجمال والكرم والشجاعة والسؤدد إلى غير ذلك
من الصفات التي جعلها الشعراء للمدحون . فمن ذلك قول الشاعر أبي الرضيم
في العزيز :

سعى الخيلام فاني	مضى بأهل الخيام
بالرايات فؤادي	بصايات السهام
لا عنب الله قلبي	إلا بطل النصارم

شفا لعمري قول	بشرقي وهزاي
كأنما ذلك الميع	ش كل في الأحلام
لم يبق من ترجمه	يه لحادث الأيام
إلا ابن أهد ذو الطو	ل والأياذي الحسام
كفاه أضيق حمودا	من واكفات الغلام
يلقى العفاء بوجد	ه مستبهر بسام
معظما ترجميه	لقائبات العظام
يرى الخطوب برأى	أعنى من الصمصام
قرم له عزومات	قل حد الحسام ^(١)

ففي هذه الآيات لا تجد معنى باطنيا في حاجة إلى تأويل ، ولا تجد مدحا في الإمام الفاطمي يختلف عن المدائح التي قال لغير الفاطميين ، فكل المدوحين عند الشعراء يصفون بالجلود والشجاعة وأصالة الرأي إلى غير ذلك من الصفات التي اعتاد الشعراء أن يذكروها ، وأن يصفوها بها الرجل اليوم ، وغدا يصفون مدوه بالصفات نفسها .

وفي قصيدة أخرى مدح أبو الرضق الإمام العزيز ، ولم يذكر شيئا في حاجة إلى تأويل باطنى ، فقد قال :

سيد شادت علاه له	في الملا آباؤه النجب
وله بيت يمد له	فوق مجرى الأنجم العنقب
حبه بالمصطفى شرقا	وعلى حين ينقب
رتبة في العز شاعة	قصرت عن مثلها الرتب ^(٢)

فكل هذه المعاني ليست باطنية ، والشاعر قد ثبت نسب الإمام إلى النبي صلى الله عليه وسلم وعلى بن أبي طالب ، وهذه المعاني تصلح أن يمدح بها كل شريف علوى .

(١) بحية الشعر ج ١ ص ٢٤٥ .

(٢) نهاية الأرب ج ٣ ص ١٩٤ .

ومن الغريب أن نرى أكثر مدائح الأمير تميم في أخيه الإمام العزيز باقة
على هذه المدائح المكررة المألوفة ، فهو يقول مثلاً بعينه بالعيد :

العيد في كل عام	يوم عيد سناه
وأنت في كل يوم	عيد يلوح علاه
ونعمة وسعود	للمتقين وجهه
يا من تصل العالي	إليه حين نراه
ومن ير اليتامى	من كل خلق سواه
لو كان الفضل يوماً	منى لكنت مناه
لأن منك استعار الز	مان حسن حلاه
فأنت شمس ضياء	وأنت بدر دجلاه
كفأك في كل سلم	صحاب صوب نداءه
وحسن رأيك في الحر	ب سيفه وقناه
فأنت بمنى يديه	وأنت أمضى طلباه
فاسلم لسحك يا من	يديم نحر عداه ^(١)

والأمير تميم يعني أخاه يوم من أيام الأعياد الدينية . ولكنه مع ذلك
كله لم يأت بمعنى واحد من المعاني الدينية التي كان الشعراء يقصدون إليها في مدح
الفاطميين ، ولو شاء الأمير تميم أن يأتي بالمعاني الباطنية في شعره لآتى بما يعجز
عنه غيره من الشعراء لأنه أقدر على معرفة أسرار العقائد الفاطمية فهو ابن إمام
وأخو إمام ، بل كانت الإمامة ستؤول إليه بعد أبيه ، ومع ذلك كله فالشاعر
هنا كان شاعراً غلب ، أراد أن يمدح الإمام فدحه بهذه المعاني المألوفة .
وفي قصيدة أخرى يقول تميم في مدح العزيز :

رأيت بعداً كالحسين وإنما	تطول على المولود إن أنجب الحمد
تعرب فيها مثلاً ذاب رقة	وظرفاً فا في وصف كنه له حد
به يشتقى السمع الأصم بلفظه	وتشتقى برؤيا وجهه الأعين الرمدم

(١) ديوان تميم « نسخة خطية بمكتبي »

كان ضياء الشمس رداء نوره
وليس يبالي أن يروح ويستدي
كأنك لا ترضى لنفسك خلة
ولست تبالي أن تروح ببيضة
ولولا احتمال النفس كل مشقة
حجبت منى شعري زمانا ولم يزل
وزعمته دمعرا فلما عززتي
كذا السيف لا تتخير العين عنقه
فسار بجدي فيك كل مهر
وصافت له عليك حنا وزينة
وليس لكل الناس يتحسن الثنا
وكم لك عندي من يد وصنيعة
فلا يجب الحسادى أن وددتي
رأيتك يفتى العنود حقدك كله
ولا توجد الجاني إذا زل بل له
وتجهد ما تولى يداك من التحدى
ولو كفر الصافون نهارك لم يكن
وتهز للسدح اهتزاز مهند
عليك صلاة الله ما لاح بارق

وهكذا يمضى الأمير تيم في مديحه للإمام ، قل أن نجد الشاعر يصف أعاء
بمصطلحات الفاطميين ، حتى يميل إلى أن الشاعر المؤيد في الدين الذى جاء بعد
تيم يزهاه قرن من الزمان لم يعجبه أن تكون مدائح تيم مثل مدائح غيره من
القصيدة ، فوضع المؤيد قصيدته التى مطلعها :

خلال بدا من خلال العجينة إمام زمان من التواريخ

وجعل هذه القصيدة جواباً لقصيدة تميم بن الحر التي مطلعها :
أسرب منها عن أم سرب عنه ~~سكتين~~ ولست عنه

وفي قصيدة المؤيد يعرض تميم بقوله :

سينمت فضلك مني اللسان إذا نمت النير توريد وجنه
وغير مديحك هو الحديث ومدحك دين وفضل وقطنه
لنخنها جواباً لنجل الحر وأسرب منها عن أم سرب عنه ،

فكان المؤيد ذهب إلى أن مديح تميم لا يليق بالإمام ، لأن الأمير تيمياً مدح
إمامه بالطريقة التي كان يمدح بها القدماء في الابتداء بالفضول ، ونمت الممدوح
بالجمال وورد وجنته إلى غير ذلك من الصفات ، على حين أن المديح عند
المؤيد هو من صميم الدين .

وأفتد على بن منصور المعروف بابن القارح قصيدة على وزن منهوك
أبي نواس يمدح فيها الحاكم بأمره ، منها قوله :

إن الزمان قد نضر بالحاكم الملك الآخر
في كفه صعب ذكر قد عدا على القصر
من غره على التمر يحصى كما يحصى القصد
في سرعة الطرف نظر أو السحاب المنهر
بادر إتفاق البدر بدر إذا لاح بهر^(١)

وقال محمد بن القاسم حاكم المعروف بصناعة الدوح في مدح الحاكم ، وقد
حدثت لؤلة في مصر :

بالحاكم العدل أضحي الدين محتلياً نجل العلا وسليل السادة الصلحا
مازلت مصر من كيد يراد بها وإنما رقصت من عدله فرحاً^(٢)
فأنت تقرأ هذه القصائد فلا تجد معنى من المعاني الباطنية ، ولا تجد أثراً
لصفات العقل الأول التي اعتاد شعراء الفاطميين أن يمدحوا بها أئمتهم .

(١) مجسم الأدباء ج ١٥ ص ٨٥ (طبعة رطامي) .

(٢) للرب ص ٨٥ ويقال إن الشاعر أنشدها في كنفور .

إذا نحن أمام لونين من المديح الذى قيل فى الأئمة ، اللون الأول هو ذلك الشعر الذى مدح فيه الشعراء الأئمة صفات هى من خصائص الفاطميين . وفى هذا الشعر يظهر أثر الفاطميين . اللون الثانى من المديح هو ذلك المديح الذى اعتاد الشعراء أن ينشدوه فى الملوك والأمراء ، وهذا اللون لا يظهر فيه إلا فن الشاعر فقط ، وقل أن نجد فيه أثرا للبيئة التى تحبب بالشاعر إلا من ناحية واحدة ، وهى الظروف التى أشد فيها هذا الشعر ، ولذلك نرى الشعراء الذى وفدوا على مصر ومدحوا الأئمة الفاطميين ينشدون شعرهم فى مصر كما كانوا ينشدونه فى أى بلد آخر من البلاد الإسلامية .

وكان الشعراء ينشدون الأئمة مدائحهم فى المواسم والأعياد التى كثرت فى العصر الفاطمى ، وكثيرا ما كانت هذه الأيام ، وكثيرا ما كانت المناسبات التى ينشد فيها الشعراء مدائحهم . ففى يوم فتح الخليج مثلا كان صاحب الباب يستأذن على حضور الشعراء للخدمة ، فيؤمر بتقديمهم واحدا بعد واحد ، وكل لهم منازل على مقدار أقدارهم ، فالواحد يتقدم الواحد بخطوة فى الإشادة^(١) ، وبما أشد فى هذه المناسبة قول ابن جرير :

فتح الخليج فسال منه الماء وطعت عليه الراية البيضاء
فصفت موارده لنا فكأنه كف الإمام فعرها بالإعطاء^(٢)

ومن الطريف أن المؤرخين يذكرون أن المصريين بلغوا فى ذلك الوقت درجة كبيرة من دقة الحس وتنوع الشعر وقده ، فإنهم لما سمعوا هذه الآيات اتفقوا فى قوله : فسال منه الماء ، وقالوا : أى شئ يخرج من البحر غير الماء ؟ وأن الشاعر أضعاف ما قاله بعد ذلك المطلع .

وفى هذه المناسبة أيضا أشد مسعود الدولة وكل مقدم الشعراء فى عصره :
ما زال هذا السد ينظر قومه إذن الخليفة بالنوال المرسل
حتى إذا برز الإمام بوجه وسطا عليه كل حامل معمول
لجرى كأن قد ديف فيه عتير يلوه كافور بطيب المنديل

ولكن هذه القصيدة أيضا لم تسبب السامعين إذ انتقدوا عليه أيضا قوله
في البيت الثاني وقالوا : « أهلك وجه الإمام بطولات المعاول عليه » (١) .
وأخذ الشاعر أبو العباس أحد في مناسبة قتح الخليج قوله :

لن اجتماع الخلق في ذا المنهد	لنيل أم لك يا بن بنت عم
أم لاجتماعك معا في موطن	وافيتا فيه لأصدق موعد
ليس اجتماع الخلق إلا الذي	حاز القضية منك في المولد
شكروا لكل منك لو فاته	بالسرى لكن ميلهم للأجود
ولن إذا اعتد الرقاء ففقه	بالقصد ليس له كن لم يقصد
هذا بيني ويسود ينقض تارة	وتسد أنت القنص إن لم يردد
وقواه إن بلغ النهاية قصرت	وإذا بلغت إلى النهاية تبدي
فالآن قد ضاقت صاالك سمية	بالسد فهو به بحال مقيد
فإذا أردت صلاحه فأقح له	لهوى جثا بأغصبا وثرى ندى
وألر بقصد العرق منه لاشكا	جسم فصح الجسم إن لم يقصد
واسلم إلى أمثال يومك هكذا	في عيش منبوط وعمر عخذ (٢)

فسمر المناسبات كثير جدا في العصر الفاطمي ، حتى إن الخليفة الحافظ مل
طول الشعر وكثره فأمر أن يختصر الشعراء مدائهم ، فلم يسبب ذلك الشعراء .
قال أبو العباس أحد بن مفرج الشاعر يخاطب الخليفة ويحده :

أمرتا أن فصوخ المدح عثمرا لم لا أمرت ندى كفيفك يختصر
واقه لا بد أن تجرى سواقتنا حتى بين لما في منحك الأثر (٣)

فكان الشعر يقصد في مواسمهم وأعيادهم وحفلاتهم التي كانت قام لأي حادثة
صغرت أم كبرت ، فإذا تم عمل شمسية البيت الحرام مثلا أخذ الشعراء ، من
ذلك قول الأمير تميم وقد تم عمل هذه الشمسية في عهد المعز لدين الله :
إليك ملت رقاها العرب والملك ماء طليك منسكب

(١) الهريزي ج ٢ ، (٢) المصدر السابق

(٣) الخريدة ورقة ١٠٩ ب وابن ميسر ص ٨٥ .

وأنت في دوحه النبوة لا	تألف إلا عداك الرب
الست من يرب الإله ولا	يصده عن حدوده سبب
وكلا قال به عزمه	بمنح لم يخالف العقب
فكذا يصح الملوك إذا	صالت ، وتنفى الخلقة الشهب
ويزدهى الدين بالمزدين الله	والمرهفات واليب
وكل دحرا عراجه دلا	صا ، والزماح والقضب
وهذه القصة التي ذخرت	فلم يسما الزمان والحقب
يا حبا ذعرك الزلال إذا	أمر دهر ، وعصرك الشنب
وحبذا القصة التي نصبت	يصر عنها المدح والمقطب
قايت اليد وهي حلة	وأخذت اليوم وهو متعب
ينب يا قوتها العيون فا	يكل الأمر حيث يتعب
دوائر أحيدفت بفرتها	أمة لا تحفها السج
كأنما دوما وجوهها	نعم ليل سائما نصب
فقطها الهندى وليه	ولن سخطن الكواكب العرب
في كبد المسجد الحرام بها	شوق ، وليت نحوها طرب
فلا تسمى بأهله زمن	إلا بما تشتهى وترقب
عليك صلى الإله ما طلعت	شمس ، وما انهل ما وضى لجب (١)

فبالرغم من أن المناسبة التي قيلت فيها هذه القصيدة هي مناسبة دينية ، وأن المدوح إمام المذهب لم يشأ الأمر تميم أن يلجأ إلى من الطائفة الفاطمية في هذه القصيدة ولكنه أشد الشعر للناسبة فقط ، فإذا تصفحتنا ديوان الأمير تميم نجد هذا الشاعر أشد أكثر قصائده في منح آية المر أو أخيه العزيز لمناسبات مختلفة فإذا قصد الإمام مدحه الشاعر ، وإذا شكنا من مرض مدحه ، وإذا سافر مدحه ، وإذا أهداه شيئا مدحه ، وذلك كله بجانب القصائد التي قيلت بمناسبة الأعياد .

على أن من المصريين من كان ينظر إلى الأئمة الفاطميين بعين الريبة ، فلم يستجب لدعوتهم وانسابهم إلى الرسول الكريم ، وظل محافظاً على مذهبه معتزلاً بخلافة الباسيين ، وظهر هذا في الشعر المصري ، فقد قيل : إن العزيز باقه وجد بطاقة على المنبر فيها :

إذا سمعنا نبأ منكرا يتل على المنبر في الجامع
إن كنت فيها تدعى صادقا فاذكر أبا بعد الأب الرابع
وإن ترد تحقيق ماقلته فانسب لنا نفسك كالطالع
أو فزع الأنساب مستودة وادخل بنا في النسب الواسع
فإن أنساب بني هاشم يقصر عنها طمع الطامع (١)

وقول الآخر في الحاكم ، وقيل بل في العزيز :

بالظلم والجور قد رضينا وليس بالكفر والحماة
إن كنت أعطيت علم غيب فقل لنا كاتب البطاقة

وقد رأينا الشاعر الحسن بن بشر العمشقي ، وقد هجا رجال العصر وعرض بالعزيز باقه ، وسرى كيف كان المصريون يهجون النصارى واليهود من كان إليهم بعض الدواوين في العصر الفاطمي ، قال الفاطميون بالرغم من اتخاذهم الدين وسيلة لتوطيد سلطانهم وتقوؤهم وادعائهم المصمة للأئمة . فإن بعض الشعراء لم يأبه بذلك ، وعرض بهذه المقائد وسخر بهؤلاء الأئمة

الأمير تميم بن المعز :

والآن نتحدث عن الأمير تميم الشاعر الذي ذكرناه مراراً وسنذكره مراراً فهو الأمير تميم بن المعز لدين الله الفاطمي ، وهو الشاعر الذي يقرن دائماً بالشاعر ابن المعز الباسي ، لما بينهما من تشابه ، فنكلا الشاعرين من بيت خلافة . وكلا الشاعرين من شعراء البديع . وكلاهما من أكثر من الوصف والمجون وكلاهما دافع عن عقيدته وحق ذويه في الخلافة ، فهما متشابهان في أمور كثيرة جعلت مؤرخي الأدب العربي يقرنون بينهما دائماً .

(١) ابن خلسكان ج ٣ ص ٤٠٤ ونبهجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١٦

ولد الأمير تيم بالمغرب وفيها نشأ مع إخوته عبد الله و نزار وعقيل ، وكان تيم أكبرهم سناً ، فلم يشك الناس في أن ولاية العهد ستكون له ، ولكن المعز لدين الله صرفها عنه إلى أخيه عبد الله ، ولعل السبب الذي من أجله صرف تيم عن إمامة الفاطميين هو ما عرف عن تيم من مجون ولجور ، فكان يشاع عنه وعن سيرته السيئة ما حدا بأمر صفية أحد بن الحسن الكلاني أن يستأذن المعز في أن يقتل أحد أبنائه لأنه كان يساير الأمير تيميا ويشاركه في أهوه وفسقه . ومحدثنا صاحب سيرة الأستاذ جوذر أن المعز أوسل إلى أمير صفية رد خطابه وفي هذا الخطاب ألم المعز وغضبه لما عرف عن تيم من فسق ولجور (١) ، ولما قمت مصر انتقل الأمير تيم إليها مع أبيه وباقي أسرته ، وفي مصر تزوج عبد الله (ولي العهد) بجمال المعز ولاية صهده إلى ابنه الثالث نزار الذي لقب بالعزيز ، ولعل لهذا هو السر فيما نراه من حزن دفين ظهر في شعر الأمير تيم إذ كان يمدح أمه الصغير العزيز بالله ، ولكنه لم يستطع أن يخفي ما في نفسه من آلام وشعور بحقوق غيظ ، كان يحاول إظهار تجلده وصبره ، ولكن عاطفته في الشعر هي عاطفة القاطن الحاقدا ، فهو يقول مثلاً من قصيدة في مدح العزيز :

تهون علي صفار الأمور ويصغر عني جميع الوزى
أنا ابن المعز سليل للملا وصنو العزيز إمام الهدى
وما احتجت قط إلى ناصر ولا رحت يوما ضعیف القوى
ولم أسقى في مسلم يشوب مشيراً أرى منه ما لا أرى

(١) نس ما ورد في سيرة جوذر ص ١٧٥ وما بعدها (نسخة خطية بمكتبي) .
ولا وصل أحد بن الحسن من صفية ، وكان واجدا على ولده طاهر لصحبته مع الأمير تيم .
وما عني من القول منهما فأراد قل ولده طاهر هذا إلا أنه استأمر الأستاذ (أي جوذر)
على ذلك وشاوره فيه ، فلم يجد الأستاذ بدا من أن يرفع ذلك إلى أمير المؤمنين (أي المعز)
فصرف إليه الجواب وهو :

« يا جوذر كثر إفاة من أولياتك مثل أحد فوافه ما كان يشبه عندنا ويصوره بغير صورته .
إلا بنى أبنائه الذين زينا لهذا الصبي الشقي ولده صبيد كان سبب عقوبته . ووافقه إن نوجنا
كنوجنا بمن لنا ، لكن ابن أحد يري فيا يستغل من الزمان ، ومديرتنا نحن لا يرمى .
إذ كان الحطة التي يرف الله مر وجلها أولادنا هي خلة الطهارة . ومن عندها كان كلاله »

لاكرام من اتعلا بادعاء ويعرض مجرح مستباح
فصل الجسد عن ضياحي وليل ومقبل وغدوق ورواحي
هل يمر السلا مقل وفعل وارتياحي لكسبا واقتراحي
هاكها كالمجمل في حلبة الفخر إذا كان غيرها كالنباح^(١)

وعقيل إذ أن بعض الرشا سورا بينه وبين أخيه العزيز ما جعل العزيز
يفض على الشاعر ، وجعل الشاعر يقتصل من وشاية الواشين ، فأخذ الشاعر
يتلس الأعذار ، ويقدم الاعتذار ، ويذكر الإمام بأنها شقيان . وأن على
الإمام ألا يستمع إلى أمثال هؤلاء الرشا . فأكثر قصائد المدح التي في الديوان
تتحدث عن هؤلاء الذين يسمون بالفساد بين الملك الصغير وأخيه الأمير الكبير .
ومن شعر الديوان نستطيع أن نعرف أن الأمير في مرة إلى عين شمس ونفي
مرة أخرى إلى الرملة بفلسطين ، فكان يرسل إلى إخوانه وأصدقائه مقطوعات
من الشعر يثمن فيها شوقه إليهم . ويشكو غربته التي اضطرت إليها اضطراراً . فقد
أشد في عين شمس :

أما كفى الحب شوق مومج وأسى مبرح يقطع الأحشاء والكبداء
حتى رى العين بالتفريق أفتنا وحل من وصلنا ما كان قد عقداء
فأه من لوعة مشوبة وجوى في الصدر لم يبق لي صبرا ولا جلداء
قالت وعبرتها مغلطة بدم تجري وأقامها مرفوعة صمدا
لا تطلب النطق مني بالسلام فإ أبقى فراقك لي دوعا ولا جسدا
فقلت ملثما من محن وجنتها وردا ، ومرتضا من ثمرها بردا
وطاويبا في الحشا متاريس هوى لا أحسب الدهر يبل عهد أبدا
وأفشد وهو في الرملة وأرسل بها لي بعض أهل في القاهرة :

أنتم في المتام حلبي وأنتم في انقباضي سؤلي وأنتم مرادى
كل عضو مني إليكم مشوق زائد شوقه على الانبعاث

لم أفرقكم ولكن جسي . بان عنكم وحل فيكم قوداي
فهبتا لكم وقائ عليكم وهبتا لمن طول السهاد
كلنا حتى اشتياقي إليكم قت ليك أنت نعم المنادي

وكان الأمير تيم في مصر يشارك المصريين لهوم ويخرج إلى متزهاتها ،
ويصيح في أديرتها ، وأنفذ في ذلك كله شعرا — ستحدث عنه في فصل آخر
من هذا الكتاب — وشعره إن دل على شيء فأنما يدل على رقة شعوره ،
ورقة العاطفة وصدقها . وتوفي هذا الشاعر سنة ١٢٧٤ هـ .

الفصل الثالث

الشعر والوزراء

كان المرز باق أول خليفة فاطمي اتخذ له وزيراً ، وكان الوزير يعقوب ابن كلس أول وزير في الدولة الفاطمية ، ففي رمضان سنة ثمان وستين وثلاثمائة تقيبه المرز بالوزير الأجل ، وأمر ألا يخاطبه أحد ولا يكاتبه إلا بهذا اللقب ، فحفظت مكانته حتى كتب اسمه على الطرز في الكتب (١) . فكان هذا المركز الخطير الذي شغله ابن كلس في هذه الدولة الفتية إذ ذاك من الأسباب التي جعلت الشعراء يسعون إليه وينشدون الشعر في مدحه ، وقد رأينا من قبل كيف كان ابن كلس أحد العلماء المبرزين ، وكيف كان يلقي علوم الدعوة وغيرها على الناس ، وكيف كان يؤم مجلسه عدد من القضاة والفقهاء والشعراء ورجال الدولة يستمعون إلى دروسه ، ويتناقشون بين يديه ، أضف إلى ذلك كله أنه كان كريم اليد يعلو ويحزل العطاء ، فلا غرو أن كان الشعراء يلتفتون حوله ويكثرون من مدحه . مدحه أبو الرضصن وعبد الله بن محمد بن أبي الجحوج ، والأمير تميم بن المعز وكثير غيرهم من شعراء عصره الذين قد شعرهم وضاعت ألسنتهم مع ما ضاع من الأدب الفاطمي ، وقد ذكرنا أن الشعراء الذين رثوه بلغوا مائة شاعر ، فمن هؤلاء الشعراء ؟ وأين شعرهم ؟ الجواب عن ذلك أولاً : عند رجال الدولة الأيوية الذين حملوا على عز كل أنز على أو أدب الفاطميين لخلاف مذهب الدولتين ، وثانياً : عند المؤرخين والكتاب من أهل المشرق الذين كانوا يدينون بالحقاء العباسيين فأجروا أن يرووا شيئاً عن شعراء مصر الفاطمية ، وثالثاً : عند الأتراك الذين دان لهم العالم الإسلامي مدة طويلة فأطاحوا بمضارعتهم من أرق المضارعات التي شاعها العالم وشاعها تاريخ الفكر البشري وهما المضارة البيزنطية والمضارة الإسلامية ولم يستطع الأتراك أن يقيموا حضارة

(١) خطط المرزى ج ٢ ص ٨ وصرح الأملى ج ٢ ص ٤٨٣ .

أخرى تقوم مقام هاتين الحضارتين ، ولكن الأثر اك شديدي التمسب للذهب
السي فأنزلوا قسنتهم على كل ما هو شبي ، أضف إلى ذلك كله الجماعات الكثيرة
والاضطرابات المدينة التي سببت عنها عديده مصر ، ووصفها المقرري في كتابه
« إغاثة الأمة بكشف الغمة » ، فقد كانت من أشد العوامل في ضياع كتب كثيرة
من كتب علماء الفاطميين ودواوين شعراهم ، وهكذا تضاعفت قوى عديدة
لإبادة العلوم والآداب في العصر الفاطمي ، حتى إن الذي بقى من هذا كله أصبح
مثيلا قائما بالنسبة لما كان في صدر الزمان . فقد بقى لنا جزء من قصيدة لأبي
الرقص في مدح ابن كلثوم هي :

لم يدع العزيز في سائر الأور	من عدوا إلا وأخذ ناره
فلماذا اجتباه دون سواء	واصفاه لنفسه واختاره
لم تقيد له الوزارة مجدا	لا ولا قيل رفعت مقداره
بل كساما وقد تغرما البحر	جسلا وبهجة ونضاره
كل يوم له على نوب الحجر	وكر الخطوب بالينل غاره
ذو يد شأنها الفرار من البند	ل وفي حومة الوغي كراهه
هي قلت عن العزيز عناء	بالعطايا وكثرت أفصاه
هكذا كل فاضل يده تسمى	وتضحي تقاعة نضاره
فاستجره فليس يأمن إلا	من بقاء بطله واستجاره
لماذا ما رأيت مطرقا به	حل فيها يريد أفكاره
لم يدع بالذكاء والنهن شيئا	في ضمير النيوب إلا آثاره
لا ولا موحنا من الأرض إلا	كان بالرأى مدركا أقطاره
زاده الله بسطة وكفاه	خوفه من زمانه وحذاره (١)

قال الشاعر في هذه الآيات مدح الوزير ، ولكنه كان يذكر الإمام الفاطمي
كلما رسمه فنه ومواهبه في الشعر فهو لم يستطع أن يغفل الإمام من قصائده ،
وذلك لقوة الإمام والخلافة الفاطمية إذ ذاك والوزير نفسه لم يكن ليصدر أمرا

قبل أن يطالع الإمام به ويستأذنه فيه . وعرف الشعراء ذلك فكانوا يتقربون
لوزير حتى يتقربوا به للإمام ، فدح الوزير كان وسيلة إليهم وهي الاتصال
بالإمام ، هكذا كان أمر الشعراء مع جميع الوزراء في القسم الأول من العصر
الفاطمي ، وهو القسم الذي كان الأئمة فيه يسرون مرافق البلاد ، ويمتارون
الوزراء لمساعدتهم في تنفيذ ما كانوا يصدرونه من أحكام وقوانين ، وكان أكثر
وزراء ذلك العصر من رجال القلم أمثال الجرجاني واليازوري وابن الخزي
والبجلي وغيرهم من الكتاب . ليس معنى ذلك أن الشعراء أقروا أنفسهم في
الوزراء في مدحهم فن الشعراء من جهة الوزراء كالنبي رأينا من جهة ابن كلي .

وهما أبو محمد القاسم الرسي بقوله .

توق معز الدين شؤم ابن كلس ولا تقبلن منه مقال مدلس
فأنا أردناه لكافور شربة فواد على تحريرنا أنف مجلس^(١)

وكذلك روى أن الشاعر جاسوس هلك بها الوزير علي بن أحمد الجرجاني
وزير الظاهر لإعزاز دين الله ، وكان هذا الوزير أطلع اليمين بسبب خيانة
ظهرت عليه أيام الحاكم . فلما ولي الوزارة استعمل العفاف والأمانة ولكن
ذلك لم يمنع الشاعر من أن يقول فيه :

يا أحقا اسمع وقل ودع الرقاعة . والتحامق
أأنت نفسك في التقا ت ، وهبك فيما قلت صادق
فمن الأمانة والتقى قطعت بذلك من المرافق^(٢)

وقال الشاعر الحسن بن عاقان في جهة الوزير الفلاحى وزير المستعمر .
حجاب وإعجاب وقرط تصلف ومد يد نحو الملا متكاف
فلو كان هذا من وراء كفاية صدوقا ولكن من وراء تحف^(٣)
ونحن نعلم أن الفلاحى كان يهوديا وأسلم ، وأن أباسعد التستري مذنب

(١) القيمة ج ١ ص ٣٣٠ (٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٦٧

(٣) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٥٢

الدولة إذ ذاك كان يهوديا وذلك قال أجد الشراء :

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهم ومنهم المستفاد والمالك
بأهل مصر إلى نصحت لكم يهودوا قد يهود الفلك (١)

ولكن بعد أن ضعفت الخلافة الفاطمية في عهد المستنصر، وحلت بالبلاد
تكة عدة العظمى. اضطر المستنصر إلى أن يستعين برجال السيف وأن يتخذ
منهم وزراء له. وأول هؤلاء الوزراء السيد الأجل أمير الجيوش سيف
الإسلام ناصر الإمام كافل قضاء المسلمين وعادى دعاة المؤمنين أبو نجم بدر
الجلالي. تولى هذه المراتب سنة ٤٦٦ هـ ولكنه لم يلبس خلع الوزارة إلا سنة
٤٦٨ هـ، وصار صاحب الكلمة النافذة في البلاد التي كانت عاصمها الفاطميين،
وأصبح الإمام الفاطمي شب أسير في يدى الوزير، وظل بدر الجالى في منصبه
إلى أن توفى سنة ٤٨٧ هـ قبل المستنصر الفاطمي بأشهر، فتولى الوزارة بعده
أبيه القاسم شافهه الأفضل، وفي عهده بلغت قوة الوزارة وسلطانها أعلى
الدرى حتى إنه بعد وفاة المستنصر سنة ٤٨٧ هـ لم يبقا بقيدة من أم حقايد
الفاطميين في الإمامة، حتى النص على من على الإمامة، إذ الإمام لابد أن ينص
قبل وفاته على خليفته، وأن يبلغ ذلك إلى حجة وجميع الوزراء، ولكن
الأفضل بن بدر الجالى أنى أن يجعل الإمامة إلى صاحب النص، وهو نواز بن
المستنصر، وجعلها إلى المستنصر بالله وهو ابن أخته وكان صغير السن وبذلك
انقسمت الدعوة إلى فرعيها الزارية والمستغلية، وكان هذا الانقسام من أم
الأسباب التي أدت إلى ضعف الدولة الفاطمية، والخلافة الفاطمية، وانخفضت
هبة الإمام بين الناس وشك في إمامته بعض الأنبياء والأشياء، ومهما يكن من
شئ فقد أصبحت الوزارة هي القوة المحركة للبلاد كلها فاتجه الشراء إلى الوزراء
مستحسنهم وبأخذون مبالغهم وصلاتهم، ونقبه الوزراء في مذهم بالآل
فأسرفوا في كل ما يوجب لهم الشهرة والسرور معا، وأحاطوا أنفسهم بهالة.

أبهة الملك وألقابه؟ واتخذوا لأنفسهم حاشية هي أشبه شيء بحاشية الملوك والسلطانين ، وعقدوا مجالس الشعراء على نحو ما كان يفعله خلفاء بني العباس والأئمة الفاطميون إبان قوتهم وسلطانهم ، فانتقل أكثر الشعراء من مدح الأئمة إلى مدح الوزراء .

وكان من الوزراء من يشدد الشعر ، فالأفضل بن بدر الجماري كان شاعرا ، ومن شعره قوله في غلامه تاج المعالي

أقضيبي يمس أم ، و قد وشقيق يلوح أم هو غد
أنا مثل الهلال سقا عليه وهو كالبدريح وأفاهـ (١)

ومن قوله أيضا في جارية له أمر بضرب عنقه لأنه رآها تطلع إلى الطريق ، وكان شديد الغيرة على نسائه فلما جرى له برأسها قال :

نظرت إليها وهي تنظر ظلها فزمت نفسي عن شريك مقارب
أغار على أعطافها من ثيابها حذاراً ومن مسك لها في الثواب
ولي غيرة لو كان البدر مثلها لما كان يرضى باجتماع الكواكب (٢)

فهذه الآيات التي بقيت لنا من شعر الأفضل تدل على رقة شعور وقندة على التعبير عما يخالج النفس من عاطفة شديدة .

وكان الملك الصالح طلائع بن رزيق جيد الشعر ، وكان يثيب على شعر الشعراء (٣) وكان شاور ووفده الكامل وخرطام ممن ينفذون الشعر — ويستحدث عنهم جميعا بحد قليل — فهؤلاء الوزراء الشعراء استطاعوا أن يكونوا لأنفسهم حاشية من الشعراء هي أشبه بحاشية الأئمة الفاطميين إبان سلطانهم الفعلي ، فكل الشعراء من مصريين ووافدين اتصلوا بهم وهدحوم .

فمن وفد على مصر الشاعر علقمة بن عبد الرزاق المليسي ، وفد على بدر الجماري ، ويقول علقمة : قصدت بدر الجماري فرأيت أشراف الناس وكبراهم

(١) أخبار مصر لابن ميسر ص ٦٠ .

(٢) ابن ميسر ص ٦٠ .

(٣) الذبكت ص ٥٥ .

وشعراءم حل ياب قد طال مقامهم ، فلم يصلوا إليه ، فبينما أنا كذلك إذ خرج
بدر يريد السيد فخرجت في أثره وأقت معه حتى رجع من صيده ، فلما قاربني
وقفت على قل من الرمل ، وأومات برقعة في يدي . وأنشدت :

نحن التجار وهذه أعلقنا در ، وجود يمينك المتابع
قلت قفها بسمك إنها هي جوهر تختاره الأسماح
كدد علينا بالثام وكذا قل التفان تطل الصناع
فأناك يصلها إليك تجارها ومطيا الآمال والأطام
حتى أناخوها بياك والزجا - من دونك الثار والبياع
فوهبت ما لم يسطه في دهره هرم ولا كعب ولا انتفاع
يابد أقسم لوبك اعتصم الوري ولجوا إليك جيمهم ما ضاعوا^(١)

الأفضل وشعراؤه

ويعد عهد الأفضل بن بدر الجمالي من أزهى العصور الأدبية التي شاعتها
مصر الإسلامية ، فقد اتصل به عدد كبير من الشعراء ، فذكر منهم مسعود
البلخي وأبا علي حسن بن زيد ، والقاضي ابن النضر المعروف بالأديب ، والناجي
المصري ، وسالم بن مفرج بن أبي حنيفة ، ومحمود بن ناصر الإسكندراني ،
ومروان بن عثمان الكوفي ، وابن البرقي ، وظافر الحداد ، وأمينة بن أبي الصلت ،
وغيرهم من شعراء الحريفة . ومن الشعراء الذين ذكروا أمية في رسالته الموسومة
« بالرسالة المصرية » وقد ذكرنا كيف كان الأفضل يحزل المعطاء للشعراء ،
ويجلس إليهم يستمع إلى أشعارهم وروايتهم للشعر . ولعل « الرسالة المصرية »
من أقوم الكتب التي تعطينا صورة صحيحة عن تلك الحياة الأدبية التي كانت
بمصر في عهد الأفضل ، ومؤلف هذه الرسالة هو أمية بن أبي الصلت .

أمية بن أبي الصلت ورسالته المصرية :

لم يكن أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت معربا ، إنما هو أندلسي وقد حل
بمصر في عهد الأمر بأحكام الله ، واستطاع أمية أن يتصل بالأفضل ، وكان سبب

هذه الصلة هو الأمير مختار تاج العالي - وكان في منزلة قريبة جداً من الوزير - فاقبل به أمية مادما وقربه الأمير مختار، وكان أمية يجتعه أيضاً بصانعي الطب والنجوم، فأنس به تاج العالي كما أنس منه العلم والفضل، وكان جمهور المتقنين من المصريين قد التفوا حول أمية يأخذون عنه العلم والآداب، فقدمه تاج العالي إلى الوزير وأثنى عليه، وذكر للوزير ما سمعه من أعيان العلماء وإجماعهم على تقدمه وتجرده عن كتاب وقته. واشتدت صلة أمية بالوزير، ولكن الحساد من الكتاب المصريين للوزير أبوا أن تستمر علاقة أمية بالفضل، فأخذوا يتحينون الفرص للإيقاع بأمية حتى واثمت الفرصة، ذلك أن الوزير قلب ظهر الحق لتاج العالي واعتقله، فوجد الكتاب السبيل للنيل من أمية فوشوا به لدى الأفضل لحبه بالإسكندرية مدة ثلاث سنين وشهر، إلى أن شفع فيه بعض وجوه المصريين، فأطلق سراحه وسار إلى المغرب واتصل بالمرقسي إلى طاهر يحيى بن تميم صاحب القيروان وحظي عنده وحسن حاله إلى أن توفي بالمهدية سنة ٥٢٩هـ^(١).

استطاع أمية أثناء إقامته بمصر أن يدوس مصر والمصريين، وأن يعرف أحوالهم وطبقاتهم وطبائهم، وأن يتحدث عن ذلك كله في الرسالة التي عرفت «بالرسالة المصرية»، وصف فيها مصر جغرافياً، وعرض لبعض المدن المصرية، وتحدث عن النيل ومناخه وزيادته وقصائمه، وروى شيئاً عما قيل في النيل من شعر، وما أفتد في مهرجان الخليج مما قاله القنما. ومما صروه، فستطيع أن نجد هذه الرسالة القيمة من الكتب القليلة المستعارة وصلتنا عن هذا العصر، كما أنها مجموعة لأشعار بعض من اتصل بهم أمية في مصر أو من حفظ لهم شيئاً من الشعر من المصريين. أضف إلى ذلك كله أن أمية ذكر في هذه الرسالة بعض علماء أهل مصر في ذلك الوقت، ولا سيما من كانوا يتعاملون معانق الطب والتنجيم، يقول أمية عن المصريين: والمصريون أكثر الناس استمالة لأحكام النجوم وتصديقاً لما توعدوا عليها وشغفاً بها وسكوناً إليها، حتى إنه بلغ من

مر (١) واجع ترجمته في ميون الأنا. ج ٥٢. وسيم الأعيان. ج ٢ ص ٣٦١ وابن خلكان ج ٣ ص ٨٠.

زيادة أصرم في ذلك إلى أنه لا يتحرك حركة من حركاتهم الجزئية التي لا تنحصر قوتها ولا تحصل أجزاءها وأنحاءها ولا تضبط جهاتها ولا تقيد غاياتها ولا تعدد ضرورها إلا في طوابع يختارونها^(١). ويقول عن أطباء مصر في ذلك العصر: «وأكثر أطبائها المزرقين نصارى أو يهود»، وفي ذلك يقول بعضهم:

أقول للبلين طربا تبغون في طبها اشتجارا
هيئات حاولتم محالا كونوا إذن هودا، أو نصارى^(٢)

وبعد ثنا عن بعض الشعراء الذين كانوا يبيدون عن الحضرة فقال عن القاطن على أبي الحسن بن النضر، المعروف بين أهالي الصعيد الأعلى بالأديب: «ذو الأديب الجم، والعلم الواسع، والفضل البارع، وله في سائر أجزاء الحكمة اليد الطولى، والرتبة الأولى». وقد كان ورد الفسطاط يلتبس من وزيرها الأفضل تصرفا وخدمة، غلب فيه أمه، وضاع رجؤه، فقال يمانب الزمان:

بين التمرز والتذلل سلك	بأدى المنار لعين كل موفق
فأسلك في كل المواطن واجتنب	كبر الآي وفيه المتعلق
وقد جلبت من البضائع خيرها	لأجل مختار وأكرم متق
ودجرت خفض العيش تحت ظلاله	لا بد أن قفقت وإن لم تنفق
ظنا شيئا باليقين ولم أقل	لأن الزمان بما سقاني مشرق
ولمائي بالحرص قول بين	لو كنت تحت سحابة لم تطرق
ما ارتفعت إلا خير مرئاد ولم	أصل الزهراء بجبل غير الأوثق
وإذا أبي الرزق القضاء على امرئ	لم يكن فيه حيلة المستزق
ولعمرو عادية الخطوب وإن دمت	خطى بهم تشقت وتقرق ^(٣)

ويذكر شعراء آخرين من أهل الصعيد مثل أبي شرف الدرجاوى المنسوب إلى قرية دجرجا بالصعيد، والشاعر أبي الحسن علي بن البرقي من أهل

(١) الرسالة المصرية نسخة فخرافية بدوا المكتب المصرية . (٢) المصدر السابق .

(٣) الرسالة المصرية

فوص وغيرهما ، فالسيرة المصرية مرآة صادقة للحياة الأدبية في مصر أوائل القرن السادس للهجرة .

كان أمية أستاذاً لبعض المصريين ، وذكر ياقوت أن من تلاميذ أمية الذين تلقوا عنه العلم ورووا شعره أبو عبد الله القاسم الذي ظل مخلصاً لأستاذه ، وكان يتردد عليه إبان نكبته وسجنه ، وينقل ياقوت عن أبي عبد الله القاسم : وكنت أختلف إليه إذ ذاك فدخلت إليه يوماً فصادقته مطرقة ، فلم يرفع رأسه إلا على العادة ، فسأته فلم يرد الجواب ، ثم قال بعد ساعة : اكتب . وأقصدني :

وكان لي سبب قد كنت أحسني أحظى به ، فإذا دأى هو السبب
فما مقام أظفاري سوى قلى ولا كتاب أعدائي سوى كتبى

فكثبت عنه رسالته فقال : إن فلانا تليدنى قد طعن في عند الأمير الأفضل (١) : ويرى ياقوت أيضاً أن الشيخ سليمان بن الفياض الإسكندراني كان ممن أخذ العلم من أمية وروى عنه (٢) ، وكان لأمية عدد من الأصدقاء : فطليعتهم ظافر الحداد الشاعر الذي صادقه بالإسكندرية وحزن لسفره وبعده عن مصر ، فأرسل إليه قصيدة يشكو فراق الصديقين ويذكر أمية بالأيام التي قضياها معاً ، والقصيدة هي :

ألا هل لدأى من فراقك إفراق هو السم لكن في لفائفك ترياق
فيا شمس فضل غربت ، ولضوئها على كل قطر بالمشارق إشراق
سقى العهد عهداً منك هو عهد بقلى عهد لا يضيع وميثاق
يمده ذلك الحلق المجلول الزفير طراذه وريقاً كثرنا من الأيك أوراق
تقدحنا ثنى ياباً بالعلى مذناً وأكثر أخلاق الخليفة إخلاق
إذا عزى لطفاً ما بدمامى ديارك من دأري هموم وأشواق
سحاب يمدحها زفير يجره جرت ولها ما بين جفنى إحراق
وقد كان لي كنز من الصبر واسع خلال التراق والترائب تشهاق
فلى منه في صعب التوائب إنفاق

وسيف إذا جردت بعض غرارة
 لى أن أبان البين أن غراره
 أخى، سيدى، مولاي. دهوق من ص
 لن بدت ما بيننا شقة النوى
 ويد إذا كلفتها العيس نصرت
 فتدلى لك الود الملازم مثل ما
 ألا هل لا يامى بك الغرودة
 ليلى يدنينا جواب أعادنا
 وما بيننا من حسن لفظك روضة
 حديث، حديث كلما طال، موجر
 يرجه بحر من علومك زاهر
 معان كأطواد الشواخ جولة
 به حكم مستنبطات غرائب
 فلو عاش وسطا ليس كان له بها
 فيا واحد الفضل الذى العلم قوته
 لن نصرت كتبى فلا غرو إنه
 كتبت وأفقت البحار تردما
 بحار بأحكام الرياح فأنهسا
 ومن لى أن أحظى إليك بنظرة

لجيش خطوب صدها منه إرداق
 غرور، وأن الكثر قروا ملق
 فما وليس له من رق ودك إعتاق
 ومطر طامى القوارب خفاق
 طلائع أنضاما زميل وإعتاق
 يلزم أعتاق الخاتم أطواق
 كمهيدى، وثفرات ترأشفت براق
 من القرب كالصنوبر خيمها ساق
 بها حدثت منا المسامح أحداق
 مفيد إلى قلب المحدث سباق
 له كل بحر قانص العج رفاق
 تضمنها عذب من اللفظ غيداق
 لأبكارها الغر الفلاس عشاق
 غرام وقلب دائم الفكر ترواق
 وأهلوه مشتاق يشم وذواق
 لعائق عند المقادير أوقاق
 فإن لم يكن ود على فإغراق
 مفاتيح فى أبراجين وأغلاق
 فيسكن مقلق ويرفأ مهراق^(١)

فهذه القصيدة التى بعث بها ظافر الحداد إلى صديقه أمية بن أبى الصلب إن
 دلت على شئ. فإنما تدل على مبلغ ما كان يكنه ظافر لصديقه من وقار وإخلاص
 وود، وما كان عليه أمية من حلم وفضيل، وما كان عليه الصديقان من
 صناء ووفاء.

أما علاقة أمية بالوزير الأفضل بن بدر الجمالى، فيقول القفلى: «ودخل

(١) عيون الأنبا. لابن أبى أمية ج ٢ ص ٥٤ (طبعة مصر ١٨٨٢ م).

مصر في أيام أفضلها فلم ينل منها فضلا ، وقصده للتيل فلم يجد لديه منوالا ،^(١) ولكنى أشك في قول القفطى وأزعم أن الأفضل قرب إليه أمية ، وأجزل له العطاء ، فأشعار أمية في الأفضل أكبر دليل على أن العاصركن يعيل إلى الأفضل ، وكان الأفضل يعول له التوال . فن شر أمية في الأفضل قصيدته التي أنشدتها يذكر تهريده الساكر إلى الشام لمحاربة الصليبيين بعد انهزام عسكره في الموضع المعروف بالبعة ، وكان قد اتفق في أثناء ذلك أن قوما من الأجناد وغيرهم أرادوا الفتك بالأفضل ، فوقع على خبرهم ، وقبض عليهم وقتلهم ، والقصيدة هي :

هي المزامن من أفسارها القدر	هي المزامن من أفسارها القدر
جرت للدين والأسياف مضمة	جرت للدين والأسياف مضمة
وقت إذ قد الأملاك كلهم	وقت إذ قد الأملاك كلهم
بالبعض تسقط فوق البيض أنجمها	بالبعض تسقط فوق البيض أنجمها
بيض إذا خطبت بالنصر السها	بيض إذا خطبت بالنصر السها
وذبل من زجاج الخط مشرفة	وذبل من زجاج الخط مشرفة
يشق بها غمرات الموت أسد شرى	يشق بها غمرات الموت أسد شرى
حستهم إذا سلوا سيوفهم	حستهم إذا سلوا سيوفهم
قوم تطول ببيض المند أذرعهم	قوم تطول ببيض المند أذرعهم
إذا اتعنوا وذيل القمع فوقهم	إذا اتعنوا وذيل القمع فوقهم
نرتاح أنفسهم نحو الرغى طربا	نرتاح أنفسهم نحو الرغى طربا
وإن هم نكسوا يوما فلا عجب	وإن هم نكسوا يوما فلا عجب
العود أحد الأيام ضامنة	العود أحد الأيام ضامنة
وربما سامت الأقدار ثم جرت	وربما سامت الأقدار ثم جرت
الله دان بك الأيام من ملك	الله دان بك الأيام من ملك
قد بأك والألباب طائفة	قد بأك والألباب طائفة
والعجاج على من اتقنا ظل	والعجاج على من اتقنا ظل

(١) أخبار الحكماء ، ص ٥٧ (الطبعة الأولى بمصر ١٣٢٦ هـ) .

إذ يرجع السيف يدي خده طقا
 وإذا تعد سد السيف منفردا
 أما يهوك ما لاقيت من عدد
 هي السباحة إلا أنها سرف
 الله في الدين والدنيا فإلها
 ودام كيدك أقول وما علوا
 ميات أين من الميوق طالبه
 لن الأسود لتأني أن يروها
 أمر نوره ولو هوا به وقوا
 فحرب بسيفك من ناولك متقا
 ما كل حين ترى الأملاك صالحة
 ومن ذوى البنى من لا يستبان به
 لن الرماح حصون يستظل بها
 ليس يصيح ثعل الملك متظلا
 والراى وأيك فيها أنت قاعله
 أهي شهقاه حيث لندى غدتا
 الطاهن الألف إلا أنها نسق
 ملك تبوا فوق التجم مقمده
 يرعى نداء ويمشى ضدى سطوته
 ولا سمحت ولا حدثت عن أحد
 ولا بصيرت بشمس قبل غرته
 يا أيها الملك السامى الذى ابتجعت
 جدتك من كلم الحاكي حبرة
 هي اللالى إلا أن ناظمها
 تنق وتغيب أشتار ملففة
 ولم أظلمها لأنى جد معترف

كصفحة البكر أدى خدما الحفر
 ولا يصدك لا جبن ولا خور
 سيان عندك قل القوم أو كنزوا
 هي الشجاعة إلا أنها غرور
 سواك كهف ولا وكن ولا وذر
 ان الذى خطرات بعضها خطر
 لو كان سد منه القنكر والنظر
 وسط العرين غلباء الزبرج العفر
 كرقعة العى لاورد ولا صدر
 لن السيوف لأهل البنى تدخرو
 عن الجرائر تغفرو حين تقتدرو
 وفي الذنوب ذنوب ليس تغفرو
 وما لهن سوى عام المدام ثمر
 إلا بحيث ترى الهامات تقترو
 وأنت أدري بما تأتى وما تنفرو
 كل البلاد إلى سقياء تغتفرو
 والواهب الألف إلا أنها بدر
 فكيف تطمع في غاياته البشر
 كالنهر يوجد فيه النفع والضرر
 من قبله يهب الدنيا ويستندرو
 إذا تامل سناها أصدق المظرو
 به البالى وفر البدو والحضر
 تطوى لبيحتها الأبراد والخبر
 على الضمير ومن غواصها القنكر
 أولى بقائلها من قولها الحصر
 بأن كل عليل فيه مختصر

بقيت الدبر والدنيا ولا عدت أحياد تلك الحال هذه الدرد^(١)
ويذكر المؤرخون أن أمية أرسل وهو في سجنه قصيدتين إلى الأفضل
يحميه بهما . الأولى لامية مطلقا .

الشعر دونك في المحل والطيب ذكرك بل أجل
والثانية بائية مطلقا :

نسخت غرائب مدحك التشييبا وكفى بها غولا لنا ونسيبا^(٢)
وفي هاتين القصيدتين يتحدث الشاعر عن أيامه مع الأفضل ، وأيادي
الأفضل عليه ، ومدائح أمية فيه ، ويستدل إليه من أقوال الوشاة والحاسدين
الذين أغرو الوزير به حتى سجنه من غير جرم ارتكبه ، فثل هذه الآيات
التي أشدها أمية في الاعتذار عن وشاية الواشين ، تدل على أن صله الوزير
بالشاعر كانت صلة قوية . وأن الشاعر كان مقربا للوزير لحسده الناس ، وأن
الشاعر مدح الوزير فأعطاه الوزير صلات ، ومع ذلك ترى القفطى يدعى أن
الوزير لم يسط الشاعر شيئا ، ويحيل إلى أن القفطى اتهم الأفضل بذلك لأنه
حبس الشاعر مدة طويلة .

ومهما يكن من شيء فقد مكث أمية عدة سنوات في مصر ، اتصل فيها
بالحياة المصرية . وشارك المصريين في أعيادهم وعفلاتهم . وأشد في ذلك شعرا
حفظ بعضه وضاع أكثره . فحافظ من ذلك قوله في النيل من قصيدة
كتبها إلى الأفضل ليلة المهرجان :

أبدعت للناس منظرا عجبا لازلت تحيي السرور والطربا
ألفت بين الضندين مقتدرا فمن رأى الماء غاطط القبا ١١
كأنما النيل والشموع به أفق سماء تألفت شيئا
قد كان من فضة نصار سماء وتحسب النار فوقه ذهبا^(٣)

وخرج إلى المتنزهات المصرية كما كان يفعل غيره من أهل مصر عامة

(١) طبقات الأطباء لابن أبي شيبة ج ٢ ص ٥٦ .

(٢) الرسالة للمصرية .

(٣) طبقات ج ٢ ص ٥٢ .

والشعراء خاصة ، ووصف بعضها بالثغر وبالشر . فن ذلك قوله في يركة الحبش : فافترشنا من زهرها أحسن بساط ، واستطلقنا من دوحها بأوراق ، وطلعت علينا من زجاجات الأقداح غموس في خلع البدور ، ونجوم بالصفاء تنور ، إلى أن جرى ذهب الأصيل على لجين الماء ، ونشبت نار الشفق بجمجمة الطلاب . فقال في ذلك بعضنا (ويقصد نفسه) :

فه يومى بركة الحبش	والأفق بين الضياء والنش
والليل تحت الرياح مضطرب	كهارم في بين مرتهش
قد نسجتا يد الغمام لنا	فنحن من نسجها على فرش
ونحن في روضة مفوقة	ديج بالنور عطفها ووشى
فما طنى الراح إن تاركها	من سورة الهم غير متعش
واسقى بالكبار مترعة	فهن أشنى لشدة المطش
فأقبل الناس كلهم وجل	دعاء داعى الصبا فلم يطش ^(١)

وبالزعم من هذه الآيات التي تدل على أن أمية نعم في مصر بطبيعتها ولها ، وقدره المصريون لعله وأدبه ، لخطى بصداقة عدد كبير منهم ، فإنه خرج من مصر فاضيا بهجو مصر والمصريين ، شأنه في ذلك شأن دعبيل الخزاعي ، وأبي تمام والجبتي وغيرهم من ذوى الأطلاع التي لا تقف عند حد ، هؤلاء الشعراء وقدوا على مصر لقصد التناول والبطاء من أمراء مصر ، فأغدى هؤلاء عليهم ما وسعهم ، ولكن هؤلاء الشعراء لا يعرفون إلا البطاء السخى ، وويل لمصر والمصريين إذا لم يصلوا إلى مطالبهم ، فما هو ذا أمية بهجو المصريين جميعا بقوله :

وكم تمنيت أن ألقى بها أحدا
فأوجدت سوى قوم إذا صدقوا
يسل من الهم أو يعدى على التوب
كانت مواعيدهم كالآل في الكذب^(٢)
نعم هكذا زعم أمية ، كما زعم دعبيل وأبو تمام والجبتي من قبل ، فمر

(١) الرسالة المصرية ، وخطب القريزي ج ٢ ص ١٥٥ وسجع الأدباء .

(٢) القليل ص ٥٧ .

التي أكرمت هؤلاء الشعراء فدحوها هي مصر التي مجهوها بعد أن رحلوا عنها .

أبو علي الأصمعي :

قلنا إن عددا كبيرا من شعراء مصر اتصل بالأفضل بن بدد الجلال ،
وأشدت القصائد الكثيرة في مدحه في الأعياد والمواسم ، فمن هؤلاء الشعراء
أبو علي حسن بن زيد الأنصاري الذي أتى عليه القاضي الفاضل بقوله : « إنه
في قه لم يسبح الدهر بمثل »^(١) ، ويقول عنه صاحب الخريدة : « وله قصيدة
في مدح أفضلهم يصف قيمة الفرح . يدل إحسانه فيها على أن بحره طامى اللجج ،
ودره نأى البهج ، وأقبس منها قوله :

<p>وأبنت العير منها هذه الممم ورقطة ما تراه منك أم حلم ؟ تسرحوا على أبق السها الحميم في مادن الدهر من به بها شم أن احتوتك وأنت الناس كلهم حق ليصر طبا أنها علم أخمت تجاوزها الآساد والأجم لا تحقق منها أثما حرم مصور ، وكلا الجيشين مزدهم فقدم منهم فيها ومنزوم فليس تزج عنها الحرم والحجم فكلهم لغار الحرب مقدم قد تالمت الأسياف والقدم لا يستطيل علي أعمارهم عرم ففرقدين وفي سمحيهما صمم وقد سمت فوقها من كفك الديم</p>	<p>جدا قد قصرت عن شأوك الاسم أخيمة ما نصبت الآن أم فلك ما كن يخطر في الأفكار قبلك أن حتى أتيت بها ثماء شائعة إن الدليل على تكويننا فلما مدد من في بلاد الصين ناظره ترى الكناس وآرام الظباء بها والطير قد لومت فيها مواضعها لديك جيش ، وجيش في جوانبها إذا لعبا حركتها ما ج موكها أخيلها خيلك اللاني تثير بها علت أبطالها أن يقدموا أبدا آمنتهم أن يخافوا سطوة ردى كانها جنة ، فالتاملون بها علت غلظتها سرا قصده إن أبنت أرضها زهرا فلا عجب</p>
---	--

يا خيمة الفرح الميمون طائرهما : أصبحت فألا به تستبشر الأمم
ومنها يقول في مدح الأفضل :

ما قال لأقط مذ شدت تمائه وكم له نعم في طيها نعم
لو كنت شاهد شمري حين أظلمه إذن رأيت الممالي فيك تختصم
أزرتك اليوم من فكرى عبدة في ناظر الشمس من لآلئها سقم
تري النجوم للفضي فيك سادة تود لو أنها في المدح نقتلهم

ولكن هذا الشاعر الثابه ، والكاتب المتقدم في ديوان المكاتبات ، لحي حقه بسبب حسد الشعراء له ، ذلك أن ابن قادوس الشاعر أنشد بيتين في هجاء حسن ابن الحافظ ونسبهما إلى ابن زيد الأنصارى ودهسهما في رقاعه ثم سعى به إلى ابن الحافظ ، فلما وجد حسن بن الحافظ البيتين بين رقاع الأنصارى أمر بقتله ، ولم يشفع له جودة شعره التي بلغ بها درجة رفيعة بين الشعراء ، ولا طول خدمته في ديوان المكاتبات ، فإن هذه الآليات التي روينها له في وصف الخيمة ومدح الأفضل إن دلت على شيء فإنما تدل على أن الشاعر خيالا محلقا ومقدرة مطاوعة لقرين مع حسن دياجة .

كان الشعراء في ذلك الوقت يتجهون بعد انجذابهم إلى الوزارة ، والويل كل الويل للشاعر الذي لا يعمل شعر مدحه لهم ، فهو يمد ولا يلتفت إليه ، مهما ارتفع شعره وأجاد الشاعر ، وهذا ما حدث مع الشاعر المعروف بأبن مكنة أبي طاهر إسماعيل بن محمد ، فقد اقتطع هذا الشاعر إلى مدح عامل من أنصارى يعرف بأبن مليح ، وأكثر أشعاره فيه ، ولا توفى هذا العامل رثاء الشاعر بقوله :

طويت سماء الكرمات وكوتت شمس المديح
ماذا أرحم في حياتي بعد موت أبي مليح
ما كان بالنكس الذي من الرجال ولا الضحيع
كفر أنصارى بعد ما شهدوا به دين المسيح

فذا ولي الأفضل الوزارة أراد هذا الشاعر أن يتقرب إليه ويتصل به ،

ولكن الأفضل لم ينس شعر ابن مكينة في أبي مليح ، فلم يقبل مدائحهم ، حتى
ينس الشاعر فأرسل إلى الوزير يقول :

مثل بمصر وانت ملك يقال ذا شاعر قدير
حطاك الشمس ليس يخفى وإنما حطى الضرر

وبالرغم من أن هذا الشاعر كان من القلائل الذين مدحهم أمية بن أبي الصلت
في رسالته المصرية وأثنى عليه بقوله : « ومن شعرائها المشهورين أبو طاهر
إسماعيل بن محمد المعروف بابن مكينة ، شاعر كثير التصرف ، قليل التكلف ،
يفتن في نوعي جد القريض وهزله ، وضارب بسهم في رقيقه وهزله » (١) ، فع
ذلك كله لم يوفق إلى أن يتأهل خطوة عند الأفضل ، فظل بعيدا عن
شعراء الوزارة .

ولعل ابن مكينة كان أحسن حفظا من الشاعر علي بن عباد بن الإسكندري ،
فقد كان هذا الشاعر منقطعا للوح الوزير أبي علي بن الأفضل عند ما كان هذا
الوزير مستقبدا بالبلاد وبالحليفة ، بل حبس الخليفة الحافظ ، حتى بلغ استبداده
حدّا لا يطاق ، واستطاع الحافظ أن يتكلم منه وأن يقتله في الميدان ، وتبع
كل من كانوا على صلة بهذا الوزير الطاغية فقتلهم ومنهم هذا الشاعر ، وروى
الهامد أن هذا الشاعر مدح ابن الأفضل بقصيدة مغلها : « تبسم الدر لكن
بعد تميس ، وعرض فيها بالخلفاء الفاطميين ولا سيما في قوله .

وقد أعاد إليه الله غائمه فاسترجع الملك من صخر بن إبليس (٢)

فكانت هذه القصيدة سبب مقتله ، ويقول ابن ميسر : إن الحافظ أمر
بإحضار الشاعر ، فلما أمثل بين يديه قال له : أأنشدني قصيدتك . فأخذ الشاعر
في إنشائها حتى قال منها في بيت :

« ولا ترضوا عن أنجس المتاجيس ،

يعنى الحافظ وأباه ، فأمر حيثئذ أن يلكه النابان حتى مات بين يديه (٣)

(١) الرسالة المصرية . (٢) المريدة ورقة ٩٨ . (٣) ابن ميسر ص ٨١ .

بل كانت هذه القصيدة سببا في قتل القاضى ابن ميسر سنة ٥٥٣١ هـ ، فقد روى أن القاضى عند ما سمع الشاعر بقصد القصيدة بين يدي ابن الأفضل قام وألقى عرضته طربا ، فلما قتل الوزير صرف القاضى عن عمله وقتل^(١) . وعن هذا الشاعر يقول ابن فضل الله : « على بن عباد الإسكندري ، شاعر كان يحمل غرر المدائح ، وكانت من الوزراء تستطف أعة قصائده فيرد عليهم مسرعا »^(٢) .

وكان بين شعراء الأفضل من قدم عليه فجهاد ، ومن هؤلاء الشاعر الملقب بالناسخى المصرى الذى ذكره أمية في رسالته المصرية ، فقد جاء الأفضل بقوله :

قل لابن بدو مقال من صدقه لا تفرحن بالوزارة الخلفه
إن كنت قد فلتها مراغمة ففى على الكلب بعدكم صدقه

فأمر الأفضل بنفيه إلى الواحات فأقام بها عند علم الدولة للمقرب بن ماضى^(٣) .

ظافر الحداد :

على أن عصر الأفضل لم يشاهد شاعرا مثل ظافر الحداد بالرغم من كثرة الشعراء وقوفهم جميعا في هذا الفن ، لكن شعراء ذلك العصر كانوا على حظ من الثقافة والعلم ، وكان أكثرهم من كتاب الدواوين ، أما ظافر فكان حدادا بالإسكندرية ولم يتلق من العلوم وألوان المعرفة إلا بمقدار ، وبلغت به شاعريته إلى أن يضعه انتقاد ومؤرخو الأدب في مصاف أكبر شعراء عصره ، واستطاع بهضه أن يجالس العلماء والشعراء وأن يستمع إلى حوارهم وأحاديثهم ، ويأخذ من ذلك كله ما وسعته ذاكرته فيزيد بها مداركه وثقافته ، وقد رأينا صديقا لأمية بن أبي الصلت ، ويصدقنا ابن خلكان أن الحافظ أبا طاهر السلفى وغيره من الأعيان كانوا يروون عن ظافر الحداد^(٤) . واتصل ظافر برجال الدولة فاجتمعوا به وبشعره ، ولا سيما أن مثل هذا الشعر صدر عن رجل من حاشية الشعب في حالة متواضعة من العيش . ويروي ابن خلكان قصة تدل على ذلك كله ، تلك هي أن القاضى أبا عبد الله محمد بن الحسن الأمدى دخل على والى الإسكندرية

(١) ابن ميسر (٢) مسالك الأبحار ج ١٢ ص ٢١٨١ (مخطوط بدار الكتب المصرية) . (٣) الحريدة ١١٣٠ (٤) ابن خلكان ج ١ ص ٢٤١ .

الأمير السعيد بن ظفر فوجده يقطر دهنًا على خصره ، فسأله القاضي عن سببه
فذكر خنق خاتمه عليه وأنه ورم بسببه ، فأشار عليه القاضي بقطع حلقة الخاتم
قبل أن يتفاقم الأمر فيه ، فاستدعى ظافرا الحداد فقطع الحلقة ، وأشد بين
يدى الوالى :

فصر عن أوصافك العالم وكثر النائر والتألم
من يكن البحر له راحة يضيق عن خصره الخاتم

فاستحسن الأمير الشعر ووهب لظافر الحلقة وكانت من الذهب ويخيل إلى
أن الأمير أراد أن يستوثق من شاعرية ظافر ، وأن ظافرا الحداد أدرك ما كان
يجول بخاطر الأمير ، فاعتصم فرصة وجود غزال مستأنس ، قد ربض بين يدى
الوالى وجعل رأسه في حجره ، فارتجف ظافر :

صعبت لجرأة هذا الغزال وأمر تخفى له واعتمد
وأعجب به إذ بدا جاثما وكيف اطمان وأنت الأسد

فزاد الحاضرون فى الاستحسان ، وكأنى بظافر وقد طمع فى أن يعترف
الحاضرون بسرعة بديته وقدرته على الارتجال ، فقد التفت حوله فى قاعة
الجلس ، فوجد شيئًا كان على الباب يمنع الطير من دخولها ، فأشد :

رأيت يبابك هذا المنيف شياكا فأدركنى بعض شك
وفكر فيما رأى خاطرى قلت : البحار مكان الشبك^(١)

فهذه القصة إن دلت على شيء فإنما تدل على أن الشاعر كان على موهبة لنظم
الشعر ، وأن شعره طبعى لا تكلف فيه ، وأنه كان يرتجل الشعر ببديته ، بما
يتملى الناس فى عصره يحبونه ويمجبون به ، وما هو ذا الماد الأصهبانى يحدثنا
عنه بقوله : « ظافر يحظه من الفضل ظافر ، يدل نظمه على أن أدبه راقع ،
وشعره يورج الرقة والسلاسة سافر ، وما أكله لولا أنه من مداح المصرى واه
له ظافر ، حداد لو أنصف لسمى جوهريا ، وكان باعتزائه إلى نظم اللالى
حرى ، أهدى بروي شعره الروى القلوب الصادبة ربا ، فياله ناظرا نصيبا

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٢٢٢ .

مقلداً جرياً^(١)، ويجمع المؤرخون على أن شعر ظافر الجهاد جمع في ديوان كبير ، ولكن هذا الديوان قد ، ولم يبق من شعره إلا أبيات من تصانيفه من ذلك قوله :

لو كان بالصبر الخليل ملاذه	ما سح وأهل دمه ورذاذه
ما زال جيش الحب يغزو قلبه	حق وكفى وقطعت أفلاده
لم يبق فيه مع الغرام بقية	إلا ريس يحتويه جذاده
من كان يرغب في السلامة فليكن	أبداً من الحديق المراض عياده
لا تمدنك بالفنور فإنه	نظي يضر بقلبك استلاذه
يا أيها الرشأ الذي من طرفة	سهم إلى حب القلوب نفاذه
در بلوح بفيك ، من نظامه	خبر به قد جال من نباذه؟
وقاة ذاك القدر كيف قومت	وسان ذاك اللحظ ، ما قولاده؟
رفقاً بحمك لا يذوب فائتي	أعشى بأن يحفو عليه لاده
هاروت يصخر عن مواقع محره	وهو الإمام ، فن ترى أستاذة؟
تأله ما عاقت محاسنك أمراً	لأ وعز على الورى استفاذه
أغريت حبك بالقلوب فأذهنت	طوما وقد أودى بها استحواده
حالي أنيت اللحظ من أروابه	جهدى فدام قفوره ولواذه
إياك من طمع المني بمزيره	كذليله وغنيبه شحاذه

ومنها أيضاً :

دالية ابن دريد استوى بها	قوم غداة نبت به بنفاذه
دانوا لوخرف قوله تفرقت	طمعاً بهم صرماه أو جذاده
من قدر الرزق السني لك أياها	قد كن ليس يضره إقفاذه ^(٢)

فن هذه الأبيات وغيرها مما حفظ لنا من شعر ظافر نستدل على أن شعره سهل طبع ليس به تكلف غيره من الشعراء الذين كانوا يصنعون الشعر صناعة ، وقد لاحظ العلماء أن ظافراً الجهاد كان لحنة ، واستشهد بقصيدة الزائية الشهيرة :

(١) الحريفة ورقة (١٦٠) .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٢٤٢ ومعجم الأدباء ، لياقوت ج ١٢ ص ٣١ (طبعة رفاعي)

حكم الميون على القلوب يهوز
كم نظرة نالت بطرف ذابل
لخذار من تلك الواضحة غرة
يا ليت شعري والآمان ضلة
هل لي إلى زمن تهرم عهده
وأزور من ألف البعاد رجه
خلبي يناسب في الملاحة شخصه
والبدن والشمس المنيرة دونه
لولا ثني خصره في ردفه
تجفو غلالته عليه لطافة
عن لي بدمر كان لي بوصاله
والعيش عتير الجناب أنفه
والماء ييدو في الخليج كأنه
والأرض في حلال النبات كأنما
والزهر يوم فاطريه كأنما
خأفاه ورق ، وساقط طله
وكأنما القمرى ينشد مصرعا
وكأنما اللولاب يزمر كلما
يأرب غايته أضر بقولها
فأجبتها : ما عازني نيل النقى
ما غاب من هضم التفضل ماله

ودواؤها من دأتهن هزوز
مالا يشال الذابل المهزوز
فالسحر بين جفونها مسكون
والسر يدرك صرفه ويهزوز
سبب فيرجع مامضى فأفوز
بين الجوانح والحقا مركزوز
فالوصف حين يطول فيه ويهزوز
فالحن منه يروق والتميز
ما خلت إلا أنه مغرور
فجسه من جسمها تطرير
سحبا ووعدى عنده منجوز
ولأوجه اللذات فيه بروز
أيم لسرعة سيره مجفوز
فرشت عليه ديايح وخزوز
ظهرت به فوق الرياض كنوز
در ، ونور ، بناره لميز
من كل بيت ، والحمام يهزوز
غنت ، وأصوات العنقاغ شير
أنى بلفظة مصمم منبوز
لكن مطالبة الريد تعوز
كرما ووافر عرضه محروز

فأخذ عليه الهاد قوله « عازني ، والصحيح « أعوزني ، وأخذ عليه قوله
« تموز ، والصحيح « تموز ، وأخذ عليه قوله « محروز ، والصواب « محز ،^(١)

(١) المربطة ورقة ٨٧ وكتاب ووضحة الأدب في طبقات شعراء العرب لشهاب المصباحي
ص ٧٥ « مطبع بجاي الهند » .

ولكن نرى العهد أن الشاعر مصرى ، وقد ذكرنا في أدب مصر الإسلامية
 صورا من الفن الذى وقع فيه كتاب مصر وشعراؤها ، وقلنا : إن المصريين
 لا يراعون قواعد الصرف والنحو مراعاة إخوانهم في البلاد الإسلامية الأخرى .
 لهذه القواعد ؛ ونحن لا نستطيع أن نؤاخذ ظاهراً الحداد بهذه الألفاظ التى
 لم يراع فيها قواعد الصرف ، فقد كان أبو عبيدة معمر بن المثنى القنوى مع
 معرفته ، إذا أشد بيتاً من الشعر لم يقرأه (١) . ومن يتتبع شعراء مصر
 الإسلامية حتى مصرنا الحديث فيجد عدم عناية المصريين بهذه الناحية الهامة
 التى هى من مقومات الشعر .

ومهما يكن من شيء فإن حياة الحداد فاضحة ، لعدم وجود ما يكلف
 عنها ، وقد أجمع المؤرخون على أنه توفى سنة ٥٤٦ هـ .

شعراء بنى رزيك حتى آخر الدولة الفاطمية

قتل الخليفة الظاهر فى الحرم سنة تسع وأربعين وخمسة ، فكتب خدام
 اقتصر إلى طلائع بن رزيك وإلى قوم وأسوان والصيد يخبرونه بقتل الخليفة .
 ويستجدونه على القاتل . وأرسل نساء القصر يشعرونه إليه ، ولعب الشعر دوراً
 هاماً في دعوة طلائع للاخذ بأمر الخليفة . فقد كانت قصيدة القاضى أبى الممالى
 عبد العزيز بن الحباب المعروف بالجليس التى أرسلها إلى طلائع بن رزيك من
 أشد الرسائل التى وصلت إليه أثر في نفسه ، فطلّاع كان شاعراً مجيداً ، ويصفه
 ابن خلكان بقوله : « كان فاضلاً سمحاً في العطاء ، سهلاً في اللقاء ، عجا لآمل
 الفضائل ، جيد الشعر ، وقفت على ديوان شعره وهو في جرأين (٢) » . ولذلك
 كان وقع القصيدة في نفسه أشد من وقع غيرها من الرسائل .

فمن هذه القصيدة قول الجليس :

دمتى حين نظم القريض عواذى	وشف قواذى شجوه المتجاذى
وأرق عيني والعيون هواجع	هموم أفضت مضجى وسادى
بحصرح أبناء الوعى وعثرة الذئ	بي وآل الذريات ، وصاد

فأين بنو رزيك عنهم ونصرهم وما لهم من منة وذباد
أولئك أنصار الهدى وبنو الردى وسم العدا من حاضرين وباد
لقد هد ركن الدين ليلة قتله بخير دليل للنجاة وعاد
تدارك من الإيمان قبل دثوره حشاشة نفس آذنت بنقاد
وقد كاد أن يطفى نأثي نوره على الحق ماد من بنية عاد
فلو عاينت عينك بالقصر يومهم ومصرهم لم تكتحل برقاد^(١)

جاء طلائع بن رزيك مع رجاله إلى القاهرة واستولى على الوزارة . وإذا قلنا الوزارة فإنما قصد أنه تولى الحكم الفعلي في البلاد ، ولذلك لقب بالملك الصالح . وقد أجمع المؤرخون الذين تحدثوا عنه على أنه كان يحب العلم والعلماء والشعر والشعراء ، وقد رأينا قول ابن خلكان فيه ، ونقل العبد عن خطبة ديوان الصالح : « قد نشرت أيامه مطوى المصمم ، وأنشرت رفات الجود والكرم ، وثقت بدولته سوق الآداب بعدما كسدت ، وهبت ريح الفضل بعدما ركبت ، إذا لها الملوك بالقيان والمعازف ، كان لهوى بالعلوم والمعارف ، وإن عمروا أوقاتهم بالخر والفر ، كانت أوقاته معمورة بالهنى والأمير^(٢) » . ووصفه عمارة اليمني بقوله : « فكان مرثاضا قد شم أطراف المعارف ، وتميز عن أجلاف الملوك الذين ليس عندهم إلا خشوة مجردة ، وكان شاعرا يحب الأدب وأهله ويكرم جلسيه ويبسط أنيسته^(٣) » ، ويروي عمارة قصة وفوده على مصر أول مرة ، وكيف دخل متسكرا في زى رسول من قبله على الأجل أبي الهيجاء حمر الملك الصالح ، وطلب إليه أن يجعل عنه مثوة السجود عند السلام على الخليفة والوزير ، فسأله أبو الهيجاء عن عمارة فقال له : هو قتيه وعنده طرف من الأدب ، فقال : تنى شاعرا ! قال : نعم . قال : هذه قبيصة في حقه فلما كان في اليوم التالي استدعى أبو الهيجاء الغداء عند الصالح ، فقال أبو الهيجاء : عندي رسول صاحب مكة ، وكنت أظنه عاقلا وإذا هو ناقص ؛ فقال له الصالح :

(٢) الحريرة ورقة ٣٧ ب

(١) النجوم ج ٥ ص ٢٩٢

(٣) التكت ص ٤٨

وبأى شيء عرفت قصه؟ قال: لكونه يحسن شيئاً من هذا السحت الذي تملأ أنت والجلس وابن الزبير. قال الصالح: لعله شاعر؛ قال: نعم. قال الصالح: هاته، هات الرجل، ثم أنشد:

إن الذي تكرهون منه ذاك الذي يشبهه قلبي^(١)

فهذه القصة إن دلت على شيء، فإنما تدل على أن الملك الصالح طلائع بن وزيك كان مولماً بالشعر مقرباً للشعراء؛ ومن عجب أن يجتمع في بلاطه أكبر أعيان أهل الأدب، مثل: المجلس والموفق بن الحلال وابن قادوس والمهذب بن الزبير والرشيد بن الزبير وغيرهم الذين وصفهم حمارة بقوله: «وما من هذه الحلبة أحد إلا ويضرب في الفضائل النفسانية والرياسة الإنسانية بأوفر نصيب، وما زلت أحنو على طرائقهم، وأعرض جذعي في سوابقهم، حتى أثبتوني في جرائد^(٢)»، فهؤلاء الأعلام كانوا يجتمعون في مجلس الملك الصالح يناقشون الشعر، ويتناظرون في بعض المسائل العالية والأدبية، ويستمعون إلى شعر الملك الصالح، وفي ذلك يقول صاحب النجوم الزاهرة: «وجعل له مجلساً في أكثر الأيام يحضره أهل الأدب، ونظم هو شعراً ودونه، وصار الناس يهرعون إلى قل شعره، وربما أصلحه له شاعر كان يصحبه، قال له: ابن الزبير^(٣)»، ويظهر أن الملك الصالح كان ينشد القصيدة أو المقطوعة، ولكنه كان يعرض ما ينشده على المهذب بن الزبير، وعلى غير المهذب من كان يتوسم فيهم مقدرة وكفاية على تشييف الشعر، إذ يحدثنا حمارة - العيني: «ودخلت إليه ليلة السادس عشر من رمضان سنة ست وخمسين وخمسة قبل أن يموت بثلاث ليال بعد قيامه من السجود، ولم أكن رأيت من أول الشهر بليقة، فأمر لي بذهب، وقال: لا تبرح. ودخل ثم خرج إلى ودي يده قرطاس قد كتب فيه بيتين من شعره حملهما في تلك الساعة، وهما:

نحن في صفة ونوم واللو ت هيون بقطاة لا تنام
قد رحلنا إلى الحمام سنيها ليت شعري متى يكون الحمام؟

ثم قال لي : تأملما وأصلحهما إن كان فيهما شيء . قلت : هما صالحان (١) .
فالمالك الصالح كان يستعين بفعول الشعر في عصره لإصلاح شعره ، وليس في ذلك
ما ينقص من قدرته في الشعر ، والمؤرخون يحدوثنا أن بعض لحول شعراء
العرب كانوا يمرضون شعرهم على غيرهم من الشعراء ، فروان بن أبي حفصة
شاعر هرون الرشيد الرسمى كان يمرض شعره على بشار بن برد ، وكان البحترى
يمرض شعره على أبي تمام ، وكان أكثر الشعراء يمرضون شعرهم على الأصمى
أو غيره من اللغويين ، فإذا كان الملك الصالح جلائع بن رزيق قد استعان
بالمهذب أو بعبارة أو بغيرهما من شعراء ذلك العصر لإصلاح شعره ، فإن ذلك
يدلنا على أن هذا الوزير كان يعرف قيمة الشعر ، فلم يستج لنفسه أن يمرض
شعره على الناس قبل أن يتأكد من قوة هذا الشعر وصلاحه ، ولكن ياقوت
ذكر في معجم الأدباء في حديثه عن ابن الزبير : « وقيل : إن أكثر الشعر الذي
في ديوان الصالح إنما هو عمل المهذب بن الزبير (٢) » ، ولا أدري من أين استقى
ياقوت هذا الخبر ، وربما اشتبه عليه الأمر فظن أن ابن الزبير هو صاحب
الشعر الذي في ديوان ابن رزيق بدلا من أنه كان يشقف هذا الشعر ، وقد
انتهت إلينا قطعة من قصيدة لابن الزبير يتحدث فيها عن شعر الملك
الصالح ، منها :

ولنا فطنته تركك لشعره عذبا يروى غلة الظلمات
وعقود درلو تجسم لفظها ما رصعت إلا على التيجان
وتزهت عن أن يرى أفوادها لمواضع الاقراط والأذان
من كل راققة الجمال زهت بها بين القوائد غرة السلطان
سيرة في الأرض لا يمتاقها في سيرها قيد من الأوزان (٣)

فابن الزبير هنا يصف شعر الصالح بهذه الصفات ، وإن كان ابن الزبير قد
غالى في وصفه له ، ولكنه كان يمدح صاحب الملك . ومهما يكن من شيء فإن

(١) معجم الأدباء ، ج ٩ ص ٤٧

(٢) التكت من ٤٩

(٣) الخريدة من ٤١ .

المؤرخين أجمعوا على أن الملك الصالح كان مكثرًا من قول الشعر ، حتى جمع شعره في ديوان من جزأين ، ولكن الذي بقي لنا من هذه المجموعة مقطوعات صغيرة ، من ذلك قوله يتنزل :

ومنهف ثمل القوام سرت إلى	أعطاه التلوات من عينه
حاضى العماط كأنما سلت يدي	سبى غداة الروح من جفنيه
قد قلت إذ خط المذار بمسكة	في خده ألقبه لالاميه
ما الشعر دب بمارحيه وإنما	أهداه قنصت على خديه
الناس طوع يدي وأمرى فاقد	فبهم وقلبي الآن طوع يديه
فأجيب لسلطان يعم بعده	وتجور سلطان الترام عليه
واقه لولا اسم الفرار وأنه	مستج لفررت منه إليه (١)

وبعدنا المهاد في الحريدة أن أبا الحسين علي بن قيسر أثنى في الملك الصالح بحسبته التي أولما :

لا فرق بين خياله ووصاله في سرد ماطله وفي تحقيقه
ولقي منها :

واقه ما القس في إشرافها	وحياء بهجت كعبيش شروقه
لا تجعل المجران بعض حقوقي	فكلف السلوان غير حليقه
بلغ إلى الملك الملم أمانة	تبليها لحر من توفيقه
حتام حتى في الحضيض وإنه	في الفضل عند الناس في صوره
مثل بحمر وأنت مالك دقه	مثل المقاب مفرداً في نيقه
ولقد أشاع الناس أنك في الودي	من ليس ينفق باطل في سوقيه
أبطل بنود العقل سلطان الموى	واعمل بكل المجد في تطبيقه

فأجابه الصالح بقصيدة منها :

فقد التآدب عندنا في سوقيه	وبدا اليقين لنا بلج بروقه
أعدى لي القاضي الفقيه عرائسا	فيها يديع الوثى من تنميته

فأجبت طرفي في بديع رايحه
فكأننا اجتمع الأحبة فانبثرت
أدب سعى منه إلى غاياته
وقد علمت بأن فضلك سابق
فلذا اقتضت ولم أر الإيمان في
وأرى الزمان جرى على عادته
والشوق في قلبي تضرع وجه
والسمع من عيني سح ، فهل يرى
زمت في بستان ظلمك ناظري
أنت امرؤ من قال فيك مقالة
وأنا أرى تقديم حاجة صاحبي
وكذا الكريم فعمل لأموده
هذا النجاح فكل ما قد رمت
من ووده وبهارة وشقيقه
يد طاشق تهوى إلى مشوقه
وأق قد هد عليه سر طريقه
يتد من جلاء من مسبوقة
شأو امرؤ أصبحت غير غليظة
في جمه طورا وفي تحريقه
فتى أراه يكف عن تحريقه
من بحر يزماً نجاه غرقه
لظيت من زهر الربا بأنيته
قال فكل الخلق في تصديقه
من دون حاجتي أقل حقوقه
لا مهمل أبداً أمور صديقه
قد هم قانظر منه في تحقيقه (١)

وهكذا نستطيع من هذه المقطوعات التي بقيت لنا من شعر الصالح أن ندرك
أن الصالح كان من شعراء مصر الذين يهتمون بالمعاني أكثر من عنايتهم باللفظ ،
وأنه لم يكن من الشعراء الذين يكثرلون من التثنيات والاستعارات ، ولكن
التثنيات تأتي في شعره بسيطة عادية من غير تكلف ولا تصنع ، ولم يكن الصالح
شاعراً لحسب ، بل كان من علماء المذهب ، ويقول المقرئ : إن له قصيدة سماها
الجمهرة في الرد على القدرية ، وإنه صنف كتاباً سماه الاعتقاد في الرد على أهل
الحنابلة ، جمع له الفقهاء وناظرهم عليه ، وهو كتاب يبحث في إمامة علي بن أبي
طالب والأحاديث النبوية التي وردت فيه (٢) . وتوفي الملك الصالح سنة ٥٥٦ هـ
وتولى الوزارة بعده ابنه الملك الناصر وزيك بن الصالح وكان شاعراً مثل أبيه ،
ناقداً للشعر طارفاً بحمده من رديئه ، ويقول عمادة عنه : وأما فيه فكان يعرف
جيد الشعر ويستحبته ويثيب عليه (٣) .

(١) المخرطة ورقة ٦٩ ب . (٢) خط ج ٤ ص ٨٢ . (٣) النكت ص ٥٥ .

وفي رثاء عمارة للصالح ومدح الناصر قال :

لا يقولن جامل بالقوافي ذهب الناقد السميع البصير
فالمرجى أبو شجاع علم بمقادير أهلن خير (١)

ولكن عمارة أتى عليه الثناء كله ، لأن الناصر استخدم القاضي الفاضل ،
يقول عمارة : ومن نحاس أيامه وما يؤرخ عنها ، بل هي الحسنة التي لا توازي ،
واليد البيضاء التي لا تجازي . خروج أمره إلى والي الإسكندرية بتسيير القاضي
الأجل الفاضل أبي علي عبد الرحيم بن علي اليماني إلى الباب واستخدامه . (٢)
فكان دقة إحساس الملك الناصر ، وتذوقه للشعر والكتابة الفنية . ومعرفة
للجيد من الشعر والنثر ، جعلت الناصر يكتشف مواهب القاضي الفاضل الأدبية
فيرفعه إلى مرتبة الخدمة في ديوان الجيش بالحضرة ، ولولا ذلك لظل القاضي
الفاضل مغفورا مثل كثير من الأدباء والشعراء الذين لم تتح لهم تلك الخطوة
لجهلهم الناس وغفلت مواهبهم . فلا غرو أن رأينا عمارة الذي يرفع من شأن
هذا الكشف ويعدده ، والحسنة التي لا توازي ويد اليد البيضاء التي لا تجازي ،
ولو كان يعلم عمارة ما ستأتي به الأيام له ، وموقف القاضي الفاضل منه ، لجعل
هذه اليد البيضاء سوداء ، وتلك الحسنة سيئة .

لم تمهل الأيام الملك الناصر إذ قتل سنة ٥٥٨ هـ . وعموته بدأت المنازعات
على الوزادة بين شاور وضرغام . وأدى الأمر إلى تدخل جيوش نور الدين
زنكي في أمر هذه المنازعات ، وإلى تدخل جيوش الصليبيين لاحتلال مصر ، ثم
إلى تولية أسد الدين شيركوه ثم صلاح الدين الأيوبي الوزادة ، إلى أن استطاع
صلاح الدين أن يقضى على الدولة الفاطمية في المحرم سنة ٥٦٧ هـ .

ومع هذه الاضطرابات والفتن التي كانت في مصر . لم ينس الوزراء الشعراء
والشعراء . فكان شاور يجلس ليستمع إلى مدائح الشعراء ، وكان ضرغام ينقد
شعر الشعراء . ويذكر عمارة أنه أنشد الوزير ضرغاماً قصيدة منها :

أوجبت في ذمة الأشرار والخطب دينا أبا حسن يبق على الحقب

(١) الذبكت ص ٥٠ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥٣ .

أيامك البيض لاصحى، وأفضلها يوم خصمت به في قاعة الذهب
 'وفيت لصالح الهادي وقد غدرت به العتائع من ناء ومقرب
 فقال ضرغام : لو قلت (بعدت) كان أصلح من (غدرت) . قلت : إنما
 أردت مقابلة الوفاء بالعدو . قال : وعلى مقابلتك تنسبنا إلى العدو^(١) ولعل هذه
 القصة زينا مقدار فهم ضرغام للشعر ، وقفاذ بصيرته في قتله . وفي هذه الأيام
 العجاف التي أودت بالدولة الفاطمية توفي كبار شعراء العصر . فالجليلس توفي
 سنة ٥٦١ هـ وفي هذه السنة عينا توفي المهذب بن الزبير ، وتوفي الرشيد بن الزبير
 سنة ٥٦٢ هـ . ولم يعد الشعراء يتكسبون كما كانوا يتكسبون من قبل . فقد ذكر
 عمارة أنه أخذ شاور قصيدة مدحه بها بعد طرد الصليبيين من بليس إبان
 وزارته الثانية ، ومن هذه القصيدة :

' أسمع بهذا الفتح المبين وأبصر
 فتح أضاء به الزمان كسأته
 فتح يذكرنا ولرب لم نقسه
 فتح توله يسره من عصرة
 حملك به الأيام إلا أنها
 ويقول فيها :

نقصه أول فارس إن أقدمت
 هانت عليه النفس حتى إنه
 ضجر الحديد من الحديد وشاور
 حلف . الزمان ليأتين به مثله
 يا فاتحاً شرق البلاد وغربها
 خيل ، وأول راجل في العسكر
 باع الحياة فلم يجد من يشتري
 في نصر آل محمد لم يضجر
 حشيت يمينك يا زمان فكفر
 يمينك أنك وارث الإسكندر
 يقول عمارة : وكانت هذه الأبيات أحد الأسباب التي قوت عزمي على
 الاستعفاء من عمل الشعر ، لأن الناس فيما تقدم كانوا يفتنون الشعراء بما ليس يفوقها
 جودة .^(٢) وبالفعل عندما قابل شاور بعد ذلك استعفاء عمارة من قول الشعر .

(١) المصدر نفسه ص ٨٢ وما بعدها .

(٢) أنسكت ص ١٤٦ .

وأمر أن ينقل الجارى على الخدمة راتباً على حكم الضيافة ، لأن التكسب بالشعر والتظاهر به أصبح قبيحة في حقه . فسأله شاور : فما منك أن تستعفى في أيام الصالح وابنه ؟ قال حمارة : كانت لي أسوة وسلوة بالشيخ الجليل بن الحباب وبابى الزبير الرشيد والمهذب ، وقد اقترض الجليل والنظراء ، قال : نعمى ، ثم أمر بإنشاء سجل بأفعائه^(١) ومع ذلك لم يستطع حمارة ألا ينشد شعراً في الحوادث التي كانت في هذه الأيام ، ولا سيما عندما تولى صلاح الدين الأيوبي الوزارة ، فقد أنشد عدة قصائد يهنئ فيها باتصافه على الصليبيين وينصره لآل بيت الرسول ، ويشبه جيوش صلاح الدين بأنصار النبي ﷺ فهو يقول مثلاً :

ذلك الحسب الباقي على عقب العر	بل الشرف الراقى إلى قمة الفس
كذا فليكن سمي الملوك إذا سمع	بها المهم العليا إلى شرف الذكر
تهنئتم بأعباء الوزارة نهضة	أقلمتم بها الانددام من ذلة العر
كشفتهم عن الإفليم غمته كما	كشفتهم بأنوار النقي ظلمة الفقر
حيتم من الإفنج سرب خلافة	جرتم لها مجرى الأمان من الذعر
ولما استأثرت ابن النبي بنصره	ودائرة الانصار أضيقت من شبر
جلبتم إليه النصر أوساً وخورجاً	وما اشتقت الانصار إلا من النصر
كتاب في جردون منها أواخر	وأولها بالنيل من شاطئ مصر
طلعت فاطلمت كواكب نصرة	أضاءت مكان الدين ليلاً بلا فجر
وآبت إليكم يا بن أيوب دولة	تراسلكم في كل يوم مع الفجر
حي الله فيكم عزمة أسدية	فككتهم بها الإسلام من رقة الأسر
أخذتم صلي الإفنجي كل ثنية	وقلم لا يندى الخيل مرى على (مرى)
ثمن نصبوها في البر جمرًا فإنكم	عبرتم ببحر من حديد على الجمر
طريق قارعتهم عليها مع العدا	ففرتم بها والصخر يقرع بالصخر
وأزججه من مصر خوف يلاؤه	كما لا مهزوم من الليل بالفجر
وكم وقعة عذراء لما اقتضعتنا	بسيقتكم لم تترك لكم من عندنا
وأيدىكم بالباس كلرة العدا	ولكنها بالجمود جارة الكسر

أيوك الذي أضى ذخيرة بحدكم
ومن كنت مصروفا له فاستفزه
توفره وسط الندى كرامة
وتخلفه حربا وسلا خلافة
وكم قت في بأس وجمود وربة
ولو أطلق الله الجادات لم تم
يد لا يقرم المسلمون بشكرها
بكم آمن الزعم أعظم يثرب
ولودجت مصر للالكفر لا نظوى
ولكن شددتم أزره بوزارة
فهنيت قعقا قديم حله
وما بقيت في الشرك إلا بقية
وعند تمام الملك آتى مهنتا
ولولا اعتقادي أن مدحك قربة
لما قلت شعرا بعد إعفاء خاطري
فأوصي في الأيام خيرا فإنها
وجازني : تسهيل إذني عليكم

وأنت له خير التفاني والذخر
بثلك تيه فهو في أوسع العذر
وتحمل عنه ما يؤود من الور
تؤلف أصداداً من الماء والجمر
بما سره في الخطب والنسب والثر
لنصتكم بالمستحق من الشكر
لكم آل أيوب إلى آخر البحر
وآمن أركان التنية والحجر
بساط الهدى من ساحة البر والبحر
غدا لفظها يشق من شدة الأوز
وبشر أن الكل يتلوع الإثر
تسبها في ذمة البيض والسر
وملتما أجر الكفاة والزجر
أرجى بها نيل الثوبة والأجر
ولى سنوات منذ ثبت عن الشعر
مصرقة بالنهى منك وبالأمر
ومقامكم لي بالطلاقة والبشر^(١)

ولما قتل شاور وتولى شيركوه ثم صلاح الدين الوزارة وجدنا بعض
الشعراء يمرضون في أشمارهم بالوزير المقتول ، بل يجهونه أقبح جهاء ، فالشاعر
حسان مرقلة - ولم يكن مضرباً إنما وفد مع صلاح الدين إلى مصر وأشد
شعرا في الحوادث التي جرت في هذه الأوقات - قال لما قتل شاور وتولى
شيركوه مثلاً :

لقد فاز بالملك العظيم خليفة له شيركوه العاصدى وزير
كان ابن شاذى والصلاح وسيفه على يديه شير وشير

(١) كتاب الروتين ج ١ ص ١٦٢ (طبعة مصر سنة ١٣٨٢) .

هو الأسد الضاري الذي حمل خطبه وشاور كليب الرجال عقور
بنى وطني حتى لقد قال قائل على مثلها كان القئين بدور
غلا وحمل الرمن تربة قبره ولا زال فيها منكر ونكير
وقال في قصيدة أخرى :

لئن أمهد المؤمنين الذي مصر حاء وعلى أبوه
فصر على شاور فرعونها وفصر موساهما على شيركوه^(١)

وما كانت تدول هذه الدولة الفاطمية حتى انبرى شعراء الأيوبيين يمدحون
ملوكهم ويضجون في الدولة الفاطمية ويرمونها بالكفر ، وستحدث عن ذلك
في كتابنا عن الأيوبيين ، ويمكن أن تأتي الآن مثال لهذه الأشعار ، فقد قال أحد
الشعراء يمدح الأيوبيين :

السم منى دولة الكفر من بني عبيد بمصر ، إن هذا هو الفضل
زنادقة سبجية باطنية بجوس وما في الصالحين لم أصل
يسرون كفرا ، يظهرون تشيحا ليستروا شيئا وعهم الجهل^(٢)
وهكذا كان الأمر في الشعر لدى الوزراء . فالشعراء كانوا يلتصون
بالأحداث لينسجوا الوزراء ويتقربوا إليهم حتى دالت الدولة الفاطمية .

المذهب بن الزبير :

هو الحسن بن علي بن إبراهيم بن الزبير المعروف بالقاضي المذهب ، كان من
أهل أسوان من أصل عربي ينتمي إلى قبيلة غسان . وكان المذهب وأخوه
الرشيد من أكبر شعراء ذلك العصر ، وحلا من أسوان إلى القاهرة . وما زالوا
يرتقيان في مناصب الدولة حتى بانا مرتبة القضاء وجالسا الوزراء والأمراء .
أما المذهب فقد قدمه القاضي المجلس إلى الملك الصالح طلائع بن رزيق فخطب
عنده وحصل له من الملك مال جم ، لم يزل غير المذهب منه أحد مثله ، وأوفد
المذهب في سفارة من مصر إلى بلاد اليمن ، وهناك أتاحت له فرصة جمع كتب
الأنساب ، اتخذها مصدرا لكتاب كبير صنفه في عشرين مجلدا هو : كتاب

(١) الروضتين ١ ص ١٥٧ . (٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٧٠٢ .

«الأنساب» اطلع ياقوت الحموي على بعض أجزاء منه فوصفه بقوله « فوجدته
 مع تحقيق هذا العلم ، وبحثي عن كتبه ، غاية في معناه لا مزيد عليه ، يدل على
 جودة قريبة مؤلفه وكثرة اطلاعه . إلا أنه هذا فيه حذو أحد بن يحيى بن جابر
 البلاذري ، وأوجز في بعض أخباره عن البلاذري ، إلا أنه إذا ذكر رجلا من
 يقتضي الكتاب ذكره لا يتركه حتى يعرفه بجده ، من إيراد شيء من شعره
 وغيره » (١) جمع ابن الزبير بين العلم والشعر . وقد ذكرنا في حديثنا عن الملك
 الصالح أنه كان يمرض شعره على ابن الزبير لتعويجه وإصلاحه قبل عرضه على
 الناس ، ووصف الهاد شعره بقوله « يحكم الشعر كالبناء المشيد ، وهو أشعر من
 أخيه ، وأعرف بصناعته وإحكام معانيه . . ولم يكن في زمانه أشعر منه ، وله
 شعر كثير ، وحل في الفضائل أكثر » (٢) ووصف المذهب شعره مرة وهو
 يعرض بآب الصياد الملقب بالمفيد الشاعر :

فيا شاعرا قد قال ألف قصيدة ولكنها عن بيته ليس تبرج
 لهنك ، لا هنت ، أن قصائد مع النجم تسمى أروع الريح ترح
 وقال مرة أخرى يمدح الوزير الصالح بن رزيك ، وكان الوزير يفرى
 الشعراء بعضهم ببعض ويسر للاستماع إلى نقائص الشعراء وأهاجيم .

يا أيها الملك الذي أوصاه غرر تجلت للزمان الأسف
 لا تطلع الشعراء في فائق لو شئت لم أجب ولم أنفع
 إن لم أكن ملء الصيون فإني بالقول يابن الصيد ملء المسع
 غلبسكوا عني قولوا أنني أبق على عرضي إذن لم أهرع
 وأم من مجرى لم مدح الذي رفع القريض إلى الجبل الأرفع
 ولو أنه ناجى ضميري في الكرى طيف الخيال برية لم أبيع
 وإذا بدال الحجر لم أر شخصه وإذا يقال لي الخنا لم أسمع
 وهناس قد علوا بأني ليس لي مذكنت في أعراضهم من مطع (٣)

(٢) الحريدة ورقة ١٤٨ .

(١) مسج الأدياء ج ٩ ص ٤٩ .

(٣) المصدر نفسه ورقة ١٣ ب .

فحقن أمام شاعر عفا اللسان ، محترم لنفسه بائتماده عما يعرضه إلى هجاء زملائه ، وإذا عرض لأحد الشعراء فإنما يعرض له من ناحية واحدة هي ناحية فن الشعر ، فقد كان المهذب شاعراً من لحول شعراء العربية . ولا أغالى إذا قلت إن مصر الإسلامية منذ دخلها العرب ، ومنذ عرفت الشعر العربي ، لم تنجب من أبنائها شاعراً له شاعرية المهذب وقوة شعره وحسن ديباجته ، وقد وصلت إلينا عدة قصائد له تدلنا على ذلك كله ، فن ذلك قصيدته التي أرسلها إلى داعي اليمن عند ما قبض على أخيه الرشيد ، بمدحه ويستطفه ، حتى أطلق سراح أخيه ، فلقبها يقول :

يا ربيع أين ترى الأخبة يعموا	هل أنجدوا من بعدنا أم أنهموا
رحلوا وقد لاح الصباح وإنما	يسرى إذا جن الظلام الأنهم
وتعوضت بالأنس رزحى وحشة	لا أوحش أقد المنازل منهم
لولام ما قت بين ديارم	حيران أستاذ الديار وأثم
أما نازل الأحباب؟ أين هم وأيد	ن العبر من بعد التفريق عنهم؟
يا ساكني البلد الحرام وإنما	في الصدر مع شحط المزار سكنتم
يا ليقى في التازلين عشية	بني ، وقد جمع الرقاق الموسم
فأفوز إن غفل الرقيب بنظرة	منكم إذا لبى الحبيب وأحرموا
إني لأذكركم إذا ما أشرقت	شمس الضحى من نحوكم فأسلم
لا تبشوا لي في النسب تحية	إني أغار من النسب عليكم
إني امرؤ قد بهت حظي راحيا	من هذه الدنيا يحظى منكم
فسلوت إلا عنكم وقمت إلا	منكم وزعمت إلا فيكم
ورأيت كل العالمين بمجة	لو ينظر الحساد ما غطرت حموا
ما كنن بعد أخى الذي قارفته	ليبوح إلا بالشكاية لي قم
هو ذلك لم يملك علاء مالك ،	كلا ولا وجدى عليه متمم ،
أفوت منانيه وعطل ربه	ولربما هجر العرين الضنينم
ودمت به الأموال همه ماجد	كاليف يحضى عزمه ويصمم
يا راحلا بالجند ضا والعلا	أرى يكون لكم إلينا مقدم؟

بفديك قوم كنت واسط عظم
لك في وقايم وإن هم أنكروا
جهلوا فظنوا أن بمدك مغنم
فلقد أقر العين أن عداك قد
لم يصم الله ابن معصوم من الآ
واعترض بمدم بأكرم معشر
فلعمر بمدك إن كرمت عليهم
أقبال بأس، خيز من حلوا لقنا
متواضعون ولو ترى ناديم
وكفاهم شرًا ومجدا أنهم
هو بند تم في سما علام
ملك حماه جنة لفاته
أنتى عليك بما مننت وأنت من
فأغفر لي التقصير فيه وعده
مع أنتى سيرت فيك شواردا
تقدرو وهو ج الذابيات رواكد
ولذا المآثر عددت في مشهد
ولذا تلا الراون بحكم آياها
ركنى برأى إمام صورك ناقضا

ما إن لهم مذ غبت شمل ينظم
من كأطواق الحمام وأنهم
لما رحلت ولانما هو مغرم
ملكوا بينهم وأنت مسلم
فأت، وانخرم العين الآخر^(١)
بدوا لك الفعل الجليل وتمموا
إن الكريم على الكرام مكرم
وملوك قطان الدين هم هم
ما اسطفت من لإجلهم تسلم
قد أصبح الداعي المتزوج منهم
وبنو آية بنو ربيع أنهم
لكنه الحاسدين جهنم
أوصاف بمدك يامليكا أعظم
مع ما تجود به على وتنعم
كالدر بل أبهى لدى من يفهم
وتبيت تسرى والكواكب نوم
فبذكرها يبدأ المقال ويمت
صل عليك السامعون وسلوا
ما أحكم الأعداء فيك وأبرمو^(٢)

فهذه القصيدة تدلنا على أن الشاعر المهذب بن الوبير كان من الشعراء الذين
أعادوا إلينا ذكرى الشعر العربي الرصين وإشراق ديوانه، وأنه كان من
الشعراء الذين لم يحدعوا بهرج اللفظ، ولم تهرم زيتته، - حقيقة قد ألم ببعض
مقابلات بدوية ولكنه لم يسرف فيها لإسراف غيره من الشعراء الذين أعجبوا
بالصنعة البدوية، فأفرطوا فيها لإفراطا جعلهم يخرجون الشعر عن طبيعته

(١) الآخر هو صاحب الدعوة الدورية التي ظهرت أيام الحاكم وتادت بالوحية .

(٢) مع الأداة ج ٩ ص ٥٠

وسلامته ، وأخلوا بالمعنى في سبيل اللفظ ؛ ولناخذ مثلاً آخر من قصيدة لهذا الشاعر في مدح الملك الصالح طلائع بن رزيك ، نستدل بها على أن فن الشاعر قريب من فن شعراء لحول الأمويين والعباسيين :

أقصر فديتك عن لوى وعن عدل	أو ، لا غد لي أماناً من يد القتل
من كل طرف مريض الجفن تشدنا	الحافظه وب رام من بني فعل ،
إن كان فيه لنا ، وهو السقيم ، شفا	وقرباً صحت الأجسام بالعلل .
إن الذي في جفون البيض إذ نظرت	تطريا في جفون البيض والحلل
كذلك لم يقبّه في القول لمظهما	إلا كما اشتبها في الفعل والمعل
وقد وقفت على الأطلال أحسبها	جسمي الذي بمد بعد الطاعنين يلى
أبكي على الرسم في رسم الديار فهل	عجبت من طلل يبكي على طلل
وكل بيضاء لومت أناملها	قيص يوسف يوماً قد من قبل
تغنى من الدر والياقوت لبستها	لحسنها فلها حل من العطل
بالحد سنى آثار السموع كما	لها على الحد آثار من القبل
كان في سيف سيف الدين عن خجل	من عومه ما به من حرة الخجل
هو الحسام الذي يسمو بحامه	زهوا فيفتك بالأسياف والدول
إذا بدا عاريا من غمده خلعت	غمد الدماء عليه فامة البطل
وإن تقلد بحراً من أنامله	رأيت كيف اقتران الرزق بالأجل
من السيوف التي لاحت بوارقها	في أنمل هي منجب العارض المطل

ومنها :

أفدس المسلمين اسمع فلا سمعت	أعداك غير صليل البيض في القتل
مقال ناء غريب الدار قد عدم الأ	نصار لولاك لم ينطق ولم يقل
يشكو مصائب أيلم قد اتسعت	فضاق منها عليه أوسع الببل
يرجوك في دفعها بعد الإبه وقد	يرجى الجليل لدفع الحادث الجلل
فا تخاف الردى نفس وكم رضىبت	بالجز خوف الردى نفس فلم تبل
لنى امرؤ قد قلت النعم معرفة	فأ أبيت على بأس ولا أمل
إن يرومء الصبا هو دى قد جمعت	منى طروق اليبالي عود مكتبل

تجاوزت في مدى الأشياخ تجريتي قدما وما حلوزت في سن مقبل
وأول العمر خير من أواخره وأين ضوء الضحى من ظلة الأصل
دونى الذى ظن أنى دونه ظه تعاظم لينال المجد بالجلجل
والبحر ينظم فى الأبصار صورته ظلنا ويصغر فى الأفهام عن زحل
ما حصر شعرى أنى ما سبقت إلا أجليب دمعى وما الداعى سوى ظال
فإن مدحى لسيف الدين تاه به زهو اعلى مدح سيف الدولة البطل^(١)
وأملك تلاحظ فى هذه القصيدة كيف ضمن الشاعر فى البيت الثانى إشارة
إلى "أمرى" القيس إلى بنى ثعل وقول "أمرى" القيس :

وب رام من بنى ثعل مخرج كفيه من ستره
وكيف ضمن ابن الزبير فى البيت الثالث عجز بيت للتنبى من قوله :
لعل عتبك محمود عواقبه فرجما صحت الأجسام بالعلل
والشاعر فى هذه القصيدة . بل فى كل قصائده التى وصلت إلينا من ديوانه
الذى فقد ، يظهر شاعرية غرول الشعراء ، تلك الشاعرية الطبيعية التى يصدر عنها
هذا الشعر الجزل الرصين الذى لا نجد له مثيلا بين شعر مصر الفاطمية ، ولعل
ذلك يرجع إلى أن المهذب بن الزبير لم ينشأ فى القاهرة أو الفسطاط ، ولكنه
نشأ فى أسوان ، وطبع هناك بالبيئة التى أحاطت به . فهى عاقلة أكثر من
بيئة القاهرة ، وهى إلى البداوة أقرب ، لبعدها أولا عن بقية بلاد القطر .
وليبتها الجغرافية التى جعلت منها بلدا يتميز بموج خاص ، وتربة هى مزيج
من أقسام صحراوية وأخرى صخرية وثالثة خصبة ، فالذين يعيشون فى هذا
البلد أو ينشأون فيه يمتازون بأنهم أقرب إلى البداوة منهم إلى الحضر ، فلعل
هذا هو السبب فى أن شعر المهذب وشعر أخيه الرشيد رصين جزل لا نجد
فيه طراوة شعر أهل القاهرة والفسطاط ، ولا نعومة شعر الأمير تميم
أو إبراهيم الرسى أو حيدرة العقبة ، ولا شعبية شعر ظافر الحداد .

أصيب هذا الشاعر فى أواخر أيامه إبان وزارة شاور بمحنة كان بريئا منها
قد حبسه شاور ظلما بسبب اتصال أخيه الرشيد بصلاح الدين يوسف بن أيوب

إبان حصار الإسكندرية . فأخذ المهذب يستحلف شاور ، ويرسل إليه الأشعار في مدح ابنه الكامل بن شاور ، فمن ذلك قوله :

إذا أحرق في القلوب موضع سكنها	فمن ذا الذي من بعد يكرم مشواها
ولن زفت ماء العيون بهجرها	فمن أي عين تأمل العيس سقياها
وما أجمع يوم البين إلا لآله	على الرسم في رسم الديار ثرتها
وما أطلع الزهر الزبيح وإنما	رأى النبع أجياد النصور خللاها
ولما أبان البين سر صدورنا	وأمكن فيها الأعين التجل مرماها
عددا دموع العين لما تحدثت	دروما من الصبر الجليل زعناها
ولما وقفنا للوداع وترجعت	لعيني عما في الضائر عينها
بنت صورة في ميكل فلو اتقا	ندين بأديان التصاري عبدناها
وما طربا صفنا القريض وإنما	جلا اليوم مرآة القرائح سراما
ليالي كانت في ظلام شيبني	سراي وفي ليل النوائب مسراما
تأوج أرواح الصبا كلما سري	بأنفاس ريا آخر الليل رياما
ومهما أددنا الكأس بائت جفوننا	من الراح تبقينا الذي قد سقيناها

ومنها :

ولو لم يجد يوم الندى في يمينه	لساؤه غير الشيبة أعطاهما
فيا ملك الدنيا وسائر أهلها	سياسة من قاس الأمور وقاسها
ومن كلف الأيام ضد طباعها	فما بين أهوال الخطوب فنانها
عسى نظرة تجلو قبلي ونظري	صداء فاني دائما أنصداما (١)

فأطلقته هذه الأشعار من سجنه ، وأصطحبه الكامل بن شاور نفسه

وكان المهذب مثل أخيه الرشيد يذم الزمان . ويتألم لأخلاق الناس حوله
فهم سواسية في القوم . وكان يتطلع إلى المجد . فهو يضر بنفسه ، ويضر
بشعره ، فهو يقول في إحدى قصائمه :

كفاه الناس في خلق وفي خلق كفاه الناس والأصنام في الصور

ولم أبت قط من خلق على قة
لا تخلصى بحرئى ومستمع
وكيف آمن غيرى عند نائبة
تأنى المكالم والمجد المؤئل لى
إنى لأشهر فى أهل الفصاحة من
وسوف أرى بنفسى كل مهلكة
لما الملا وإلها متى أمل
ويقول مرة أخرى .

ومن نكد الأيام أنى كما ترى
أمنت عداقئ ثم خفت أحبى
وقد توفى هذا الشاعر سنة ٥٦١ هـ

القاضى الرشيد بن الزبير :

أما ثانى المهذبين الأخوين الشاعرين فهو أحمد بن على بن إبراهيم بن الزبير
الفسانى ، وكان الرشيد أعلم من أخيه . وأخوه أشعر منه ، قد ضرب الرشيد
بهم وافر فى الفقه واللغة والنحو والتاريخ والمنطق والهندسة والطب
والموسيقى والنجوم ، كما كان جيد النثر ، وله تصانيف منها : كتاب « منية
الأملى ، وبلغة المدعى ، وكتاب المقامات . ولعل أشهر تصانيفه هو كتاب
« جنان الجنان . وروضة الأذنان ، الذى تحدث فيه عن شعراء مصر ومن طرأ
عليها ، وجعله ذيل على بقيمة البحر الثمالي ، وهو الكتاب الذى أخذ عنه
المعاد الأصفهانى أكثر مادة القسم الخاص بمصر من كتابه الخريدة . والرشيد
عدة كتب أخرى منها كتاب « الهدايا والغرف ، وكتاب « شفاء الثقة فى سمات
القبلة ، وبحجوة رسالته ، وديوان شعره ، فهو على هذا النحو عالم شاعر أكاد
المصريين وغيرهم . ومحدثنا المعاد أن محمداً بن عيسى الحنبلنى أخذ عن الرشيد باليمن

علم الهندسة^(١)، ولكن الرشيد عرف بالشعر أكثر مما يعرف بهذه العلوم ، حتى قيل : إن سبب قدمه في الدولة أنه جاء القاهرة بعد مقتل الخليفة الطاهر ، وحضر المأتم مع الشعراء ، فقام آخرهم وأشد قصيدته التي مطلعها :

ما لرياض جميل سكرنا هل أسقيت بالمون خرا
إلى أن وصل إلى قوله :

أفكر بلائنا بالعراق وكر بلائنا بمصر أخرى

فضع القصر بالبكاء ، واثالث عليه العطايا ، ومن ثم بدأت صلته بالقصر والوزراء ، ثم أوفد مبعوثا إلى ابنه ، ولا ندري الأمر الذي من أجله أوفد إليها ، وإن كان صاحب كتاب الفترات والتراعات ، يشير إلى أن الرشيد لم يكن رشيدا في بطنه ، ولعل هذه إشارة إلى ما روى أن الرشيد قد قضاه ابنه ولقب هناك بقاضي قضاء ابنه وداعي دعاة الزمن ، وأنه مكث هناك عامين فقيل : إنه مدح الأمير علي بن حاتم الحمداني بقصيدة منها :

لقد أجذبت أرض الصميد وأقعلوا فلست أنال القسط في أرض فسطان
وقد سكفت لي مارب بمأربي فلست على أسوان يوما بأسوار
وإن جهلت حق زعاقف خندق فقد عرفت فضلي غطارف ممدار

لجده داعي عنده وكتب بهذه الأبيات إلى مصر ، فكانت هذه الأبيات سببا في غضب أولى الأمر بمصر عليه ، كما غضب أولو الأمر ببغداد ، فأخذ الرشيد وحبس ثم صفح عنه . وقيل : بل إن السبب غير ذلك ، وذلك أن نفسه نمت إلى مرتبة الخلافة في ابنه فغضب فيها ، وأجابه قوم وسلم عليه بها ، وضربت له السكة فقتل على وجهه ، قل هو الله أحد ، الله الصمد ، وعلى الوجه الآخر الإمام الأجدد أبو الحسن أحمد ، فقبض عليه وأرسل إلى مصر مكبلا

ثم أفرج عنه . ولعل الرواية الأولى أصح من الثانية ، فإن الرشيد وقد علمنا ما كان عليه من علم وهن ، لا يبلغ به الأمر إلى أن يدعى الإمامة في الوقت الذي أنكرت فيه إمامة الحافظ والقاهر والطاهر والعاقد ، ودعى فيه للإمام

المستور ولقائم القيامة ، ثم إن مركز الدعوة للإمام المستور انتقل من مصر إلى اليمن منذ مقتل الأمر بأحكام الله ، فكيف يدعى الرشيد الإمامة في اليمن ، وجميعهم يعرفون شروط الإمامة وأهمها : أن يكون الإمام من نسل النبي ، وأن يكون الإمام قبله قد نصر عليه ، ولعل القائلين بأمر مصر في ذلك الوقت لم يكونوا من النباء والبله لدوجة المفو عن مثل هذا الرجل الدعي ، ولا سيما في إبان حكم الملك الصالح طلائع بن رزيك ، وقد عرفناه من أشد وزراء ذلك العصر نعضباً للذهب والإمامة ، لهذا كله أرى أن الرشيد إنما أمسك وسجن بسبب حقد داعي عدن عليه . وقد رأينا قصيدة أخيه المذهب التي أرسل بها إلى داعي اليمن حينما قبض على الرشيد ؛ فلم نجد في هذه القصيدة إشارة إلى ادعاء الرشيد الخلافة ، وقد علم الرشيد بأمر هذه القصيدة فأجاب أخاه بقصيدة هي :

ياربع ، أين ترى الأحبة يعموا	وحلوا ، فلا خلت المنازل منهم
وسروا ، وقد كتموا الغداة سيرهم	وحياء نور الشمس مالا يكتم
وتبدلوا أرض العقيق من الحمى	روث جفوى أى أرض يعموا
زلاوا المذيب ، وإنما في مهجتي	زلاوا ، وفي قلب المقيم خيموا
ما ضرهم ، لو ودعوا من أودعوا	فانفرا ، وسلوا من أسلوا
هم في الحشا إن أعرقوا أو أنشأوا	أو أيمتوا أو أنجدوا أو أنهموا
وهم مجال الفكر من قلبي ، وإن	بعد المزار فصفو عيشي معهم
أحبائنا ، ما كان أعظم همهم	عندي ، ولكن التفرق أعظم
غبتهم فلا واه ما طرق الكرى	جفتي ولكن سح بدمك الدم
وزحمت أني صبود بدمك	هيات لا لقيتم ما قاتم
وإذا سلك من أهم صابة	قلت : الذين هم الذين هم
النازلين بمهجتي وبمخفي	وسط السويداء والسواد الأكرم
لا ذنب لي في البعد أعرفه سوى	أنى حفظت العهد لما ختمت
فأقت حين ظعتم ، وعدك لما جرتم ، وسهرت لما نتم	
يا محرقات قلبي بنار صدودم	وفقا ففيه نار شوق تضرم
أسمرتم فيه ليل صابة	لا تنطق إلا بقرب منكم

يا ساكنى أرض العذيب متيم
بعت منازلكم وشط مزارك
لا لوم للأجباب فيم قد جنوا
أجباب قلبى أمروه بذكركم
واستخبروا ربح الصبا تجهركم
كم تظنوننا قادرين ، وما لنا
ورحلتكم ، وبسدتكم ، وظلمت
هيات لا أسلوكم أبدا . وهل
وأنا الذى واصلت حين قطعتم
جلد الزمان على لما جرتكم
وغدتكم بعد فراقكم ، وكأنا
وزلت مقهور الفؤاد بيلة
في معشر خلقوا شخوص بهائم
إن كورموا ، لم يكرموا ، أوعدوا
لا تنفق الآداب عندهم ولا إلا
صم عن المعروف حتى يسمعوا
قافه يبنى عنهم ، ويريد في

دمى إذا حق الفهم الرزم
وهودكم محفوظه صدى غيم
حكمتكم في مهجى قمتكموا
لفطالما حفظ الوداد المسلم
عن بعض ما يلقي الفؤاد للمفرد
جرم ولا سب ، لمن تظلم ؟
ونأيتكم ، وقطعتكم ، ومجرتكم
ينلو عن البيت الحرم الحرم ؟
وحفظت أسباب الهوى إذ ختمت
ظلا ، ومال الفجر لما ملتم
هدف يمر بجانيه الأسهم
قل الصديق بها وقل النديم
يعدا بها فكر القريب وبهم
لم يعملوا ، أو خطبوا لم يفهموا
حسان يعرف في كثير منهم
هجر الكلام فيقدموا ويقدموا
زهدى لهم ، ويذك أسرى منهم (١)

فهذه القصيدة التي أوجب بها عن قصيدة أخيه ، والتي قالها الرشيد وهو أسير
في اليمن ، تريد ما ذهبنا إليه من أن قصة دعوه الإمامة لنفسه ، إنما هي قصة
موضوعة ، فالرشيد لم يشر إليها ولم يعتد عنها ، وإنما يتحدث عن أعدائه
الذين لم يقدروا بحسره ، فلم تنفق الآداب عندهم ، ولم يقدروا إحسانه إليهم ،
فهم سمع عن المعروف ، وهم شخوص بهائم . فالرشيد لم يكن بالرجل الذي
يطلب الإمامة لنفسه ، ثم يقول مثل هذا القول .

كان الرشيد كما وصفه باقوت : على جلالته وفضله ومزله من العلم والنسب

فيصيح المنظر أسود الجلدة بهم الوجه سمج الخلفة ذا شفة غليظة وأف مبسوط
تكلفة الزنوج قصيرا^(١) فكان ذلك سبباً في تهكم شعراء مصر به ، وقد قيل : إن
الرشيدي ولي على المطنخ ، فقال الشريف الأخصب يخاطب الملك الصالح بن وزيرك :

بولي على الشيء أشكاه فيصبح هذا لهذا أما

أقام على المطنخ ابن الوزير فولى على المطنخ المطنخ^(٢)

وبما يروى في ذلك أنه اجتمع ليلة عند الملك الصالح هو وجماعة من الشعراء
والفضلاء ؛ فألقى الصالح مسألة في اللغة فلم يجب عنها بالمصواب سوى الرشيدي ؛
فأعجب به الصالح ؛ فقال الرشيدي : ما سألت قط عن مسألة إلا وجدتني أتوقد
فيهما فأرتجل الشاعر ابن قادوس :

إن قلت : من نار خلقت ، وقت كل التمس فيها

قلنا : صدقت ، فإنا الذي أطفاك حتى صرت لها

وجهاء ابن قادوس مرة أخرى بقوله :

يا شبه لقمان بلا حكمة وخاسر في العلم لا راسخا

سلخت أشعار أوردى كلها فصررت دعي الأسود السالخا

وتروى عنه قصة هي أشبه بقصة الجاحظ مع المرأة التي أرادت قتش
صورة الشيطان على الخاتم . ولعل بسواده ودمامته وقصره كانت من الأسباب
التي جعلته يكثر من ذم الفخر والناس ، وأن يظهر في شعره سمه حزن لعدم
وفاء الإخوان وعدمهم به ، وقد أنشد وهو في السجن :

لئن خاب ظني في رحابك بعد ما ظننت بأني قد ظفرت بمنصف

فإنك قد ظفرتي كل منة ملكت بها شكري لدى كل موقف

لأنك قد حذرتي كل صاحب وأطست أن ليس في الأرض من يني^(٣)

وأنشد مرة أخرى وهو في مصر :

نواصي على ظلي الأنام بأسرم
لكل امرئ شيطان جن يكبده بسوء، ولي دون الوري ألف شيطان^(١)
انصل الرشيد بن الوبير بآل رزيك ثم بالوزير شاوور وابنه، ولي سنة
٥٥٩ هـ انظر على الدواوين السلطانية بالإسكندرية، ثم انصل بصلاح الدين
الأبوي أثناء محاصرته الإسكندرية، فكان ذلك سبب غضب شاوور عليه،
فاختفى الرشيد بالإسكندرية، وفي أيام اختفائه أرسل إليه ابن قلافس
هذه الأبيات:

فدائيت دارا والوصول نسوع	غلك ذو الود الوصول تطوع
حجت ولم تحجب عانك التي	تأق منها يا غمام ربيع
وضعت في صون قضمت وهكذا	يمان قتيت المسك وهو يعنوع
وإلك والبيت الذي قد عمرته	لكاقلب قد ضمت عليه ضلوع
وما أنت إلا العصب لازم جفنه	لينضى بكف إذ يروق يروع
سيفتق عن زهر بديع كيامه	فأذاك من صنع الإله بديع
وتسفر عن صبح شريق دجته	ولاسيا قد كان منه طلوع
كأن بها يا بن الكرام منيرة	لها فوق عاتيك الربوع ربوع
بحيث تريك البر كالبهر ذبل	ويض، ويض أشرفت ودوع
وفرسان حرب لا البعيد عليهم	بعيد، ولا العالي الرفيع رفيع
بذلك لا تعجب، فإني قاتل	وإلك في الفهر الأسم سميع ^(٢)

وظل الرشيد عتفياً إلى أن قبض عليه، وأشهر على جمل، وعلى رأسه طرطور
ووراءه من ينال منه، فكان الرشيد ينشد وهو على هذه الحال:

إن كان عندك يا زمان بقية بما تنهين به الكرم فهاها
ثم صلب شقفا ودفن حيث شئت. ومن غريب الاتحاق أن يدفن شاوور
بعد أيام قليلة في نفس المكان الذي دفن فيه الرشيد. وروى المجلس بن الحباب
صدقة الرشيد بقوله:

ثروة المكرمات بمدك فقر . ومحمل الملا بمدك فقر
بك تجمل إذا حطت الدياجي وتمر الأيام حيث تمر
أذنب الدهر في مسيرك ذنبا ليس منه سوى إيابك عندي^(١)

القاضي الخليل :

هو أبو المعالي عبد العزيز بن الحسين بن الحباب المعروف بالقاضي الخليل
السعدي ولقب بأمين الدين^(٢) . وهو أحد الشعراء الثلاثة الذين كان يقدي
بهم عمارة النبي في منح الملك الصالح طلائع بن رزيق ، والاثنان الآخران هم
أبنا الزبير المنجب والرشيدي ، ولكن يحيل إلى أن الخليل كان أقل الثلاثة جودة
في الشعر ، وأقلهم إنتاجا في القريض . وربما كان عمله في ديوان الإنشاء مع
الموفق بن الخلال أيام الفائر^(٣) ، جملة لا يهتم بالشعر اهتمام زميله أبي الزبير .
وقد رأينا كيف كانت قصيدته في استدعاء الملك الصالح من الصعيد للأخذ بشأ
الخليفة الظاهر ، والقدما . يذكرون أن الخليل له المعاني المبعدة في شعره .
ومثلوا لذلك بقوله :

ومن عجب أن الصوامد في الوغى تحيض بأيدي القوم وهي ذكور
وأعجب من ذا أنها في أكنهم تأجج ناروا والأكف بحور^(٤)

ولا أدري ما الذي أعجب القدماء في هذه الصورة التي أتت بها في البيت
الأول ، فإني لا أعجب بها كما أعجب القدماء ، وإن كنت أعجب بالبيت الثاني
ومن مقطوعاته التي حفظت لنا قوله يتكلم بطبيب :

وأصل بليق من قد غزائ من السقم الملح بمسكين
طبيب طبه كغراب بين يفرق بين عافية ويغيب
أني الخي وقد شاخت وباحت فناد لها الشباب بنسختين

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٥١ .

(٢) مسالك الأصبهان فضل الله ج ١٢ ص ٢١٨٢ نسخة خطية مدار مكتب خصرية

(٣) نوات الوفيات ج ١ ص ٢٧٨ (٤) لتجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٧١

ودبرها بتدبير لطيف . حكاة عن سنان أو حنين
وكانت نوبة في كل يوم نصيرها بحلق نوبتين^(١)

ثم قوله في مدح طيب :

يا وارثا عن أب وجد فضيلة الطب والساد
وحاملا رد كل قس محنت عن الجسم بالباد
أقسم لو قد طبت دمرا لعاد كونا بلا فساد^(٢)

وكأن المجلس من كبار رجال الدولة ، ولقب بالجلس لأنه كان مجلس الخلفاء.
مقربا إليهم ، فلا غرو أن رأينا شعره حصره يلوذون به ويفقدونه مداعهم
فيه ، فقد مدحه ابن قلاؤس بعدة قصائد منها قوله :

عفا طرق إلى عافى الرسوه فلا روى النعام ربى الفهم
وكنت أبا المنازل والنياق فصرت أبا المدامنة والنديم
أميل إلى سلاقة بنت كرم وأذنو من سوائف أم ريم
مدت للسرور نجوم راح بها قدفت شياطين الموم
وكف الصبح يقط ما تبدي بحمد الليل من درر النجوم
فإن توجت راحى كأس راح فشرب الإثم أبوى بالانيم
ولما أقفرت أوكار وقرى عمرت بعزقى أكوار كوى
إلى القاضى المجلس استجدتها أزمه نجدة وحداء خم
فقال لها لسان الدهر : هذا تمام الفضل أودع في تميم
قسم بين شمس ضحى وبحر هداية قاصد ، وغنى عديم
وجل ظلتى خطب وجنب برأى محرب وندى هميم
وملك حاسديه لجاذبه خلأقه إلى الطبع الكريم
عجبت لوجهه ولراحته سنا شمس تبدي في غيوم
ومطلب مداه كبا قلنا ألم العيش أبوى بالانيم

(٢) المصدر ص ٤٠

(١) فوات ج ١ ص ٢٧٨

(٢) الخط ج ٢ ص ٢٢٦ .

وقافية أمر بها إذا ما نضقت معاطف العرب الرميم
تسير وإن أقام بها ثناء وأعجب ما ترى سفر المقيم^(١)
ومدحه رضى الدولة أبو سليمان داود بن مقدم الذى أفتد قصيدة
في وصف حاله ومدح فيها المجلس، ومنها :

١ وقد بكرت بلوم على غوى كأن الرزق يحلبه خيال
تقدر أتى بالحرص أحوى ثراء وذاكم عين الحال
تقول إذا رأيت لإرشاد قولى هبت ألا تهب إلى المعالي
ومن لم يبتغ الدنيا قديماً ولكن لاسيلى إلى الوصال
ولو أدليت دلوك في دلاء متحت به من الماء الزلال
وكم أدليت من دلو ولكن بلا بلل يرد على قدالى
ولا أنا بالكفاف النور راض ولا أنا عن طلاب الكثر سال
ولكن ذاك من قبل اعتلدى على عبد العزيز أبي المعالي^(٢)

كما مدحه الشاعر عماره النيني بمدة قصائد .

ولكن الشاعر أبا القاسم عبة افه بن البدر المعروف بابن الصياد كان
مولماً بهجاء القاضي المجلس ، كثير التهمك بأنه الكبير ، حتى قيل : إن ابن
الصياد أخذ أكثر من ألف مقطورة في أفت المجلس^(٣) ، إلى أن امتصر له
الشاعر أبو الفتح بن قادوس الذى هجا ابن الصياد بقوله :

يا من يعيب أنوقنا لك م لى ليست تصاب
الألف خفة ربنا وقرونك التهم اكتساب^(٤)

وتوفى المجلس سنة ٥٩١ هـ قبل المهذب بن الزبير بشهر واحد ، وقيل : إنه
لما مات ابن الجباب ثمت به المهذب ، ومضى في جنازته بتياب منقبة ، فاستجيب
لثلاث فله وتقص بهذا السب^(٥) . ورث المجلس عدد من الصغراء منهم ابن
قلاص ، فن قوله يرقى المجلس ويمدح ابنه .

^(١) ديوان ابن قلاص ص ٩٠٠ (٢) الحرية ووفه ٩٩ ص ٦٦
^(٣) نوات المزيان ج ١ ص ٧ (٤) المصدر نفسه (٥) المصدر نفسه ص ١٢٤ -

علنا ، وقدمات الكال ، القساويا
وقنا زجى في المصاب مواسيا
وما شجا أن المصالي تحمدك
سألت ، قالوا : مصرع لو علمته
فحين احتوت كف المتون على المنى
ومن يسأل الركبان عن كل غائب
ولما سرى بن نحوه الوجد قاعداً
وسيرت منها بالنوادى نواديا
وعضب جدال قتل الدهر حده
ونور هدى أسرى به خابط الهوى
لمعاه قام الرعد بالجو ناعما
وأسلت الظلمات نور غدائر
تخرمه الدهر الخائل ضائدا
ولو دامه شاكي السلاح محمدا
رهيات جر الدهر من قبل جرماء
وكدر فدماني وجذبة بمدما
جليس أمير المؤمنين ألتها
وقد كنت أجعلها عليك تماثنا
ولولا بيلك اللذان توارنا
ما ألباني عنك ثوب نصير
سقى الرايح القادى ضربهك صوبه
ولا برحت فيك القلوب غفيرة

فيا حسنات الدهر عدد مساويا
فأعوزنا لما عدنا موازيا
ولم تقتصر فيها الكاء العواليا
فأيقنت لكنى خدعت قواديا
تقاهر عن يأسى جناح رجائيا
فلا بد أن يلقى بشيراً وناعيا
ولم أستطع عقراً عقرت القوافيا
شواند بالذكر الجليل شواديا
وما كان إلا قاضب الحد قاضيا
فلما خبت أضواؤه عاش عاشيا
وبالبرق ملطوما وبالنيث باكيا
إلى أن أشاب الصبح منها النواصيا
نخلف حتى الرى في الماء صاديا
لراح كبا لا يشتهى عنه شاكيا
وشد على عاد ، وشداد ، عاديا
ألقا زمانا يثر بان التصافيا
لفقدك قاسم صالحت بواقيا
فرو أسفا كيف استعالت نمازيا
حلاك ملأت الحافقين مراثيا
وأعلاق قلبى باقيات كما هيا
وإن كان يسقى الراتحات النواديا
تسيل بأسراب الدماء المأفيا^(١)

عمارة النبنى :

هو الشاعر الذى يقرن اسمه بأسماء لؤلؤ شعراء العصر الفاطمى ، بالرغم

من أنه لم يكن مصريا . ولكنه وفد على مصر في ربيع الأول سنة ٥٥٠ هـ برسالة من أمير مكة قاسم بن هاشم ، فأدخل حمارة قاعة الذهب بقصر الخليفة . وأنتد قصيده التي مطلعها :

الحمد للعيس بعد العزم والهمم حمدا يقوم بما أولت من النعم
فأعجب الخليفة الفائز ووزيره الملك الصالح ورجال القصر بقصيدته .
فأغدقوا على الشاعر نعمهم وعطاياهم ، فأمر الوزير بأن يحضر حمارة مجلسه الذي يضم كبار رجال الأدب والعلم بمصر أمثال الجليس ، وابن الخلال صاحب ديوان الإنشاء ، وابن قادوس ، والمهذب بن الزبير وغيرهم ، ومكث حمارة بمصر حتى شوال سنة ٥٥٠ هـ ثم عاد إلى مكة ، ومنها رحل في صفر سنة ٥٥١ هـ إلى وطنه الأصلي اليمن ، وفي هذه السنة نفسها ذهب لتأدية فريضة الحج ، فطلب منه أمير مكة أن ينصرف بينه وبين الملك الصالح مرة أخرى ، فجاء إلى مصر حيث أمضى ما بقى من سنى حياته .

اتصل حمارة بمصر بالأحداث التي مرت عليها منذ وزارة الملك الصالح طلائع ابن رزيق حتى انقضت الدولة الفاطمية ، لصلته الوثيقة برجال الدولة إبان هذه الحقبة من الزمان . وبعد شعر حمارة من السجلات والوثائق التي نعلمنا على تاريخ مصر إبان هذه السنوات المضطربة ، التي أدت إلى زوال الدولة الفاطمية . فإن الجزء الذي بقى لنا من شعر حمارة يدل على أنه أنتد في كل حادثة ألمت بمصر في هذه السنين ، فقد كان يمدح الوزراء الذين كان يقدم مقاليد الأمور ، وكان يمدح الأمراء الذين هم كبار رجال الدولة ، فوجد من الحوادث مناسبات لهذه المدائح ، كما أنه وجد منها مادة لكتابة «النكت المصرية في أخبار الوزراء المصرية» وهو أوثق المصادر عن تاريخ هذه الأيام من أيام مصر الفاطمية . كما أنه شارك شعراء مصر في الإشادة بالأعياد المصرية وأيام المواسم . ونحن نعلم أن حمارة كان سنى المنصب ، بل كان متحبا لمنصبه ، ولم يتحول عن هذا المنصب ، بالرغم من محاولة الوزراء والأمراء معه لكي يستق مذهب الفاطميين ، ومع ذلك كله فإن حمارة تأثر بما كان يجري في مصر ، وأسهم مع غيره من شعراء مصر في الإشادة ببقائه الفاطميين ، وقد ذكرنا طرفا

من ذلك فيما قبل . ونستشهد الآن بقصيدته النونية التي قالها في رثاء أهل البيت في عاشوراء ، وخصها مدحا للعلو الصالح ، وهي القصيدة التي أولها :

شأن القرام أجل أن يلحاق	فيه ، وإن كنت الشفيق الحاني
أنا ذلك الصب الذي قطعت به	صلة القرام مطامع السلوان
ملئت زحاجة صدره بضميره	فبت خفية شأه الثاني
بهدرت بحرقتها الدموع فنادوت	سرى أميرا في يد الإعلان
عفت أجفاني فقام بهذرها	وجد يبيع ودائع الأجفان

وفيها يقول حمادة :

يا ضاحي وفي مجانبه الهوى	رأى الرشاد ، فالذي تريان ؟
قبضت على كف الصباية سلو	تهى النهى عن طاعة الصبيان
أسى وقلبي بين صبر عائل	وتجهد قصر وهم دار
قد سهكت حزن الكلام لتأدب	آل الرسول نواصب الأحزان
فأبذل مشايمة السان ونصره	إن فات نصر مهتد . وسنان
واجمل حديث بني الوصي وظلمهم	تضيق شكوى الدم والحذلان
غصبت أمة إرث آل محمد ،	سفا وشفت طارة الشان
وغدت تخالف في الخلافة أهلها	وتقابل البرهان بالبهتان
لم تقنع أحلامها بركوبها	ظهر التناق وطارب العدوان
وقدوم في رتبة نبوية	لم بينها لهم ، أبو سفيان ،
حتى أضافوا بعد ذلك أنهم	أخذوا بأثر الكفر في الإيمان
فأثروا زيادة ، في التبيح زيادة	تركوا يزيد ، يزيد في نقصان
حرب ، بنو حرب ، أقاموا سوقها	وتشبهت بهم بنو مروان ،
لحق على القفر الذين أكفهم	غيث الوري ومعوة القبان
أشلائهم حرق بكل نفة	وجسومهم صرعى بكل مكان
مالك عليهم بالجماء أمة	باعت جزيل الربح بالحسران
دفعا عن الحق الذي شهدت لهم	بائنصر فيه شواهد القرآن
ما كن أولام به لو أيدوا	بالصالح المختار من دنان ،

أنسام المختار صدق ولاته كم أول أربى عليه الثاني (١)
 خذته القصيدة من شعر حمارة تدل على أن الشاعر جلى القوم في عاداتهم .
 روى أشعارهم ، فهو لم يتشيع ، ولكنه لم يستطع أن يتخلف عن غيره من شعراء
 مصر في رثاء أهل البيت في أيام مآثمهم ، وشارك المصريين في احتفالهم ، فله
 عدة قصائد في كسر الخليلج ، من ذلك ما أنشده ستة وتسعين وخمسةائة
 في مدح العاصد :
 سجودا فهذا صاحب الركن والحجر ووارث علم النمل والنحل والحجر
 وفيها يقول :

تمل أمير المؤمنين مواسما	تزورك من صوم شريف ومن فطر
يراصلها سعد بجمدك مقبل	فعام إلى عام وشهر إلى شهر
ركبت إلى كسر الخليلج وإثما	ركبت إلى جبر الرعايا من الكسر
ولما رأيت البر بمرأ من الظبا	تعجبت من بحر يسير إلى نهر
أغدوت بفتح السدي زحف أرعن	يد هبوب الريح بالأمل السمر
يرد ظلام النقع لجرا كأنما	أسقه مضبوحة بسنا الفجر
كان على البيداء منه صحيفة	كتائبها سطر يضاف إلى سطر
إذا خفت أعلامه وينوده	رأيت عليها غرة البحر والنهر
وقد خلع التأييد فوقك حلة	تطرز بالإحسان والعدل والبر
أوارث مجد الحافظ بن محمد	وحافظ حكم الله في محكم الذكر
إذا ما استجاب الله صالح دعوة	فتحك الرحمن بالناصر النختر (٢)

وهكذا اضطر هذا الشاعر السني إلى أن يتأثر بما كان في مصر في العصر
 الفاطمي ، وأن يتأثر بمقائد الفاطميين فأكثر منها في شعره ، بل بلغ به تأثره
 بالفاطميين إلى أن يرثيهم ويثني عليهم في الوقت الذي تحلى عنهم جميع المصريين
 وشتمهم أعداؤهم العباسيون وجمهور أهل السنة ، فحمارة اليمنى السني المذهب
 كان ولياً لهم الوفا . كله ، فأشد قصيدته التي مطلعها :

(١) التكت من ٣٦٤ وما بعدها (٢) المصدر نفسه ص ٢٣٥ .
 (١٧ - أدب مصر)

وميت يادمر كف الجند بالشلل . وجيده بعد حسن الخلق بالعدل
وفيا يقول ، بعد أن وصف أيامهم وذكر أعيادهم ومشاقهم :
وفاه لا قاز يوم الحشر ميختمك ولا نجا من عذاب الله غير ولي
ولا سقى الماء من حر ومن ظمأ من كف خير البرايا عاتم الرسل
ولا رأى جنة الله التي خلقت أنمي وعداتي والنجسيرة لي
ثاقه لم أوتهم في المدح حقم لأن فضلهم كالزابل المطل
ولو تضاضت الأقوال واتسعت ما كنت فيهم بحمد الله بالخجل
باب النجاة من دنيا ، وآخرة وجههم فهو أصل الدين والعمل
نور الهدى وصاسيع الدجي وعمل الفيت إن ربت الأنواء في المحل
أنمي خفقوا نوراً فتورم من محض خالص نور الله لم يفل
وفاه ما دلت عن حي لم أبدا ما أخر الله لي في مدة الأجل (١)

فكانت هذه القصيدة وما قيل من أنه اشترك مع نفر من الأوفياء الفاطميين
إعادة ملكهم ، بتولية ابن الماضد سياً في القبض عليه معهم وصلبه
سنة تسع وستين وخمسة ، واتهمه الفقهاء بالكفر ، وقال فيه تاج الدين
الكندى الشاعر :

عمارة في الإسلام أبدى خيانة وباع فيها يمة وصليبا
فأسمى شركك الشرك في بعض أحد فأصبح في حب الصليب صليبا
وكان خيبت الملتقى إن عجمته تجدد منه عودا في النفاق صليبا
سليبي غذا ما كان يسمى لأجله ويسقى صدايدا في لظى وصليبا (٢)
وعكذا أصاب عمارة ما أصاب الفاطميين الذين حبروا بأموالهم وعظاياهم
وأكرموا الإكرام كله ، تقابل ذلك كله بوفاء الوفي الأمين .

ابن قلاؤس :

أبو الفتح نصر الله بن عبد الله بن مخلوف بن علي بن عبد القوي بن قلاؤس

الشمسي الإسكندري ، ولقب بالقاضي الأعز ، ولد بالإسكندرية سنة ٥٣٢ هـ .
وبها نشأ وتثقف فأخذ عن الحافظ أبي طاهر السلفي وعن غيره ، ثم رحل عن
مصر إلى الين فدخل عدن سنة ٥٦٣ هـ متكباً بشعره فندح بها ياسر بن بلال ،
ثم سافر إلى صقلية سنة ٥٦٥ هـ ومدح بها القائد أبا القاسم بن الحجر ، وصنف
باسمه كتاباً سماه الزهر الباسم في أوصاف أبي القاسم ، وشاء العودة إلى مصر
وقوف بميداب سنة ٥٩٧ هـ^(١) . فالحاضر كان يتجر بشعره ويرحل إلى المدوحين
بقصد الكسب ، مع أنه اتصل ببعض رجالات مصر وأخذ نواهم . مدح
الحليفة الفاطمي بقوله :

فأفح رجاءك وأطلب فسحة الأجل	في مرتقى الوحي تعلو مرتقى الأمل
قد تأملت منه وأهب الدول	لا تتجمع للأمانى بصدده دولا
قناس أيامه عن صفوة الرسل	وانظر إلى صفوة الخلق التي ظهرت
لعادواهي قرون الرأس كلوع ^(٢)	لبوعاد ينطح ذو القرنين صخرته

ومدح الوزير شاور ، وعرض بشيركوه بقوله :

ورأى البأس أن تطيع الصبا	عارض الصفح في يدك الصفاح
نب بعفو خفضت منه الجناحا	خرفعت الجناح عن جدم الذ
عزم والرأى إن وضعت السلاح	ووضعت السلاح حين أراك الـ
ح فلم يبتدر إليه اقتساح	أى ثمر سما إليه أبو الفـ
مر فراحت بها تبارى الرياحا	يعيول طارت بأجنحة التـ
لى وساقوه في السباح صبا	وكأه غرق قد اقتطموا اليـ
ب شقيقا ما كان قبل ألقا	وبدماح نجى فتنجيك في الحر
أقمت بالضراب رجاء لقاحا	وطي قطع التراب مهـ
ل وصاحت به فصاحا فصاحا	شاركت شيركوه في النفس والمـ
رف منك الطلاب إلا النجاحا	طلب الأمن فاستجيب وما يـ
سبلا غودرت لديه فصاحا	بصد ما ضيق الحمام عليـ

(١) راجع معجم الأدباء ج ١٩ ص ٢٢٦ وابن خلكان ج ٢ ص ١٥٦ .

(٢) ديوان ابن قلاص ص ٨٨ .

وأنت كالمسور حاة خربت باقنا عليه القدا
 فليطل بعدما القنار قد را ح طليقا ليحكم حيث راحا
 يامل للبا البوانر حربا ترك المجد والمسال محاسا
 فيك في والخليفة سر أومحاء لبحر لرحاسا
 ذاك أطاك آية النصر تمر بما، وهذا أطاك لكالسرا (١)

ومدح الكامل بن شاور والقاضي المجلس والقاضي بن خليف والمافظ
 السني وابن ممال والقاضي الفاضل وغيرهم من رجال مصر، فن مدائح
 الكامل ابن شاور قوله:

حد العري من كنت ونجه صباح
 ورأى النجاح مؤسل ألمته
 وأما وعزمك وهو أنهن فاك
 وبيع مدحك وهو أبن متجر
 فالخر بسمن فريده وفرنده
 بأس تورد في غمدود شقيقه
 والكامل المسود في آفاته
 بمناقب سمع النجوم ليلها
 ومواهب كان السحاب ممينها
 يا آل شاور أتم دون الزوى
 وللمعاليحكم لشارة خرسه
 لم لا يكون الفكر عندك متجا
 وتذاك قولم بأمر لقاه (٢)

ولكنه كان مولماً بالأسفار وركوب البحر، ولذلك يقول:

والناس كثر ولكن لا يقدر لي إلا مرافقة الملاح والحادى (٣)

ويقول: في مدح ياسر بن بلال الداهى بمدينة عدن، وكان قد فارقه.

(١) ديوان ابن تالاس ص ٢٥.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٧.

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ١٥٧.

ولكن سفيلته غرقت فعاد إليه مرة أخرى وأنفذه هذه القصيدة يصف فيها
غرفة ، ويتحدث عن ولعه بالأسفار :

سافر إذا ما شئت قدرا سار الهلال فصار بدرا
والماء يكسب ما جرى طيباً ويغيث ما استقرا
وبثقة الدرر النقي به بدلت بالبحر غمرا
وصلا إذا امتلأت يدك فإن مما حلتنا فهجرا
قال بدر أتفق نوره لما بدا ثم استقرا
حركات عينك ما أودت مهاد عينك أن يقرأ
لما ترى صاحب السوجنات قد ألبست طمرا
فوقائع الأيام تخرج أهلها شعرا وغمرا
مدت إلى الأربصو ديدا وقد فهرت عشرا
واستحدثت في لقي قطعا فبلا كن جبرا
ما قلت أف فإنها شرر بأف يعود جبرا
وكفك أن إن نظر ت لها نظرت النجم ظمرا
كان الشباب الغض لي لا فاستنار الشيب غمرا
وإن قلب في الزما ن كما انتهى بطنا وظمرا
فبما قلت صروفه وقتله جلدنا وغمرا
غاض الوفاء وقاض ما الفدر أنهارا وغمرا
فانظر بينك هل ترى عرفا ، وليس تراه نكرا
خلق جرى من آدم في نكه وطم جبرا
ومروحي بالبحر يحسب اتقى أوتاع جبرا
أو ما ددى أني بقسميل المصاعب منه أدري
أصعدت نظرة دياره نحوى وسوف تعود دياره
من صرف الأقدار في أيامه كسرا وجبرا
واستخدم الأيام في أحكامه نوما وأمرا
واتأشني في نظرة أول سببها بأخرى

فالسحب ترشح إذ جرت	في إثره بالمجد قطرا
والرعد رجع جامعا	أقامه قبا وبهرا
فوس الصنائع في الرقا	ب فأنت حدا وشكرا
بظان ابن نهته	عرا أو استنجبت عرا
ولرب طرة معرك	سوداء أعدته طرا
أسرى إلى أبطالها	فأبادم قتل وأسرى
من كل متشح على	نهر الفلاس الزحف نيرا
جروا النوايب والندا	بل خلفهم يضا وسيرا
فالسيف يفرج بينهم	بثيقه ، والضيف يفرى
باداوبا عن شخصه	خبرا ولم يعرفه خبرا
والثم بنان يمينه	وقل السلام عليك بجرا
وعطفت في تشبيها	بالبحر ، ألهم غفرا
أو لست قلت هذا ندى	جما ، وثلت بذاك قفرا
بنوافذ تزو الرجا	ح لها بطرف المحقد شورا
لا زال ينظر حودها	بنداء لمن للثمن نصرا ^(١)

وهذا الشاعر الرحالة كان يميل إلى الإكثار من المحسنات البدئية في شعره .
 بخلاف بعض الشعراء الذين طسروه أمثال المذهب والرشيذ والجليس وغيرهم ،
 وإن كان هؤلاء الشعراء قد ألجأوا بالمحسنات البدئية ، ولكنهم لم يعتمدوها كما
 تعتمد ابن قلاؤس الذي كان يجهد نفسه على ما يظهر لنا في الإتيان بهذه
 المقابلات والتورية وغيرها من ألوان الربة الفنية .

* * *

من هذا الفصل نستطيع أن ندرك كيف كان للوزراء أثر في حياة الشعر ،
 في العصر الفاطمي ، وكيف اجتمع الشعراء حول الوزراء يمدحونهم ويأخذون
 حظا يام ، أسوة بما كان يحدث لدى الخلفاء . أقسم إبان سطوتهم وقوة ملكهم ،

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ١٥٧ وديوان ابن قلاؤس ص ٣٨ .

ونحن نأسف أن يضيع أكثر شعر هؤلاء الشعراء ، فلم يصلنا منه إلا هذه القطع المتفرقة أو القصائد الناقصة ، ومع ذلك فالذي بقى لنا من الشعر يدلنا على أن نهضة الشعر كانت قوية ، وأن تياره كان جارفاً ، وأن عدد الشعراء المجيدين تضاعف بحيث يحيل إلينا أن كل مثقف في ذلك العصر كان ينفد الشعر ، وأن كتاب النواوين والقضاة كانوا من الشعراء ، ويمكن أن نلقى نظرة على مجاميع الشعر ، أمثال القيمة والدمية والحريفة ، أو كتب التراجم ، لندرك أن عدداً كبيراً جداً من المصريين أنفد الشعر ، وأن الشعر كان من الجودة بحيث استطاعت مصر أن تبرز غيرها في مضمار القريض .

المفصل الرابع

الشعر والحرب الصليبية

يجل لكل من يقرأ تاريخ الفاطميين في مصر أن مصر في هذا العهد كان يسودها الأمن ، وأن المصريين كانوا يعيشون في دعة ولين ، ألم يتحدث المؤرخون عن النعم الذي كان في العصر الفاطمي ، والترف الذي كان يرفل فيه المصريون ، والحياة الناعمة التي كان يحياها الناس ؟ ولكن المؤرخين أنفسهم تحدثوا أيضا عن لون آخر من الحياة ، هي حياة الاضطرابات والحروب الكثيرة التي كان يقضا أعداء الفاطميين على لادم وملكاتهم منذ أقام الفاطميون دولتهم في شمال إفريقيا ، فقد كان أعداؤهم يحيطون بملكاتهم من كل جانب ، ويتحينون الفرص للإيقاع بهذه الدولة الفاطمية التي قامت تثل عرش العباسيين في المشرق والأمويين في المغرب ، كما كان أمام الفاطميين عدو المسلمين المتيد - أعنى الروم - ودول جنوب أوروبا التي كان يهدمها الفاطميون من صقلية ومستعمراتهم في إيطاليا ، حتى إذا كان النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة رأينا الفاطميين يشقون في حروب صعبة المراس ، هي التي عرفت في التاريخ بالحروب الصليبية . أضف إلى ذلك كله ما ذكره المؤرخون أيضا من قيام غزوات على الدولة الفاطمية في مصر وفي مملكتها ، وحروب بين الأمراء لتولى الوزارة . فكل هذه الاضطرابات والحروب اضطلمت بها مصر بعد أن أصبحت عاصمة الإمبراطورية الفاطمية ، وسجل الشعراء هذه الحروب في أشعارهم ومدائحهم ، فالأمر نعيم مدح أعاء الإمام العزيز باقة عندما هزم مفتكين الشرايين التركي - مولى معز الدولة البويهى - في دمشق ، ثم طلب العفو من العزيز ، فوصف نعيم هذا الحادث بقوله :

وإنا لغوم زروع الزمان ولنا نراع إذا ما سطا
ومنا الإمام العزيز الذي به عاد سيف الهدى متحيا

سعى للقاء وقد أصبحت
فكشفت من ليها ما سجا
ولما قابلت الجفنان
ولم يبق في الصف من قاتل :
وقد ولعت في الصدور الرماح
وغنت على البيض يض الذكور
كان الرماح سكارى بحور
فوللا الإمام العزيز الذي
فكرت عارض شؤبها
بدا لهم دارعا في السجاج
يكر ويسم في موقف
ولم يخذل السيف منه بدا
يقود إلى الحرب من جنده
ظو فنت الحرب قوما ، إذن
ظم تصدر الرمح حتى انثنى
ولم يحمل الموت حتى حملت
فا اخرجت منك إلا واثت
لجارك منهم ملوك الرجال
ولاذوا بضوك مستأمنين
ولما رأى قتها هفتكين
تولى لينجو لخت به
ولو طلب الغزو قبل الهروب
ولكنه اعتاد فيها الإباق
وردم الخلاص وكيف الخلاص
ولم يك كفوك في حربه
وقد هزم الأسد حتى انتهاك

بها الحرب نزاعة القوى
وقوم من زينها ما القوى
وعاد كضج الظلام الضجى
هل ، ولا من يجيب . أنا
وصلت لبيض السيوف الطلى
غناء بعيد الفرادى تنى
ل بها الخيل في النقع قب الكلا
تداركها ومى لا تصطل
وأمسك من سجلها ما اننى
كصج بدا طالعا في العصى
عبوس الككاة به قد بدا
ولم يكن الروع منه حشا
أسود رجال كأسد الشرى
لنفتك صارخة بالصد
ولم تفسد السيف حتى انفرى
ولولاك ما غاب ذاك القطى
بها الفارس الملك المتقى
وقدلك منهم ذوات القى
ولم يجدوا غيره ملجأ
عليه وأخلفه ما رجا
جيشك واستوقفته الربا
لكنك له خافراً ما مضى
وليس التقي كل يوم قه
وقد بلغ الماء أعلى الإذن
وإن كان في بأسه المنتهى
قلنا رآك قدا لا يرى

فراح وحشو حياه أسي وقد ملئت مقلته عي
أربهم وقصات تزيد على وقصات النمر الآلي
يخداد من ذكره جولة تنود عن المارقين الكرى
فأنصر ديلها تقتدى ونعى على مثل جمر النضا
إذا سمعوا بالإمام العزيز أساءوا الظنون وحلوا الحبا
يخافون من بأسه وقعة تنود عليهم بقطب الوحى
ينادى « بويه ، بنيه بها ويندهم وهو رهن البلى »^(١)

ونحن مضطرون إلى أن نترك هذه الحروب الكثيرة التي خاضها الفاطميون
وأن نمر بالأشعار التي أنشعها شعراؤهم في وصف تلك المعارك ، لتتحدث عن
شعر الفاطميين في هذه الحروب الطاحنة التي شغلت العالم الإسلامي عدة قرون ،
وكانت مصر هي الدولة الإسلامية الكبرى التي أوقفت مواردها ورجالها للنفود
عن البلاد الإسلامية وعن الدين الإسلامي ، ووقفت أمام مسيحي أوروبا تكافح
وتتاضل طوال هذه القرون ، حتى أدخلت اليأس في قلوب الأوربيين ، وجعلت
آمالهم وأحلامهم قصوراً بنيت في الهواء .

ظهرت الحرب الصليبية الأولى سنة ٤٩٠ هـ في عهد المستنصر ووزيره الأفضل
ابن بدر الجمالي ، وليس لنا في هذا البحث أن نعرض لهذه الحروب الصليبية من
الناحية التاريخية ، ونكتفي بأن نذكر أن الأفضل استهان بأمر هذه الحركة في
أول الأمر ، ولم يدرك الأخطار التي نجمت عن تجاهله وتهاونه ، بيد أنه بدأ
يدرك خطأ تقديره بعد أن استولى الصليبيون على أخطاكية ومعرة النعمان سنة
٤٩١ هـ وواصلوا زحفهم إلى بيت المقدس ، فاضطر حينئذ إلى أن يعي جيوشه
ويرسلها إلى فلسطين من طريق البحر والبر ، ولكن جيوشه هزمت أمام
الصليبيين سنة ٤٩٢ هـ بهوار بيت المقدس ، واضطرت إلى الانسحاب إلى عسقلان
ثم إلى العدة إلى مصر . على أن شعراء الأفضل ذكروا لنا أن سبب عودة هذه
الجيوش المصرية لم يكن هزيمتها أمام الصليبيين ، بل سبب ثورة بعض الجنود

على الأفضل وتأمرهم لفتك به ، ولعل قصيدة أمية بن أبي الصلت التي رويها
من قبل تدلنا على أن الشعراء أخذوا ينتدرون عن الأفضل وعن انهزامه فبعثه
الحرب الصليبية الأولى . وفي هذه القصيدة إشارة إلى مؤامرة الجنود ، كما أن
الشاعر بصرح بأن وزير مصر هو الوحيد الذي قام بالندود عن الدين ونصرة
المسلمين ، على حين ظلت البلاد الإسلامية الأخرى لاهية عن هذا الخطر الذي
دمهم ، فهو يقول :

جرت الدين ، والأسياف مضدة سيفا تفل به الأحداث والغير
وبعد أن تحدث الشاعر عن شجاعة الأفضل وإقدامه في الحروب ،
أخذ في الاعتذار عن هزيمته ، وتوعد الصليبيين بعودة الأفضل إليهم
والانتصار عليهم :

وإن لم نكسوا يوماً ، فلا عجب قد يكهم السيف وهو العارم الذكر
الودد أحمد والأيام ضامة عني التجاح ووعد الله ينتظر
وربما ساءت الأقدار ثم جرت بما يرك ساطت لها أخر
وقل القرظي عن ابن بطويرة : أن الأفضل قصد استنقاذ الساحل من يد
الفرنج ، فوصل إلى صقلان ، وحذف عليها بذلك العسكر ، فخلد من جهة صكره ،
وهي نوبة النصرة ، وعلم أن السبب في ذلك من جنده ، وكان عند الفرنج شاعر
متجمع إليهم ، فقال يخاطب صنجل ملك الفرنج :

فصرت بسيفك دين المسيح فله دوك من صنجل
وما سمع الناس فيما روه بأفصح من كسرة الأفضل
فوصل الأفضل إلى ذبح هذا الشاعر (١) .

وحاد الأفضل إليهم ، وكانت جيوشه تصاب بهزائم متكررة ، ولكنه لم يياس
من الظفر ، واضطربت أمور مصر من بعده حتى ولي الملك الصالح طلائع بن
وزيك ، فأخذ يرسل الجيوش المصرية لمحاربة الفرنج ، فكان يقتصر حينها
ويهنزم حينها آخر . وسجل شعرائه هذه الحروب ، فمن ذلك قول شرف

(١) القرظي ج ٢ ص ٢١٠ .

الدولة ابن جبر أبو محمد يحيى بن حسن في إحدى المادك التي خاضها ابن
رزيك ضد الفرنج :

أطلى ابن رزيك طيب ضرامه والبيض تحط في الروس قسقم
وكتائب الشرك كنت إزاءها متعرضاً فانقض ذلك الجمع
ولكم صرعت من الفرنج سيمطا بلفظه لك قيل : أنت سيمدع^(١)
وقال المهذب بن الزبير في حروب ابن رزيك ، ولم يذكر المهاد الواقعة التي
كانت سبب هذه القصيدة ولا تاريخها :

ونلقى البحر منه بليك ظب غدت سمير الزماح له عرينا
تخال سيوفه إما اتضاها جداول والزماح لها غصونا
ونصب خيله حقيان دجن يرحن مع الظلام ويستدينا
إذا قدحت بمنح الليل أورت سنا يفتى عيون الناظرينا
وإن صبحت مع الإصباح عدواً أثارت للججاج به دجونا
كان الشمس حين تشر قما تحاذر من سقاء أن تبتنا
وما كفت بدور الأفق إلا أمى إذ أبصرت منه الجبينا
وما اضطربت زماح الخط إلا عذابة أن يحطبا مينا
وما تندق يوم الروع حتى يندق بها الكواهل والمتونا
عجت لها تصافح من يديه وتوصف بالظلم ، بحرأ مينا
ويوردها ولا تحظى برى فطافا من ددوع الدارينا
رهل يفتى لها أبدا غليل وقد شربت دماء الكافرينا
إذا لقيت عيون الروم زرقا حسبب فصالحا تلك البيونا
تخال البحر مد به خليج إذا ما مد بالقضب اليينا^(٢)

ومرة أخرى ذكر المهاد أن الملك الصالح أرسل أسطوله سنة ٥٥٢ هـ
لحرب الصليبيين ، واتصر الأسطول ، فأند المذهب بمدح الصالح ويصف
الأسطول . ومن هذه القصيدة ندرك أن الموقعة كانت بالقرب من العريش :

أعلت حين تجاوز الحيان
لما أبوا ما في الجفان قريبهم
ونظت في يوم العريش عروشهم
ألماتهم البحر لما أن جرى
مدح الوري بالباس إذ غضبوا الغلبا
ولانت تخضب كل بحر زائر
حتى يرى دمهم وخضرة مائه
وكان بحر الزوم خلق وجهه
وقد أتى الأسطول حين غرابها
أحب إل بها شوائ أصبحت
شبه بالفران و ألوانها
وقرنتا عدد القتال قد غدت
حرب عوان حكمتك من العدا
وأعدت رسل ابن القديم إليه في
والفأل يشهد باسمه أن سوف
وأواك من بعد الشهيد أباه
وهو الذي مازال يفضل في العدا
قتل البرنس ومن عاه أعانه
وأدى البرية حين عاد برأسه
فليته أن فاز منك بسيد

أن القلوب موافد النيران
بصوامد سلك من الأصفان
بشبا حراب صادق وطمان
منه ومن دمهم معا بجران
في يوم حربهم من الأقران
عن تجاوز بالتجميع القاي
كشقاتي ثرت على الزمان
وطفت عليه منابت المرجان
لم يأت في حين من الأحيان
من قسكها ولها العداة شوائ
وقمان فعل حكواسر العقبان
فيها القتا عوضا من الأبطال
في كل بكر ضددم وعوان
شيمان كيا يلام الضمبان
يندو القمام وهو عليك قسبان
وجسته من أقرب الإخوان
ما لم يكن ليعد في الإمكان
لما صا في البنى والعدوان
مر الجنا يبدو على المران
أدنى برتبه على كيوان^(١)

ولعل هذه القصيدة تبين لنا ناحية تاريخية عامة لم يذكرها المؤرخون في كتبهم ، ولم يتحدث عنها المؤرخون من الغربيين ، تلك هي علاقة الملك الصالح بن رزيق بنور الدين زنكي بإبان الحروب الصليبية ، فالشاعر هنا يذكر نور الدين ، مرة يذكره (بإبن القسم) أي ابن قسم القولة أنا بك زنكي ،

ويذكره مرة ثانية بالقب الذي عرف به وهو (الشهيد) ، ويتحدث الشاعر عن الاتفاق الذي كان بين الملك الصالح وبين نور الدين ، ويقضى هذا الاتفاق على أن يواصل الحرب ضد الصليبيين حتى يتركوا الشام ، فتقسم حينئذ بين مصر ونور الدين ، هذا الاتفاق الذي أشار إليه الملهذب في هذه القصيدة لم يذكره أحد من المؤرخين ، وينبئ على ظني أنه لولا هذه الصلة الوثيقة التي كانت بين الشاعر والملك الصالح لما استطاع الشاعر أن يعرف مثل هذا الاتفاق الذي كان بين العاهلين .

وفي عهد الملك الصالح طلائع بن رزيك ، كان الصليبيون يمحنون في شن غاراتهم على حوران وما حولها من البلدان ، ووردت الأنباء بأن عسكر المصريين استولوا على عسقلان ، وقتلوا ما بها من عسكر الفرنج ، وسر المصريون بذلك الانتصار سرورا عظيما تلح أثره في قصيدة الملك الصالح التي أرسلها إلى أسامة بن منقذ صاحب حصن شيزر ، وأحد الأمراء الذين كانوا يساعدون نور الدين زنكي في حروبه ضد الصليبيين :

ألا هكذا في الله تمنى العزائم	وتعنى لدى الحرب السيوف الصوامير
وتستزل الأعداء من طول عزم	وليس سوى سحر الزمام سلام
وتفزي جيوش الكفر في عقر دارها	ويوطأ حامها والأنوف وواغم
ويوفى الكرام الناذرون بنذرهم	وإن بذلك فتيا النفوس الكرائم
نذرنا سحر الجيش في صفر فأشد	شيء حتى استأثرت وهو غانم
بشاه من مصر إلى الشام قاطعا	مفاوز ، وغد المير فيهن دائم
فأهاله بمد الديار ولا شيء	عزيمته جهده عظيما والعتائم
يأري خيولا ما توان كأنه شاة	إذا هي بما اقتضت في نورهم
يسير بها دخر غام ، في كل مأزق	وما يصحب الضرعام إلا الضراغم
وواجبهم جميع الفرنج بحملة	تهون على الشجآن فيها الهزائم
وما زالت الحرب العوان أشدعا	إذا ما نلاق العسكر المتضام
وعادوا إلى عز السيوف قتلعت	ردوس وحزت للفرنج غلام
فلم ينج منهم يوم ذاك غير	ولا قيل : هذا وجه اليوم سالم

يقولوا « لنور الدين » لا قل حده
 تجهز إلى أرض العدو ولا تن
 فامثلها تبدي احتفالا به ولا
 فمذك من أطفاف ربك ما به
 أعادك حيا بعد ما زعم الوري
 بوقت أصاب الأرض ما قد أصابها
 وخيم جيش الكفر في أرض شيز
 فقم واشكر الله الكريم بنهضة
 فنحن على ما قد عهدت نروصهم
 وغاراتنا ليست تقتر عنهم
 فأسلولنا أضعاف ما كان سائرا

ولا حكمت فيه الليال النواشم
 وتظهر قوتوا إن مضت منك (حارم)
 بعض عليها للوك الأباام
 علنا يتينا أنه بك واهم
 بأنك قد لاقت ما الله حاتم
 وحلت بها تلك الدواهي العظام
 فبقت سببا واستطعت عارم
 إليهم ففكر الله للخلق لازم
 وتحلف جهدا أتسا لا نسالم
 وليس ينحى القوم منا الهزائم
 إليهم فلا حزن لهم منه. حاصم^(١)

ومرة أخرى يرسل الملك الصالح إلى أسامة :

يا سيدي يسو به
 أنت الصديق وإن بعد
 يملك أن جيوشنا
 سارت إلى الأعداء من
 قنير هذى بحكرة
 فالويل منها لفرنج
 جاءت ده وسهم تلوح
 ته إلى الرتب العلية
 ت وصاحب الشيم الرضيه
 فقلت فصال الجمالية
 أبطالها ماتتا سريه
 وتعاود الأخرى عشي
 قد لقوا جهد إليه
 على رؤوس السمويه^(٢)

وفي قصيدة الشاعر ابن الصياد حديث عن موقفه بين الملك الصالح
 والصليبيين وعن قتل مقدم خيل الفرنج الذي سماه ابن الصياد « بأرناط »
 واسمه الصحيح « رينولد » . Renauld .

قال ابن الصياد :

عن سيف دين الله بل « أرناط » ، حيث المنية كأسها يتماطى

والمشرقية قد حكك في جيشه
قد نام طير الكفر منه منمرا
هو ليس جيش العدا في الحرب من
لجياؤه تشكو مزاحمة القنا
هو فارس الإسلام يحفظ بالقلب
كم قد أثار من الأسته أنهما
قتاله ملكا رى بشباه
في الروح شيطان الحروب فضاطا^(١)

ويعتدنا عمارة النبي في التكت أن في وزارة الملك الصالح غزا الصليبيون
مصر ووصلوا إلى إقليم الحوف ، فأرسل الوزير الجيوش بقيادة ابنه العادل
الناصر خلفهم وطاردهم إلى أبي عروق من إقليم فلسطين ، وعاد بجيوشه مستمرا
إلى بلبس ، ففرق في الجيش مالا كثيرا ، وخلق على الأعيان . ويذكر عمارة
أن له ولغيره من شعراء مصر شعرا في هذه الموقعة ، ولكن لم يصل إلينا
من هذا الشعر إلا مقطوعة من قصيدة لهارة منها قوله :

أنت الذي يمدد الإسلام خصره
عليه إن جل خطب أوطرا وطرا
متوج تشرق الدنيا بطلته
وتجفل الشمس مهما لاح والتمر
إذا أقامت على ثغر صوارمه
فلنوائب عن سكاكه سفر
ومنها قوله :

أغاث أحوال د بليس ، وأمنها
وحين أبليت عذرا في الحاق بهم
وقال : عزمك لما أن ألح ولم
إن ينبج منها د أبو نصر ، فمن قد
وعدت نحو مقر المزم في صعب
والموارم في أنفانها أسف
من بعدما غالما الإشفاق والحذر
والنصر يقسم لا فاتوك والظفر
تلح له منهم حين ولا أفر
نجما ، وكم قدوة قد غالما القدر
يضى بها الأكثران : الرمل والمطر
تكاد من حره الأجفان تستر^(٢)

(١) المزمعة ورقة ٦٧ .

(٢) التكت من ٤ وما بعدها من ٢٤٧ .

١ هذا الشاعر الذى مدح الوزير بالتصاده على الصليبيين محدثنا أن ابن الوزير نجما من هذه الموقعة (عن قدر) ، فهذا البيت إنما يدل على أن الحرب بين الفريقين كانت عميرة شاقة كاد يقتل فيها ابن الوزير ، ولكن التقدر فقط هو الذى أنجاه من خطر عتق . ومع ذلك قد وصلت إلينا قصيدة أخرى من شعر حمارة فى مدح الملك الصالح ، وفيها ذكر لهذه الموقعة ، منها قوله :

تيقنت الإفرنج أنك إن ترد ديارهم لم ينجم منك مهرب
وعاتك إن لم تعطها الأمن منما لجاءك ياليت الشرى تغلب
وأهدوا رجال السلم آلة حربهم ومن بعض ما أهدوا جين ومقلب
وذلك قال صادق أن عزم بسيفك ياسيف الهدى سوف يسلب^(١)

وهذه الموقعة هى إحدى الغلطات الثلاث التى كان يعمدها الصالح نفسه ، إذ يروى ابن خلكان أن ثالث هذه الغلطات خروج الملك الصالح إلى بلبيس بالعاكر ودمجوه بعد أن أفتق فيهم أكثر من مائتى ألف دينار ، حيث لم يتم زحفه إلى بلاد الشام ويفتح بيت المقدس ويستأصل شأقة الفرنج^(٢) . وفى هذه الموقعة نفسها قال حمارة أيضا فى مدح الملك الناصر بن الصالح :

رأيتك لم تتعج بمنصبك الذى علا فتجوم الأفق عنه سفال
فباشرت مكروه الوعى فى مواطن حرام المنايا بينن حلال
وهل يفخر الصمصام إلا بقطعه وإن راق منه جوهر وصقال
كأنك خلعت السلم تقصا على العلا وليس لها غير القتال كال
ولما تشكى الحوف حيفاعلى الهدى وكاد الهوى يسطو عليه ضلال
نهضت إلى الإفرنج تزجى كتابها ثقل بها أعناقهم وقصال
فولوا وقد أبقت عليهم نفوسهم سياسب حالت دوتهم ورمال
رأتهم ركضا على كل ساج إذا الريح كلت لم يصبه كلال^(٣)

(١) النكت ص ١٧٦ .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٢٢٠ .

(٣) النكت ص ٣٠٧ .

والمزورون يذكرون قصة شاور واستنجاده بالصليبيين ضد أسد الدين
شريكه وصالح الدين ، ففي موقعة بليس التي انتصر فيها شاور والفرنج قال
عمارة يمدح شاور ويعرض بالفرو :

وقد دفت إلى ثلاث نواب	كلت قبيب لموها ولدانها
من معشر تقود الساحة والتدى	فيا حوت أجفانها وجفانها
فصاية غورية خادتها	وأجل ما نرجوه منك أمانها
وصاية رومية عاشرتها	قتأدت وتهذبت أذنانها
وهابة مصرية بك أصبحت	فوق البرية راجعا ميزانها
وتدارك بليس منك عواطف	يسع الزمان وأمله غفرانها
أسمت لولاحسن رأيك لاغتدى	التاقوس في بليس وهو أذانها
بلدوا ندمت فواعد سوره	يد التصارى لم يعمد بنيانها
أجبتها للسليين وإنه	ليمر بعد خرابها عرمانها (١)

فجونا يمدح شاور باتفاقه مع الصليبيين ، ولولا هذا الاتفاق لاستولى
الفرنج على بليس ، ولذا ذكر الدين في هذا البلاد ، ولذلك لم يمدح الصليبيين في هذا
الشعر وإن كان عرض بهم تعريضا خفيفا ، ونستطيع أن نفهم رأى عمارة
في الإفرنج إذا قرأنا مقطوعة أخرى له لم يقصد بها مدح الوزير ، بل هي أبيات
صادرة عن عاطف الشاعر نحو هذه الأحداث والتكبات التي جرت بها سياسة شاور
على البلاد ، فهو يقول :

يارب إني أرى مصرا قد انتهت	لما صيون الأحادي بعد رقبتها
فاجعل بها ملة الإسلام باقية	واحرس بقود الهدي من حل عقدتها
وهب لنا منك عونا نستجير به	من قنة يتلظى جمر وقتها (٢)

وفي مديحه لصالح الدين وذكر وقعة الجسر بالجيزة التي انتصر فيها على
الصليبيين بقيادة مري ، يقول عمارة :

حي الله منكم عزمة أودية فككتم بها الإسلام من ربة الكفر

(١) النكت ص ٣٦٩ .

(٢) النكت ص ١٩٠ .

ثمن نصبوا في البر جسرا فانكم عبرتم ببحر من حديد على الجسر
طريق قارعتهم عليها مع العدا ففزتم بها والصخر يقرح بالصخر
أخذتم على ر كل ثنية وقتتم لايدى الخيل مرى على مرى،
وأزججه من مصر خوف يلزه كما لو مهزوم من الليل بالفجر^(١)

وهكذا نرى شعراء مصر يشيدون بالحروب الصليبية التي شغلت العالم
الإسلامي عدة قرون ، ولم ير المصر الفاطمي منها سوى زهاء نصف قرن
فقط ، ومع ذلك فإن هذه الحروب جعلت الشعراء المصريين يشهدون أشعاراً
حماسية يمدحون شجاعة جنود مصر الذين أخذوا على عاتقهم طرد الصليبيين من
فلسطين ، على حين بقيت الدويلات الإسلامية تنتظر إلى هذه الحروب فطرة عدم
اكتراث ، وقد سجل المصريون في هذه الحروب جهوداً كثيرة سجلها
الشعراء الفاطميون في شعرهم ، كما سجلها شعراء الأيوية وشعراء الفاطميين
في شعرهم ، كما سجلها شعراء الدولة الأيوية وشعراء المماليك في العصور التالية
لهذا العصر الذي نورد فيه الآن .

الفصل الخامس

في الغزل

لا أكاد أعرف شاعراً من شعراء مصر الفاطمية لم ينفذ في الغزل ، لجميع الشعراء الذين بلغنا شيء من شعرهم كانوا يتغزلون ، سواء أكلن هذا الغزل في الوقت أم في المذكر ، شأنهم في ذلك شأن شعراء العربية في الأقطار الأخرى ، فكان شعراء الملح - الذين ألبوا بالعقائد المذهبية في شعرهم - يقيمون ستة الشعراء الأقدمين في الابتداء بالغزل . ولما أراد العهد الأصبهاني أن يروى شيئاً من شعرهم ، اكتفى بالمقطعات الغزلية التي افتتحوها بها قصائدهم وأبى أن يروى شيئاً من مدح الأئمة .

وإذا نظرنا فيما بقي لنا من شعر الغزل في هذا العصر رأينا المصريين كانوا يرددون في أشعارهم هذه الصفات العديدة التي رددوها الشعراء من قبل في صفات المرأة وما يمتاز به المشوقة من قسوة ودلال وسحر ، ولكن الشيء الذي يلفت نظرنا في هذه الأشعار الغزلية أن الصور التي صاغ فيها المصريون هذه الصفات اختلفت باختلاف الحياة المصرية والبيئة المصرية ، انظر مثلاً إلى قول أبي الحسن التتيسي الملقب برضى الدولة :

راح من عمر الصبا مقتبها	تملا ، أحسن شيء خلقا
تضل النشوة في أعطافه	فصل عينيه بأرباب التقي
وشأ قد أقسمت الحفاطه	فيريقن دما من عسقا
من عذيري من غزال كلما	سئل الرحة أبدي حقا
ودأيت الرجس النض وقد	أخجل الورد بما قد أحدا
ينهب النامب من زهرته	ويذود اللس عما بسقا
كم أناديه وذل شافى	وفؤادى يتلظى حرقا

هكذا يجرى بكم من عشقا لا عما يسرى وقلبا موقعا^(١)

فاللعان التي جاء بها الشاعر في هذه المقطوعة والتي قدم بها للدح ليست بمجددة في الشعر العربي ، إنما الجديد في هذه الأبيات هي هذه الصور المختلفة التي صاغ فيها هذه المعاني القديمة .

وانظر إلى قول الشاعر ابن قتادة الممدل ، وقد أتى بيمان لم يطرقها القدماء في نزلهم :

نظري إليك يزيد في نظري فسلام تحجبني عن النظر
يا جملة الحسن التي انقسمت منها المحاسن جملة البشر
هواك بين جوانحي كتب قد عنونت بالدمع والسر^(٢)

فهذه المعاني التي ألم بها الشاعر في هذه الأبيات لم يطرقها — فيما أعرف — شاعر عربي من قبل . وإن كان القدماء قد أكثروا من ذكر الدمع والسر ، ولكن الشاعر المصري جعل لموى المحبوب في نفسه كتباً عنوانها الدمع والسر . ويتفزل الشاعر أبو الحسن علي بن الحسن بن معبد القرشي الإسكندري ، فيقول في مقدمة إحدى قصائده :

ومنهف طال ذوات فرعه كالليل قاض على الصباح المسفر
نصر الدلال خطاه فاعتقت به لي مهجة عن حبه لم تقتصر
وسنان كحل السحر حشو جفونه ففتورها عن مهجتي لم يفت
أملك القلوب بنو سحلى لؤلؤ صلب اللي في ضنج طرف أحود
وبوجه رقم الجبال رياضها يبتفسح من فوق وود أمر
كتب العذار على صحيفة غده هذا بداية حيرة التحرير
وهبت عاصف الكمال فأصبحت فن العقول ودوس غير المجر^(٣)

ويجول مرة أخرى في مقدمة قصيدة أخرى :

ولئي لأهوى رشا ساعرا أطار قود العيون انظبا

(١) المزمعة ورقة ٩ .

(٢) المزمعة ورقة ١٤ .

(٣) المزمعة ورقة ٧٩ .

إذا ما ثنى فنصن قفا . وبدد جلا شعره غيبها
وزانت عيباء خيلانه . كما يقبع الكوكب الكوكبا
وفي أسمر ناسيته القفا . يروقك خدا جلا منعبا
سقى روض غديه ماء الشبا . بفتح زهرا به معجبا
تقلد من لحظة صارما . أسال النفوس وما ذنبا
وملك من حسنه در . اعتبا كل قلب صبا (١)

فهذه الصور المختلفة التي رسمها الشاعر في هذه الآيات ليس بها هذه الصور التي رأيناها في شعر القدماء ، ولكنها صور متحضرة ، لا يذكر الشاعر جزءا من أجزاء الجسم إلا ليصور أثره في نفسه ، ويقرن بين هذه الصورة التي أتى بها وبين صورة أخرى أخذها الشاعر من الطبيعة التي حوله والحياة التي يحياها ، فالشاعر المصري في غزله لا يأتي بأجزاء الجسم ليصفها وصفا واقعيا - إن صح هذا التعبير - إنما كان يتحدث دائما عن الناحية النفسية أكثر عما يتحدث عن الصفات الحسية ، وهنا نرى فرقا كبيرا بين شعراء العرب القدماء ، وبين شعراء مصر الفاطمية ، فالشاعر العربي كان ماديا في وصفه ، والشاعر المصري كان عاطفيا ؛ ، وإنما جاء هذا الخلاف من تحضر مصر الفاطمية ورفق عاطفة المصريين برق حياتهم .

ناحية أخرى نراها فيما يقى لنا من شعر الغزل في مصر الفاطمية ، تلك أن المصريين بدوا يتركون الأوزان الطويلة ، وينشدون غزلهم في أشعار إما مجزوءة وإما متوكة ، ويميلون إلى استخدام اللغة التي يصطنعها الشعب التي لا يزال أثرها باقيا في مصر إلى اليوم . انظر إلى قول الشاعر طلائع الآمرى :

ملك الشوق مهجتي . حيدا من تملكا
قد رماني بحبه . ونهاني عن البكا
لأنما واحدة المحب إذا أن أوشكا
ما أرى البلو عنقه ، وإن جاز . ملكا (٢)

(١) النموذج ورقة ٢٨ .

(٢) النموذج ٢٨ .

فهذا الشاعر الدقيق الحس ، الرقيق الشعور ، وصف حالة الحب المضني ، وقد تملكه الشوق فلم يجد راحة إلا إذا أن واشتكى ، بالرغم من أن الحب نهاء من البكاء ، فاقطع هذا الوزن الخفيف ، واصطنع هذه الألفاظ التي تكاد تكون من ألفاظ الشعب ، فهذه المقطوعة وغيرها هي التي سنرى مثلاً لما بعد ذلك واضحة في شعر البهاء زمير . ثم انظر إلى قول الشاعر طلائع الأمرى أيضاً :

أفتموا لي بالوصال واذحوا ورقة حالي
لا تذيبوا مهجتي بي ن التجنى والدلال
ليس عندي في هواكم قد بدا لي قد بدا لي
إنما قصدي رضاكم قد حلا لي قد حلا لي
وإن اخترتم عذابي لا أبالي لا أبالي (١)

أليست هذه المقطوعة أقرب إلى لغة الشعب المصري منها إلى لغة الشعراء الذين عودونا الجزالة في اللفظ مع حسن الديباجة ، ولكن الشاعر هنا كان شاعراً مصرياً قبل كل شيء . كان يتغزل ، فاصطنع هذه الألفاظ السهلة والأوزان الخفيفة .

وليس معنى ذلك أن كل شعر الغزل على هذا النحو الذي رأيناه عند طلائع الأمرى ، فقد كان للصريين لوانان من شعر الغزل ، اللون الأول الذي يختار فيه الشاعر ألفاظاً جزلة ووزناً قوياً طويلاً ، أما اللون الآخر فهو الذي يترك الشاعر فيه نفسه على سجيته بلا تصنع ، فلا يلتقي الألفاظ الجزلة بل يتشد ما يجرى به لسانه وما تملحه عاطفته ، وقد رأينا طلائع الأمرى في المقطوعة الأولى السابقة يميل إلى اللون الثاني من ألوان الغزل ، وزناه مرة أخرى يتشد المعنى نفسه ولكن في صياغة أخرى تختلف تمام الاختلاف عما رأيناه له . فهو يقول :

تريد الهوى صرعا من الضر والبلوى لمرك ما هذى قضية من هوى
إذ لم يكن طرف الحب مسهدا وأدمعه تجرى ، فهذى هي الهوى

ولا حب إلا أن ترى كلفة الهوى ألد من المن المزول والسوى
وحتى ترى اقلب التريج من الهوى يمانه الصبر الجليل من السوى
وهى اقه من أعطى المحبة حننا ولئن لم يكن فيها من الأسر ما يقوى (١)
فالشاعر فى هذه المقطوعة يختلف فى غزله عن ما جاء به فى مقطوعته الأولى .
فالشاعر حاول اللونين من شعر الغزل ؛ على أن أكثر شعر الغزل الذى انتهى
إليها هو من اللون الخفيف الذى يقرب من أسلوب العامة ، فالشاعر مروان
ابن عثمان الككى طلع فى غزله أثر السهولة التى تتفق مع رقة الغزل وعاطفة
الحب ، حين يقول مثلا .

ما بال قلبك يستلين أبه غرام أم جنون
برح الخفاء بما يحين فأذهب الشك البقين
حتى متى بين الجموا نوح والضلوع هوى دفين
والى متى قلبي التيسم فى يد البوى رهين
يا ماطلى بديون قلبي -آن أن تقضى الديون
شخصت له فيك الميرون وتهممت فيك الظنون
وسلبت ألباب الوردى بلواظف فيها بنون
وقوام الأغصان الرما ض وأين تدركك الفصون ؟
الحسن فى الأغصان فن وهو فى -هذا فنون
من أين للأغصان ذا ك الفنج والسحر المبين ؟
أم ذلك الورد الجنى يحسنه والياسمين (٢) ؟

ثم اقرأ هذه المقطوعة الأخرى من غزل ابن عثمان الككى التى تظهر فيها
عاطفة الشاعر فى أسلوب أهل مصر الآن ولا سيما فى البيت الثالث :

تمكن مني السقم حتى كأتق توهم معنى فى غنى سؤال
ولو ساعدت عيناه عيني فى الكرى لأشكلك من طيف الخيال خيال
سمحت بروحي وهى عندي عزيزة وجدت بدعى وهو عندي غالى

وقد خفت أن تقضى على منقبي ولم أفض أوطاري بيوم وصال
وهون ما ألقى من الوجد أنه صدور دلال لا صدور ملال^(١)

وما هو ذا الشاعر أحد بن محمد المادرائي يتنزل :

يا حبيب العمر عطفنا فاني هواكم على لظى ألقى
إن وصلتكم ، وصلتكم مستهما عن هواكم وجبكم ما تغل
هو عبد الهوى . وليس يباغى حقه في هوى ولومات قتلا^(٢)
ويقول الشاعر إبراهيم بن إسماعيل الحمياطي :

يا هذه ، رقي على صب دق صيره الحجر إلى حد التلغ
رقي عليه ، وصل حباله فإنه عن جبكم لا ينصرف^(٣)

وبالرغم من أن الشاعر أبا عبد مبة الله بن عرام كان من إقليم أسوان
فإن غزله كان متأثراً بالحياة اللينة التي عرفت بها مصر ، ولا سيما أنه وفد
على القاهرة ومدح بها الوزير رضوان وغيره من رجال الدولة ، فأسهم مع غيره
من شعراء مصري التنزل في الأوزان السهلة الخفيفة والألفاظ والصور الشعبية،
فهو الذي يقول :

من معني على اقتناص غزال نافر عن جبال ذي رواغ
قلبه قسوة كجلود صخر خده رقة كزهر الباغ
كلما رمت أن أقبل فاه لستني عقارب الأصداغ
وقوله أيضاً :

لستني عقارب الصدغ منه فلووه من ريقه درياقا
إني عاشق له ، وهو مذكا ن ظلوم لا يرحم المشاقا^(٤)
وقوله :

يا لائمي في غزال قلبي وهين يديه
لا تطعن في سلمي فلا سبل إليه

(٢) الحرية ورقة ٢٥ .

(٤) الحرية ورقة ١٨١ .

(١) الحرية ورقة ٧١ .

(٣) الحرية ورقة ٢٥ .

كم لامي فيه قوم . وعنفوني عليه
حتى إذا أبصروه خروا سجوداً لديه
فاحفظ فؤادك فالسوت في ظبا مقلته (١)

أضف إلى ذلك أن القدماء لاحظوا أن المصريين بعض المعاني المبكرة ، من
ذلك قول الأخفش في المذار :

وكان المذار في حمة الحد على حسن خدك المنعوت
صولجان من الزمرد مطو ف على أكرة من الياقوت (٢)
ولكن المباد أخذ على الشاعر أنه ذكر (الحد) مرتين في البيت الأول ،
مع اعتراؤه بأن المعنى مبتكر لم يسبق الشاعر إليه .

وكذلك قال القدماء : إن قول أبي النضر الأساوي في المذار من المعاني
المبتكرة .

وغزال خلعت قلبي عليه فهو باد لأعين النظار
قد أرانا بنفسج الشعر بدرا طالماً من منابت الجلتار
وقدت نار خده ، فساد الك من فيه دغان تلك النار (٣)
وقول أبي النضر الأساوي أيضاً :

وغزال أبدى لنا الله من بته ان خديه في الحياة الجناتا
قد أرانا قدأ ، وخذأ وصدغا وخذارأ ، وناظرأ فتانا
غصناً يحمل البنفسج ؛ والزجر والجلتار والريحانة (٤)
وقول ابن حيدرة العقيلي أيضاً وفيه لحن من غنائه :

وهذول كلن من قولي له لبست أستحسن أجنو الحسنات
قال : لو كنت أنا أنت لما رضيت قسى لجسمى بالفضا

(٢) الحريفة ورقة ١٣١

(١) الحريفة ورقة ١٨١

(٣) الحريفة ورقة ١٣٠ .

(٤) انصهر غصه .

قلت : دعني عنك ، واصنع ما تشاء ما أنا أنت ولا أنت أنا (١)

فهذه بعض صور من مقطوعات الفناء من شعر مصر الفاطمية كما حدثنا عنها القدياء من رواة شعر مصر ، وهي مقطوعات غزلية يظهر فيها لون من ألوان ذوق المصريين في المقطوعات الفنائية ، والمخالفة التي كانت تثار عند سماع هذه المقطوعات .

ولم يشأ شعراء مصر أن يقفوا في غزلهم على تصوير مختلف مشاعرهم عند رؤية الحبيب ؛ أو أن يتحدثوا عن جماله وصفاته وما يفعله ذلك كله في نفوسهم ، إنما صوروا من ناحية أخرى الشوق لرؤية المحبوب إذا بعد عن أظفارهم أو فارقهم إلى مكان آخر ، فالحديث عن الفراق أخذ حيزاً كبيراً من غزل شعراء مصر الفاطمية ، وفي حديثهم عن الفراق ترى لوحة الحب الذي أضناه الجهاد وخشيته عليه من الهلاك .

وما هو الشاعر على بن المؤمل بن غسان ينشد

قفت بفاتن الحديق - وزاد بهجسه أرق
إذا ناديت من جموع - أخذت القلب في طلق
رويدك سوف تقاين - بلا قلب ولا رفق (٢)

وأشد ابن معبد الإسكندري .

يا حادي الركب رقاً بالحبيب قد طار الفؤاد وقل الصبر والجلاد
لعل حبي يرى ثلى فبرحني بنظرة عليها تضيئ الذي أجسد
يا وبع من ظمت أحبابه وغدا خلفاً بعمد أكباده قد (٣)

وقال محمد بن وهب :

ولا تادوا بالرحيم كل رأيتني وأسال رب أن تدم ركابهم
أكشفك دمع العين من كل جانب عن السير حتى أشتني بجانيهم

فلم تك إلا ساحة سار ركبهم وسار فؤادى بين تلك الركائب
فلم أر يوم البين أعظم حسرة والبين عندى من كبار المصائب (١)
وأفند طلائع الآسى :

ما قلبى من لوعة البين راق أترانى أحيا يوم التلاق
عزلة لم تدع لجنفى دمعاً لا ولا فى الحشا مكان اشتياق
أطمعننى حتى إذا أسرونى عذبوا مهجنى وشدوا وثاقى
واستلخوا الفراق حتى كأن لم يعلموا أنه مرور المذاق
فى سبيل الهوى نفوس أقامت بعد وشك النوى على الميثاق (٢)
وقال طلائع أيضاً :

ما أودعوك مع الفرام وودعوا إلا ليتلف قلبك اشتياق
قف فاستلم أثر الملى تطلا إن لم يكن لك نحو من لحاق
وتح عن دعوى هواك فإنه إن لم تمت يوم الفراق تفاق (٣)
وإذن فالنزل فى شعر مصر الفاعلية صودة أخرى من صور الحياة
المصرية والمحافظة المصرية التى سمحت فبعت عن المادية التى عرقناها عند الشعراء
الأقدمين ، وذلك لاختلاف بيئة مصر عن غيرها من الأقطار العربية .

(١) الخربة ورقة ٢٤ .

(٢) الصدر لله ورقة ٢٨ .

(٣) الصدر لله .

الفصل السادس أغراض أخرى في الشعر

التعريف والزهد :

تحدثنا في الفصول السابقة عن بعض الأغراض التي قصد إليها الشعراء في مصر الفاطمية ، ولكن هناك بعض أغراض أخرى ، لا تقل خطراً في تصوير الحياة في مصر في ذلك العصر ، عن هذه الأغراض التي تحدثنا عنها من قبل ، قد ذكرنا شيئاً عن هذه الحياة المأجنة التي طفت على مصر حتى خيل لنا أن مصر لم تعرف إلا هذا اللون من ألوان العيش ، ولكن المصريين كان لهم لون آخر بجانب هذه الحياة المأجنة اللاهية ، وهذا اللون الآخر هو التفكير في العالم الآخر ، وطبيعة مصر اضطرت المصريين منذ أقدم حضورم التاريخية إلى أن يهتموا بأمور الآخرة اهتمامهم بأمور الدنيا ، فإذا المصري منذ عرفه التاريخ مضطراً إلى أن يعيش لوتين من الحياة يتناقض أحدهما الآخر أشد التناقض ، فهو يعبث في حياته ويمجن ويمزج ماشاء له البعث والنجون والمزاج ، وهو في الوقت نفسه حريص على أن يفكر في آخرته فيتحدث عنها ويتذكرها ، ويظهر استمساكه بالدين وفرائضه وآدابه ، وقد رأينا تصوير الشعراء لحياة النجون ، أما الزهد والتعفف فقد أكثر من الحديث عنه شعراء مصر أيضاً ، حتى إن شعراء النجون أنفسهم كانوا ينفذون الشعر في الحث على الزهد والتسك بأعذاب الدين وطلب سعادة الآخرة ، وهذا هو ذا الأمير تميم الذي عرف بمجونه من حرم ولاية إمارة الدعوة يقول في الزهد :

أقنيت ميسرك تنق في الحوادث والمصائب
ولو أقنيت معاصي الرحن فيا أنت راكب
لأمنت من نار الجحيم ، وفي الحياة ، من المعائب
إن لم تراقب من له حكم عليك ، فن تراقب (١٤)

ويقول مرة أخرى :

يا عجباً للناس كيف اغتدوا في غفلة عما وراء المات
لو حاسبوا أنفسهم لم يكن لهم على أخذ المعاصي ثبات
من شك في الله فذاك الذي أصيب في تمييزه بالثبات
يحيمهم بسد الليل مثل ما أخرجهم من علم الحياة (١)
فثل هذه الآيات لا تصدر من شاعر حرف عنه أنه من أشد الشعراء بحوثاً
وعبثاً ، ولكن طليعة مصر اضطرت إلى أن يتحدث عن الآخرة وعن الحياة
بعد الموت .

وها هو ذا الشاعر ابن حنيدة العقيلي الذي ذكرنا أنه شاعر الحزنى المصر
الفاطمي ، وأحد شعراء الجوز ، ينشد في الزهد ويدعو إلى التقى والورع .
قد لاح في فودك المشيب ورث من همرك القشيب
فكن لداعي التقى مجيئاً من قبل تدعى فلا تهيب (٢)
وزى القاضي المعروف بالأديب أبي النضر ينشد .
النفس أكرم موضعاً من أن تدنس بالذنوب
ما لنة الدنيا لها ثمتاً وإن مزجت بطيب
قاسم إلى إعداد راك هجمة الأجل اقرب
والق الإله على التقى والحرف مزود الجيوب (٣)

ويقول مرة أخرى يحث على الزهد وجهاد النفس :

جهاد النفس مفترض غفها بأدب القناعة والإهاد
فإن ضمنت لذلك واستجابات وغالفت الهوى فهو الإرادة
وإن جمعت بها الشهوات فأكبح شكمتها بمقومة العبادة
صاك تحلها درج المعالي وترفضها إلى رب السعادة (٤)
وهكذا نرى الماطفة الدينية تسير جنباً إلى جنب مع عاطفة حب الجون
والشعر المصري ملوّه بالعاطفتين معا .

(٢) للرب م ٥٥
(٤) الحريدة ورقة ١٢٧

(١) ديوان الأمير نجم
(٣) الحريدة ورقة ١٢٦ .

وقد ذكرنا في كتاب « أدب مصر الإسلامية » أن مصر عرفت التصوف ووجدت فرقة عرفت بالصوفية كل ما أثر في الحياة السياسية في العصر العباسي وقد استمر تيار الصوفية في العصر الفاطمي ، وكان الأئمة الفاطميون يعنون هذه الفرقة ، ويحدثنا المقرئ : أن الأمر الفاطمي جدد قصر القرافة وحمل تحته مصطبة للصوفية ، وكان يجلس في الطاق بأعلى القصر ، ويرقص أهل الطريقة من الصوفية ، والجوار بالأكوية موضحة بين أيديهم والشموع الكثيرة تزهر ، وقد بسط تحتهم حصر من فوقها بسط ، ومدت لهم الأسلحة التي عليها كل نوع لذيذ ولون شهى من الأطعمة والحلوى ، أصنافاً مصنفة . وكان بين الحاضرين الشيخ أبو عبد الله بن الجوهري الواعظ ومنرق نرقته وقرقه وقرقه على العادة خرقاً ، وسأل الشيخ أبو إسحق إبراهيم المعروف بالقارح المقرئ خرقه منها ووضعها على رأسه ، فقال الخليفة الأمر بأحكام الله من طاق بالانظرة : يا شيخ أبا إسحق . قال : لبيك يا مولانا . قال : أين خرقك ؟ فقال هببا له في الحال : هاهي على رأسي يا أمير المؤمنين . فاستحسن الأمر ذلك ، فأمر في الساعة فأحضر من خزائن الكسوات ألف نصفية . ففرقت على الحاضرين وعلى قراء القرافة ، وثر عليهم متولى بيت المال من الطاق ألف دينار (١) .

ووجد على مصر في هذا العصر سهل بن محمد بن الحسن الصوفي : حدث بالوراق ودمشق وصور ، ثم توجه إلى مصر فظل بها إلى أن توفي سنة ٤٤٤ هـ وكان أديباً شاعراً على طريقة الصوفية ، ولكن شعره فقد ولم يبق منه سوى قوله :

إذا كنت في دار بينك أهلها ولم تكن محبوباً بها فتحول
وأيقن بأن الرق يأتيك أينما تكون ولو في قعر بيت مقفل (٢)

وشاهد هذا العصر فرقة من فرق الصوفية عرفت بفرقة الكبرائية ، نسبة إلى شيخها أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن ثابت الأنصاري المعروف بابن الكبرائي الفقيه الشافعي الواعظ ذكره الهادي خريده ووصفه بقوله : فقيه

واعظم مذكر، حسن العبارة ، مليح الإشارة ، لكلامه رقة وطلاوة ، ونظمه
هندية وحلاوة ، مصرى الدار ، عالم بالأصول والفروع ، عالم بالمعقول والمشروع ،
مشهود له بالسنة النبول ، مشهور بالتحقيق في علم الأصول ، وكان ذا رواية
ودراية بعلم الحديث ، ومعرفة بالتقديم مكنون الحديث ، إلا أنه ابتدع مقالة
مثلها اعتقاده ، وزل في مزلقها سداه ، وادعى أن أفعال العباد قديمة ، إلى
إلى أن قال : « أعاذنا الله من ضلة الحلم وضة العلم وعة الفهم ، واعتقد أن التنزيه
في التشبيه ، صمم الله من ذلك كل أديب أريب ونيل فيه » (١) وتوفى ابن
الكيزاني صاحب هذه الفرقة سنة ٥٦٠ هـ ودفن عند قبر الإمام الشافعى ،
واستمرت تعاليم هذه الفرقة حتى عصر الأيوبيين ، فقد ذكر الهادى : « والطائفة
الكيزانية بمصر على هذه البدعة إلى اليوم مقيمة » (٢) . وظهور هذه الفرقة
في مصر واشتار أمرها على النحو الذى تحدث به الهادى وابن سعيد في كتابه
المغرب يدلنا على مدى الضعف الذى طرأ على الدعوة الفاطمية في مصر ، فإننا
رأينا الفاطميين يزهون الله عز وجل عن التشبيه أو التجسيم ، وهذه العقيدة
هى أساس عقيدة الفاطميين وفلسفتهم ، ورأينا العامة يكفرون كل من دان
بالتشبيه أو التجسيم ، ولكن جاءت فرقة الكيزانية تحت سمع الفاطميين وبصرهم
وقالت بالتشبيه ، والتف عدد من المصريين حول شيخ هذه الدعوة دون أن
يعبثوا بسلطان الفاطميين وعقائدهم إلى اقتضت في مصر زهاء قرنين .

كان ابن الكيزاني شاعراً من شعراء الصوفية بمصر ، ولكنه كان ضعيف
الشعر ، حتى قال عنه ابن سعيد : ورفقت على ديوانه ، وهو مشهور عند الناس ،
قريب من أفهام العامة ، غير مرضى عنه عند صدور الشعراء وأصحاب غوص
الكلام وفرسان النظام ، وقد شجرت من اختياره ومطالعة . ولم أكتب من
ديوانه شيئاً تهنئ النفس إليه ، وإنما أردت ترجمته لشهرة ذكره وديوانه ، وكثيراً
ما يباح في سوق النبطاط وسوق القاهرة ؛ وكان من لا يعرف معاني الشعراء
المستحسنة وألفاظه المستبعدة يحضن على الوقوف عليه ، فلما وقعت عليه أشدنى

مثلاً: أنا المعبدى للشمع في ولائى. (١) ولعل ابن سعيد كان على حق في أن يصف شعر ابن الكيزاني على هذا النحو ، بالرغم مما ذهب إليه الهاد الأصماني من الإعجاب بشعر ابن الكيزاني ، فإن المقطوعات التي رويت في الخريدة من شعر ابن الكيزاني تدل على أن الشاعر لم يكن من المتفوقين في الشعر ، إذا قسناه بشعراء الصوفية الذين ظهروا بمصر في العصور التي تلت العصر الفاطمي مثل ابن الفارض وعبدون ، على الخصوص إلى أنشراح (٢) وأخطأ من جعل الشعر في سبب ضعف شعر ابن الكيزاني أنما كان ، وأخطأ من جعل الشعر في سبب ضعف شعر ابن الكيزاني أنما كان ، فأنظر إلى أسلوبه الذي يقرب إلى قلوبهم . فأنظر ذلك في أسلوبه ولغته ، فإذا هما يقربان من الأسلوب الشعبي ولغة الشعبي ، وقد يكون هذا السبب هو الباعث الذي من أجله أقبل العامة في مصر على قراءة ديوان ابن الكيزاني .

وهو في بعض شعره واضع أكثر منه متصوفاً . انظر إليه يقول :

إذا سمعت كثير المدح عن رجل فأنظر بأى لسان ظل ممدوحاً
فإن رأى ذاك أهل الفضل طامس لهم ما قيل فيه ، وخذ بالقول تصحيحاً
أولاً ، فامدح أهل الجهل رافعه وربما كان ذاك المدح مجروحاً (٣)

وهو في بعض شعره متصوف يتحدث عن المشق ، ويجرى في هذا الشعر مجرى شعراء الصوفية الذين نهجوا نهج رابعة العدوية في الحب الإلهي ، فإن الكيزاني كان أحد هؤلاء المحبين الماشقين ، وله في ذلك عدة مقطوعات ، منها قوله :

سواء أن توما أو تريما وأيت القلب لا يهوى نصيحا
أما لو ذقتما صرف الليال إذن لندتما القلب التريما
وكانت فرقة الأجباب ظناً فأصبح بينهم خبراً مرهما
ولو لم يزلوا سلمات نجمد لما استشقت بالسلمات ريما
ولا أهديت الأسماع يوما فناء من حاتمها نصيحا
وما أنا قد سمحت بدمع عيني وكنت بدمعها أبدأ شجيحا

(٢) الخريدة ورقة ٩٠

(١) المغرب ص ٩٣ وما بعدها

(٣) ١٩ - أدب مصر

وأمكنك العبة من قيادى
وقد سكن الجوى قلبا صيحيا
وصنت مع الثأى ودا صيحيا
وقد ترك الهوى صدرا قبيحا^(١)
وقوله أيضا :

أسكن هذا الهوى من آل مالك
ألم تعلموا أن توددوا تكوما
سأله ما بيننا وجيل
فا بال مباد الوصال طويل
وحتم عن الوعد الجليل ملاءة
وأتم صل قصص اليهود نزول
وإذا لتسبق المودة والهوى
شيد لنا إذ ليس عنه نزول
ولا تعبوا التي عليكم نوحا
فقطع واثر أو يلح عدول
رضينا ، ورضينا أن نبيع نفوسنا
وما طاشق منا بذاك بجيل
كذلك الهوى ، هذا حبيب معود
وهذا حب في هواء ذليل
ووجد وشوق وادتياع ولوعة
وهجر وسقم دلم ونحول
دواعي الهوى عترة فاصطبر لها
وإن جلد بين أو جفاك خليل
علنا بوشك آيين أول حاله
وما طمنا أن نهر ديارم
وما حترقا للوداع خول
إذا ما طمنا أن نهر ديارم
تداركهم بعد الرحيل وجيل^(٢)

فلما إن الفرة الكيزانية استمرت مدة طويلة بعد العصر القاطمي ، وكان لها
أثر قوي في الصوفية الذين ظهروا بعد اقراض الفرة القاطمية ، وكذلك كان
الناس يتداولون شعر ابن الكيزاني فكان له تأثير قوي في شعراء الصوفية الذين
كانوا في عصر الأيوبيين ، ففي شعراء الفاراض مثلا بعض المعاني التي في شعر ابن
الكيزاني ، ولكن شتان بين شاعرية ابن الفاراض وشاعرية ابن الكيزاني ، وسأترك
المقارنة بين هذين الفاعرين الصوفيين إلى البحث الذي سيكون في كتابنا القادم
« أدب مصر في عهد الأيوبيين والمماليك » .

الوصف :

وهناك غرض آخر من أغراض الشعر في العصر القاطمي هو عندي أقرب
أغراض الشعر إلى التصوف ، ذلك هو وصف الطبيعة ، فكلما الفرضين ضرب .

(١) المزمعة

(٢) المزمعة دوة ٩٣ .

من ضروب التأمل فيها خلقه الله، فكثيرا ما يؤدى شعراء الوصف إلى التصوف، ولكن شعراء مصر لم يسروا في هذا المجرى، بل اتخذوا وصف الطبيعة وسيلة إلى وصف قصفهم، فقد رأينا شعراء مصر الفاطمية من تلاميذ مدرسة ابن وكيع التنيسى ينشدون شعرا في الخمر والمجون والطبيعة معا، وكيف كانوا يؤثرون الشراب في الرياض والمتنزهات، ويمزجون وصف الخمر بوصف الرياض والمتنزهات أو بوصف السماء وما فيها من نجوم وغيوم وسحب، وتحدثنا عن خروج الشعراء إلى المتنزهات المختلفة التي كثرت في هذا العصر، ينعمون بطيب هوائها ويتمتعون بأبصارهم بتسقيها وجمال أزهارها المتنوعة التي سبب الراحة ناصري خسرو من وجود عدد كبير منها في وقت واحد، فهو يقول: « رأيت في يوم واحد هذه الفواكه والرياحين: الورد الأحمر والنيلوفر، والفرجس والرنج والذرنج والليمون والمركب والتفاح والياسمين والريحان الملكي والسفرجل والزمان والكزى والبطيخ والمطر والموز واللوزون والبليج (الإهليلج) والرطب والعنب وقصب السكر... » إلى أن قال:

« وكل من يفكر كيف تجتمع هذه الأشياء التي بعضها خريف وبعضها ربيع وبعضها صيف وبعضها شتو لا يصدق هذا »^(١)، ويقول «ن بساتين القاهرة: وفي المدينة بساتين وأشجار بين القصور تنقي من ماء الآبار، وفي قصر السلطان بساتين لا تظير لها، وقد نصبت السواقي لريها، وغرست الأشجار فوق الأسطح خضارت متنزهات»^(٢)، وطبيعة مصر اضطرت المصريين منذ أقدم العصور إلى التفكير والتأمل، والأمثال العامية التي يصنعها الشعب المصري الآن، والتي نقلت إلينا معربة عن قدماء المصريين تدل دلالة قاطعة على ردة شعور المصريين ودقة إحساسهم، وهم يتأملون طبيعة مصر، ويتحدثون عنها، وآثار قدماء المصريين ملئت بالحديث عن السماء والأرض واختلاف الجو وغير ذلك من آيات تفكيرهم في الطبيعة، على أن الشعراء المصريين في العصر الفاطمي لم يصغروا الطبيعة على أنها لون من ألوان الفلسفة الطبيعية ولم يتحدثوا عنها حديثا يؤدى بهم إلى معرفة الحقائق، بل تركوا ذلك كله لعلماء المذهب الفاطمي وإلى الفلاسفة. واتخذوا

(١) سفر نامه، ص ٦٠ (ترجمة يحيى الحجاب)

(٢) المصدر نفسه ص ٥٠.

لأنفسهم منذهباً فنياً خالها مصدره جمال الطبيعة ، فإذا بهم يسبون على المناظر التي
وصفوها ألوان الحياة التي يأنفونها من ملبس وماكل ومسكن ، ويحاولون أن
ينزعوا من الطبيعة صوراً هي أقرب إلى صور الحياة التي اعتادوها وألوان
الزينة التي كان يزين بها المصريون في العصر الفاطمي ، وهذا هو ذا ابن حيدة
العقيلي يصور منظراً رآه في إحدى المتنزهات :

الضيم بين حهد وحلل والتطر بين مسرح ومسلل
والقضب بين قرط ومطوق ومدملج ومتوج ومكلل
والنبت بين منظر وعسك وعطوق ومنبر ومصندل
ومدج ومطرز ومصنف وممرض ومرصع ومقتل
فاشرب حل حل لو أمكن لبسها كانت تكون من الطراز الأول^(١)
ويقول مرة أخرى :

أصوات الثمار بين الروابي تاتيات بلبس خضر الثياب
وبنات الكروم تهمل بما قد صاغه الماء من عقود الحجاب
قوله مادام الفتيق خلق تنشر السحب فيه مسك ضباب^(٢)
ويقول في وصف الرياض وقد شبهها بفرش المجالس :

عرائس القضب تجمل على كراسي الروابي
ومجلس الروض فيه فرش من العتاني

فابن حيدة العقيلي وهو من أشهر شعراء مصر الفاطمية الذين أولعوا بوصف
الطبيعة ، كان يتخذ صوره في الوصف بما كان يدور حوله في الحياة اليومية ، وهذه
الظاهرة ليست في شعراء ابن حيدة لحسب ، بل تراها عند كثير من شعراء مصر
الفاطمية ، فالشاعر تميم بن المعز وهو أحد شعراء الطبيعة وصف بركة الحبش
وخليج بني واثل فقال :

كأن البركة الغنسا إذا ما غدت بالماء مفعمة تموج
وقد لاح الضحى ، مرآة قين قد انفصلت ، ومقبضها الخليج

(١) المغرب ص ٧٤ .

(٢) المغرب ص ٥٦ .

ترى قر العنبي ، قرا حذاء طلوعا ماله فيها بروج^(١)

ووصف روضة على شاطئ النيل قال :

حريوم خدعت القمر عنه ظم أزل
لدى روضة عالت رباهما كرومها
كان مسيق المسك خالط أرضها
كان نبات النيل والريح تهي
وطورا نخل الماء في رونق الضحى
وتحبه إن عصته يد الصبا
قواريرما يفترن من قلق اللعب^(٢)

وقال ابن عباد أحد شعراء الخريفة :

كانما الأرض من زرجدة
والأشجاء هيفا وهي ضاحكة
كانما شمس من فضة حرست

وقال مجير بن محمد الصقلي في يوم مطير :

أرايت برقاً بالأبارق قد بدا
كيف اكتفى ثوب السحاب بمسكا
فكأنه في الجو كأس ، كذا
أو مرفف كشفت مدادوس حيقلا
خاعجب إلى ودق العين يسيل من
ولؤلؤ لفتيت يأخذه الترى
وقال ظافر الحداد في يوم برد :

ويوم برد هضوده برد
ينثره الجو ثم ينظم عنه الأرض
فهو بما كى الحبيب في اللون واللفف
فالنم يكي والزهر ينعك والبروق

(٢) المصدر

(٤) الخريفة ورقة ٨٥

(١) ديوان الأمير قيم

(٣) الخريفة ورقة ٢٢

ويقول ظافر أيضا في متزعات خليج الإسكندرية :

وعشة أهدت لعينك منظرا جاء السرور به قلبك وافدا
روض كنخضر العذار وجدول قشقت عليه يد الشمال مباردا
والنخل كالفيد الحسان تزييت وابن من أثمارهن فلاندا (١)

ولشمراء المصريين جولات في وصف النجوم ، وفي الحديث عن النهار
والليل واختلاف الجو باختلاف فصول السنة ، فن ذلك منظومة ابن وكيع
التنيسي التي أوردها الثعالبي في القيمة ، والتي تحدث فيها الشاعر عن إحساسه
وشعوره نحو فصول السنة بتقلبات الجو باختلاف هذه الأوقات ، ويقول
في مطلعها :

يا سائل عن أطيب الدهور	وقعت في ذاك على الخير
سألتني أي الزمان أحل	وأيه بالتحصن عندي أول
عندي في وصف الفصول الأربعة	مقالة تفنى الليب مقته
أما الصيف فاستمع يا فيه	من فطن يفهم ساميه
فصل من الدهر إذا قيل حضر	أذكرنا بحره نار سقر
نهر فيه التبت مشعرا	والأرض تشكو حره المضرا
نهاره مقسم بين قسم	جميعها يعاب عندي وينم
أوله فيه ندى مبض	كأنه على القلوب يقبض
يفض منه الجسم بالتياب	وتعلق الأذيال بالستراب

ويقول في الخريف :

حتى إذا زال أتى الخريف	فصل بكل سوة معروف
أعوية تسرع في كل الجسد	وهو كطيط الموت ييسا ويرد
يجش على الأجسام من آفاته	فأرضه قرطه من نياه

ومنها في الشتاء :

حتى إذا ما أقبل الشتاء	لهلك منه غمة غما
أقبل منه أسد مزير	له وعيد وله تحذير

لو أنه روح لكان قدما أو أنه شجر لكان جديما
يأتيك في إياه رياح ليس على لاصها جناح
أما عن الريح فقال :

جاء إلينا زمن الريح جاء فصل حسن الجميع
لبرده وحزه مقدار لم يكتف حدهما الإكثار
عدل في أوزانه حتى اعتدل وحده التفصيل منه والجمل
نهاره من أحسن النهار في غاية الإشراف والإسفار
تضحك فيه الشمس من غير عجب كأنها في الأفق جلم من ذهب
ليده فضل صل البدور في حسن إشراف وفرط نور
بكامة البلور في صفاتها أو غرة الحناء في نقابها (١)
وهكذا يخفى ابن وكيع في وصف فصول السنة .

ومن قول شعراء مصر في النجوم ما أنشداه ظافر الحداد :
كان نجوم الليل لما تبلجت توقد حجر في خلال رمداد
حكى فوق تمتد المجرة شكلها فواقع تطفو فوق لجة وادي (٢)
وقال محمد بن طاسم :

تري صفحة الخضراء والنجم فوقها ككف سدوس بدا فيه درم
تري ، وعلى الآفاق أبواب ظلة وأزوارها منها شمال ومرم (٣)
وقال المهذب بن الزبير :

وتري المجرة والنجوم كأنها تبقى الرياض بجدول ملان
لو لم يكن نهرا لما عمت به أبداً نجوم الحوت والسرطان (٤)
وقال ابن وكيع التميمي :

قم فاسقني صافية تمك جناح الفسق
أما تری الصبح بدا في ثوب ليل خلق

(٢) نهاية الأرب ج ١ ص ٢٣

(٤) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٦

(١) بيئة البحر ج ١ ص ٢٨٥

(٣) المصدر نفسه ص ٣٤

أما ترى جوزاءه كأنها في الأفق
منطقة من ذهب فوق قيساء أزرق^(١)

وقال تميم بن المعز في الصباح :

وكان الصباح في الأفق باز والذهب بين عطيه غراب^(٢)

وقال ابن وكيع التنيسي في التبشير بالصباح :

خرد الطير قلبه من نسر وأد كأسك قاليش خلص
سل سيف الفجر من غمد الذهب وتغرى الصبح من ثوب الغلس
وانجلي في حلة فضية ما بها من ظلة الليل دنس^(٣)

أما نيل مصر فكان له شأن مع شقراء مصر الفاطمية ، فإنهم كانوا
يكثر من ذكره في شعرهم ، ويضيئون عليه صوره كلما طأ علىهم بماءه ،
وما هو ذا الأمير تميم يقول :

يوم لنا بالنيل عتصر وكل يوم مسرة قصر
والسفن تجري كالحيول بنا صعدا وجيش الماء منحدر
وكأنما أمواجه صكن وكأنما داراته سرور

ويقول مرة أخرى :

أما ترى الرعد بكى واشتكى والبرق قد أومض واستضحكا
فاشرب على غيم بصنع الذهب يضحك وجه الأرض لما بكى
واظفر لما النيل في مده كأنما صندل أو مسكا^(٤)

ويقول تميم عند زيادة النيل :

اظفر إلى النيل قد عبا عساكره من المياه لجاءت وهي تسبق
كأن خليجانه والماء يأخذها مدائق قحت فأختارها الفرق
كأن تياره ملك رأى ظفرا فكر إثر الأماوي محق نرق
كأن ماء سواقيه لناظرها شهب الحبول إذا ما حشها العتق

(١) نهاية الأرب

(٢) المصدر نفسه

(٣) ج ١ ص ٤٤١

(٤) خطط القرطبي ج ١ ص ١٠١ .

فاشرب منى فإن القهر منبسط واطرب ولد ، فهذا منظر أتى
ويقول ابن قلاقر :

انظر إلى الشمس فوق النيل غاربة وانظر لما بعدما من حرة الشفق
غابت وألفت شعاعا منه يخلفها كأنما احترقت بالماء في الفرق
والهلال قبل وافي لينقذها في إثرها زورق قد صيغ من ورق^(١)
ولم ينس الشعراء أهرام مصر ، فالشاعر عبد الوهاب بن حسن بن جعفر
الحاجب المتوفى سنة ٣٨٧ قال في وصف الأهرام :

انظر إلى الهرمين إذ برزا للعين في علو وفي صمد
وكأنما الأرض المريضة قد ظمئت لطول حرارة الكبد
حسرت عن الشدين بارزة تدعو الإله لفسقة الولد
فأجابا بالنيل يشـبها ربا وينقذها من الكد
لكرامة المولى المقيم بها خير الأنام مقوم الأود^(٢)
ويقول ظافر الحداد :

تأمل بنية الهرمين وانظر وبينهما أبو الهول العجيب
كعمادتين على رحيل لمحجوبين بينهما رقيب
وماء النيل تحتها دموع وصوت الريح عندهما نجيب^(٣)
وقول عمارة النيلي :

خليلي ما تحت السماء بنية تماثل في إقامتها هرمى مصر
بناء يخاف البحر منه ، وكل ما على ظاهر الدنيا يخاف من الدهر
تزه طرفي في بديع بناتها ولم يتزه في المراد بها فكرى^(٤)
أما منشآت الفاطميين ومبانيهم فقد ذكرها الشعراء في أشعارهم ، ومنها هذه
القصيدة التي أنفذها عمارة النيلي بعد أن دالت دولتهم والتي تحدثنا عنها من قبل ،
وقد ضاعت أكثر هذه الأشعار ، ولم يبق إلا عدة مقطوعات قليلة في وصف
مباني المصريين

(١) ديوان ابن قلاقر ص ٧٥ . (٢) خطط القرطبي ج ١ ص ١٩٥

(٣) المربعة ورقة ٨٥ (٤) خطط القرطبي ج ١ ص ١٩٥

قول علي بن يوسف الإيادي يذكر داراً بناها المزمع الميبدى بمصر ، وسماها
العروسين :

بني منظر أسمى العروسين، رفة كأن الثريا عرست في قبابه
إذا الليل أخفاه بملكه لونه بدا ضوءه كاليد تحت سحابه
تمكن من سعد السعد عله فأضحى وفتح الفنى فتح بابيه
ولو شاده عزم المزم ورايه على قدره في ملكه ونصابه
لكان حتى الياقوت والتبر مغرغاً على المسك من آجره وتزابه (١)

وقال أمية في وصف قصر بناء الأمير علي بن الأمير تميم بن المزم :

قد جملك المنيف فيابه يموطد فوق السجك مؤسس
موف على حبك المحبة تلتقي فيه الجوارى بالجوار الكدس
تقابل الأنوار في جنبانه فاليل فيه كالنهار المشمس
عطفت حناياه دون سنامه صطف الأمله والمواجب والقسى
واستشرفت هذا الزحام وظهورت بأجل من زهر الريع وأنفس
فهواؤه من كل قد أهيف وقراره من كل خد أملس
فلك تحير فيه كل منجم وأقر بالتصير كل مهندس
فيذا لحظ العين أحسن منظر وغدا لطيب العيش خير معرس
فاطلع به قرأ ، إذا ما أطلعت شمس الحدود عليك ثمر الأكوس
فالتاس أجمع دون قيدك ربة والأرض أجمع دون هذا المجلس (٢)

ووصف الشاعر علي بن محمد النيل باب زوية فقال :

يا صاح لو أبصرت باب زوية لعلت قدر محله بنيانا
باب تاذر بالجرة وارندى الثمري ولات برأيه كيوانا
لو أن فرعوناً رآه لم يرد صرحاً ولا أوصى به هامانا (٣)

على أننا نلاحظ ما بهذه المقطوعات مز غلو ومبالغة في تضخيم
المباني والمنشآت .

(١) نهاية الأدب ج ١ ص ٤٠٧ (٢) نهاية الأدب ج ١ ص ٤١١

(٣) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠٥ .

وهكذا نستطيع أن تتبع هذه العصور المختلفة التي صور بها شعراء مصر الفاطمية مارأوه في العليمة وفي المتزهات ، وهي صور من الحياة المصرية التي كانت تلائم ما في العصر الفاطمي من ترف ونعيم ، بل ذكر الشعراء الزينات المختلفة التي كان الفاطميون يتخذونها في دورهم ومتزهاتهم ويقالون في إظهارها إمعانا في الترف والبذخ ، وهاهو ذا ابن قلاقس يصف نخلة عليها زينة من أنوار السرج ، كالذي يتخذها المترفون اليوم في أيام الحفلات الخاصة :

ما عهدنا النخل لولا هذه باسقات بثار الذهب
مطل الغيث لها من فضة فهي في قنوانها من ذهب
تلب السرج على حاقاتها وتحاكى أنامل المرتب
ولقد أحسبها السنة هزما للسكر خمر الطرب^(١)

ونرى المصريين يصفون في شعرهم كل ما وقع تحت أنظارهم ، فوصفوه الشمة مثلا ، كما في قول المذهب بن الويز :

ومصفرة لاهن هوى غير أنها تحوز صفات المستهام المنعب
شجونا وسقا واضطارا وأدما وخفقا وتميدا وفرط تلهب
إذا جشنتا الريح كانت كعصم برد سلا بالبنان المنضب^(٢)

ويقول آخر في الشمة أيضا :

وصيفة يضاء تطلع في الدجا صبا ونشني التناظرين ندائها
شابت دؤابتها أوان شبابها وأسود مفرقها أوان فئائها
كالعين في طبقاتها ودموعها وسوادها ويأضها وضائتها^(٣)

ووصف الشاعر أمير الدولة أبو محمد عبد الله بن خليل — أمير شعراء المستنصر — القلم بالريح بقوله :

يراجان هذا يملأ الطرس حكمة وذاك يذيق الحنف ليثا غصنفرا
وإن ظمنا عطشهما يردها على نفوس العدا من غير إذن ويعصمرا

(١) ديوان ابن قلاقس ص ١٨ ٢٠ الحريفة ورقة ٤٩ (٣) المصدر ص ٢٣٩

فيشرب هذا أسود الليل حالكا . ويشرب هذا قاني الدم أحرا (١)
ويصف ثلاثم الآسرى الخيل بقوله :
جنائب إن قيلت فأسد وإن عدت بأبطالها فهي الصبا والجنائب
أثارت إكثاف المصل بمحاجة دجيت وبنت الليث منها الكواكب (٢)
ويقول ابن الضيف في عدد الفرس :
كم سابع أعدده فوجدته عند الكربة وهو نسر طائر
لم يرم قط بطرفه في غاية إلا وساقه إليها الخافر (٣)
ويطول في الأمر لو ذكرت ما وصفه شعراء مصر الفاطمية ، فهم لم يتركوا
شيئا دون أن يتحدثوا عنه في أشعارهم ، ولعل ذلك يرجع إلى ما كانوا عليه
من رقة الشعور ودة الحبس ومقدرة على التقيض .

(٢) المصدر قه ٣٥ .

(١) الخربة ورقة ٧٠ .

(٣) المصدر قه ورقة ٣٧ .

خاتمة القول في الشعر

وأينا صوراً مختلفة من الشعر المصري في العصر الفاطمي ، وهرقنا موضوعاته المتنوعة المتشعبة ، فنحن نتساءل بعد أن رأينا ذلك كله : إلى أي حد وقع شعراء مصر في التعبير عن شخصية مصر في شعرهم ؟ وإلى أي حد نستطيع أن نميز الشعر المصري في هذا العصر من غيره من شعر الأقطار الإسلامية الأخرى ؟

قبل أن نجيب عن مثل هذه الأسئلة نرى أن نتحدث أولاً عن بعض خصائص ظهرت في الشعر العربي في كل عصوره وبيئاته منذ عرف الشعر العربي إلى الآن ، بل نستظل هذه الخصائص موجودة في الشعر العربي ما وجد الشعر العربي ، وهذه الخصائص هي التي تجعله — مهما اختلفت بيئاته وتطورت عصوره — وحدة يشبه بعضها بعضاً ، فالحياة العربية تتطور وتختلف باختلاف الأقاليم التي تنشأ الشعر بالعربية ، ولكن هذه الخصائص في الشعر لم تتطور بتطور الحياة ولم تختلف باختلاف الأقاليم ، وبالتالي يتطور الشعراء فلا تتطور معهم هذه الخصائص ، بل ظلت مثلاً علياً للشعراء جميعاً دون أن يصبها تمييز جوهري .

فثلاً نجد الشعراء جميعاً منذ العصر الذي اتفق المؤرخون على تسميته بالعصر الجاهل إلى عصرنا هذا ينشدون أشعارهم في ألفاظ عربية حاول النقاد أن يصفوها في كتبهم وأبحاثهم بالرفقة والمنوبة والجزالة والسلافة ، إلى غير ذلك من هذه الصفات التي وصفت بها الألفاظ الشعرية ، فلا نكاد نجد شاعراً من شعراء العربية اصطنع ألفاظاً توصف بصفات تختلف عن تلك التي تحدث عنها النقاد القدماء والمحدثون ؛ حقيقة حاول بعض الشعراء أن يتصرف في الشعر باستعمال بعض ألفاظ أجنبية ؛ ولكننا نستطيع أن نقول : إن ذلك كان قليلاً جداً بحيث لا نستطيع أن ندعي أن هذه ظاهرة يفت عندها الباحث في تاريخ الأدب العربي ، ولذلك لم يأبه لها مؤرخو الأدب ، وإن قد اشترك الشعراء جميعاً في استعمال الألفاظ العربية في أشعارهم مهما اختلفت عصورهم وبيئاتهم ، فلا نستطيع أن نتخذ الألفاظ أساساً للتمييز بين شعر قطر من الأقطار

التي أنشئت بالعربية من شعر قطر آخر ، فالألفاظ مثل من المثل العليا لشعراء العربية جميعا ، لم يصبا تغيير ولن يصيبها تغيير .
كذلك قول عن هذه الأوزان التي جرى الشعر العربي على أوتادها وأسبابها ، والتي تحدث عنها علماء العروض في كتبهم ، فشعراء العربية لم يعدلوا عن الأوزان التي عرفها القدماء ، وأغلب الظن أن شعراء العربية لن يعدلوا عن هذه الأوزان مهما يمد بهم الزمن من الشعر القديم ، وتلونت حياتهم بألوان مختلفة .
ورب معتز يقول : إن الأندلسيين أوجدوا الموشحات والأزجال ، وإن المصريين اخترعوا البليق ، وأدخل شعراء الفرس الفديعة والرباعيات في الشعر العربي . وهذه كلها أوزان لم يعرفها القدماء ، ولكن أتى بها المولدون ، فكيف تكون الأوزان إذن مثلا من المثل العليا للشعر العربي في كل العصور وكل البيئات ؟ فأجيب هؤلاء المعتزين بأن المولدين لم يعدلوا عن التفعيلات القديمة . ولم تخرج أوزانهم الجديدة عن الدوائر العروضية التي عرفت قبل اختراع هذه الألوان من الشعر ، وإنما الذي فعله هؤلاء المولدون أنهم غيروا بعض أشكال الشعر ، واحتفظوا بالوزن الأساسي وبلون من ألوان القافية ، أي أنهم في تجديدهم هذا لم يستلعموا أن يحيدوا عن المثل القديمة في الشعر العربي .
ومع ذلك كله فلو ذهبنا - جدلا - إلى أن الموشحات الأندلسية والبليق المصري والدرية الفارسية مجديدة في الوزن العربي - مع أننا لا نوافق على هذا الرأي - فإن هذه الألوان من الشعر كانت جزءا يسيرا جدا بجانب الشعر الآخر الذي خلفه الأندلسيون والمصريون والفرس ، والذي حافظ فيه الشعراء على الأوزان القديمة ، وإذن فالوزن مثل آخر من المثل العليا لشعراء العربية جميعا لم يصب تغيير إلى الآن .
وكذلك قول عن القافية وعن الأساليب الشعرية العربية ، فهذه كلها مثل من مثل الشعر العربي التي انبعا الشعراء في كل العصور والبيئات وحافظ عليها الشعراء أشد المحافظة ، حتى هؤلاء الشعراء الذين زعم أنهم أسرفوا في التجديد ، فالشاعر أبو نواس مثلا الذي هاجم الأساليب القديمة وتهكم بها لم يستطع أن يغير هذه الأساليب ولا طرائقه في التعبير ، وكذلك قول عن المجريين القفطيين من أصحاب البديع الذين أسرفوا في التلاعب اللفظي واستخدام

أثان الزينة البدعية . فهم لم يستطيعوا أن يدلوا عن حمود الشعر القديم ، ولم يشكروا قافية غير النافية التي نهج عليها القدماء ، ولا فعليات غير التي عرفت في حوار المروض ، ولم يستعملوا ألفاظا غير عربية .

معنى ذلك كله أن الشعر العربي في كل عصوره وبيئاته يشترك في هذه الخصائص التي أصبحت مثلا للشعر ، فلا نستطيع إذن أن نقول : إن مصر لم تظهر شخصيتها في الشعر ، أو إن المصريين قدوا العباسيين أو اتخذوهم مثلا لهم لأن شعراء مصر اتبعوا هذه الخصائص العامة ، وكذلك لا نستطيع أن نقول : إن الأندلس أظهرت شخصيتها بأن أوجعت الموشحات ، فالذين ذهبوا أن العباسيين كانوا مثلا على الشعراء العرب لم يدركوا أن الشعر العربي حتى إنذاك ، وطرأوا إلى الشعر فطرة عارضة قروهم أن العباسيين كانوا مثلا للشعر العربي . لم يذهب القدماء إلى أن ابن هانئ الأندلسي كان يفتك للشبي حتى قلب بجنه القرب ؟ ألم يقل القدماء أيضا : إن الأعرابي لم يكن يفتك بن العز وبنج نهج ؟ فإذا كان القدماء ذهبوا إلى أن العباسيين كانوا أساتذة لشعراء مصر والمغرب والأندلس ، فلم لا يذهب هؤلاء أيضا إلى أن العباسيين كانوا مثلا على الشعر العربي ؟ الواقع أن العباسيين أنفسهم خضعوا لتقاليد الشعر العربي وخصائصه ، شأنهم في ذلك شأن جميع شعراء العربية في كل العصور وكل البيئات ، فلم يكن العباسيون مثلا على فنهم من شعراء الأقاليم العربية .

وإذا كان شعراء العربية اشتركوا جميعا في هذه الخصائص فإنهم اختلفوا في المعاني التي تحدثوا عنها باختلاف عصورهم وبيئاتهم ، فمن إذا أردنا أن نهتم عن شخصية مصر في الشعر ، فمن لا نهتم في الأوزان ولا في القوافي ولا في القنط ولا في أساليب الشعر ، بل نهتم في المعاني التي ذكرها الشعراء وفي الأخيلة الشعرية ، وهنا فقط نستطيع أن نقول : إن الشعر المصري صور البيئة المصرية والحياة المصرية أحسن تصوير ، بحيث إنك إذا قرأت هذا الشعر المصري لا نستطيع أن ننسب إلى قهر غير مصر .

من ناحية الشعر السياسي يعتبر شعر مصر القاطنية سجلا للأحداث التي جرت في هذا العصر . حقيقة صاع حل هذا الشعر السياسي ، ولكننا نستطيع

أن نحكم على ذلك بما بقى لنا من آثار هذا الشعر ، وقد ذكرنا شيئاً من شعراء
النصر وشعراء الوزراء ، وأن هؤلاء الشعراء كانوا لسان العروة في مثل هذه
الأحداث السياسية وكذلك كان أمر غيرهم من الشعراء الذين كانوا يتشدون
الخليفة أو الوزير ، ومن البديهي أن ما كان يتشد من الشعر السياسي هو صورة
الحياة مصر السياسية دون غيرها من الاقطار الأخرى .

ورأينا جانباً من الشعر المصري في العهد والدين بجانب الشعر المصري
في الجون والإباحة ، وهذان اللونان من ألوان الشعر المصري يدلان دلالة
صريحة على ناحية هامة من نواحي الحياة في الشعب المصري ؛ فقد ذكرنا
أن الشعب المصري شعب يميل إلى التمسك بأعقاب الدين . وأنه شعب يعمل
لآخرته ، ولكننا في الوقت نفسه نراه شعباً يميل إلى الجون في حياته وأنه
شعب يميل لندياه فيأخذ بنصيب من متاع الدنيا ، فصر على هذا النحو متناقضة
مضطربة بين متاع النفس ومتاع الجسد ، وإذا الشعر المصري يعطرب أيضاً
فيمثل الناحيتين من حياة هذا الشعب ، ولعل هذه الظاهرة لا تزال ماثلة إلى
اليوم في حياة المصريين وفي شعر المصريين ، والذين درسوا الشعب المصري
مجبوا الفكاهة والنعابة المصرية ، وكيف يرسل المصريون الفكاهة تلو
الفكاهة ، والتأذرة بعد التأذرة ، وهم يضحكون على مسمع هذه الفكاهات
والتواذر بأصوات هائلة ، وذكر الكتاب أن الفكاهة المصرية تدل على ذوق
المصريين وسرعة بديهتهم وعلى مدى شديد في تذوقها ، وزعم بعض الكتاب
أن المصريين أكثر الشعوب حباً للفكاهة وكفاً بإطلاقها وسماحها ، وأن الفكاهة
تجربى في دم كل مصري . ولكن هذه الفكاهات المصرية أكثرها في الحديث
عن الناحية الجنسية ، وهي تتناول بعض أعضاء الجسم ، حتى إن أشد ألوان
الفكاهة المصرية إضحاكاً هي هذه الفكاهات التي تتحدث عن العلاقة الجنسية
أو أعضاء الجسم ، وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه من أن للمصريين لونين من الحياة
لونا يميلون فيه إلى الجون ولونا آخر يميلون فيه إلى الدين ، فإذا الشعر المصري
في كل عصوره يمثل هذين اللونين ، وقد رأينا صوراً لها في الشعر المصري
في العصر الفاطمي .

ونضيف إلى ذلك كله أن مصر بما تمتاز به من هذا الجو البديع الذي تكاد تنفرد به ، وأرض خصبة تروى في أوقات منتظمة جملة المصريين شعبا يميل إلى الهدوء واللين في كل شيء ، وظهر أثر ذلك في التفكير عند المصريين ، فمن لا نكاد نجد عند المصريين عمقا في تفكيرهم وفي دراساتهم المختلفة ، ولعل هذا هو السبب في أننا لا نجد فيلسوفا مصرية ولا نجد فلسفة مصرية لها أثرها في تاريخ الفكر البشري ، ونحن نعجب لهذا الشعب العظيم الذي استطاع أن يحسم كل المذنبات التي ظهرت ، وعرف كل الدراسات المتنوعة ، بل استطاع أن يحصر الشعوب التي وفدت على مصر ، ومع هذه القوة الكامنة في مصر لم ينتج المصريون فلسفة خاصة بهم ، وربما معترض يقول : إن مدرسة الإسكندرية أوجدت فلسفة تباين الفلسفة الهلينية بعض التباين ، ولكن قاته أن فلاسفة مدرسة الإسكندرية لم يكونوا من المصريين بل كانوا من الغرباء الذين وفدوا على مصر لطلب العلم على أساتذة مدرسة الإسكندرية ، وقد ذهب بعض مؤرخي مدرسة الإسكندرية إلى أن أفلوطين من صعيد مصر ، وأنه تأثر بالبيئة المصرية والحياة المصرية ، وظهر ذلك في آرائه التي حاول فيها أن يقرب بين فلسفة اليونان والمسيحية واليهودية ، ولكن حياة أفلوطين لم تكن كلها في مصر ، فقد وفد على الإسكندرية سنة ٢٢٣ وأقام إحدى عشرة سنة في الاستماع إلى الفلسفة اليونانية ، ثم رحل عن مصر إلى سوريا والعراق ، وفي سنة ٢٤٥ م رحل إلى رومة حيث لبث بقية سني حياته إلى أن توفي سنة ٢٧٠ م . فأراء أفلوطين لم تكن بتأثير البيئة المصرية ، ولكنها كانت بتأثير هذه الرحلات التي قام بها ، فمدرسة الإسكندرية على الرغم من استمرارها في مصر عدة قرون لم تؤثر في المصريين تأثيراً له خطره ، والذي قبله المصريون من دروسها هو شيء قريب إلى عقلية الشعب المصري التي تميل إلى كل شيء بسيط لين ، ولذلك لم تتمكن مدرسة الإسكندرية الفلسفية طويلا عقب الفتح العربي ، إذ انتقلت تعاليمها إلى الرعا وحران وأنطاكية وفصيين ، إلى أن أجاد الفاطميون تعاليم المدرسة الإسكندرية مصبوغة بالصبغة الإسلامية ، ثم خرجت هذه التعاليم من مصر بأقراض الدولة الفاطمية . ولم تعد إليها إلى الآن ، وأغلب الظن أنها لن تعود مرة أخرى إلى مصر ، وفي تاريخ الحياة الصوفية في مصر لم نجد صوفيا له فكرة متميزة به ، وإذا قلنا : إن ذا النون

المصرى كان من أوائل الصوفية الذين علم رأى في وحدة الوجود فإن تعاليمه لم تردع في مصر ، وإنما الذين حلوا آراءه كانوا من غير المصريين ، وذلك كله لأن المصريين شغب يميل إلى الهدوء واللين في حياتهم وفي تفكيرهم ، وذلك من تأثير البيئة المصرية .

وغلبت هذه الطبيعة المصرية على الشعراء فرام هادئين في تفكيرهم ، وفي ميلهم إلى اتخاذ الأوزان الخفيفة المادة التي تلائم طبيعتهم ، وظهر في وصفهم للطبيعة تلك الصور الماددة التي ليس بها تعقيد الفلاسفة ولا عمق المفكرين ، إنما كانت صورهم محصورة الحياة اليومية التي كان يحياها المصريون .

والمصرى عرف منذ القدم بشدة تعلقه ببيئته لا يريد الابتعاد عن حياته التي عرفها منذ أدرك الحياة ، وإذا غلب عن بيئته فهو يحن إليها حنيناً شديداً جداً ولا يلبث أن يعود إليها ، وفي شعر مصر الفاطمية نجد الشعراء يحنون بتصوير هذه البيئة ، ولم يحاول الشاعر المصرى أن يخرج فنه عن دائرة هذه الحياة التي حوله ، ومن هنا كان تصوير الشعر المصرى للبيئة المصرية وللحياة المصرية في صور متلاحقة تكاد تكون حسية ، فإذا قرأنا هذه الأشعار في تصوير هذه البيئة لا نستطيع أن ننسبها إلى بيئة أخرى غير بيئة مصر ، ولا يصور الشاعر شعباً غير شعب مصر ، فليطعن الذين زعموا أن مصر لم تنتج أديباً ، أو الذين يزعمون أن مصر لم تظهر شخصيتها في الشعر ، إلى أن مصر كان لها شخصية ظاهرة واضحة في الشعر المصرى في العصر الفاطمي ، ثم المصور التي وليت هذا العصر ، وأن الشعر المصرى يصور حياة المصريين المتشعبة النواحي أصدق تمثيل .

أما أخية المصريين في التعبير عن تصوير يبتهم وألوان حياتهم ، فهي أخيلة مستمدة من يبتهم ومن حياتهم أيضاً ، فالفاطميون في أشعارهم التي أوردنا بعض صورها استخدموا الألوان الحسية ، فاستمال الجناس والطباق إلى غير ذلك من ألوان الفن تمثل لنا أخية شعراء العصر الفاطمي بأنها صور منتزعة من الحياة الفاطمية ، وأن توسع الشعراء الفاطميين في استعمال هذه الألوان والمخالات في استخدامها هي ضرورة اضطرتهم إليها حياة العصر الفاطمي نفسه ، حقيقة نرى عند شعراء مصر قبل العصر الفاطمي هذه الألوان الحسية في شعرهم

وقد تحدثنا عنها في كتابنا «أدب مصر الإسلامية»، وأوردنا شيئاً من شعر شعراء هذا العصر ، ما يدل على أن هذا اللون من الفن عرفته مصر الإسلامية ، ولكن مصر الفاطمية كانت تمتاز بالعلو في كل شيء ، فقد رأينا علو الفاطميين في الدين ، وعلوهم في اللهو ، وعلوهم في الزين والتجمل ، وعلوهم في الملبس والمساكن : علو في أعياد فرحهم ، وعلو في ذكريات ما تمهم . فظهر هذا العلو في فن الشعر ظهوره في خواص الحياة المختلفة : فأسرف الشعراء في العصر الفاطمي في استخدام ألوان الزينة البدئية حتى تلائم أشرف الفاطميين في حياتهم ، فإن الحياة كانت تمتد الشعراء بهذه الألوان الحسية عن الزينة . ليس معنى ذلك أن الشعراء في عصر الفاطمية لم يعرفوا الزينة البدئية أو أنهم لم يعرفوا استخدامها ، بل كانت الزينة البدئية في الشعر العربي أقدم عهداً من الفاطميين ، وإن هذه الزينة عرفها شعراء العراق وغير العراق قبل أن تقوم دولة الفاطميين في مصر ، فقد قتلت الزينة البدئية الناس جميعاً في كل البلاد العربية ، وأخذ الشعراء في استخدامها في شعرهم لإرضاء ذوقهم الفني ، وإرضاء الجمهور الذي فن بها ، وتبع شعراء مصر الفاطمية تيار الشعر العربي ، ولم يتخلفوا عنه ، وإنما أسرفوا في استخدام هذه المحسنات البدئية ، فسبقوا غيرهم في مضماره . وذلك لما في المصريين من دقة الحس ورقة الشعور وميل إلى الفكاهة وخفة الروح ، فإذا بك لا تشعر أن بالشعر المصري هذا التكلف الذي يظهر عند غير المصريين من الشعراء ، ولا تلبس جهد الشاعر في الحصول على هذه الصورة الفنية التي ابتدعها في شعره ، فالصور أمامهم وبين أيديهم يتقنون منها ما يشاءون دون جهد فأحسنوا التحدث عن هذه الصور وأحسنوا تمليلها ، وهي صور مصرية وتميللات مصرية منزهة من الحياة المصرية الحضرية .

وإذن فنتطيع أن نعلم أن نعلم أيضاً إلى أن أخيلة المصريين كانت مصرية أيضاً ، لم يتبعوا فيها غيرهم من شعراء البلاد العربية ، وهكذا ظهرت شخصية مصر في الشعر بارزة واضحة .

الباب الثاني

في النثر

الفصل الأول

ازدهار النثر

رأينا في كتابنا « أدب مصر الإسلامية » كيف أسس ديوان الإنشاء بمصر في عهد أحمد بن طولون ، وأن أول من ولي هذا الديوان كان أحمد بن محمد بن مودود المعروف بابن عبد كان الكاتب ، وعرفنا كيف استمر تلاميذ ابن عبد كان يعملون في دواوين الطولونيين والإخشيديين ، فازدهرت الكتابة في مصر على أيديهم حتى بلغت درجة عالية من درجات فن الكتابة في مصر ، حتى إن الفقهني دوى أن أهل بغداد كانوا يمسدون أهل مصر على طباطب المحدث وابن عبد كان الكاتب ، ويقولون : بمصر كاتب ومحدث ليس لأمير المؤمنين بمدينة السلام مثلها (١) وكثر عند الكاتب في مصر في عهد الطولونيين والإخشيديين أمثال الحسن بن رافع ويعقوب بن إسحق وأحمد بن أيمن والحسين بن مهاجر وعلى بن أحمد المادرائي وابن الهادي وإسحق بن نصير العبادي وإبراهيم بن عبد الله النجيري ومحمد بن كلاد الروزباري وغيرهم من الكتاب الذين اتخذوا الكتابة قناتيكسيون به ، ومؤهلا تميمين الكتاب في خدمة الأمراء وأصحاب الشأن في البلاد ، فكثرت تافس الكتاب في تجميد الكتابة وإحسان الصناعة حتى علا منارها وهظم شأنها .

تولى الفاطميون أمر مصر ، ونهضة الكتابة فيها قوية مزدهرة ، قضاعت

هذه النهضة في العصر الفاطمي بما عمل الفاطميون على النهوض أولاً بالملم وإذكاء شعلته في البلاد ، حتى كلن الحركة العلمية أثر قوى في تيار الفكر الإسلامى عامة وفي مصر الفاطمية على وجه خاص ، وقد تحدثنا عن ذلك من قبل . ومن ناحية أخرى ظفرت مصر الفاطمية بهضة أدبية كان لها أثرها القوى في ازدهار الشعر وازدهار الكتابة معا ، فقد بنى الفاطميون بالكتاب عنايتهم بالشعراء . بل لا أغالى إذا قلت : إن عناية الفاطميين بالكتاب كانت أشد من عنايتهم بالشعراء . ذلك أن اتساع ملكهم وتشعب نواحي حياتهم وسلطانهم اضطرهم إلى أن يوجهوا همهم إلى العناية بالدواوين المختلفة عناية خاصة تتناسب مع غلومهم في إظهار مجدهم . ويحدثنا المؤرخون عن هذه الدواوين وعن الكتاب الذين تولوها والتشريف الذى كان يجده هؤلاء الكتاب في العصر الفاطمى . من ذلك أن صاحب ديوان المجلس كان يخلع عليه وينشأ له السجل ، وله المرتبة والسند والدواة والحاجب إلى غير ذلك (١) ويذكر المقرئى أن أبا البركات بن أبى الليث متولى ديوان المجلس سنة ٥١٧ هـ كان له باسجه مياومة لإدراا من بيت المال والخزائن ودار التنمية والمطابخ وشئون الحطب الشيء الكثير ، فكان له من القبول والتوابل ما قيمته نصف دينار ومن الضأن رأس واحد ومن الهيوان ثلاثة أطيوار ومن الحطب حلة واحدة ومن الدقيق خمسة وعشرون رطلا ومن الخبز عشرون وظيفة ، ومن الفاكه ثمرة زهرة قسريتان وشمامة ، كما كان له فى كل يوم اثنين وخميس من السجاط بقاعة الذهب طيفور خاص وصحن من الأرائل وخمسة وعشرون رغيفاً من الخبز المائدى والسمنذ ، وفى كل يوم أحد وأربعاء من الأسطة مثل ذلك ، وفى كل يوم سبت وثلاثاء من أسطحة الركوبات خروف مشوى وجام حلوى ورباعى صنب ، وكان يحضر إليه فى كل يوم من الاصطبلات بئلة بمركوب محلى ، وبئلة يرسم الراجل وفراشين برسم خدمته ؛ ولم يقتصر الأمر عليه وحده بل جعلوا لولده جلايأ كل يوم مقداره ثلاثة أوطال لحم وعشرة أوطال دقيق وراتباً عشرة دنانير . (٢)

ويقول المقرئ أيضاً عن ديوان التحقيق : إنه كان لا يتولاه إلا كاتب خبير وله الخلق المرتبة والحاجب ^(١) ؛ أما صاحب ديوان الإنشاء والمكاتبات فكان أول أرباب الإقطاعات وأرباب الكسوة والرسوم ، وله حاجب من الأمراء الشيوخ وفراشون وله المرتبة المائة والحاد والمسد والدواة ، وهي من أخص الدوى ويعملها أستاذ الخليفة ^(٢) ، ومحدثنا ياقوت : أن رزق ابن خير أن كاتب الإنشاء في عهد المستنصر ، كان ثلاثة آلاف دينار في السنة ، وكان له عن كل ما يكتبه من السجلات والعهودات وكتب التقليدات رسوم يستوفها من كل شيء ^(٣) . فهذا التقدير الذي جعله الفاطميون لكتاب دولتهم كان من أهم عوامل ازدهار الكتابة في هذا العصر ، كما كان إغداق النعم على الكتاب على هذا النحو الذي رأينا صورته من أسباب كثرة الكتاب وإقبال الناس على التعليم وإجادة الكتابة ليصلوا إلى مرتبة الكتابة في الدواوين ، فكثير عدد الكتاب وأصبح على المتأدب أن يأخذ من الكتاب طرائقهم وفهم . ومحدثنا القاضى الفاضل : أنه كان من عادة أرباب الدواوين في تربية أبنائهم أنهم كانوا يرسلون هؤلاء الأولاد إلى ديوان المكاتبات ليتعلموا فن الكتابة ، قال القاضى الفاضل : كان فن الكتابة بمصر في زمن بنو عبيد نخباً طريفاً ، وكان لا يتعلم ديوان المكاتبات من رأس رأس مكاناً وبيانا ، ويقع لسلطانة بقله سلطانا ، وكان من العادة أن كلا من أرباب الدواوين إذا نأى له ولد وشدا شيئاً من علم الأدب أحضره إلى ديوان المكاتبات ليتعلم فن الكتابة ويتدرب ويرى ويسمع ، فأدسنى والدى وكان إذ ذاك قاضياً بئر عقلا إلى الديار المصرية في أيام الحافظ ، وأمرنى بالمصير إلى ديوان المكاتبات ، وكان الذى يرأس به في تلك الأيام رجل ، يقال له : ابن الخلال ، فلما حضرت الديوان ومثلت بين يديه وعرفته من أفا وما طلى رجب بى وسهل ، ثم قال : ما الذى أصدته لفن الكتابة من الآلات ؟ فقلت : ليس عىندى شيء سوى أنى أحفظ القرآن العزيز وكتاب الحاشية . فقال : وفى هذا بلاغ . ثم أمرنى بجلازمته ، فرددت .

(١) خط المقرئ ج ٢ ص ٢٤٢ (٢) صدر عنه ج ٢ ص ٢٠٤ .

(٣) سجد الأدباء ج ٤ ص ٠ (طبعة رضى)

عليه وتدربت بين يديه ، ثم أمرني بعد ذلك أن أحل شعر الحماسة لخطته من أوله إلى آخره ، ثم أمرني أن أحله مرة ثانية لخطته (١) .

فهذا النص يدلنا على مبلغ تعلق الناس بتعليم أبنائهم فن الكتابة ، فقد كان حفظ القرآن الكريم وأشعار العرب من عند الكاتب في هذا العصر ، وقد رأينا كيف طلب ابن الخلال من تلميذه الذي عرف بعد ذلك بالقاضى الفاضل أن ينثر كل الأشعار التي جمعها ديوان الحماسة تهيئة له و الدخول في سلك الكتاب . ولم تكن ملكة الكتابة وحدها تكفي أن تجعل الإنسان كاتباً ، بل كان لابد له من آلات — على نحو ما عبر ابن الخلال — وهذه الآلات هي علوم العربية ، حتى يقتضى الكاتب أن يسير على نهج الأساليب العربية ، فلا يقع في لحن نحوى أو لغوى ، أو يعتمد الكاتب عن سن كتاب العربية في أسلوبهم وتعبيراتهم . ولم يفتح الفاطميون بأن تكون كتابات الكتاب سليمة صحيحة ، بل حرصوا أشد الحرص على ذلك ، بأن جعلوا في ديوان الإنشاء لغويين ونحويين لمراجعة ما كان يمرره الكتاب حتى تخرج كتاباتهم سليمة من الأخطاء ، فهذا الحرص على سلامة أساليب الكتابة كان من العوامل التي جعلت الكتاب أنفسهم يعملون جاهدين على أن تخرج كتاباتهم خالصة متفقة مع الأساليب العربية ، فلا غرو أن يقول القاضى الفاضل : « إن فن الكتابة يحصر في زمن بنى عبيد كان غضا طريا ، وأن تصبو نفس كل متعلم إلى أن يكون كاتباً من كتاب الدواوين .

١ وقد يكون من عوامل ازدهار الكتابة في العصر الفاطمى أن وزراء العصر الأول من الحكم الفاطمى كانوا من الكتاب ، وكانوا يعملون في الدواوين قبل اختيارهم للوزارة ، فالفلاحى والجرجرائى واليازورى والبايلى وبنو المغربى وابن المدير وابن الأبارى وكثير غيرهم كانوا من الكتاب ، وقد بنوا مرتبة الوزارة ، حتى إن المؤرخين لاحظوا أن وزراء الدور الأول كانوا من أصحاب الأقلام ، وأن وزراء الدور الثانى كانوا

من أصحاب السيف . وليس معنى ذلك أن الكتابة ضعفت في الدور الثاني ، أو أن الكتاب أصبحوا في مكاة قتل عن مكاتهم الأولى ، بل ظل الكتاب يتمتعون بمثل المركز الرفيع الذي كانوا فيه في الدور الأول ، ومنهم من جلساء الإمام وحجابه وأصحاب مملكته ، ومنهم من القضاء والدعاة . وهذه كلها كانت أكبر مناصب الدولة بعد الوزارة ، فالكتاب طوال العصر الفاطمي كانت لهم مكاتهم للمنازاة ، والنعم العظيمة ، والبطايا الجزيلة ، فلا غرابة إذن أن يقبل الناس على الكتابة ، وأن تزدهر في هذا العصر .

أضف إلى ذلك كله أن نظام الحكم الفاطمي كان من أشد العوامل على ازدهار الكتابة ، فإن الفاطميين كانوا يسجلون كل دقيقة وعظيمة في سجل يخرج من الديوان ، قسامين الوزراء أو الكتاب أو القضاء أو الدعاة وغيرهم من أبواب وظائف الدولة كان يخرج به سجل خاص مطول ، فيه الحضر على تهمي الله وطاعة الإمام والتسك بأعداب الدين الحنيف ، ثم الإشارة إلى المنصب الذي سيعين فيه الموظف ، وما يتطلبه ذلك المنصب من عمل ، وإلى غير ذلك من ترغيب في المنصب ومشورة في تصريف العمل . وإذا خرج الخليفة لفتح الخليج أو لصلاة الجمعة أو العيد فيخرج السجل بذلك . وفي أعيادهم ومآتهم كانت تصدر هذه السجلات أيضا ، حتى أصبحت هذه السجلات تاريخا للعصر الفاطمي كله . وكان الكتاب يفتنون في إظهار مقدرتهم وكفايتهم في صياغة هذه السجلات ، ويتنافسون في هذا الفن . لجأت هذه السجلات الفاطمية صورا رائعة من صور الكتابة العربية التي تمثل العصر الفاطمي أصدق تمثيل .

من ذلك نستطيع أن ندرك كيف ازدهرت الكتابة في العصر الفاطمي ، وكيف أقبل المتعلمون على أن يلوا بغير الكتابة ، حتى يصحبوا كتابا في دواوين الفاطميين . وأن ينالوا ما ناله الكتاب من تكريم وقريب وهم .

الثر والوثق :

وكان الأئمة يجيئون فن الثر كما كانوا يعرفون بالعصر ، فقد كان الأئمة

يلقون الخطب الدينية في المسجد الجامع . ويعزرون ما يعرضه عليهم الدعاة
من مجالس المحكة ، وقد يبدلون بعض أجزاء هذه المجالس . فن خطبة
المز لدین الله في عيد الاضحى سنة ١٣٤١ هـ .

والله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ، والله أكبر الأعز الأقدس ، الخالق
المذير ، ذو الكبرياء والجبروت ، والعزة والملکوت ، الأحد الصمد ، الفرد
المتفرد ، الأعلى القاهر ، الباطن الظاهر ، الأول الآخر ، مبدع السموات
والأرض بالقدر ، ومالكها بالعزة ، ومدبرها بالحكمة ، وخالقها بما فيها
من عجائب الفطرة ، وبدائع التركيب والصنعة ، الذي كل شيء من موات وحى
موجه بالدعاء إليه ، والدلالة عليه ، والشهادة له بالترعيد ، والتمظيم والتحميد ،
تسكونه الأشياء كلها من عدم شاهد بأن لا شيء قبله ، وانهاؤها إلى الغايات
دليل على أن لا غاية له ، وإحاطته بحدودها مني . بأن لا حد له ، فالضعف
والعجز والفقر والنقص الذي لم يخل منه مخلوق أفصح ناطق وأصدق شاهد
لخالق وحده — جل ثناؤه — بالإلهية والفردانية والقدرية والربوبية والتمام
والكمال والأزل والدوام . تبارك الله رب العالمين ، أحسن كل شيء خلقه ،
وكفل لكل حي رزقه . ثم هدى بالعقل الذي قامت حجته ، ووجبت طاعته ،
والكتب والرسل الذين تمت بهم حكمته . فصل الله عليهم أجمعين ، وعلى
محمد سيد المرسلين ، الذي رفع ذكره وأعلى قدره ، فأكرمه بالوسيلة . واختصه
بكل فضيلة ، وأثبت حاديا للعباد ونورا في البلاد ، علم به من الجهل ، وهدى
به من الضل ، وكثر به من القل ، وأز به من الذل ، فأثب به بعد الفئات ،
ونور به دياجير الظلمات ، صلوات الله عليه وآله المهديين الأخيار الطيبين .
يأيها الناس إن الله لم يخلفكم عبثا ، ولم يهلككم سدى ، ولم يجعل عليكم
في الدين حرجا ، ولم يضرب الذكر عنكم صفحا ، للعبادة خلقكم ، وبطاعته
وطاعة رسوله أسركم ، وجعل طاعة أعلاما منصوبة ، وفروضا مكتوبة ،
ومن أفضل أعلاما وأكرم أيامها يوم الحج الأكبر للبيت العتيق مبوأ
لإبراهيم خليل الله ، وقبة محمد رسول الله ، تقرّبوا إلى الله بما أمركم به وروّضكم
لإياه من بيضة الأنعام ، مقتدين بسنة محمد نبي الرحمة والهدى ، مستقرّين في

التقوى ، فإن الله عز وجل يقول : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم ، فبالتقوى قبل الأفعال ويدرك الأمل ، وكبروا الله على ما حاداكم ، واشكروه على ما أولاكم ، ألا وإن خير الهدى الإبل ، وخير الإبل إناثها ، وكذلك من القرشم الفحول من الضأن ، وسلامة الضحايا سلامة العين والأذن ، وأن تكون من حلال الأموال ، نسأل الله لنا ولكم قبول العمل بامتثانه ، وبلوغ الأمل من رضوان الله ورحمته وإحسانه . »

وجلس ثم قام في الثانية ينص المنصور ويعلن موته ، بعد أن كان موته قد ظل مستورا عدة أشهر :

« الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله والله أكبر ، الله أكبر شائنا ، وأعظم سلطانا ، وأوضح آيات وبرهانا ، من أن تنكر القول توحيد ، أو تروم تحديده ، خالق السموات والأرض ومالكهما ومدبرهما ، الفرد الصمد ، الواحد الأحد الذي لا شريك له ولا ند ، الخالق القدير ، الرحمن الغفور ، النافذ قضائمه ، الكائن ما يشاؤه ، المتقن كل شيء صنعا ، الموسع كل شيء رزقا ، المحيط بكل شيء علما . أحده وأستعينه وأستغفره وأستعديه وأفوض إليه ، وأتوكل في كل الأمور عليه . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً خيرته من عباده ، ونبيه من يرثه ، وصفوته من المتطهرين ، ورسوله إلى كافة العالمين ، وبعثه بالإمامة إلى الثقلين ، ليبلغ حجة الرب ويوضح حجة الحق . فأدى رسالة الله ، ورحم ورأف بعباد الله . وصبر على الكبار من مكر الكفار ، إلى أن أدال الله الحق على الباطل . والهدى على الضلال . محمد صلى الله عليه وآله أفضل الصلاة وأزكها ، وأكملها وأتمها . وأغناها وأبناها ، وعلى الأئمة المهديين بمن عترته الكرام الأبرار ، الذين اختارهم الخلافة . وارتضاهم للإمامة . وأكد بوصية الرسل حجهم . وأوجب في التنزيل طاعتهم ، بعد تفضيله إمام على العالمين بأبوة محمد سيد المرسلين ، وعلى أفضل الوصيين . وعلى من أمه سيده النساء ، خامسة أصحاب الكساء . صلوات الله عليهم . وعلى أميري المؤمنين . المهدي باق و القائم بأمر الله

سيدى الودى ، وإمامى الهدى ، اللذين أعلن الله بهما دعوة الحق ، وأخلق
 بهما الإيمان والمؤمنين ، وأقام بهما دعوة الدين ، وأزحق بمحضهما باطل المدعين
 وأكذب المتعرضين ، وقطع بسيوفهما دابر الظالمين ، صلوات الله ورحمته
 وبركاته ورضوانه وتحياته عليهما . اللهم اخص الإمام الفاضل ، والوصى
 العادل ، والبر القاضل . والنيث الزايل . ذا الآيات المعجزات . والمعزائم
 النافذات . الباذل نفسه الكريمة في حين الأزل والكربات . الصابر في البأساء
 والضراء حتى طهر الأرض من جبابرة الأعداء . عبدك ووليک ونجيبك
 وصفيك أبا الطاهر ، المنصور بك والمتوكل عليك ، والمفوض إليك ، العامل
 بما يرضيك ويقرب إليك ويذل ليدريك . الذى لجشتنا بفقدك ، وأوحدتنا
 بيبعدك ، وأفردتنا منه وأوحشتنا ، فقبلك دعاءه ، وأجبت نداءه ، وجفت
 بينه وبين أحبه في مستقر جنتك وسعة رحمتك . إن القلق وشدة الحرق
 عليك يا أبنائه ياسيده يا إسماعيله يا أبا الطاهره ، يا بحر علوم الأنبياء
 الطاهرين ، الهداة المهديين ، يا بقية أبناء الرسول ، وأبناء الوصى والطاهرة
 التىول ، يا إمام الأمة ، ومفتاح باب الرحمة ، يا سراج الهدى ونسج الودى ،
 ومجلى الطغيان ، يا غصنوصا من الله بتجليل الكرامة ، عظم واقه علينا
 المصاب بك وحل البلاء وعدم المزاء لفقدك ، وقصرت الألسن عن إدراك
 إحصاء شمائلك وتعداد مناقبك ، فوحي الذى اختصك بكرامته وحبك
 بمزيل عطائه ، وشرفك بأبوة رسوله ، لولما أوعزت إلى به وأكدته على
 من القيام بحق الله ، والذب عن أمة جدك رسول الله ، واستنقاذهم من غمرة
 الجهالة وبحار الضلالة ، ومهاوى الفتن ومعاذب المحن ، وما قرر عندى ورسخ
 فى صدرى من الجزاء بمقدار الوفاء لله ورسوله ولأئمة الهدى ، لضربت على
 وجهى سائحا فى البلاد تأليا للهاد ، راضيا بيلفة من الزاد ، إلى أن يلحقنى
 الموت سريما بك ، فأفوز بقربك ورحمة ربك ؛ لكننى فكرت ونظرت
 وتدبرت . فلم أر لى وجهها أستوجب به درجتك ، والحقاق بشرفك ، سوى الصبر
 والاحتساب فتجلدت ، وصبرت رضى فصبرت ، وغلب على اليقين فأمسكت ،
 فأقول : إنا لله وإليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم

الرحمن الرحيم له الحمد على ما أعلی ، والشكر على ما أولی . . . الخ^(١)
وأكتفى بهذا القدر من هذه الخطبة القيمة التي وردت في كتاب «سيرة
الاستاذ جوذر» ، ولعلك تلاحظ أن المزمع قد أتى في خطبته هذه ببعض العقائد
الفاطمية ، من السهل الآن على القارئ أن يدركها ، والمهم الآن أن نلاحظ
هذه الصنعة الفنية في أسلوب الخطبة ، فالجمل قصيرة ، وتكاد الجملة تكون على
وزن وطول الجملة التي قبلها ، والسجع ظاهر فيها . وبثقل المزمع من معنى
إلى آخر انتقالاتا طبيعيا لا تكلف فيه .

ولذا قرأنا توقيعات المزمع التي ضمنها القاضي النعمان بن محمد كتابه «المجالس
والسائر» ، وتوقيعاته التي أرسلها إلى وليه الاستاذ جوذر التي جمعها صاحب
«سيرة جوذر» ، رأينا أن هذه الصنعة الفنية في الكتابة لا تلازم الإمام
المزمع في توقيعاته ، قل أن نجد السجع ، ولا هذا التكلف الذي رأيناه
في خطبته ، فتوقيعاته أقرب إلى الكلام العادي الذي يتحدث به أمام الناس
في الشؤون المختلفة مع سلامة أسلوبه ووضوح عبارته ، مثل توقيعه
إلى جوذر ردأ على رقة رفعها إلى الإمام يسأل فيها ضيعة يرتفق بها ابن أحد
كتابه : « وقفنا على رقتك ، وعمل محمد عمل مثله بمن صدقت نيته ،
واقدمت في الجليل محبة ، ونحن نحب أن يسبح الله نعمنا على من لم يعرفنا ،
فكيف من لم يعرف إلا بنا ، ونحن اسمع جعفرأ لسؤالك ما سأل فيه
إن شاء الله »^(٢) .

وكذلك قول عن الآية الذين جاءوا بعد المزمع ، فقد كانوا على ثقافة
واسعة وعلم غزير جعلهم يهتمون بالكتابة ويميزون بين الجيد منها والردى .
بل تنسب إلى بعضهم رسائل مثل مجموعة الرسائل التي تنسب إلى المستنصر
الفاطمي والتي عرفت « بالرسائل المستنصرية »^(٣) . والتي قيل : إنها الرسائل

(١) سيرة الاستاذ جوذر (نسخة خطية بمكتبي) .

(٢) للمصدر السابق .

(٣) مجموعة خطية بمكتبة مدرسة اللغات العربية بلندن .

التي نبودك بن المستنصر وبين علي بن محمد الصليحي صاحب اليمن ، فؤرخو
الإسماعيلية يؤكدون أن هذه الرسائل من إنشاء المستنصر نفسه ، ولكنني -
بعد أن اطلعت على هذه الرسائل - أستطيع أن أقول إن أسلوبها أقرب إلى
أسلوب المؤيد في الدين داعي السعاة .

وكذلك قول عن « رسالة الهداية الأمرية » ،^(١) التي ينسبها للإسماعيلية
إلى الإمام الأمر بأحكام الله ، فقد شك الأستاذ آصف فيظن فاشترط هذه الرسالة
في نسبتها إلى الإمام الأمر ، ورجح أن تكون من إنشاء أحد الكتاب الذين
كانوا في عصر الأمر .

ومهما يكن من شيء فإن الكتابة في العصر الفاطمي قد ازدهرت بازدهار
الحياة المصرية في ذلك العصر ، ولقد إقبال الناس على القاس العلم والتهل من
منابه التي كثرت ، وتمددت ألوانها وفنونها : وتطور الكتابة بغير دائماً تطور
الحياة العلمية ، فإذا ارتقت العلوم تبعها رقى في الكتابة ، وإذا انحطت العلوم
انحطت الكتابة .

(١) الرسالة الموسومة بالهداية الأمرية في إبطال دعوى الغزالية تحقيق الأستاذ آصف علي
سريظني (من مطبوعات جمعية الأبحاث الإسلامية بالهند) .

الفصل الثاني

كتاب ديوان الإنشاء

قال القلقشندي : ولما ولي الفاطميون مصر صرفوا مزيد عنايتهم لديوان الإنشاء وكتابيه ، فارتفع بهم قدره ، وشاع في الآفاق ذكره ، وولي ديوان الإنشاء منهم جماعة من أفاضل الكتاب وبلغائهم ما بين مسلم وذى : ^(١) هكذا وصف القلقشندي كتاب ديوان الإنشاء في العصر الفاطمي « وما بلغه هذا الديوان على أيدي الكتاب من رفعة القدر وشيوع الذكر ، ولا غرو في ذلك إذ كان منصب ديوان الإنشاء لا يتولاه في الدولة الفاطمية إلا أجل كتاب البلاغة ^(٢) ، ولكافته وكفايته كان يلقب بالشيخ الأجل وبصاحب الست الشريف ^(٣) كما كان الخليفة يستشير في أكثر أموره ، ولا يحجب عنه مني عهد المثل بين يديه ^(٤) ، وقد تحدث ابن منجب الصيرفي — أحد كتابهم — عن الصفات التي يجب أن يتحل بها رئيس ديوان الإنشاء ، تلخص أهمها فيما يأتي :

- ١ — أن يكون ذا دين وورع وأمانة .
- ٢ — أن يكون دينه الإسلام .
- ٣ — أن يكون على منصب الملك .
- ٤ — أن يكون من البلاغة والفصاحة إلى أعلى رتبة وأسمى منزلة ، وبحيث لا يوجد أحد في عصره يفوقه في هذا الفن .
- ٥ — أن يكون معظما بفنون الكتابة ، عالما بأصولها وفصولها .
- ٦ — أن يكون حافظاً لكتاب الله تعالى ، وحافظا للأشعار راويا للكثير منها .

(١) صبح الأعشى ج ١ ص ٩٦

(٢) خطط القرطبي ج ٢ ص ٢٤٤ و صبح الأعشى ج ١ ص ١٠٧ .

(٤) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق .

٧ - أن يكون أصيلاً في قومه ، رفيحاً في حسيبه (١) .

هذه أهم الصفات التي رأى ابن منجب أن يكون عليها رئيس ديوان الإنشاء ، فخل اتخذ الفاطميون هذه الصفات دستوراً لهم في اختيار رؤساء هذا الديوان ؟ يوسفى أن أقول : إن الفاطميين لم يأبوا بهذه الشروط والصفات التي اقترحها أحد كتابهم في كتاب قدمه لوزير من وزرائهم ، ولكن ابن منجب كان من كتاب القرن السادس للهجرة في وقت بدأ فيه ضعف دولتهم وقوة أعدائهم ، ولا سيما قوة الصليبيين ، فلا غرابة أن نرى ابن منجب يشترط أن يكون الإسلام دين رئيس الديوان ، وخاصة بحكم الوقت الحاضر ألا يطلع على أسرارهم من يخالف شريعة الإسلام لقرب دار المصدر خذله الله وأباده (٢) . فإن وجود الصليبيين في بلاد الشام يناوئون الفاطميين جعل ابن منجب يضطر إلى أن يشترط أن يكون رئيس ديوان الإنشاء مسلماً . أما قبل عهد الصليبيين ، ومنذ قامت دولة الفاطميين في مصر ، فقد كان يتولى ديوان الإنشاء بعض أهل الذمة ، كما كان يتولاه بعض المسلمين . ويذكر المؤرخون أسماء بعض من تولى هذا الديوان من أهل الذمة ، مثل أبي المنصور بن نسطوروس النصراني كاتب العزيز والرئيس عهد ، كاتب الحاكم وغيرهما ، كما كان يكتب ابن أبي الدم اليهودى في عهد الحافظ . معنى هذا أن الفاطميين لم يأبوا بمنصب الكاتب أو دينه ، بل لا أعالى إذا ذهب إلى أن الفاطميين كانوا كثيراً ما يستعينون بالنعميين في دولتهم ، وهذه ظاهرة سجلها المؤرخون في كتبهم عن الدولة الفاطمية ، ولكن ليس معنى ذلك أن الفاطميين أبعادوا المسلمين عن الدواوين ، فإن الكثرة الساحقة من كتاب الدواوين كانوا من المسلمين ، فإذا عرضنا أسماء رؤساء ديوان الإنشاء التي لمودت في صحيح الأعتنى رأينا أكثر الكتاب من المسلمين ، فقد جاء في هذا الكتاب : « فكتب للعزيز بالله بن العزيز ، أبو المنصور بن نسطوروس النصراني ، ثم كتب بعده لابنه الحاكم ومات في أيامه ، فكتب للحاكم ، القاضي أبو الطاهر التهركي ، ثم كتب بعده لابنه الظاهر . وكتب للسقصر ، القاضي ولي الدين

(١) قانون ديوان الرسائل لابن منجب ص ٩٤ وما بعدها .

(٢) قانون ديوان الرسائل لابن منجب ، ص ٩٥ .

ابن خيران، ثم ولي الدولة موسى بن الحسن قبل انتقاله إلى الوزارة، وأبو سعيد العميدى، وكتب للأمر والمحافظة، الشيخ الأجل أبو الحسن علي بن أبي أسامة الحلبي، إلى أن توفي سنة اثنتين وخمسين، فكتب بعده ولده الأجل أبو المكارم إلى أن توفي في أيام المحافظة. وكان يكتب بين يديهما الشيخ الأمين تاج الرياضة أبو القاسم علي بن سليمان بن منجب المعروف بابن الصيرفي، والقاضي كافي القضاة محمود بن القاضي الموفق أسعد بن قلدوس وابن أبي الدم اليهودي، ثم كتب بعد الشيخ أبي المكارم بن أبي أسامة المتقدم ذكره، القاضي الموفق بن الخلال أيام المحافظة وإلى آخر أيام العاضد، وبه تخرج القاضي الفاضل البيهقي، ثم أشرك العاضد مع الموفق بن الخلال في ديوان الإنشاء، القاضي جلال الملك محمود الأنصاري، ثم كتب القاضي الفاضل بين يدي الموفق بن الخلال قرب وفاته سنة ست وستين وخمسة في وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكتب من إنشائه عدة سجلات ومكاتبات عن العاضد آخر خلفائهم (١).

ولكن هذه الأسماء التي جاءت في صبح الأعشى، ليست مرصداً لرؤساء ديوان الإنشاء في العصر الفاطمي كله، كما أن الذي فراه في كتب التراجم وفي المراجع العامة الأخرى يختلف بعض الاختلاف عما ورد في صبح الأعشى، إذ تحدثنا هذه المراجع أن الحسين بن جوهرة القائم كان على ديوان الإنشاء في عهد العزيز (٢) وأنغل في منصبه إلى أيام الحاكم، ثم استبدل به صالح بن علي الروزباري، ثم جاء بعده الكافي بن عبدون النصراني، ثم صرف وقرده أحمد بن محمد القشوري الكاتب، ثم ذرعه بن عيسى بن نسطورس الكاتب النصراني الملقب بالشافعي، وبمعه حسين بن طاهر الوزان (٣). وقهم من كلام ابن زولاقي مؤرخ مصر أن مالك ابن سعيد الفاروقي كان له النظر أيضاً في المكاتبات في عصر الحاكم (٤)، وتولى ابن خيران كتابة السجلات للظاهر والمستنصر (٥)، ويذكر المؤيد في الدين

(١) صبح الأعشى ج ١ ص ٩٦ (٢) خطط القرطبي ج ٣ ص ٢٢

(٣) أحاطت الخفا ص ٣٠٠ وما بعدها (٤) الرواة وإنشاء ص ٦٠٦

(٥) ابن خلصكان ج ١ ص ٣٥٨

لمبة الله الشيرازي في سيرته أنه ولي ديوان الإنشاء بمصر سنة ٤٤٣هـ (١) ،
ويذهب القرظي إلى أن الوزير ابن المغربي ولي ديوان الإنشاء بعد أن صرف
عن الوزارة (٢) وأن سناء الملك أبا محمد الزيدى الحنفى كان على رأس ديوان
الإنشاء في عهد الأمر (٣) ؛ وهكذا نستطيع أن نعرف عدداً آخر من الكتاب
الذين ولوا ديوان الإنشاء غير الذين ذكرهم القلقشندي ، كما نستطيع أن نستخرج
أسماء عدد كبير من الكتاب الذين كانوا يعملون في ديوان الإنشاء ، ولكننا
لا نستطيع أن نعرف مذاهبهم الفنية في الكتابة ، لأن آثارهم قدت ولم يبق لنا
الإعدة رسائل وسجلات لا تكفي لأن نكون رأياً صحيحاً عن كل كاتب
من هؤلاء الكتاب ، ولكن هناك عدة خصال عامة اشترك فيها كل كتاب هذا
المصر ، بحيث نستطيع أن نلصقها عند كل الكتاب الذين وصل إلينا شيء من
كتاباتهم ، فأول خصلة من هذه الخصال ، هي أن الكتاب جميعاً التزموا السجع
في كتاباتهم ، نرى هذه الخصلة منذ ابتدأت الدولة الفاطمية إلى أن قوض
صلاح الدين الأيوبي أركانها . نراها في رسالة المعز لدين الله إلى القرمطي (٤) ،
وفي رسالة العزيز بالله إلى عضد الدولة البويهى ، وهذه الرسالة كانت من إنشاء
يعقوب بن كلس (٥) وفي السجلات الكثيرة التي كتبت في عهد الحاكم (٦) وفي
رسائل المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي وفي كتابات ابن خيران ، ونستمر
في إدراك هذه الخصلة عند الكتاب حتى نراها في رسائل ابن الصيرفي وابن
الشخياء ، ثم في رسائل القاضي الفاضل .

١ - وخصلة أخرى نراها في فن هؤلاء الكتاب ، وهي الاقتباس من القرآن
الكريم ، فكانوا أحياناً يضمنون رسائلهم وسجلاتهم بعض آيات من القرآن ،

(١) السيرة المؤيدة (من مطبوعات دار الكتاب العرب) .

(٢) خط القرظي ج ٣ ص ٢٥٧ .

(٣) المخطوط ج ٤ ص ٧٨ .

(٤) انفاذ المختار ص ٢٥١ .

(٥) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٢٤ .

(٦) المخطوط ج ٣ ص ٣٣ .

أو يقتبسون بعض معاني القرآن ، متأثرين بهذا كله تأثراً واضحاً في جميع ما خلف لهم من كتابات .

وخصة تالفة هي المبالغة في استخدام الزينة اللفظية والمعنوية في كتاباتهم ، فهم يفرقون في المبالغة حين يحاولون تضييق المعاني ، ويولعون باستخدام الجنس ، ويكلفون في تركيب جملهم بمراعاة النظم : فإذا بك تجد كتاباتهم تتألف من جمل قصيرة في الغالب ، والجمل تقيع الأخرى في وزنها وموسيقاها ومعناها ، ويقتل بك الكاتب من معنى إلى آخر في رقة وعدوبة ، فلا يتقل بك انتقالاً لجائياً ، مما يدل على فطنة الكاتب ، ومهارته ، كما يدل أيضاً على أن الصنعة الفنية كانت تستهوي جميع الكتاب على أن هذه الحصال التي عرفت في العصر الفاطمي عرفت أيضاً في رسائل ابن عبد كن ، فلا غرابة إذا قلنا : إن أثر ابن عبد كن في كتاب مصر كان قريباً شديداً ، وإن فقه الذي عرف به في العصر العلوي قد ظهر واضحاً في العصر الفاطمي ، وإن كان كتاب الفاطميين قد بالغوا في ذلك كله مبالغتهم في كل شيء في حياتهم . كما أن هذه الحصال نفسها هي التي عرفت بها كتابات القاضي الفاضل ، وما القاضي الفاضل إلا أحد تلاميذ كتاب الفاطميين وبهم تخرج ، والمعجب حقاً أن أدى بمض الزملاء يتوهم أن القاضي الفاضل مذهباً خاصاً عرف به في الكتابة ، وأن له مدرسة تتميز بخصائصها وطرائقها عن مدرسة الكتاب الفاطميين ، وأغشى أن أذهب إلى أن هؤلاء الزملاء لم يدرسوا تطور الكتابة في مصر دراسة كافية ، فقصروا في معرفة أسلوب كتاب مصر منذ أيام ابن عبد كن جعلهم يفسون طريقة ابن عبد كن إلى القاضي الفاضل ، ونحن نشتم هؤلاء الزملاء بعض العذر في حكمهم هذا ، لأنهم كانوا تبعاً في ذلك للقدماء الذين أشادوا بذكر القاضي الفاضل ، وتباسوا بأساقذته وخصائص مذهبهم التي أخذوا عنهم ، وجاء المحدثون يقيمون القدماء في أحكامهم دون دوس وبحث .

وخصة أخرى تتميز بها رسائل كتاب الفاطميين ، ونجدها ظاهرة في كل سجلاتهم ، تلك هي المقدمات التي كان يبدأ بها الكتاب رسائلهم وسجلاتهم ، فقد دفعهم عقيدتهم الدينية وتعليمهم بالمذهب الفاطمي إلى أن يبدأوا رسائلهم

وسجلاتهم بالخدمة ، ثم بالصلة على النبي وعلى الوصي والأئمة من أهل البيت ، ويتمدنون دائماً أن يذكروا أن عمداً جدد الأئمة ، فكانهم كانوا يحاولون إثبات نسبهم في كل رسالة من رسائلهم وكل سجل من سجلاتهم ، وكانهم أرادوا بتكرار هذه الناحية تأكيد ما حاول خصومهم نفيه ، أو كأنه رد على سجلات العباسيين في دحض نسب الفاطميين ، هذه الظاهرة واضحة كل الوضوح في كل رسائل الفاطميين منذ دخل جوهر مصر إلى أن أقرضت الدولة الفاطمية . ولعل هذه الظاهرة هي التي تميز رسائل الكتاب الفاطميين عن غيرهم من كتاب الأقطار الأخرى التي لم تخضع لحكم الفاطميين ، بل أرى هذه الظاهرة في رسائل أتباع مذهب الفاطميين إلى اليوم . وكما كانوا يبدأون كتاباتهم وسجلاتهم بالحد والصلاة على النبي والأئمة ، كانوا يهتمون هذه الكتابات والسجلات ، لم ينفذ عن ذلك كاتب من كتابهم . ولعل هذه الحملة تظهر في سجلات الفاطميين أوضح من ظهورها في رسائلهم . والسبب في ذلك أن السجلات الفاطمية كانت أقرب إلى البلاغات الرسمية التي تصدر عن ديوان أئمة ملك في عصرنا الحديث ، ففي هذه السجلات التي كانت تصدر عن ديوان الإنشاء تسجيل خطوات الإمام الفاطمي ، فإذا خرج للصلاة صدر بذلك سجل من الديوان ، وإذا خرج الإمام إلى فتح الخليج صدر السجل ، وإذا انتصرت الجيوش المصرية صدر السجل بالفتح وهكذا ، ففي كل هذه السجلات تظهر هذه الخصلة .

وكما تأثر العصر بالعقائد الفاطمية تأثرت الكتابة بهذه العقائد تأثراً يظهر في السجلات التي تصدر في الأعياد والمواسم أو في تولية إمام أو أحد رجال الدولة من وزراء وقضاة ودعاة ، ففي مثل هذه السجلات كان الكتاب يلبون بالعقائد ، ويؤولون بعض آيات القرآن الكريم وأولاً يشفق مع مذهبهم الفاطمي ، ويذكرون في كتاباتهم رأى الفاطميين في كل مناسبة وفي كل عيد ، فالسجلات التي صدرت في عيد الغدير كانت تصب على ولاية علي بن أبي طالب والأئمة المنصرين عليهم من بعده ، وسجل مأتم عاشوراء كان في الحسين بن علي وما لاقاه أهل البيت من أهوال ، وسجل رؤية رمضان في ذكر ضيعة

الفاطميين في حلال ومضان ، وهكذا كانت هذه السجلات حافلة بالمعتقدات الفاطمية التي لا يمكن أن تصدر عن دولة غير فاطمية المنصب .

ولعل أول قطعة ثرية وصلتنا عن الدولة الفاطمية هي ما كتبه القائد جوهر الصقل قانع مصر ، وذلك هي الأمان الذي قطعه على نفسه وعلى إمامه للبريين ، وإن كان هذا الأمان من السجلات التاريخية فهو صورة من الصور الأدبية التي ديجتها براعة هذا القائد ، فقد كان جوهر كاتباً للمز قبل أن يوليه قيادة جيوشه بالمغرب^(١) ؛ ويحدثنا القرزبي أن القائد جوهر أكان كاتباً بليغاً ، ومن مستحسن توقيعاته في رقعة وقعت إليه بمصر :

« سوء الاجترار ، أوقع بكم حلول الانتقام ، وكفر الإنعام ، أخرجهكم من حفظ الدعاء ، غلواجب فيكم ترك الإيجاب ، وللأزم لكم ملازمة الاحساب ، لأنكم بدأتهم فأسأتم ، وعذمتهم فعتدتم ، فابتدأكم علوم ، وعودكم منوم ، وليس بينهما فرجة إلا تتخفى الغم لكم ؛ والإجراض عنكم ، ليرى أمير المؤمنين صلوات الله عليه رأيه فيكم »^(٢) .

فترجع جوهر القائد على هذا التحريد هل أن جوهر أكان على مقدرة وكفاية في فن الكتابة ، كما كان على مقدرة وكفاية في فنون الحرب . فهذه الجمل القصيرة المسجوعة ، وهذه الممانى المتسقة والمقابلات بين معنى الجملة والأخرى نرينا أن فن الكاتب هو نفس الفن الذي ساد العصر الفاطمي ، بل كاد يسود العالم الإسلامي ، فالرنية اللفظية في هذه القرون كانت حلية الكتاب جميعاً .

أما الأمان الذي هو أول نص حفظ لنا عن الدولة الفاطمية فقد جاء فيه : —

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من جوهر الكاتب عبد أمير المؤمنين المزلدين الله صلوات الله عليه ، لجماعة أهل مصر الساكنين بها من أهلها ومن غيرهم : إنه قد ورد من سائرهم الترسل والاجتماع معي وم أبو جعفر مسلم الشريف أحوال الله بقاء ، وأبو إسماعيل الرمي أيده الله ، وأبو الطيب الهاشمي

(١) سيرة الأستاذ جودر (مخطوط) .

(٢) خط القرزبي ج ٢ ص ٢٠٧ .

أيده الله ، وأبو جعفر أحمد بن نصر أعزه الله ، والقاضي أعزه الله وذكروا
عنكم أنكم التستم كتابا يشتمل على أمانكم في أنفسكم وأموالكم وبلادكم وجميع
أحوالكم ، فمرقم ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ،
وحسن نظره لكم : فلتحمدوا الله على ما أولاكم ، وتفكروه على ما حاكم ،
وتدأبوا فيما يلزمكم ، وتبارعوا إلى طاعته العائنة لكم ، العائدة بالسعادة عليكم ،
وبالسلامة لكم ، وهو أنه صلوات الله عليه لم يكن لإخراجه الساكر المنصورة ،
والجيوش المظفرة ، إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم . . . الخ . . . (١)
ويستمر جوهر في ذكر ما يجب على المصريين أن يتبعوه ، وما على الحكومة
الجديدة من تمهيدات نحو الشعب المصري . ويحيل إلى أن كاتب هذا النص
لم يكن عنده الوقت الكافي لأن يظهر صناعته الفنية في المواجهة بين الجمل
والزمام السجج في كل قراته ، وإن كان الكاتب حاول أن يرتفع بأسلوبه
وأن يجعل أسلوبا أدبيا .

وإذا تركنا كتاب الأمان الذي كتبه جوهر ، رأينا رسالة أخرى للمز
أرسلنا إلى الحسن بن أحمد القرمطي ، ونحن لا ندرى من الذي كتب هذه
الرسالة عن المز ، فالرسالة التي وصلت إلينا طويلة ولكنها ناقصة . ومع ذلك
فنحن نستطيع أن نتخذها صورة للكتابة في أول العصر الفاطمي ، حتى
نستطيع أن نميز تطور الكتابة في العصر الفاطمي كله ، فقد جاء في هذه الرسالة :

« من عبد الله ووليه ، وخيرته وصفيه ، معد أبي نعيم المز لدين الله أمير
المؤمنين ، وسلاة خير التبيين ، ونجل على أفضل الوصيين ، إلى الحسن بن أحمد .

بسم الله الرحمن الرحيم ، رسوم النخفاء ، ومذاهب الأئمة والأولياء ،
ومسالك الرسل والأوصياء السالف والآف منا . صلوات الله علينا وعلى
آبائنا ، أولى الأيدى والأبصار ، في مقدم الفهور والأكوار ، وسالف
الأزمان والأعصار ، عند قيامهم بأحكام الله ، واتصافهم لأمر الله ، الابتداء
بالإعذار ، والالتهاء بالإقذار ، قبل إقذار الأقدار ، في أهل الشقاق والأصار ،

تكون المحبة على من شاق وصلى ، والعقوبة على من باين وغوى ، حسبما قاله
الله جل وعز : « وما كنا معذبين حتى نبينك رسولا » ، وإن من أمة
إلا خلا فيها نذير ، وقوله سبحانه : « قل هذه سبيل أدبر إلى الله على بصيرة
أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله وما أنا من المشركين » ، « فإن آمنوا بمثل
ما آمستم به فقد امتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق » ، أما بعد — أيها الناس .
فإنا نحمد الله بجميع محامده ، ونحمده بأحسن ما جده ، حمدا دائما أبدا ، ومجدا
طالبا سرمدا ، على سبوح نعمائه ، وحسن بركاته ، ونبتلى إليه الوسيلة بالتوفيق
والمعونة على طاعته ، والتسديد في نصرته ، ونستكشفه بما يلة الهوى ، والزيغ
عن قصد الهدى ، ونستزيد منه إتمام الصلوات وإفادات البركات ، وطيب
التحيات ، على أولياته الماضية ، وخلفائه التاليين ، منا ومن آبائنا الراشدين
للهدى المنتخبين ؛ الذين قضوا بالحق وكانوا به يصدلون . أيها الناس : قد جاءكم
بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عى فلنفسها ، ليذكر من يذكر ، وينذر
من أبصر واعتبر : أيها الناس : إن الله جل وعز إذا أراد أمرا قضاه ، وإذا
قضاه أمضاه ، وكان من قضاه فينا قبل التكوين أن خلقنا أشباحا ، وأبرزنا
أرواحا ، بالقعدة مالم يكن ، وبالقوة قادرين ، حين لاسماء مبنية ، ولا أرض
منسية ، ولا شمس تضيء ، ولا قمر يسرى ؛ ولا كوكب يجرى ، ولا ليل
يخن ، ولا نهار يخن ، ولا لسان ينطق ، ولا جناح يخفق ، ولا ليل ولا نهار ،
ولا فلك دوار ، ولا كوكب سيار ، فمن أول الفكرة وآخر العمل بقدر
مقدور ، وأمر في القدر مبرور ، فمجد تكامل الأمر وحمه المزم وإنشاء الله
جل وعز المنفآت ، وإبداء الأمهات من الميولات ، طبعنا أنوارا وظلما ،
وحركة وسكونا . وكان من حكمه السابق في خلقه : ما قرون من فلك دوار
وكوكب سيار ، وليل ونهار ، وما في الآفاق من آثار معجزات ، وأقدار
باهرات ، وما في الأقطار من الآثار ، وما في النفوس من الاجتناس والصور
والأنواع ، من كَيْفٍ ولطيف ، وموجود ومعدوم ، وظاهر وباطن ، وعسوس
وملبوس ، ودان وشاسع ، وعابط وطالع ، كل فلك لنا ومن أخلقنا ، دلالة
طينا ، وإشارة إلينا ، يهدي به الله من كل نة لب سجيح ، ورأى صحيح .

قد سبقت له الحسنى ، فدان بالمعنى . . . الخ (١)

ولعل أول ما يلفت نظرنا في هذه الرسالة تلك الاصطلاحات الفاطمية والمعاني الباطنية بحيث نستطيع أن نقول : إنه لا يمكن أن تصدر مثل هذه الرسالة إلا من كاتب من كتاب الفاطميين ، حتى لو كان الكاتب لم يبدأ رسالته بأنها من إمام من أئمة الفاطميين ، فالاصطلاحات الفاطمية (الناطق) و (الوصي) ، ثم حديثه عن خلق الأشباح أى الممتولات قبل خلق العالم ، وأن الأئمة أول الفكرة ، أى أنهم مثل للعقل الأول (المبدع الأول) وأن كل المظروفات وجدت للدلالة على الأئمة الذين هم مثل للعقل . كل هذه مع المعاني الباطنية التي يدين بها الفاطميون ، فالرسالة كلها مملوءة بمثل هذه العقائد ، فليست الرسالة من الرسائل التاريخية السياسية التي تفيد المؤرخ السياسي في معرفة العلاقة بين الفاطميين والقرامطة فحسب ، وليست رسالة أدبية تبين لنا صورة من صور الكتابة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجرة ، بل ، هي من أهم الرسائل التي تتحدث عن العقائد الفاطمية ، وترينا تطور المذهب الفاطمي إذا قارناها بما جاء في كتب منصور بن الحسين بن حوشب الذي وجد قبل عصر الممزر ؛ أركتب القاضي النعمان ، وجعفر بن منصور والمروزي ، الذين كانوا في عهد الممزر ، ثم كتب الدعاة الكبار الذين كانوا بعد عصر الممزر . فؤرخ العقائد الفاطمية يجد مجالا للبحث في هذه الرسالة الهامة .

وأسلوب الرسالة هو ذلك الأسلوب الذي تحدثنا عنه من قبل ، وتظهر فيه كل خصائص الكتابة في العصر الفاطمي ، وكل خصائص مدرسة ابن عبد كل في الكتابة . انظر إلى هذه القطعة من تلك الرسالة :

فأما أنت أيها الغادر الحائن ، الناكث البائن ، عن هدى آباءه وأجداده ، المنسلخ عن دين أسلافه أنداده ، والموقد لنار الفتنة ، والمخارج عن الجماعة والسنة فلم أضل أمرك ، ولا خفي عن خبرك ، ولا استتر دوني أترك ، وإنك مني لبتظر ومسمع ، كما قال الله عز وجل : [إنى ممكا أسمع وأرى ، وده وما كان

(١) انطاخ المنفاص ٢٥١ (طبعة دار الفكر العربي) .

أبوكم أمراً سوء. وما كانت أمك بنيا، فزقنا على أبي رأى أصلت، وأى طريق سلكت، أما كان لك بمحمد أبي سيد أسوة، ويعتقل أبي طامر قوة، أما ظفرت في كتفهم وأخبارهم، ولا قرأت وصاياهم وأشعارهم، أكنت غائبا عن ديارهم وما كن من آثارهم. فأنت قرأت هذه القصة فحسرت أنك قرأت رسالة ابن عبد كان التي كتبها إلى العباس بن أحمد بن طولون عند ما ثار على أبيه، فهذه الجمل القصيدة المسجوعة، والاقبياسات من القرآن الكريم، وضم الجمل إلى ما يشاكلها. كل هذه من خصائص فن ابن عبد كان، وقلها تلاميذه عنه، واستمرت طوال العصر الفاطمي.

ووصلت إلينا رسالة كتبت في عهد العزيز بالله، كتبها إلى عامله بمصر يشره بالفتح حين خرج إلى قتال القرامطة بالعام سنة ٣٩٧ هـ، ونحن لا نعرف أيضا كاتب هذه الرسالة، ولكن لا شك في أنها كتبت في العصر الفاطمي، لما فيها من الخصائص الفاطمية التي تحدثنا عنها من قبل، سواء أكان ذلك من حيث المقلد أو من حيث الأسلوب الفني، فقد جاء في هذه الرسالة (١).

« من عبد الله ووليه نزار أبي المنصور العزيز بالله أمير المؤمنين إلى حسين بن القاسم. سلام عليك، فإن أمير المؤمنين محمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، ويُسأله أن يعمل على جده محمد نبيه ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله من هزته الأبرار، الطامرين المطهرين وسلم تسليما.

لما بعد، فأخذه الملك العظيم، العليم الخليم، ذي الطول الكريم، والمن الجسم، والزمديد، والجمال الشديد، والحق ونصيره. وماحق الباطل ومييره، المستكفل بالتمر والتكين، والتأييد والتحصين. لأوليائه المؤمنين، وخطاهه المصطفين، الدائين عن دينه، والفتاة من محقه، والدالين على توجيهه، الحاكم بإعلاء كلمتهم، وإفلاج جميعهم، وظهورهم على أعدائه اللعاقين له، الضالين عن سبيله، الملتصدين في آياته، الملاحدين لثباته، المزلزل رجوه

(١) الرسالة بأكملها في صبح الأمل ص ٦٤ و ٣٤٤ وما بعدها.

وتوادع بأسه على من عصاه لحاده ، وصده عنه قتاده ، القاضى بالمواقب الحسنى ، والفوز والتمنى ، لمن أسلم وجهه له ، وتوكل عليه فى أمره ، وفوض إليه حكمه ، كل ذلك فضلا منه وعدلا ، وقضاء فضلا ، وهو الحكم العدل الذى « لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون » .

فأنت ترى فى هذه القطعة كيف ذكر الكاتب أن عمداً جد الإمام العزيز ، وأن الأئمة هم صفوة الخلق المصفون الذين عن دين الله ، فهذه كلها من المعاني القاضية التى لا يقول بها غيرهم ، فإذا مضينا فى قراءة الرسالة وأينا الجزء الأول منها يجرى هذا الجرى الذى رأيناه فى القطعة السابقة ، حتى إذا وصلنا إلى الفرض من الرسالة ، وهو الحرب مع القرمطى رأينا الكاتب يفضل حركات العزيز وانتقالاته إثر عدوه . حتى قال الكاتب :

فبعد ما طمع ، قاده الحين الثالب ، والتقد الجالب ، وما أراد اقه عز وجل من استدراجه إلى موضع نكاله ، ومنهل وباله . ورحل من يسان وحييل من استجلبته البلية ، واستدعته الزرية . فحل بموضع يعرف بكفر سلام ، كافرنا بحدود الإسلام ، متجرئاً على الله محارباً لتجل نبيه عليه السلام ، وأقام بها متلذذاً فى حيرته . متردداً فى سكرته ، ثم استجره شؤمه ، وقاده حينه وثومته ، إلى أن رحل فزل بكفر سابا البريد ، فأنبأه اسمها بما حل به من السبي الجيد ، والحزى الشديد ، ثم لم يلبث أن ضرب مضاديه للمأكولة . ونصب أعلامه المخدلة وأقام صفوفه المغلولة ، وأظهر آلة الحرب إقداما ، وأخفى عن القاء إحكاما . . . الخ .

وعلى هذا النحو من الأسلوب سار الكاتب فى هذه الرسالة ، التى لا تكاد تختلف فى أسلوبها عن أسلوب الرسالة السابقة .

وفى عهد الحاكم الذى عرف بزمته وتجلياته فى حكمه . كثرت السجلات والأمانات فى عهده ، وأصاب الكتاب من قلباته أذى كثير ، وقيل القزوينى عن المسبحى صديق الحاكم وجليه : « فى سنة خمس وتسعين وثلاثمائة أمر (الحاكم) بعمل شدة بما على الجبل ملئت بالسنت والجوص والحلأ . غلام

قلوب الناس من ذلك جزع شديد ، وظن كل من يتعلق بخدمة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله أن هذه الثروة عملت لهم ، ثم قويت الإشاعات ، وتحدث العوام في الطرقات ، أنها الكتاب وأصحاب الدواوين وأسبابهم ، فاجتمع سائر الكتاب بأجمعهم في خامس ربيع الأول ومعهم سائر المتصرفين في الدواوين من المسلمين والنصارى إلى الزمانيين بالقاهرة ، ولم يزالوا يقبلون الأرض حتى وصلوا إلى القصر ، فوقفوا على بابه يدعون ويتضرعون ، ويصنعون ويسألون العفو عنهم^(١) . ويروى المقرئ أيضاً أنه كتب فوق المائة سجل بأمان لأهل الأسواق^(٢) وما أورده المقرئ صورة سجل أمان أصدره الحاكم وهو :

« هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبي علي الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين لأهل مسجد عبد الله . إنكم من الأمنين بأمان الله الملك الحق المبين ، وأمان جدنا محمد غانم النبيين . وأيضاً على خير الوصيين ، وآبائنا الذرية النبوية المهديين صلى الله على الرسول ووصيه وعليهم أجمعين ، وأمان أمير المؤمنين على النفس والحال ، والدم والمال ، لاخوف عليكم ولا تمد يد يسوء إليكم ، إلا في حد يقام بواجبه ، وحتى يؤخذ بمستوجبه ، فيوثق بذلك ، ليحول عليه إن شاء الله تعالى وكتب في جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلاثمائة والحمد لله ، وصلى الله على محمد سيد المرسلين ، وعلى خير الوصيين ، وعلى الأئمة المهديين ذرية النبوة وسلم وتسليماً كثيراً^(٣) . »

كما ورد في صحيح الأصبهاني^(٤) سجل بتولية الحسين بن علي بن النعمان القضاء في عهد الحاكم بأمر الله ، وفي هذا السجل تظهر الصفة الفنية التي تراها في كتاب الأمان السابق . وما جاء في هذا السجل :

« أمره أن يتق الله عز وجل حق التقوى ، في السر والظهر والنجوى ، ويتنصم بالثبات واليقين والتمسك ، ويتنصم من الشبهات والشكوى والهمى . »

(٢) المصدر نفسه ج ٤ ص ٢٢ .

(١) خط المقرئ ج ٣ ص ٢٧ .

(٤) صحيح الأصبهاني ج ١٠ ص ٣٨٥ .

(٣) المصدر نفسه .

فإن حمى الله تبارك وتعالى ، موكل لمن وتل إليها حصين ، وموكل لمن اقتباما أمين ، وموكل لمن حول عليها مكين ، ووصية الله التي أشاد بفتحها ، وزاد في ستاما ، بما عهد أنه من أهلها ، فقال تبارك وتعالى : يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين .

ولا نستطيع أن نعرف الكاتب الذى سطر هذه السجلات وكتب الأمان التى صدرت فى عصر الحاكم ، لأن ديوان الإنشاء فى عهده قد اوفد عدد كبير منهم بحيث يصعب على المؤرخ أن يعرفهم أو يعرف كم أمضى كل كاتب منهم فى الديوان ، واستمر الأمر فى غموض ، ولعل أول كاتب فى هذا العصر المضطرب نستطيع الحديث عنه هو ولى الدولة ابن خيران .

ابنه خيران :

أما هذا الكاتب فهو أبو محمد أحمد بن علي بن خيران ولقب بولي الدولة . ويذكر ياقوت أن ابن خيران ولي ديوان الإنشاء بعد أبيه فى عهد الظاهر (١) ، ونحن لا نعرف شيئاً عن أبيه سوى ما يرويه ياقوت : وكان أبوه أيضاً فاضلاً بليغاً ، أعظم قدراً من أنه وأكثر علماً (٢) كذلك لا نعرف متى ولي والده ديوان الإنشاء ، ومتى ولي الابن بعده ، ولكن المقرئى يحدثنا فى خطه أن أبا الحسين عمار بن محمد — وكان يلى ديوان الإنشاء واستوزره الحاكم ، وهو الذى تولى البيعة للظاهر — قتل فى ربيع الأول سنة اثنى عشرة وأربعمائة ، فاستوزر بعده بدر الدولة أبا الفتوح موسى بن الحسين وكان يتولى الشرطة ثم ولي ديوان الإنشاء بعد ابن خيران (٣) ، ويحيل إلى أن ابن خيران المذكور فى نص المقرئى هو الأب ، لأن ولى الدولة ظل فى منصبه حتى شامد عصر المستنصر ، ومع ذلك فنص المقرئى يختلف عن نص ياقوت . إذ ينصب ياقوت كما رأينا إلى أن أبا الابن حل محل أبيه فى ديوان الإنشاء ، على حين ينصب المقرئى إلى أن أبا

(١) صبح الألباء ج ٤ ص ٥ (طبعة فريد رهايم) .

(٢) المصدر نفسه (٣) خط المقرئى ج ٢ ص ١٦٧ .

الفتوح موسى بن الحسين هو الذي ولي الديوان بعد ابن خيران ، ولا نستطيع أن نرجع إحدى الكفتين ، لأن المصادر التي بين أيدينا قليلة ولا تعطينا صورة دقيقة لرجال ذلك العصر .

ومهما يكن من شيء فإن ولي الدولة ابن خيران قلده ديوان الإنشاء للظاهر ثم المستنصر ، ويحدثنا المقرئ : أنه في سنة أربع عشرة وأربعمائة قرر الشريف الكبير المجعي والشيخ نجيب الدولة الجرجاني والشيخ المميد محسن بن بدوس مع القائد معضاد ألا يدخل على الظاهر أحد غيرهم ، وكانوا يدخلون كل يوم خطوة ويخرجون فيتصرفون في سائر أمور الدولة ، والظاهر مشغول بذااته . وصار شمس الملك مظفر صاحب المظلة ، وابن خيران صاحب الإنشاء وداعي الدعاة وقيب قبائل الطالبين وقاضي القضاة ، ربما دخلوا على الظاهر في كل عشرين يوماً مرة ومن عداهم لا يصل إلى الظاهر ألبتة (١) . ولأن قد كان ولي الدولة ابن خيران صاحب ديوان الإنشاء في سنة ٤١٤ هـ ؛ ويقول ابن خلكان عن الشاعر أبي الحسن علي بن أحمد بن نوبخت أنه توفي بمصر في شعبان سنة ست عشرة وأربعمائة وهو على حالة من الضرورة وشدة الفاقة ، وكفله ولي الدولة أبو محمد أحمد بن علي المعروف بابن خيران الكاتب الشاعر ، وهذا ابن خيران كان متولياً كتب السجلات عن الظاهر بن الحاكم (٢) فهذا النص يدلنا على أن ابن خيران كان في ديوان الإنشاء سنة ٤١٦ هـ .

ويروى المقرئ أن ابن خيران وقع عن الخليفة المستنصر : الفخر مر المذاق ، والحاجة تقل الأعناق ، وحراسة النعم يادار الأرزاق ، فليجروا على رسومهم في الإطلاق ، ما عنكم ينقد وما عند الله باق (٣) . وابن خيران إذن كان صاحب ديوان الرسائل في أواخر عهد الظاهر وفي عهد المستنصر أيضاً ، ويروى بإقت: أن رذقه كان في كل سنة ثلاثة آلاف دينار يؤمله عن كل ما يكتبه من السجلات والعهودات ، وكتب التقليدات رسوم يستوفى منها كل شيء بحسبه ، وكان شاباً حسن الوجه ، جميل المروءة ، واسع النعمة ، طويل اللسان ، جيد العبادة وسلم

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٥٨

(١) خط المقرئ ج ٢ ص ١٦٨

(٣) خط المقرئ ج ٢ ص ٢٣٨

إلى أبي منصور بن العيرازي رسول أبي كالجار إلى مصر من بغداد جزأين من شعره ورسالة ، واستصحبا إلى بغداد ليعرضهما على الشريف المرتضى أبي القاسم وغيره ممن يأنس به من رؤساء البلد ، ويستفهم في تعليلهما دار العلم ليخضعية الديوان والرسائل إن علم أن ما أفضله منها ارتضى واستجيد ،^(١) وعلم للعرض من أن شعره قد ولم يبق منه إلا عدة مقطوعات قصيرة فإتانا نستطيع أن نقول : إن ابن خيران كان ممجبا بنفسه ، يكثر الإشادة بشعره وبته . . انظر إليه وهو يقول :

ولقد سموت هل الأقام بخاطر الله أجرى منه بحر زاهر
فإذا نظمت نظمت روضا حاليا وإذا ثرت ثرت دراهم خرا^(٢)
ويقوله مرة أخرى :

خلقت يدي للكرامات ، ومنطق للمجرات ومفرق التاج
وسموت للعلياء أطلب غاية يشق بها الفتوى ويحظى الراعي^(٣)
وهو القائل أيضا :

قد علم السيف وحيد القنا أن لاني منها أقطع
والأم الأشرف لي شاهد بأني فارسه المصقع^(٤)

من هذه المقطوعات نستدل على أن ابن خيران قد فتن بشعره وبذره إلى درجة أن وصف نفسه بأن منطقه يأتي بالمعجزات ، ويحيل إلى أن إعجابه بنفسه لم يكن في الشعر أو في النثر ، بل إن حياته كان يسيطر عليها هذا التيه والإعجاب بنفسه ، حتى لو كان في ذلك ما يجازف فيه بحياته ، ولعل القصة التي أوردناها بقوت عنه تدل على ذلك كله ، قال ياقوت : كان ابن خيران قد خرج إلى الجيزة متزها ، ومعه من أصحابه المتقدمين في الأدب والشعر والكتابة ، وقد احتفوا به بمينا وشمالا ، فأدى بهم السير إلى غاضة مخوفة ، فلما رأى إحجام الجماعة من الفرسان عنها ، وظهر جرعهم منها ، قبح بقلته ، فولجها حتى قتلها ، واثني قائلا مر تجملا :

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٨

(١) سجع الأدباء ج ٤ ص ٥

(٤) المصدر السابق ج ٤ ص ١٢

(٣) للمصدر السابق ج ٤ ص ١٠

وعاجزة يلقى الردى من عاضها . كفت الغداة إلى تعدا خواضها
وبذلت قسى في مهاول خوضها حتى تال من العدا أغراضها^(١)

وعلى الرغم من أن ابن خيران ظل مدة طويلة في ديوان الإنشاء ، وأنه وسائل
كثيرة جمعها في حياته ، فإنه لم يصل إلينا من ثمره سوى هذه القطعة التي كتبها
توقيا عن المستنصر . نبروي ياقوت عن الرئيس هلال بن الحسن ، أن الرسائل
بحالحة سليمة ، قد اقتزعت من المنظوم على خطوة إلا من الوزن والقافية .

وتوفى ابن خيران في شهر رمضان سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة من الهجرة .
ويعد ابن خيران تولى محمد بن أحمد بن محمد العميدى ديوان الإنشاء المستنصر
في صفر سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة من الهجرة ، وكان نحويا لغويا ، وصنف
عدة كتب منها كتاب تنقيح البلاغة في عشر مجلدات ، وكتاب الإرشاد إلى
حل المنظوم ، وكتاب الهداية إلى نظم المنثور ، وكتاب انزاعات القرآن ،
وكتاب العروض ، وكتاب القوافي^(٢) . فهذه المصنفات تدلنا على أن العميدى
كان متأثراً بهذه الثقافة اللغوية النحوية ، وأرجح أن كتابته في رسائله كانت
متأثرة أيضاً بهذه الألوان من العلوم التي حظها فنصف فيها هذه الكتب ،
حضافاً إليها خصائص الكتابة في مصر التي تحدثنا عنها ، وقد أورد ياقوت له
يقتين من الشعر هما :

إذا ما ضاق صدرى لم أجدر لي مقر عبادة إلا القراءة
لئن لم يرحم المولى اجتهدى وقفة ناصرى لم ألق راحة
ولم تلك تلاحظ هذه الجناس بين « القراءة » و « ألقى راحه » ، ولا تدرى
مقدار استخدام هذه المصنعات البديعية في كتابته لأننا لم نعثر على شيء منها ،
ولم يعمر العميدى طويلاً في الديوان ، إذ توفى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة هـ .
ثم نوالى الكتاب بعده على ديوان الإنشاء ، تذكر منهم أبا الفرج النحل
وأبا الطاهر النهركى وولى القولة موسى بن الحسن وغيرهم ، إلى أن ولى المؤيد

(١) سجع الأدباء ج ٤ ص ٦ (٢) سجع الأدباء ج ١٧ ص ٢١٢ .

في الدين حبة الله الشيرازي ديوان الإنشاء سنة ٥٤٤٣ هـ ، وقد تحدثنا طويلا عن المؤيد في الدين ، ونكتفي الآن بأن نعرض صورة من رسالته التي حفظها في كتابه « السيرة المؤيدية » ، من ذلك رسالته إلى الوزير اليازوري إبان خروج المؤيد لمناصرة البساسيري في حركته المعروفة .

رسالة صم كتاب المؤيد :

« ووصل كتاب الحضرة العالية فاستفدت السرور بطلعه ، والسكون إلى علم مودعه ، من ذكر شمول السلامة والسعادة ، جعلها الله متصلتي الأسباب . منتهى السحاب ، وفهته . فأما ما ذكر جوابا عن قول حين نبيت أن أوهي تاج الأمراء سمي ، لقيني بوجه التفخير في العزم ، أتني ما شأنت تاج الأمراء ولا علم لي ما يكون منه في ذلك ، فإن عاطفتي على شيء منه خاطئي بلسان ، كل الناس به فاطقون ، وعليه متفقون ، لو كان كلامهم في ناجما ، ومنى موقع القبول وإفعا . إن الحضرة العالية — حرس الله عزها — عارفة بمن يلقى ذلك إلى علي جهة الإشفاق وهو غل ، والنصيحة وهو غش ، وأنها لو شأنت أن تسمي لي أو تصدر كتبهم إلى لفعت وذكرت ورود مكاتباتهم يبذلون الخدمة في هذا الوجه ، ولكنها — حرس الله عزها — تتجنب ما يوزع سري ، فمن أجل ذلك تكف ، فقد عرفته ، ومسلم للحضرة العالية — حرس الله عزها — تقرب الرأي والبصيرة والألمعية والنجاس التي توحيدها الله به . فأما علم الغيب فقد أتني منه النبي صلى الله عليه وسلم بديل الكتاب : « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء » ، ولله نما إليها — حرس الله عزها — ذكر رجل أو رجلين تكلموا بذلك ، مما قليل من كثير ، فاطروني على ذلك ، وقبحوا على فعل كيف استجبت له وأنا بالقاهرة المحروسة يومئذ ثم في طامة الطريق . . . الخ » (١) .

ولمّاك تلاحظ من هذه القطعة من رسالة المؤيد في الدين أنها لم تظهر فيها

خصائص الكتابة في مصر، والسبب في ذلك هو أن المؤيد في الدين لم يكن مصرانياً. إنما وفد على مصر بعد أن استكمل خصائصه الفنية في الشعر والنثر، فلم يتأثر بمدرسة الكتاب المصريين، بالرغم من أن المؤيد كان يرى نفسه أقدر في فن الكتابة من الذين ولوا ديوان الإنشاء قبله، فهو يذكر أنه قال مرة للوزير اليازوري وقد جرى ذكر كتاب الإنشاء: «معلوم ما كان لتولى هذا الديوان من الجاه الواسع والرزق السخي الكثير، ولئن كانت أشخاصهم مفقودة، فإن آثارهم في صناعتهم حاضرة موجودة، وأنت كاتب تفرق بين الجيد والردى، والضعيف في الصناعة والقوى». وأريد أن تفتبر من انتصب هذا المنصب من خمسين سنة إلى اليوم مقايسة إلى، فإن كنت عن يجرى في حليتهم فرسه، ويطول نحر أمرهم باعه، فأزلي منزلتهم من الجاه والمال، وإلا فقل لي ما أنت مثلهم، ولا في آفاتهم، فقد رخصتك حكماً، وجئت لحكك مستسلاً^(١) ولكن لا نفى أن الذي يقول ذلك هو المؤيد في الدين الذي عرف بغروره وطموحه^(٢).

وكان الذي ينوب عن المؤيد في ديوان الإنشاء أثناء غيابه عن مصر وسفره إلى العراق في حركة البساسيري، هو القاضي القضاعي الذي تحدثنا عنه في فصل المؤرخين، ولكن لم تصل إلينا كتاباته^(٣)، وناب عنه أيضاً أبو الحسن علي ابن الأنباري الذي ولي الوزارة بعد ذلك سنة ٤٥٧ هـ^(٤). ثم اختف على ديوان الإنشاء عدد من الكتاب لم تصل إلينا أسماؤهم ولم تحفظ آثارهم، إلى أن تلقى باسم اثنين من أكبر كتاب ذلك العصر، أما الأول فهو أبو الفرج الموفق الذي وصفه الهادي بقوله: «أحد كتاب مصر من الطبقة الأولى»^(٥)، ولكن الهادي لم يحدثنا بشيء عنه سوى هذه الجملة، وأورد له ثلاثة أبيات من الشعر في وصف ناعورة. أما الكاتب الثاني فكان معاصراً للموفق والمؤيد، وكان بينه وبين الموفق بعض الرسائل وهو ابن الشيخباز.

(١) السيرة المؤيدية ص ٩٤ (٢) راجع مقالة ديوان المؤيد في الدين.

(٣) السيرة المؤيدية ص ١٠٣.

(٤) الإشارة إلى من قال الوزارة ص ٥٢، وأخبار مصر لابن ميسر ص ٣٣.

(٥) الخريدة ورقة ٥.

ابن الشخياء :

أبو علي الحسن بن عبد الصمد بن الشخياء ، ولقب بالجيد ذي الفضيلتين ، وصفه العماد بقوله : « جيد كنعته ، قادر على ابتداع الكلام ونعته ، له الخطب البديعة ، والملح الصنعة^(١) » ، وقال ياقوت عنه : « أحد البلغاء النضباء الشعراء له رسائل مدونة مشهورة^(٢) » . ووصفه ابن خلكان بقوله : « صاحب الخطب المشهورة والرسائل المحيرة ، كان من فرسان النثر وله فيه اليد الطولى^(٣) » ، ويقول ابن بسلام في ذخيرته : « كان من البلغاء الأفراد ، وأبهر نجوم تلك البلاد ، طلوعا من ثنايا الأدب ، واجتناء لحيايا لسان العرب ، فقد كشف حقائقها ، واستخرج دقائقها ، وأحرز مسبقها وسابقها^(٤) » . إذن تكاد تجمع هذه المصادر على علو كعبه في صناعة الكتابة ، وكفايته فيها . حتى قيل : إن القاضي للفاضل كان جمل اعناده على حفظ كلامه ، وأنه كان يستحضر أكثره^(٥) ، وربما كان هذا هو السبب الذي من أجله قال بعض الذين كتبوا عن القاضي الفاضل : إنه تلميذ ابن الشخياء ، لأنه كان يحذو حذوه في الصناعة . لم يكن ابن الشخياء مصر يابا كان من صقلان ، وبالرغم من أن الحدود الجغرافية تجعل صقلان بلدا في فلسطين ، ولكن يجب ألا ننسى أن فلسطين كانت ولاية من ولايات مصر منذ العصر الطولوني ، واستمرت تابعة لمصر ، خاضعة لتأثيرها السياسي والفكري إلى عهد قريب ، فوحدة فلسطين مع مصر أشد وأقوى من وحدتها مع البلاد الأخرى . فلا غرو أن رأينا ابن الشخياء . المستقل في النشأة ، يتأثر بما تأثر به الكتاب الذين نشأوا وترعرعوا في مصر ، بهذه الخصائص التي كانت تسود الكتابة المصرية . إلا أن ابن الشخياء استطاع بشخصيته أن يبرز ويتفوق في هذا الفن ، وأن يبالغ في استخدام المحسنات اللفظية والمعنوية حتى بهر معاصريه بفنه ، وجعل المؤرخين يشيدون بفضله ، ويحيل إلى أن ابن الشخياء كان على

(١) الحريفة ورقة ١٤ (٢) بحم الأديباء ج ٩ ص ١٥٣

(٣) ابن خلكان ج ١ ص ١٣٣

(٤) القسمة القسم الرابع ورقة ١٨٣ (نسخة فخرانية بمكتبة الجليلة) .

(٥) ابن خلكان ج ١ ص ١٣٣

علم تام بجل ما كان يحيط بالمرء في الجمالية والإسلام ، حافظاً لأشعارهم وحكمهم ، متمكناً من لغتهم ، ويظهر ذلك في رسالته التي أرسلها إلى أبي الفرج الموفقي ، فليها يقول :

« وصلت رقة مولاي والصبح قد مل على الأفق مقصبه ، وأزال بأنوار الفزاة غيبه ، فكانت بشهادة الله صبح الآداب ونهادها ، وتماز البلاغة وأزهارها ، قد توشحت بضرور من الفضل قصر قاصية المدى ، ويمرر به في مضمار الأدب مفردا .

فكان روض الحسن تشده الصبا فأطلت من قرطاسها أنصع فأما ما قضته من وصفي ، فقد صارت حضرة السامية قدسح في الشهادة بذلك مع مناقشتها في هذه الطريقة ، وأنها لا توقع ألقاطها إلا مواقع الحقيقة ، فإن كنت قد هرجت عليها فتراجع قدما تجدني لا أستحق من ذلك الإسهاب فضلا ، ولا أعد لكلمة واحدة منه أهلا ، وبالجملة فاقه ينهض بشكر هذا الإنعام الذي ، يقف عنده الثناء ويضلع ، ويحصر دونه الخطيب المصقع .

هيات نهي الشمس كل مرانق ويعوق دون منالها العيوق وأما الفضل الذي أودعه الرقة الكريمة من قوله : « فأما فلان فيحل في قومه ويفرح بالضيوف فرح حنيفة بابن الوليد . قدوره حمارية ، وعطاس جواريه أسدية ، ويروين لو خلق الرجال خلق الضباب ، يتضوعون النثر البقي ، ويرضن مراضع نعال المجاشعي ، وما أمرت حضرة السامية من ذكر ما عندي فيه ، فقد تأملت طويلا ، وعثر الخادم فيه بما أنا ذاكره ، راغياً في الرضا بما بلغت إليه القدرة ، وتجليل ذلك بسجوف الصفح . أما قوله : « يفرح بالضيوف فرح حنيفة بابن الوليد ، فيقول أنه أراد بجالد بن الوليد المخزومي ، وذلك أن مسيلة الحنفي كان قد تقبأ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحديثه مشهور — منبعت إليه أبو بكر رضي الله عنه خالد بن الوليد المقدم ذكره في جيش كثيف من المسلمين ، فقتل البامة وقتل مسيلة وأباد جماعة كثيرة من بني حنيفة . وأما قوله : قدوره حمارية ، فإن هذا الفصل لما كان مبنياً على الغم ، وجب أن يتطلب لهذا السبب معنى يجب حمله عليه ، ولم نجد ما يفسب إليه إلا قول الفرزدق :

لو أن قدر أبكت من طول ما حبست عن الحفوق بكت قدر ابن حمار
ما مسها رسم مذفض معدنها ولا رأت بعد نثر القين من نار
وأما قوله «عطسات جواريه أسدية» فيقوى في معنى أنه أراد قول الأول
في جهاته :

إذا أسدية عطست فتكها فإن عطاسها طرق الوداق
وأما قوله «دهوين لو خلق الرجل خلق الضباب» فإن الجاحظ ذكر في كتاب
الحيوان : أن الضب أيرين ، والضبة حزين . وحكى أن أير الضب أصله واحد
ولما يفرق فيصير أعلاه إثنين ، واستشهد على ذلك بقول الفرزدق :
رعين الدبا والبقل حتى كأنما كساهن سلطان ثياب مراحيل
سجل له نركان كأنها فضية على كل حاف في البلاد وناعل
والنرك : اسم أير الضب . وأشد الأصمعي لابن دزمام فيما رواه أبو
خالد الفري :

تفرقت لأزلم قرن واحد تفرق أير الضب والأصل واحد
ومن هنا قالت جي المدينة لما عذبا أبوها في تزوجها ابن أم كلاب :
وددت بأنه ضب وأنا ضبية كدية وجنت خلا
وأما قوله «يتضو عن النثر المبقى» فن أمثال العرب : هو آخر صفة
من شيخ مهر ، وهو يعطى من عبد القيس بن أقصى بن دعى بن جديلة بن أسد
ابن زرار بن معد بن عدنان ، وكان من خبره أن إيادا كانت أفس العرب ، فوفد
وافدهم إلى الموسم يسوق عكاظ ومعه حلة نفيسة ، فقال : يا معشر العرب
من يشتري منى مثلية قوم لا تضروهم بحلتي هذه ؟ فقال الشيخ المهوى : أنا
أشتريها . فقال الإيادي : أشهدكم يا معشر العرب أني قد بعث فباء إياد لوافد
عبد القيس بحلتي هذه ، وتصالها وافتراقا متراضيين ، وقد شهد عليهما أهل
الموسم فصارت
فصارت عبد القيس أفس العرب ، وقيل لابن مناذر : كيف الطريق إلى عبد القيس ؟
فقال : شم ورم .

فإن عبد القيس من قومها قصو قفاء ربيعة تعرق
من كان لا يدري لها منزلا قل له يمعى ويستغنى

وأما قوله : « أظن من ثمة الجاشعي » ، فن أمثال العرب فيما ذكره الكلبي قال : « ما رجلان من بني جاشع عطا ، فالتقم كل واحد منهما أير صاحبه يشرب بوله ، فلم ينف عنهما شيئاً ، وماتا عطشا ووجدنا على تلك الحال ، قال حمير يجر بني دارم :

وضعتم ثم بال على لحاكم ثمة حين لم يجدوا الشرابا
هذا ما وقع لي في هذا الفصل ، وأرجو أن أكون قد ذهبت إلى ما قصدته تأتله (١) .

ففي هذه الرسالة نرى كيف حاول ابن الشخباء أن يشرح بعض النصوص التي غضت على أبي الفرج الموفى ، فكان يستعين على هذا التشرح بما ورد في كتب القدماء ، من التاريخ حيناً ومن الشعر حيناً آخر ، وبالأمثال مرة . وبما رواه الجاحظ عن الحيوان مرة أخرى ، فهذا كله يدل على أن ابن الشخباء كان ملابها الإلوان من الثقافة والعلوم ، وأنه كان يستخدمها في كتاباته ، بل في شعره أيضاً .

نرى ظاهرة أخرى في هذه الرسالة ، وذلك أن ابن الشخباء كان يحل كتاباته بأبيات من الشعر تناسب ما جاء في نثره ، وهذه الظاهرة ليست جديدة على الكتابة المصرية ، ولكن ابن الشخباء أكثر منها بحيث لا نكاد نرى رسالة من رسائله التي حفظت تخلو من هذه الظاهرة ، ولا سيارساته إذ إن إخوانه وأصدقائه ، فن ذلك ما كتبه إلى صديق له :

« لما حديث زكاب مولاي أخذ صبرى منه ؛ وصحب قلبي ونبيه .
فصبيت من جسم مقيم سائر كسير بيت الشعر وهو مفيد
وبقيت بعده أفاى أمورا تحف الحليم ، وترعى الحشم ، إن رجوت منها
غفة اقتضت ، وإن دمت منها فرجة تضايقت والتحصت ، وأما الوحشة فقد
اصطبحت منها كأساً مترعة ، وتجرعت من صابها أمر جرة ، ورأيت
قواذى إذا مر ذكر مولاي يكاد يفرج من خدره ، ويرغب في مفارقة صدره .

(١) معجم الأدباء لياقوت ج ١ ص ١٥٧ .

حينئذ يجمده السباع ، وصدوداً تنفخ منه الاضلاع ، وزفرة يدى في غولها ،
ويطلع في التراب ثم ارمي بها في ركنها ، ثم يجمعها في ركنها ، ثم يجمعها في ركنها ،
وأما ما أعاني بعد مسيره فاشياء : فيها عيت الالم مرة ، وزوال الاستماع
بما يمر به من تلك المرة ، ومنها اضطراى إلى كثرة مكابرة من أهل دخل
مرايرته ، واختلاف باطنه وظاهره ، وتكلف القاء له بصفحة مستشرة ،
وأخيراً غلبت عليه قوت الخ^(١) ، ثم بعد ذلك انقلب إلى ركنها ، ثم يجمعها في ركنها ،
وهناك تلاحظ بما أوردناه من أن ابن القيم في الكتابة أنه استنجم
جميع الخصائص المصترية في الكتابة ، فتجد المكتبة السجدة ، واستخدام
التشخيص والتصوير ومراعاة النظر ، إلى غير ذلك من هذه الحسان التي أكثر
منها المصريون ، وقد أصيب هذا الكاتب بالاربع بئس ما لاندري سببها ، إذ حبس
في خزانة السند ثم قتل سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة^(٢) . ويذهب ابن ميسر
أنه قتل سنة ست وعشرين وأربعمائة ، وأنه أشد وهو في سجنه :
أصبحت أغرقني بغير جريمة من دار لإكرام لدار هوان
كدم الفصاد يراق أذفل موضع أبداً ويخرج من أعز مكان
قلت موازين العباد بفضلم فضيقتي قد خفت ميزاني^(٣)

وفي عهد المستنصر أيضاً ولي أبو الفرج محمد بن جعفر المغربي ديوان
الإفتاء ، بعد أن صرف عن الوزارة سنة ٥٣٤ هـ ، ولا أدنى كيف يقول
المقريزي عثم : وكان الوزير إذا أمر قرايم يصر قرايم فافرح أبو الفرج ابن
المغربي بالمغرب أن يقول بعض المندوبين في ديوان الإفتاء الذي
يعرف اليوم بوظيفة كتابة السر ، وهو الذي استقطب هذه الوظيفة بديار
مصر^(٤) . ووضح هذا التخط الذي وقع فيه المقريزي ، فإن ديوان الإفتاء
في العهد المملوكي أقدم عهداً من أبي الفرج بن المغربي ، بل أقدم عهداً من

(١) معجم الأدباء لياقوت ج ٩ ص ١٥٤ . (٢) ابن خلكان ج ١ ص ١٣٤ .

(٣) تاريخ مصر لابن ميسر ص ٢٩ . (٤) خط المقريزي ج ٣ ص ٧٥٧ .

الدولة الفاطمية ، وقد ذكرنا أن ديوان الإنشاء وجد بمصر منذ عهد
أحمد بن طولون . ومهما يكن من شيء فإن أبا الفرج أحد أفراد بني
المقرئ الذين كان لهم شأن كبير في الدولة الفاطمية منذ عهد العزيز ،
ولكن نفاطهم كان سياسيا أكثر منه أدبيا ، إحقا تحدث عنهم ابن القارح
في رسالته ، وتبوءت رسائل إخوانية بين أبي القاسم بن المقرئ وبين أبي
العلاء المعري ، ولكن هذه الرسائل كانت إبان فلول بني المقرئ من مصر
واستقرارهم في العراق حينما وفي ديار بكر حينما آخر ، ولذلك آثرنا ألا نتحدث
عنهم طويلا في هذا البحث ، وكذلك لم نصل إلى رسائل أبي الفرج بن المقرئ
التي ولي ديوان الإنشاء سنة ٤٥٢ هـ .

وتمر السنين على ديوان الإنشاء ، وشعاب عليه الكتاب ، حتى نتق
بكتاب من أكبر كتاب الدولة الفاطمية ، ومن أحسنهم حظا ، قد انتهت
إلينا بقية سالحة من رسالته وسجلاته ، بل بقي لنا كتابان من كتبه الكثيرة
لقد صنفها ، ذلك الكتاب هو ابن الصيرفي المولود في شعبان سنة ثلاث
وستين وأربعمائة هـ .

ابن الصيرفي :

قال ياقوت : الشيخ الفاضل علي بن منجب بن سليمان الصيرفي : أحد فضلاء
المصريين وبلغاتهم ، مسلم ذلك له غير منازع فيه ، وكان أبوه صيرفيا واشتهر
هو الكتابة فبر فيها (١) ، ويحدثنا ابن ميسر أن ابن منجب الصيرفي أخذ
صناعة القرض على عهد الملك أبي العلاء باهتد به بن مفرج صاحب ديوان الجيش ،
ثم انتقل منه إلى ديوان الإنشاء ، وبه سنة الملك أبو محمد المستنصر بالله (٢) ،
وبذكر ياقوت أن الأفضل بن بدر الجمالي هو الذي استعمل ابن منجب في ديوان
المكاتيب ووقع من بعده وشهره ، ثم إنه أراد أن يقول الشيخ ابن أبي أسامة
عن ديوان الإنشاء ويغرد ابن الصيرفي به ، واستغفار في ذلك بعض خواصه

(٢) تاريخ مصر لابن ميسر ص ٨٧

(١) حبيب الأديب ج ١٥ ص ٢٩

ومن يأنس به ، قال له : إن قدرت أن تقضى ابن أبي أسامة من الموت يوما واحدا بنصف ملكتك فأفعل ذلك ولا تغفل الدولة منه فإنه جاعلها^(١) وقد وصف القرزى ابن أبي أسامة بقوله : الشيخ الأجل أبو الحسن علي بن أحمد بن الحسن ابن أبي أسامة صاحب ديوان الإنشاء في أيام الخليفة الأمر بأحكام الله ، وكانت له رتبة خطيرة ومنزلة رفيعة ، ونبعت بالشيخ الأجل كاتب الست الشريف ، ولم يكن أحد يشاركه في هذا الثمت بديار مصر في زمانه^(٢) فحين إذن أمام كاتب أخذ الصنعة عن عدد من شيوخ الكتابة في مصر في مصر الفاطمي ، قد كان بين يدي الشريف سناء الملك الذي كان كاتباً في أواخر أيام المستنصر ، وهو الذي كتب سجل تولية للمستمل^(٣) وأصبح له ديوان الإنشاء في عهد الأمر ، ثم ولي الديوان بعده الشيخ ابن أبي أسامة حتى سنة ٥٢٢ هـ فأصبح الديوان لابنه أبي المكالم إلى أن توفي أيام الحافظ ، فولى ابن منجب الصيرفي الديوان بعده ، فهذه المدة الطويلة التي قضاهما ابن منجب الصيرفي في الديوان من أسباب شهرته في الكتابة وذويج عدد من رسائله وحفظها ، وبالرغم من أنه أصبح رئيساً لديوان الإنشاء في عهد الحافظ فإنه هو الذي كتب سجل انتقال المستمل وولاية الأمر سنة ٥٤٩ هـ^(٤) ثم تراه يكتب سجلات كثيرة وهو لم يزل كاتباً في الديوان ، منها ذلك السجل الذي كتبه في شهر المحرم ٥٠١ هـ الخاص بالخراج وتحويل السنة الخراجية . وقد جاء في هذا السجل :

بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله الذي ارتضى أمير المؤمنين أميته في أودعه وخليفته ، وألمه أن يعم بحسن التدبير عبيده وخليفته ، وأورثه مقام آياته الراشدين الذين اختصهم بشرف المنخر ، وجعل اعتقاد مواليتهم سبب النجاة في المنخر ، وعنام بقوله يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، وأعلى منار سلطانه بجدر أفلاك دولته ، ومييد أعداء ملكته ، وأشرف من نصب الجند

(١) حجم الأدب ج ٥ ص ٧٩

(٢) خطط القرزى ج ٣ ص ١٤٠

(٣) ابن ميسر ص ٣٥

(٤) المصدر نفسه ص ٤

علما وداية ، ووقف على مصلحة البرية فطره ورأيه ، السيد الأجل الأفضل .
الذي نهى في السياسة على ما أمهله من سبته ، وأفضله من تقدمه ، وتفتح أحوال
المملكة فلم يدع مشكلا إلا أوضحه وبين الواجب فيه ، ولا خلا إلا أصلحه
وبادر بتلافيه ، إثاروا لمهارة الأعمال ، ونصدا لما يقضى بتوفير الأموال ،
واعتناء رجال الدولة العلوية وأجنادها ، واعتناء بمصالحهم التي ضعف قوام
من إرتدادها ، وزعاية لمن ضمنه أقطار المملكة من الرعايا ، وحلاهم على أهل
السنن وأفضل القضايا : يحمد أمير المؤمنين على ما أعانه عليه من حسن النظر
للأمة ، وأدخره لأيامه من الفضائل التي ضفت بها ملابس النعمة ، ويرغب
إليه بالصلاة على محمد الذي ميزه بالحكمة وفصل الخطاب ، وبين به ما استهم
من سبل الصواب ، وأنزل عليه في حكم الكتاب : « هو الذي جعل الشمس
ضياءً ، والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، صلى الله عليه
وعلى أخيه وأبن عمه أئمة المؤمنين على بن أبي طالب كفيه فيا أفضل لما
جسم المساعد ، وواقفه بنفسه لما تحاذل الكف والساعد ، وعلى الأئمة من
ذريتهما أئمة المؤمنين برضا الله تعالى فيا يقولون ويفعلون ، وللهذين يهدون بالحق
وهو يعملون ... الخ (١) »

فهذا السجل صورة من صور الكتابة التي تظهر فيها خصائص الكتابة في مصر
الفاطمية ، تلك الخصائص التي تحدثنا عنها من قبل ، وهي التي تجدنا عند كل
الكتاب تقريباً ، وهذه الخصائص تظهر في كل الرسائل والسجلات التي انتهت
إليها عن ابن الصوفي . من ذلك ما كتبه في عيد النصر سنة اثنتين وثلاثين
وخمسة ، وعيد النصر هذا من الأعياد التي ابتدعت في القرن السادس الهجرة
فذكروا خلاص الخليفة الحافظ من سجنه ، قد استبد وزيره أبو علي بن الأفضل
الملقب بكتيمات ، بالأمر وسجن الخليفة سنة ٥٢٤ هـ ، فلما قتل الوزير في سادس
عشر المحرم سنة ٥٢٦ هـ أخرج الخليفة من معتقله ، واتخذ هذا اليوم عيداً
أسماء عيد النصر ، ففي ذكرى هذا العيد كتب ابن منجب إلى بعض الخطباء
للاستعداد لهذا العيد :

عيد النصر وهو أفضل الأعياد وأسماء وأعلاما ، وأدلى على تصوير
الواصف إذا بلغ وتام ، ونحن نأمر أن تبرز في يوم الأحد السادس عشر
من المحرم سنة اثنى وثلاثين وخمسة على الهيئة التي جرت العادة بمثلها في
الأعياد ، وتقرأ على الناس الخطبة التي سهرنا ما إليك قرين هذا الأمر بشرح هذا
اليوم وتفصيله ، وذكر ما خصه الله به من كثرته وتفضيله ، وتتمتع في ذلك
ما جرى الرسم فيه في كل عيد ، وتنتهي فيه إلى النهاية التي ليس عليها مزيد .
فاعلم هذا ، وأعمل به إن شاء الله تعالى .

ولم يكن ابن الصيرفي كاتباً من كتاب الرسائل لحسب ، بل كان مؤرخاً
ومصنفاً ، ومن تصانيفه كتاب حكمة الحادثة وكتاب صفات الفضائل وكتاب
استئزال الرجة وكتاب منافع القرائح وكتاب رد المظالم وكتاب في السكر ، وله
اختيارات كثيرة لدواوين الشعراء كديوان ابن السراج وأبي العلاء المعري
وغيرهما . وهذه الكتب كلها مفقودة الآن ، وإنما وصل إلينا من كتبه كتابان :
الأول قانون ديوان الرسائل . والثاني كتاب الإشارة إلى من قال الوزارة .

أما الكتاب الأول ، قانون ديوان الرسائل ، فقد صنفه ابن منجب لكي
يكون قانوناً يعرف به من يجب أن يولى رئاسة ديوان الرسائل ، ومن يجب
أن يكون ثلوه في المنزلة من المستخدمين فيه من الكتاب واحداً واحداً من
الخدام الذين لا غنى عنهم ، والصفات التي ينبغي أن يكون عليها كل واحد منهم ،
التي إذا سلكت في هذا الديوان أدت إلى ضبط أموره . وأمن معها من اختلال
شيء منها وفساد يدخل عليها ، وسجل وجود ما يلتمس من غير أمور تقادم ههنا
وبعدت أزمتها ^(١) فكانه أراد أن يجعل من كتابه هذا دستوراً لاختيار
كتاب الرسائل ، وهو يصرح في مقدمته أن السبب الذي من أجله صنف هذا
الكتاب أنه لما رأيت أولى القطر الصحيحة والبقول الرجيحة قد سبقوا إلى النظر
في سائر العلوم ، ووجدوا عليها المصنفات ، ونظروا ذكرها في الكتب والمؤلفات ،
ثم انظروا من ذلك إلى قرأتين الأشياء فرددوا في كل منها ما كان أصلاً يستند عليه

(١) قانون ديوان الرسائل ص ٩٩ (طبعة مصر سنة ١٩٠٥) .

ونہوا عما كان فساداً لنظامها أو أدى إليه، وخالفوا بين أحكام تلك التصنيفات، لاختلاف الأزمنة وثباين البلاد والأوقات ، فوجدتهم قد صنفوا في كتابة الخراج كتباً كثيرة ، وضوا بكتابة الجيش عناية كبيرة ، فألف كل من العراقيين والمصريين في ذلك ما وصلت إليه طاقته ، واقتضاه ما أوجبه وقته ، والبلد الذي يحته ، فأما صناعة الشعر وذكر بديعه وسائر أنواعه وقاسيمه فقد أكثر كل منهم فيه المقال ، وتوسع في تصنيفه وأطال ، ورأيتهم أهملوا الكلام في الكتابة الجليلة قديراً ، التبهة ذكرأ ، الرفيعة شأناً ، العلية مكاناً ، التي هي كتابة حضرة الملك المشتعلة حل الإنشاء إلى ملوك الدول ، والمكانة عنه إلى من قل من الأمم وجل ، وكيف يجب أن يكون متوليا وما يخصه من الأخلاق والأدوات ، وما يجب أن يكون فيه من الفضائل ، وأن يحتنبه من القبايح والذائل . . الخ (١) هذا السبب الذي من أجله ألف كتابه هذا ، ولكن هل حقيقة قصر المؤلفون في الحديث عن الكتابة بحيث لم يوضع كتب مثل قانون ديوان الرسائل ؟ من الحق علينا أن نقول : إن الإجابة عن مثل هذه الأسئلة ليست سهلة هيئة ، فإن أكثر كتب القدماء فقدت وإن بقي أسماء بعضها ، وقد عرضت بعض المراجع العامة العربية التي تتم برصد كتب المؤلفين ، مثل الفهرست ومعجم الأدياء وكشف الظنون وغيرها ، فوجدت بعض المؤلفين وضعوا كتباً في الكتابة والكتاب ، نذكر منهم عبد الحميد الكاتب الذي وضع رسالة إلى الكتاب ، يتحدث فيها عن فضيلة الصناعة وما يجب عليهم أن يقيموا حتى يهودوا صناعتهم (٢) ، ووضع الصولي أدب الكتاب ، وألف ابن قتيبة أدب الكاتب .

ونذكر أحد بن سهل البلخي صاحب كتاب فضل صناعة الكتابة (٣) وأحمد ابن محمد بن يوسف الأصفهاني صاحب كتاب طبقات البلغاء ، وكتاب أدب الكتاب (٤) ، وأحمد بن محمد بن الفضل الأهوازي مؤلف كتاب مناقب

(١) قانون ديوان الرسائل ص ٨٨

(٢) نجد الرسالة في كتاب رسائل البلغاء وفي كتاب الوزراء والكتاب هيباري .

(٣) معجم الأدياء ج ٣ ص ٦٦ . (٤) المصدر نفسه ج ٥ ص ١٣٥ .

الكتاب^(١) وأحمد بن محمد النحاس المصري المتوفى سنة ٧٣٧هـ صاحب أدب الكتاب وصناعة الكتاب^(٢) وغيرهم ، وأكثر هذه الكتب لم تصل إلينا ، ثم نعرف ما اشتغل عليه ، ولكن من أسماها نستطيع أن نرجح أنها تختلف بعض الاختلاف عما أورده ابن منجب من كتابه « قانون ديوان الرسائل » فإن كتابه في الحديث عن الأحوال التي يجب أن يكون عليها رئيس ديوان الإقضاء ، وعن العلوم والمعارف التي يجب أن يكون حاصلا عليها ، وعن اختصاصه في عمله ، ثم تحدث بعد ذلك عن مساوئيه من الكتاب في الديوان ، لجل لكل عمل كاتباً خاصاً له ميزات خاصة ، فن يستخدم لتخرج الكتب الواردة له صفات خاصة ، ومن يستخدم برسم الإقضاء له خصائص ، ومن يكون قاضياً في الديوان له ميزات ، وهكذا . فكتاب ابن منجب في أغلب الظن يختلف عن الكتب التي وضعت في الكتاب والكتابة ، لأنه يتحدث قبل كل شيء عن نظام ديوان الرسائل ثم عن موظفيه ، فهو صورة مختصرة جداً للكتاب الذي ألف بعد ذلك وهو كتاب صحيح الأعشى القلقشندي .

أما الكتاب الثاني الذي بقي لنا من كتب ابن منجب فهو كتاب الإقشادة إلى من نال الوزارة . . . فهو كتاب تاريخ من ولى الوزارة في عهد الدولة الفاطمية ، سجل فيه ابن منجب اسم كل وزير وتاريخ توليته وما لقب به ، وما تم على يديه من أعمال ، فهو من أهم الكتب التي تحدث عن تاريخ الفاطميين .

ولا بن منجب عدة منظومات من الشعر ، ولكنه لم يعرف بالشعر كاهرف بالكتابة ، وروى له ياقوت قوله :

لما عدت إليك الأرض أفضل من جات مفاخره عن كل إطراد
تأثرت أدوات التلقين بك على ما يصنع الناس من نظم وإقضاء
وقوله :

لا يبلغ الغاية بقصوى همت إلا آخر الحرب والمجد والسلام

(١) هم الأديب ج ٤ ص ٢٤٤ (٢) الصدوق ج ٤ ص ٢٢٨

سجلوى حكامه إذا ما الليل ياته . عمل وشج من الخطى مضروب
 ، لئلا يكن لجنه منجس . بعد من القبوله ، بلزوم حتى أن شعرك الماته الخامض
 كفضلكم . وقد كتبك بالقبضه لئلا يعل ذلك الجمع إلى أنه كان جلا في الصر
 حركه على الرضا ، من قبل ، لئلا يعل من ان يعل على يد على أربعة مجلدات .
 وتوفى ابن منجب في يوم الأحد لعشر بقين من صفر سنة ٥٥٢ هـ (١) ،
 وفكره ينفوت يذبح إلى أنه توفي في أيام الملك الصالح بن دريك بعد سنة
 عشرين وخمسة (٢) . واليش بين أيدينا شيء من النصوص التي تحسنا نرجع
 إلى الزواجر .

سجلوى حكامه إذا ما الليل ياته

من كل معانيه في ديوان الإنشاء كاتبان شاعران من أهدى كتاب
 مصر القاطية وشعرهما ، أما الأول فهو الفاضل المفضل كافي الكفاء
 أبو الفتح محمود بن القاسم التوفي ، تامل من جنة الديماطي المعروف بابن
 خلدون (٣) . بلغته جبر الانصاري ، بن بديل الخاني ، وامتدت به الحياة إلى أن توفي
 في عهد الملك الصالح المظفر بن دريك ، أي أنه عاصر شعراء مصر وكتابها في
 النصف الأول من القرن السادس ، وهو عرف انجاساتهم الفنية في الشعر والكتابة ،
 فلا غرو أن ترى أمة من إلى التملكت حيث منه في وسائله المصرية ، وروى الهاد
 يقول عنه : د أشعاره عكمة النسيج ، كالدر في النرج (٤) ، ووصفه ابن ميسر
 بقوله : وكان من أفاضل المصريين وكتابهم . مقدما عند ملوكهم (٥) . لم يصلنا
 شيء من حياة هذا الكاتب الشاعر ، وقد بقيت ترجمة حياته ، كما قدت تراجم
 رجال مصر القاطية ، ومع ذلك فقد حفظت في بعض المراجع قصته مع زميله
 وصونه أن جل حسن بن زيد الأنصاري ، وكيف كان ابن كنوس سياتي
 أن يلقى زميله حقه على نحو ما ذكرنا من قبل (٦) ، فإن هذه القصة تدل على أن

من كل معانيه في ديوان الإنشاء

(٢) عجم الأدباء ، ج ١٥ ص ٢٩

(١) تاريخ مصر لابن ميسر ص ٨٢

(٢) الخريدة ورواة ٤٩

(٣) تاريخ مصر لابن ميسر ص ٩٧

(٤) راجع ص ١٨٧ من هذا الكتاب .

ابن قادوس بالرغم مما قاله القدماء عن فضله وكفايته في صناعى الشعر والنثر ، فإنه كان ضعيف الخلق ، يحسد زملاءه ويوقع بهم في المهالك . وهناك قصة أخرى يروى القدماء عنه ، وهى اتصاره للجليس بن الحباب ، فقد ذكرنا أن ابن الصياد الشاعر كان مولماً بهجاء الجليس ، كثير النجاسة بأفقه ، حتى قيل : إن مقطعات ابن الصياد فى ذلك بلغت ألف مقطوعة ، فانبرى له ابن قادوس يتصر الجليس قائلاً .

يا من يعيب أنوفنا الشم م التى ليست تعاب
الآنف خلقة ربنا وقرونك الشم اكتساب (١)

فألقى جمل ابن قادوس يتصر للجليس ؟ لاشك فى أن ضعف خلق ابن قادوس جعله يتوهم أن الجليس ربما ساعده فى الوصول إلى ما ربه الشخصية فى الديوان أو فى غير الديوان من مناصب الدولة بحكم تلك الصلة القوية التى كانت بين الجليس والخليفة الفاطمى من ناحية ، وبين الجليس والملك الصالح طلائع بن رزبك من ناحية أخرى ، فلذلك اتصر للجليس ، ولولا أطباعه ما كان ينشد هذين البيتين .

مهما يكن من شيء ، فإن ابن قادوس كان من أمائل الكتاب فى القرن السادس الهجرى ، فالرسائل التى بقيت لنا من إنشائه تدل على مقدته وعلوكمه فى الإنشاء ، فمن إنشائه ما كتبه بمناسبة ركوب الخليفة فى عهد النحر ، ومنها : « أما بعد ، فالخليفة ماحى دنس الآثام بالحج إلى بيت الحرام ، وموجب الفوز فى المعاد لمن حمل بمرشد أئمة الهدى الكرام ، وساعف الثواب لمن اجتهد فيما أمر الله به من التلبية والإحرام ، وغنول الغفران لمن كان بفرانص الحج ونوافله شديد الولوع والغرام ، وصلى الله على جدنا محمد الذى لبى وأحرم ، وبين ما أحل الله وحرم ، وعلى أخيه أئتنا أمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى ضرب وكبر ، وحرر من ظنى وتعجز ، وعلى الأئمة من

ذريتهما أعلام الدين ، وحشوف المعتدين ، وسلم وكرم ، وشرف وعظم . ومن
 من الأيام التي كملت محاسنها وتمت ، وكثرت فضائلها وجمت ، ووجب تخليد عن
 صفاتها ، وتمين تسيطر تأثيراتها ، يوم عيد النحر من سنة (كذا) : وكان
 من قصصه أن العجرامسل - سامه ، وأبدى الصباح ابتسامه ، نهض عبيد الدولة
 في جموع الأولياء والأفصار ، وأولى العزيمة والاستبصار ، ميممين القصور
 الزاهرة متبركين بأفئنتها ، ومستلمين بسعادتها ، وتألفوا صفواً تبهير النواظر ،
 ويخجل تألفها تألف زهر الروض الناضر مستصحيين فنوناً من الأزياء تروق ،
 ومستبجين أصنافاً من الأسلحة ينفض منها من لمع الذهب والبروق ، والأعلام
 خالقة ، والرياح بالسهة النصر على الإخلاص لإمام العصر متوافقة ، فأقاموا
 على تقصوف لظهوره ، والتطلع لتبرك بلامع نوره ، ولما برضت شمس سعادته ،
 وجمرت الأمور على إثارة وإزادته ، وبت أنوار الإمامة الجليلة ، وظهرت
 حلقتها العظيمة البية ، خر الأنام سجوداً بالدعاء والتجديد ، والاعتراف بأنهم
 العبيد بنو العبيد ، واستقل ركابه أمير المؤمنين ، ووزيره السيد الأجل الذي
 قام بنصر الله في إجماد أولياته ، وتكفل للإسلام برفع مناره ونشر لوائه ،
 وناضل عن حوزة الدين وجلعه ، وناضل أحزاب الكفار وناده ، يقوم
 بأحكام الوزارة . وتدير الدولة تدير أولى الإخلاص والبطاهة ، ويقع
 آراء أمير المؤمنين فيما تنفذه به أوامره ، ويمثل بأحكام الصواب فيما تقتضيه
 موارد ومصادره ، ويحسن السياسة والتدبير ، ويتوخى الإصابة في كل صغير
 أمور الدولة العلوية وكبير ، ويخلص له جل وعز وإمامه ، ويكفكف من
 الأعداء يذل المهدي في إعمال لحذمه وحسامه ، وسار أمير المؤمنين والساكر
 متتابعة في إثره ، متواقة على امتثال أمره ، قد رفعت السابك من السجاج
 سحاباً ، وخيلت جن الجند للناظرين في الجرب عباياً ، والجياد المسمومة تخرج
 في أعنتها ، وتحتال في مراكبا وأجلتها ، وترجع قسكسب الرياح نفاطاً ،
 وقيد المتعرض لوصفها إفرافاً ، وتهدى لمن يحاول عائلتها غلواً واشتطافاً ،
 وأصوات مرقمة بالتهليل ، وأصوات الحديد تسمح بشائر النصر بترجمة
 للصليل ، ويكاد يربح الأرض تزلزل الصهيل ، وترض سناكبها المغتاب

وتقدم صلاحها كالكتيب الميلى . . . (١)

وكتب ابن قادوس بالبخارة بقاء النيل :

« نعم ، وإن كانت شامة للأسم ، فإنها متفاحة الأقدار والقيم ، فأولاهما
بشكر تشتر الآفاق أعلامه ، واعتداد تحكم يادراك الفات أحكامه ، فمة يشترك
فى النفع بها البعاد ، وتبدو بركتها على الناطق والصاصم الجماد ، وذلك النعمة
النيل المصرى الذى تبرز به الأرض المجرى فى أحسن الملاصق ، وتظهر حال
الرياض على القيعان والبساتين ، وترى الكنوز ظاهرة للعيان ، متبرجة
بأنوارها والجبين والعتيان ، فبحان من جعله سببا لإشراق الموات ، وتعالى
من ضاعف به ضروب البركات ، ووفر به مواد الأرزاق والأقوات الخ ، (٢)

هذان مثلان مما كتبه ابن قادوس من سجلات هى من خصائص مصر .
فلا ينازع مصر بلد آخر فى هذا اللون من السجلات ، ولا سيما بالبخارة بقاء
النيل ، ولكن اللون الآخر ، وهو ركوب الإمام الفاطمى لصلاة عيد النحر .
فهو من ترتيب الدولة الفاطمية ، وقد رأينا تأثير العقائد الفاطمية فى السجل
الفاطمى ، مما لا يدع شكا فى أن العقائد أثرت فى الكتابة كما أثرت فى الشعر ،
أحتف إلى ذلك كله هذه الصنعة الفنية فى الكتابة التى رأيناها عند جل كتاب
الفاطميين ! وقد حفظ المباد قطعة من رسالة لابن قادوس كتبها إلى ابن معروف .
وتظهر فى هذه الرسالة صنعة الفنية التى ظهرت فى السجلين السابقين .

« أطال الله بقاء الحضرة لعزائب مجد يبتدعها ، وفرائض جود يشرعها ،
وقوام يذل صوابها ، ومسايف سمود يطرقت جنانها ، وأدام أيامها التى هى
للنهر تمام ، وفى المحل غمام :

غرد من الأيام توضح غمرها والنهر من ظلم التوائب عاتم
ملك تملكه الندى وتجمعت فى راحته غمام وسامم
فأروض يحدب وهو روض مرمع والنيث يطلع وهو غيث داتم

وشتان ما بينهما ، تلك سحب قد رعلت برواقها ، وعدت عواصفها
وروض يحف نباته ، وتصوع زهراته ، ومكلم الحضرة تريد حبة على
التكرار ، وتماثل فعل الفلك المدار ، فهي تبارى الشمس نهاراً ، وتزور مزار
الليف سراراً :

من بنير أممة مستورة ضلن في فلك الملا أقاراً
ومواهب ومناقب ومناسب رفعت له فوق السالك مناراً^(١)

وتوفى ابن قادوس سنة ٥٥١ هـ في سابع المحرم ، وقيل : إن الملك الصالح حضر
من القاهرة إلى مصر الصلاة عليه ومشي في جنازته إلى تربته عند مسجد الأقدام^(٢)
ورافق العباد على تاريخ وفاة ابن قادوس على هذا النحو ، غير أن المقرئى روى
قصة طويلة زعم فيها أن أبا الفتح يانس الأزنى وزير الحافظ لما عظم شأنه سنة
٥٢٦ هـ وتقل على الخليفة أخذ كل منها في التدبير على الآخر ، فأجمل يانس
وقيض على حاشية الخليفة ، ومنهم قاضي القضاة وداعي الدعاة أبو الفخر وأبو الفتح
ابن قادوس وقتلها . فاشتد ذلك على الحافظ وعمل على سم وزيره^(٣) أى أنه
ذهب إلى أن ابن قادوس قتل سنة ٥٢٦ هـ ، وقد وهم المقرئى في هذه الرواية
فإن الأدلة تكاد تجمع على أن ابن قادوس شاهد عصر الملك الصالح طلائع
ابن رزيك ، من ذلك أن قصة ابن قادوس مع أبي علي حسن بن زيد الأنصارى
كانت في الخلاف بين حسن بن الحافظ وأبيه ، وهذا الخلاف نشأ بعد سنة
٥٢٦ هـ ، ونحن فلم أن ابني الوزير لم يتقدما في الديوان إلا بعد قتل الظافر سنة
٥٤٩ هـ بل لم يكن لها ذكر في الدولة قبل هذا التاريخ ، وقد روينا هجاء ابن قادوس
لابن الوزير ، ففنى هذا أن هذا الهجاء كان بعد مقتل الظافر أى بعد سنة ٥٢٦ هـ
أيضاً ، ومن ذلك أن العباد يحدتنا أن الملك الصالح طلائع بن رزيك كان يفرى
ابن الصياد بأقف المجلس بن الحباب ، فأنشدا بن الصياد هذه المقطعات التي
أشعرا إليها مراداً ولم يسكت إلا ابن قادوس ، فتفهم من ذلك أن ابن قادوس

(١) ابن ميسر ص ٩٧

(١) الخريدة ورقة ٥١

(٢) خط المقرئى ج ٢ ص ٢٧

حضر عهد الملك الصالح ، أحضف إلى ذلك مارواه ابن خلكان : أن الخليفة العاضد الفاطمي أشرك ابن قادوس مع الموفق ابن الخلال في ديوان الإفشاء . وإن فنحن نؤيد رواية الهاد وابن ميسر ، أنه توفي سنة ٥٥٥ هـ .

أما الشاعر الكاتب الثاني فهو أبو علي حسن بن يزيد الأنصاري الذي كان ابن قادوس سبب قتله ، وقد تحدثنا عنه شاعراً (١) أما صفته الكتابية فقد وصفه الهاد بأنه كان من المتقدمين في ديوان المكاتبات (٢) وقال مرة أخرى : ومن ثمره مليل حسن على روثق فرنده (٣) ، وحقا ، كان أبو علي الأنصاري من الكتاب الذين ملئوا ناصية اللغة والمقدرة على التصرف بالألفاظ ، فكان يضع اللفظ فيما يخصر له ، ويختار من الألفاظ ما يناسب المعنى الذي قصده مع التزامه الخصائص الأخرى التي رأيناها عند غيره من الكتاب ، ومن هنا ظهرت مواهب أبي علي الأنصاري في اثتركا ظهرت من قبل في الشعر ، أقرأ هذه الرسالة التي كتبها إلى صديق له ينته بالفناء من مرض :

« إذا قدم الوداد ، وصح الاعتقاد ، ووصفت الضيائر ، وخلصت السرائر ، حل الإلحاح المكتسب ، محل أخوة النسب ، وصار المتعاقدان على الإيثار والمتحابان على بعد الدار ، متساهمين فيما ساء وسر ، ومتشاكسين فيما تقع وضر ، وتلك حالي وحال حضرة مولاي ، فإني وإياها كنفس قسمت على جسمين ، وذو روح فرقت بين شخصين ، فأآلمها قدم معنى وأزعجني ، وأما برؤها فقد سرني وأهيجني ، وعرفت خبر إبلاها من ألم كان بها ، ففكرت الله على خلتين معا ، وتفقين اجتماعا ، أحدهما أتقألم تألمها فكنت ألسا يكدر الشراب ، ويمنع تلاقى الأمداب ، وأجد على حال الصحة ما يجد المريض ، وأرى الدنيا على إثارها بمن البهيمض ، والآخر على برتها عند حلوله ومعرفته به عند تخييمه بساحتها ونزوله » (٤) .

وأقرأ له بيتي صديقه بملود :

(١) راجع ص ١٨٧

(٢) المربطة ورقة ١١٠

(٣) الصدر غصن ورقة ١١٤

(٤) الصدر غصن ص ١١٥

« وردت البشارة السارة بالقادم الأجد ، المستقبل بالطالع الأسعد . وأحمد
الملوك من المصرة بأرغر حظ الأولياء المخلصين في الولاء . المضمورين بحزب
الآلاء ، وسأل الله سبحانه تخليد الأيام المالكية مديدة الأمد . وافرقة العدد ،
فامية الأهل والولد ، حتى يرى هذا الميثر جدومه بمعليها صهوات الجياد ، مخوف
الشذا يوم الجلال ، يخفق وراءه اللواء ، وتغاف سطوته الأعداء ، وتخص البلاد
بقراصبه ، وتشفف الأصماع بذكر مناقبه وترى من أولاده أجدادا عن الإسلام
قادة ، وأملاكا لامتلاك البلاد سادة . لا زالت تبلغ أقصى الأمانى ؛ وتسع نعم
التانى ؛ وتعمد ظلها على القامى والدانى (١) » .

ثم أقرأ له هذه التعلمة من رسالة في العزاء بفريق :

« لعمري لقد زعمه الله عن سبك الجرباء ، وملقاة الحصباء ، والمقام تحت
أديم الأرض ، وانطلاق بمضها على البيض ، ورفقه عن أن يذل في الحدث
جيبينه ، ويعفر في الشير عرينه ، لجمل ضرعه في شبهه جودا وكرا ، وضريه
محاسن وشيا ، فتضمنه الماء ، وتفظط قوته الدأما ، فإذا استسقى السحاب ،
واستسبح الرباب ، فهو في البحر الوافر ، والهج الزاخر ، بحيث تنفرح المناهل ،
ويرد كل أهل (٢) » .

فهل رأيت كيف كان أبو على الأنصارى فناغا بمجيد صناعته ، فينتقى من
اللفظ أجوده ، ومن الممانى أجمها وأجملها ؟ فلا عجب أن رأينا ابن قادوس يحسبه
على عبارته ، ويمشى منافسته . فدير الحكيمه التي أدت به إلى حقه .

الموقوف به الممول

وتعمل آخر من ولى ديوان الإنشاء في مصر الفاطمية هو يوسف بن محمد
المعروف بابن الحلال ، الملقب بالموقوف ، وقد وصفه العياشي بقوله : « هو فاطر مصر
وإنسان فاضلها ، وجامع مفاخرها ، وكلن إليه الإنشاء ، وله قوة على الترسل

(١) الحرية ورقة ١١٥ .

(٢) المصروف ورقة ١١٨ .

يكتب كما يشاء^(١)، ويذهب ابن خلكان إلى أن الموفق كان صاحب ديوان الإنشاء بمصر في أيام الحافظ وأنه استمر في مرتبته إلى آخر عهد الدولة الفاطمية^(٢)، ويعمد الموفق بن الخلال الأستاذ المباشر للقاضي الفاضل، وقد روينا كيف وقد التقى القاضي الفاضل إلى ديوان الإنشاء، ومثل بين يدي الموفق ولازمه؛ وتدريب بين يديه، وكيف طلب منه الموفق أن ينشر ديوان الحماسة مرة بعد أخرى. إلى أن أجد القاضي الفاضل في الترس. وبلغ هذه الدرجة الرقيقة في هذا الفن. لذلك يقول ابن خلكان: «ولم يزل ابن الخلال بديوان الإنشاء إلى أن طعن في السن وعجز عن الحركة فاقطع في بيته. ويقال: إن القاضي الفاضل كان يرعى له حق الصحة والتعليم، فكان يجرى عليه كل ما يحتاج إليه^(٣)». وابن الخلال أحد الذين ذكروا حمارة النبي قال: «ووجدت بحضرته (أى: بضرة الصالح ابن رزيق) من أسيان أهل الأدب الشيخ الجليل أبا المعالى بن الحباب والموفق ابن الخلال صاحب ديوان الإنشاء. وأبا الفتح محمود بن قادوس والمهذب أبا محمد الحسن بن الزبير، وما من هذه الحلية أحد إلا ويضرب في الفضائل، النفسانية، والرواية الإنسانية بأوفر نصيب، ويرى شاكلة الإشكال فيصيب^(٤)». إذن تكاد تجمع المصادر التي بين أيدينا والتي حدثتنا عن الموفق بن الخلال أنه كان على جانب من علو الهمة والفضل، وعلى براعته في فن الترس. وقد حفظ من إنشاء سجل كتبه بولاية شاور الوزارة ثلثي مرة؛ أى بعد انتصاره على ضرغام، جاء فيه:

«سلام عليك. فإن أمير المؤمنين محمد إليك الله تبارك لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلي على جمده محمد خاتم النبيين، وإمام المسلمين، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين الأئمة المهديين، وسلم تسليماً (أما بعد): فأخذ الله مانع الرغائب ومنيلها، وكشف المصاعب ومزيلها. ومذل كل عصبة كلفت بالندد والفتاق ومزيلها. ناصر من بنى عليه. وما كس كيد الكائد إذا فوق سهمه

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٠٧.

(٢) المصدر نفسه، وهذا ما ينجم أيضاً من أقوال القاضى في كتاب صبح الأعيان ج ١ ص ٩٦.

(٣) «ابن خلكان ج ٢ ص ٤٠٩. (٤) الذبك المصرية ٢٤.

إليه . وراد الحقوق إلى أربابها ، ومبرمج المراتب إلى من هو أجدر برقيها
وأوابها ، ومعنى الخير يتيسر أسابه ، ومسهل الرتب بشهيد طرقه وتفتح
أبوابه ، ومدنى تائق الحظ بعد ضروره واغاثه ، ومطلع الشمس بعد الغيب ،
ومتدارك الخطب إذا أعزل بالفرج القريب . مبدع ما كان ويكون ، ومسبب
الحركة والسكون . محسن التدبير ، مسهل التصير . « قل اللهم مالك الملك
توق الملك من تشاء وتمزع الملك من تشاء وتمرن من تشاء وتذل من تشاء .
بيدك الخير إنك على كل شيء قدير » . والحمد لله الذي اختص أولياء أمير
المؤمنين بالاستعلاء والظهور ، وذلل لهم جوارح الخطوب ومصاعب الأمور .
وآتاهم من التأيد كل بديع مستغرب ، وآتاهم من كل غريب إذا أورد قصصه
أطرب . ومكنهم من نواصي الأعداء ، وشملهم بعتائاته في الإعادة والإبداء ،
وحن لهم أمد العواقب ، وأرشدهم إلى الأفعال التي ثبتت لهم في صحائف الأيام
أفضل المناقب . وهداهم بأمر المؤمنين إلى مآرق ذلاله وتم غاية القيام ، كما أنه
كان لرضا الله سبحانه ، وحسن نوابه ومآله . وعدم في الجاهدة عن دولته
بالتأييد والتكئين ، وبمخيطهم من أنوار اليقين ، بما يجلو عن أعتابهم دجور
الفك البهم ، ويظهر لأضامهم خصائص الإمامة في حلال التضخيم والتعظيم ،
ويريم أن خلوص الطاعة منجاة في العاد بتقدير العزيز العليم .

والحمد لله الذي استثمر من دوحة النبوة الآئحة الهادين ، وأقامهم أعلاماً
مرشدة في محجة الدين ، وبين بقبصيرم الحقائق . وورث أمير المؤمنين شرف
مقاماتهم ، وجعله محزناً بآياتهم . وجمع معجزاتهم وآياتهم ؛ وقضى لمن اتصفه
بجل فائه واشتمل بسايع نعمه وآلائه . وتمسك بطاعته ، واعتصم بولائه :
بالخود في النعم المقيم ، والحلول في مقام رضوان كريم . ذلك فضل الله يؤتيه
من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

ثم يقول : « وراقب الله فيما أقام إليك ، قد فوض إليك مقاليد البيط
والقبض ، والرفع والخفض ، والولاية والعزل ، والصلح والوصل ، والولاية
والتعريف والعرف ، والإعلاء والوقف . والنز والتنبيه ، والإحمال
والتنويه والإهراز والإذلال ، والإساءة والإجمال ، والإبداء والإعادة .

والنقص والزيادة ، والإنعام والإرغام ، وكل ما عده وتصايف الأيام ، وتخصيه
 خطاب الأنام ، فهو إليك مردود ، وفيما علق بنظرك محدود . وأما العدل
 ومدرأاته ، وإقامة مواضعه وأسواقه ، والإنصاف واتباع محبته ، والاعتدال
 على أحكامه وأخصيه . وكف هو أدى الجور والمظالم ، وحمل الأمر على قصد
 التصاحب والتسالم ، وإظهار شعار الدين . و إنصاف المتداعين إلى الشرع
 المتحاكين ، والدعوة الهادية وفتح أبوابها للستجيين . وإعزاز من يمسك
 بها من كافة المؤمنين ، والأموال والنظر فيها ، والأعمال أفاضها وأدانها .
 فكل ذلك عر في تقليد وزادك الأول . وأنني أولى من حافظ على العمل
 به وأكل ... الخ (١) .

فإن هذه القطعة نستطيع أن نقين كيف تبع الموقف بن الحلال ما تبعه غيره
 من كتاب مصر الفاطمية من الحصال الفنية التي ذكرناها من قبل . ثم نقين كيف
 استطاع الموقف أن يستغل مصطلحات بعض العلوم وينظمها في سلك كتابته
 ليضيف إليها قوة في الصناعة .

لم يكن الموقف كاتباً لحسب ، بل كان شاعراً أيضاً ، شأنه في ذلك شأن عدد
 كبير من الكتاب الفاطميين ويظهر في شعره هذه الصنعة البديعة التي تظهر في
 شعره أيضاً ، فهو يقول من قصيدة :

عذبت ليال بالعذيب خوال وحلت مواقف بالوهمال حوال
 ومضت لذاذات تقضى ذكرها نصبي الحليم وتستم السالى
 وحلت مودة الحدود فأوقفت في الصبوة الحـ بحسن الحال
 قالوا براءة بنى هلال أصلها صدقوا كذاك . ورفع هلال (٢)

كما روى أن بيتاً أشده كان سبب قطع صلة شاعر من شعراء القصر . ذلك
 أن الشاعر أبا القاسم بن هاني - وكان من سلافة الشاعر ابن هاني الأندلسي
 المعروف - كان يجمع ابن الحلال ، فأخبر هذا له جتداً ، فاتفق في بعض
 اللوامس أن تقدم الشعراء لتنفيذ بين يدي الخليفة ، وانهت فتوبة إلى ابن هاني ،

فأنشد وأجلد ، فسأل الخليفة الموفق بن الحلال رأيه في قصيدة ابن هاني ، فلم يسمه إلا أن يثنى عليه ويبالغ في وصفه ، ثم قال : ولو لم يكن له ما يمت به إلا انتسابه إلى ابن هاني الأندلسي شاعر هذه الدولة ومظهر مفاخرها وناظم مآثرها لولا بيت أظهر منه الضجر عند دخول جومر هذه البلاد ، فقال له الخليفة : ماهو ؟ فتخرج الموفق من إنشاده ، وأبى الخليفة إلا أن ينشده ، وفي أثناء ذلك صنع ابن الحلال بيتا مها فيه الآية الفاطمية .

فظم ذلك على الخليفة ، وقطع صلة الشاعر ، وكاد يفرط في عقوبته (١) . وتوفي ابن الحلال في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ست وستين وخمسة من الهجرة (٢)

عمارة اليمنى التأثير :

وعلى الرغم من أن عمارة اليمنى لم يكن من محال ديوان الرسائل ، ولم يعرف عنه إنه كان كاتباً لأحد الأمراء ، فإننا نستطيع أن نلصق في رسائله الإخوانية التي حفظت لنا ، خصائص الكتابة التي عرفت عند كتاب الدواوين ، وكما تأثر عمارة في شعره بمصر وبشعرائها ، فقد ظهر أثر مصر وأثر كتابها في شعره ، ونعتم هذا الفصل من الكتاب برسالة طريفة أرسلها عمارة إلى صديق له ولي على أسوان ، وقد رأينا أن نقلها بأكملها لما فيها من صنعة فنية وطرافة لا يجدهما في السجلات الرسمية التي أوردنا صوراً منها من قبل ، كتب عمارة :

إن جرى بيتا وبينك عتب أو تاءت منا ومنك الديار

فالوداد الذي عهدت مقيم والدموح التي شهدت غزاد

كان عروى ، أطال الله بقاء حضرة مولاي ، أن أستمتع بهذا الكتاب ، بألم القتاب ، وأشحنه من الخطاب بما لا يستطاب ، وأقيم أخته القوارص ، وأسند أسنة القوارص ، وأجلب بجبل التويخ ورجاله ، وأجمع بين دوبيته

وارتجانه ، وأجهز تنيفاً يضيق له البحر بمراكبه ، وإلجر بمراكبه ، ثم قلت
السلام قبل الكلام ، والملاطفة أول من الملام ، ثم صطفى حظي ليهلك ،
وحفاظي على ودك . وشافع أول ، ووفاء سمول ، فلا طفاي حتى لوماكني ،
وخرما أني ، فنت من شب تار الوجد عليك ، إلى التقييب بذكر الحقوق إليك .
وكتابي هذا صادر عن صدر علوه بودك ، وقلب مصدوح يبعثك ، وأسف
انفدك ، لا يظن قاطنه ، ولا يخفى باطنه ، وغرام لو تصور لك لانت على وجهه
جناية الفراق ، ومراسم الاحترق ، ولعلست أن صورتك في القلب مفروسة ،
ومكاتبك منه هروسة ، وأنت شغل خاطري ومسرحة ، ومرى
ناظري ومطرحة :

يا حبذا سفوان لي من مرتع ولربما جمع الهوى سفوان
بل حبذا ليالي محاربتك ومذاكرتك . ومرأوتك ومباكرتك :

وأياماً لنا ولكم نصنا زماناً في حواشيها الرقيق
ليالي نحن في غفلات عيش كأن العمر هنا في وقا

هذا يا مولاي فصل مقصور على صحيح التفوق ، لا سقيم التسوق ،
وخاطرك ، والكاف ألد من الضمير في مخاطبتك ، وأعذب من الماء الفير
في مكاتبك ، تلم صدق دغياتي وودق عيلتي . وأعود إلى ما في نفسي من
عتابك ، بل سبابك ، والتظلم من جفائك ، والتألم من عدم وقائك . يا أصمى
من السود ، وأقى من الجلود بل يا قصير العزيمة وطويل الهزيمة ، مضت
لك شهورى عندي دعور ، لم تهرك فيها ربح الأربحية ، ولا شية النفس
المضرية ، ولا استفرك المنصب الأبى ولا الحسب الغرى . قطعت من مكاتبك
رسمي ، فلا تلتفت في كتبك إلى الناس باسمي ، قد كنت أؤسى منك أن أكون
تحت الحسبة لأفوق البسمة ، ولقد رأيت لك كتباً سلطانية وأخرى إخوانية ،
قبلت اسمك من عنوانها ، قبل الوقوف على بيانها . هذا وأنا كتابة سرى ،
وخزاة حرك ودرى . والتمم فيك بما سمع من فيك وأظن اسمي لو مر بسلك
لخلف خفيه ليكون همى الأبهار ، ولست أطم لك حضرا أحمل فلك عليه
وأنسب تمليك إليه ، إلا أن تكون طينة قلبه وللنسا ، شتى قوادك منها

ما غشى ، فإنها الطينة التي تبت الغارب ، وتصادى بين الأقارب . وأنت تعلم أن ،
آل الزبير والكثير إليهم انتهى رياسة أعلامها وسياسة أعلامها ، ونهتق : سيفها
ومصيفها ودخلت شتاتها ومصيفها من منهم إلا من عدائته أسباطية لأخيه ،
أنياطية في توحيه ، يدون المودة ويحفظون العداوة ، أهل حاضرة وفيهم جفاء
العداوة ، وهذا ما ليس لهم في دفعه حيلة ، ولا في منه وسيلة ، لأنه طبع جرى
في ماثم ، ونسيم سائهم ، وامتزج بأهوائهم من أهوائهم ، ولا تغذ إليك ،
واحسب على يدك ، كرهناك من راسخ أنساب . وشاخ أحباب ، وصحة
أديم ، ومجد قديم ، وغر صميم ، وكرم صميم . أو ليس أسوان بهم ماوى الطريد
ومقر الشريد ، وأمان الخائف ، والذمة من البحر الخائف ، ثم هم سداد الثغر
إذا اقتح ، وسداد الأمر إذا فدح وشمة الزناد إذا قدح وعنوان الصدق
لمن مدح . العاملون إلا على الوفر ، والمفاصلون بين الإسلام والكفر .

وأرجع يا مولاي إلى غاصتكم ومواسيتكم ، ومشامتكم وملاكتكم ،
والعرض من عندك ، والكف من عندك ، هذه مكاتبة غير مواتية ، وغاطبة
الحالين والنواتية ، ومقاسرة ، وسوء معاشرة ، وكأني بمولاي إذا انتهى إلى هذا
الحد ، تمثل وأنشد :

لئن ساءني أن تلقى بإساءة قد سرنى أنى خطرت بياك

ألمت أن أغضب فأقول : لاسقاني الله بنوك ، ولا هداني بضوك ،
ولا بلائى بسوك ، فإنك من أسوان والمهزة إذا حذفت عنها ، فهمت ثنية
السوء منها ، وأنت الذي جلبت إليها التكنيف ، وقمت عليها التكنيف ، فإن
كان موى البلد أهداك ، قد موى بك وأرداك ، وإن كان الرياسة الهدية -
ولا أكره دالها - أهدك عن أصفياك ، وحسن وفائك ، فأإخالك ، وفلان
خالك ، تحفو من ينصفك ، وتشكر من يعرفك . أهدني يا مولاي قد اشتقي
منك قري ، واخطأ عنك ضري ، وأخذت الفتنة نارها ، ووضعت الحرب
أوزارها ، وسفرت المسألة عن جبينها ، وأخذت صفقة ثمنها .

ولذا أولان نرعى إلى حسن ذكرك ، ونبرعى إلى حنك وشكرك ، وإتمام

ما أعرضت عنه من ذكر الشوق إلى لقاءك ، وإلهام بطول بقائك ، وأما هذا الكلام فهو منزه ساقط ، وعندما لا لقط ، وجملة قدرك ، وطهارة صدرك . وجميل اعتقادك . وخالص ودادك وسؤدك ، وشرف قومك ونفسك ، وحسن يومك وأمسك . يحملني على عليك بأن مكاتبك من قلبي ثابتة المكان ، قربة الأركان . ولو لا ذلك لقلت للنفس سقيت مهلاً . وسلبت علماً ولبست جهلاً ، ووجعت حزناً ، وعدمت مهلاً ما هذه الجراءة على الأعراض المحرمة ، والبيوتات المكرمة ! أتعرفين بخلت يدك بمن تسمعين ؟ وهيمت عينك إلى من تطمعين ؟ إن لم يترك الوجع ، فليترك الحجل . وإن لم يترك الريح فلا يستفرك العجل ، أما تعلمين أن هذه رتبة الأحكام الشرعية ، ورتبة أهلها واجبة مرعية . بل رتبة النظر والإشراف ، وتفاذ الكلمة في الأوساط والأطراف .

واتصل بي أن مولاي قبض يده عن أحكام القضاء ، وبسطها في الأموال والإمضاء ، وإن كان التكيسل حد من نشاط نفسك ، وطوى بعض بساط أنسك . وأنا أعيذك أن تفلط في وهمك ، أو يترس عليك على فهمك لا تقل نعتت أجل الخدمتين ، وأكل التمتين ؛ فإن من زاد في الكراه ملك الدار ، وهذه الفقراء والمضارب ، وأما الخدمتان : فما أنا أجلوها على مرآة صفك وهي صافية ، وأعرضها على بصيرة فضلك وهي شافية ؛ أما الشريعة فهي ملسوعة عدمت الرلقي ، ومريضة روحها في العراق ، سدرها متروكة ، وحرماتها مهتوك ، ومعلمها حطموكة ، وأعلامها منكوسة . وقد نقل آدميها ، ونسى قديها . وعنى وردها ، وبلى بردها . حتى وقف الزوادة ، في لفظ الشهادة ، وتقل الأذان على الأذان ، وكان القضاء لا يتولاه إلا من قرأ ودرى ، وشيع من المعارف والقصص ، وتفوق إلى الكمال وتطلع ، وبسط يده بالخطايا ، وقبض رجله عن الخطايا ، وقد ما من قضاء في وقتنا قضى الله به من مقتنا ، مبدولاً لمن يبدل قرصاً ؛ معروضاً على من لا يصون عرضاً ، شاموم طول السبيل والقائمة . وعرض الدنية والهمة . يعرفون أن اشتقاق الرشا من الرشوة ؛ ويشكرون الفرق بين القضا والنشوة . هذه حال الشرح في الأمصار

لوسنة ، والأقطار الخاصة . فأما أسوان فهي كآلة أبو الفتح البقي :
أكتاب بست كم يحاسنكم على كتابة بست وهي سبعة حين
وغنى حين فوق ما تطلبونه فكم ينسكم يا قوم حرب حين

وهل في أحكام أسوان غريبة لا تعرف ، ونازلة تستطرف ؟ ما من أحد
إلا وهو يعرف السلف على الزبيب والتمر ، والوالى يصنع المربدين على الكز
والخر ، حاكمها مستريح من إقامة الناموس ، وإحسان المصحف ليمين
النموس ، لأن يمين التجار . وإلا يفرق في شبر من الماء ، ويمن الحمل . وإلا
عذب في صحراء عذاب بالظلم ، والمشار يقول : . وإلا قال كلب على عياله ،
والجار على أخيه عاله ، والضيف يقول : . وإلا لصنع الرال قناه ،
ورض قاه . .

هذه الخسنة بأموالي قد شرحت لك حالها ، وعرضت عليك جمالها ، وهي
زينة كلها زيد ، ومورد صفوه زيد ، وحية محبوة بالسيوب ، وذنوب مودة
بالذنوب ، وأما التصرف في الأموال ، والبسطة في الأحوال ، فأنت تعلم أن المال
بملك من المجلس العالي إلى أن أخلاق في ركابه ، واختصك بخطابه ، وكنت مستكسلا
تقتسط ، ومتعجبا فتبسط ، ونظر إليك وخلع عليك ووعده من الصيت
والتنويه ، فوق ما تأمله وتنويه ، ثم افرض أنك وحاكم تفرك وقاضي معرك
قمتا على الرالى فأدلى القاضى بالدية ، وأدليت أنت بالهدية ، ومت على أوالى
بوقاده ، ومت بما قدمت لك داره . هناك واقف تعرف أن الجمال بخسنة
للال ؛ ولدى اثنين فضل التباهل ؛ وأن صاحب الإحسان أمكن من صاحب
الطيلسان . ثم لو جمعنا مسجد الجامع ؛ وبرزنا قناطر والسامح ؛ لا امتلا
جلسك يا لهال والخران ، والزمدين للالوزان ؛ وأخافت بك الأهران السلطانية
والتراب الديوانية ، وحضت بك أبواب الرواتب والجوازي ، ولم تهد من
غورك من يراجع أريجى ، وقلت قدسوا هذا وارفعوه ، وأخروا تلك
واضعوه . ولما القاضى ظم يكن جلسته يمتص ، ومصوره يمتص ، إلا باليتامى
والأرامل ، والمرحمت والمواويل ، ويقين ظمعه ، وأخرج دجلة منوكة

ويده مفلوجة ، ومشاخ عظامهم نخرة . وكوادهم بخرة : ثم القاضي - أيده
أنت - نائب حكم الصعيد ، وأنت نائب صاحب مصر والقصر المشيد .

وماض أرباب الدواوين أنهم نصارى وإن لم يؤمنوا بمحمد
وها نحن إن رمنا سلاما عليهم دفننا عن الأكام فضلا عن اليد
وهذه صورة الحال ، من غير احتمال . وكأنني بك إذا فهمت أطربت ،
وشددت يدك على ما فيها وربطت ، وعلت مقدار حطك فاعتبطت ، وأريد
بامولاي أن اصطادك بهذا الجنب ، أربط مرزأتني في هذا الذنب ، وأشوى
في نارك سمكتي ، وأجلب إلى شوقك رمكتي . فلأمر ما نصبت هذه الراية ،
وأجريت إلى هذه الناية ، وجلزفت وحقت ، وعن صبح رقت ، عليك
محيط بكثرة ما أنف ، وقلة ما أخلف ، وغنى نفس عن سؤال النعام ، فضلا عن
الأنام . وليس لتوسع لآني مبذر ، بل سائل من أهل اليمن والمجاز لا يبذر .
قد ركب البجة الخضراء ، والقفرة الثبراء ، وقصد باني . ونزل جنابي ، أفاصون
صون قرضي ، وأبذل عرضي

وإن أحق الناس باليوم شاعر يلوم على البخل الرجال ويخجل
وأما حاشيتي الصافية ، وعدتي الوافية ، فأنت في كثرتها أصدق مجبر ،
وأفصح معبر ، ولما طالت عنة الغز وعرضت ، ورجواتها أن تصح فرضت ،
رجعت إلى كناية ذكرى ، وخزاة فكري ، فكنت أكرم خاطر في خاطري
وأحسن وجه يمثل لناظري ، وسيرت إليك بعض خروجاتي للجاري الذي
جهدت أنهاره ، ونحمت ناره ، وميلته يسير في جنب كرمك ، حثيث إذا قرن جميعك .

فكم في الأرض من حسن ولكن عليك من الورى وقع اختياري
ولا تقل كم بين الفساطط وآخر الصعيد ، إن هذا هو المرمى البعيد . فلو
كنت أعلم أني عندك من ينده سربه ، ويكدر بالأعداء شربه ، قصرت ما
أطلته ، وبخلت بما بذلته ، ولكنني قلت هذا أمر قد سهلت مسالكه ، إذ أنت
حالكه ، وغيري يقبل من جودك بعض مجهودك ، وقد أقسمت عليك وإبرار
لنفس إليك ، للنفس الأمانة : ساعيني في عمارة ، وواترك هناك قصور باعك ،
وجفاء طباعك ، فإن هذا سواد الناظر . بل ضمير الخاطر ، وسقف السامع ، وعذب

الماء ، وكأنني بالوصول وقد آلت إلى الحصول ، وبالسؤال في يد الرسول :

ألا إن قسا بين جنبي محمد إذا هم بالمعروف قالت تقدم
ويا طامها قالت له عند فرصة من الجود خذها لا تقتك تقتهم

يامولاي قد أملت الرسول شهرا ، وأنا أعده دهرا ، وأقف حيث انتهيت
وأسأل الجواب عما أنهيت ، فإن الحاجة سائق حثيث ، والوقت غريم خبيث ،
ولرايك الفضل المعروف بالفضل ، والطول المشفوع بالطول . ولولا أن
هذه الرسالة صادرة عن قائل لا يقول ، واردة على قائل لا يتأول ، سألت
كرمك عن بسط المنز عما فيها من التقصير . وحسبنا الله ونعم النصير ^(١) .

فهذه الرسالة على الرغم من إصرافها في الطول تجمع بين عدة فنون وأغراض
كانت من أغراض الشعر ، ولكن تقدم النثر منذ القرن الثالث للهجرة في كل
الانقطاع الإسلامية ، وجعل النثر يمرض للأغراض التي كانت للشعر من قبل ،
ففيها ذكر الفراق والعتاب ، والتهكم الذي هو أقرب إلى الهجاء ، إلى غير ذلك
من الموضوعات .

ثم نرى هذه الرسالة تجمع هذه الخصائص الفنية التي ظهرت عند كل كتاب
مصر الفاطمية ، فالرسالة تقوم على السجع ، ثم على هذه الألوان المختلفة من
البيدع ، من نورية واقباس ، وقصمين واستشهاد ومراعاة النظر وتفخيص وغير
ذلك من هذه الألوان التي وفق سوقها عند كتاب مصر الفاطمية . ولم يشذ عن
اتباعها كاتب واحد من كتابهم : فإذا جاء القاضى الفاضل في أواخر العصر الذي
تؤرخه ، والمصر الذي يليه وأسرف في استخدام هذه الألوان البيديية ، فهو لم يأت
بشيء جديد إنما أخذ عن أساقفته من كتاب مصر الفاطمية طرائقهم في الكتابة
وسار على منهجهم وسقتهم ، ولكن اشتهر أمر القاضى الفاضل في التاريخ الإسلامي
والتاريخ الأدبي أكثر من شهرة أساقفته كتاب مصر الفاطمية ، لأن القاضى الفاضل
قرن اسمه باسم صلاح الدين الأيوبي . فكان وزير صلاح الدين ومستشاره ،
والمؤرخون أشادوا بصلاح الدين ، فن العليبي أن يرفعوا شأن القاضى الفاضل .

(١) التكت المصرية ج ٢ ص ٤٣٩ .

وثنوا عليه الثناء كله ، حتى بالغ بعض الكتاب فقال : إن القاضي الفاضل
ابتدع طريقة جديدة في الكتابة عرفت بالطريقة الفاضلية ، ولم كنت أود
ألا يتسرع بعض المحدثين في أحكامهم وكتاباتهم التي ساروا فيها على نمط من
سبقهم ، فانسبوا إلى القاضي الفاضل هذا المذهب الجديد — في نظرم — عن
الكتابة في مصر ، فالقاضي الفاضل لم يكن إلا من تلاميذ كتاب مصر الفاطمية .

وهذه الطريقة التي نسبت إليه ، عرفها كتاب مصر الفاطمية ، بل عرفها
كتاب مصر منذ عهد الطولونيين .

خاتمة

لعلك أدركت الآن شيئاً عن الحياة في مصر الفاطمية ، وكيف تطورت هذا التطور الخطير بعد عصر الإخشيديين ، فقد كانت عقائد الفاطميين سبباً قوياً في تطور الحياة ، ذلك أن التشيع لم يكن له أثر يذكر في مصر منذ الفتح الإسلامي حتى دخلها جوهر الصقلي ، فإذا بمصر تصبح بعد ذلك دولة شيعية ، ويتخذها أئمة فرقة من فرق الشيعة مقراً لحكمهم . واجتهد الفاطميون في أن تكون مصر متميزة عن غيرها من الأنظار التي كانت تخصخ للعباسيين أو لأموي الأندلس . وأن يسيطروا سلطان مصر على ما جاورها من البلدان ، فأنسعت رقعة أملاك مصر الفاطمية ، كما عمل الدعاة ، على بث تعاليم الفاطميين في كل البلاد الإسلامية ، فأنجحت القلوب والأنظار من شتمهم هذه الدعوة إلى صاحب مصر . وأصبحت القاهرة كمبتهم التي إليها يحجون ، وأصبح لمصر مكانة خاصة تختلف تمام الاختلاف عن مكاتها في عصر الولاة التي سبق العصر الفاطمي .

ورأينا شيئاً عن الحياة الاجتماعية ، وكيف كانت مصر على جانب عظيم من الثراء ، فالأموال والهدايا كانت تترى على الأئمة بمصر ، وهؤلاء بدورهم أسرفوا الإسراف كله ، وأغدقوا نعمهم على المقرين إليهم وعلى الشعب في كل مناسبة من مناسباتها ، وما كان أكثر هذه المناسبات في عصر الفاطميين ، فهناك أعياد ابتدعها الفاطميون لم يمررها المصريون من قبل ، وأعياد أدخلها المسلمون في مصر منذ الفتح العربي ، ولكنها ازدادت جبهة في العصر الفاطمي ، وهناك أعياد أخرى ليست إسلامية وإنما هي أعياد مصرية خالصة كان المصريون منذ أقدم عصورهم يحتفلون بها ، فورثها الأحفاد عن الأجداد ، أضف إلى ذلك أعياد المسيحيين التي اشترك فيها المسلمون في عصر الفاطميين ، فكل هذه الأعياد والمواسم طمعت مصر الفاطمي بطابع العرف والبهجة والتألق في كل شيء .

والعقائد الفاطمية تقوم على العلم والعمل مما ، لذلك اهتم الفاطميون اهتماماً خاصاً بالوراء العلوم المختلفة ، ولا سيما ما كان منها يمت بصلة قريبة أو بعيدة إلى عقائدهم مثل علوم الفلسفة ، فازدهرت هذه الدراسات في مصر الفاطمية

ازدهاراً لم يسمع عنه من قبل ، فقد احتضن الفاطميون هذه الدراسات وشجعوا العلماء على المضي في أبحاثهم ، فكانت نتيجة ذلك هذه المجلدات الكثيرة التي تضمنها خزانة الدعوة باسم كتب الحقيقة ، ولما دالت دولة الفواطم ضعفت هذه الدراسات وقل أن نجد لها أثراً في مصر ، وإلى زعيم أنه لو لم تكن هناك صلة خاصة بين بعض علوم الفلسفة وبين العقائد الفاطمية ، ما كانت هذه العلوم تزدهر وتقوى ، فهي أثر من آثار العقائد الفاطمية ، حقيقة أهم الفاطميون بألوان العلوم المختلفة ، وأسوداد العلم ، وجمعوا فيها الكتب الوافرة في جميع ألوان العلوم والمعرفة ، ولكن هذه العلوم الأخرى كانت تسير في مصر سيرها الطبيعي وتتطور تطورها الطبيعي ، حتى إنها لم تتوقف بعد عصر الفاطميين ، كما توقفت الدراسات الفلسفية ، وكل ما في الأمر أن الفاطميين اهتموا بها اهتمامهم بكل عمل على . فشجع الفاطميون علماء النحو واللغة والقراءات والتاريخ بجانب تشجيعهم لغريم من علماء الفلك والطب وعلوم الفلسفة الأخرى ، ومن هنا ازدهرت الحركة الفكرية في مصر الفاطمية ازدهاراً عظيماً

وكذلك قول عن الحياة الأدبية فقد كان الشعراء المقربون إلى الأئمة وهم شعراء القصر أو شعراء الحضرة يجهدون أنفسهم في أن يلبوا بالعقائد الفاطمية في مدائحهم ، بحيث أصبحنا لا نستطيع أن نفهم مدائح الشعراء أو سجلات الكتاب إلا إذا طبقنا النظرية التي أطلقت عليها . نظرية المثل والمثول ، وهي تقوم على فهم دقيق للعقائد الفاطمية ، سير ندرك ما أراداه الشاعر من مدحه ، وإلا كل فهمنا لهذا الشعر قاصراً غير صحيح ، فالعقائد أثرت تأثيراً قوياً في الحياة الأدبية تأثيرها في جميع نواحي الحياة .

وهنا نقف لتتساءل : هل بحيث الدعوة الفاطمية من مصر بعد زوال دولة الفاطميين ؟ والجواب عن ذلك يبيدنا إلى الحديث عن مدى قبول المصريين لدعوة الفاطميين ، ذلك أن أكثر المؤرخين يذهبون إلى القول بأن مصر رفضت مذهب التشيع ، إلى أن هدم المعز بسيفه وأغرام بنجبه ، فاعتنقوا عندئذ التشيع ، وعلى الرغم مما في هذا القول من مبالغة ، فلما لا ننكر أن من المصريين

من اعتنق الدعوة الفاطمية رغبة أو رهبة . وأن البعض الآخر استمر على مذهبه السني ، وذكرنا أن من أسباب اقراض الدولة الفاطمية تهاون القاطنين بالأمر فيها بالإمامة التي هي عماد الدعوة ، فانهارت الدعوة بسبب ذلك ، وسهل على صلاح الدين أن يبدل الدولة ، وعلى الرغم من ذلك فقد حدثنا بعض المؤرخين عن شخصيات كانت تدين بالدعوة الشيعية في عهد الأيوبيين والمماليك . ونظرة إلى كتاب الطالع السعيد للإدقوي ، أو كتاب الضوء اللامع للسخاوي ، ترينا عددا من أمثال المصريين كانوا يفتخرون ، من ذلك ما ذكره الإدقوي عن إبراهيم بن محمد بن علي بن مطهر بن نوفل الإدقوي : « ثم عكف على حفظ كتاب الله العزيز ، فاستحق به الخير ، واستمر إلى آخر عمره على إلقاء القرآن ملازما للصلاة والتلاوة والعبادة ، وهو كل يوم من الخير في زيادة ، مع صدق لهجة وصياغة ، إلا أنه كان من أتباع الشيعة ، أصحاب تلك البدع الشنيعة ، شاهده لما حضر داود الذي يدعى أنه ابن سليمان بن العاصد إلى إدقو في سنة سبع وتسعين وسبعمائة ، وهو بين يديه ، وقد أخذ العهد عليه ، وهو ينشد قصيدة . نظمها منها :

ظهر النور عند رفع الحجاب فاستقار الوجود من كل باب
وأنا ذا البشير بنسب عنهم فاطما عنهم بفصل الخطاب (١)

ويروي الإدقوي أيضاً قصة قلنية الأسفوني الشاعر عند ما شكاه بعض أهل إلى الوالي بقوص ، فجاء الوالي ومعه الناظر الشمسي الآمري وكان شيعياً ، فلما رآه قلنية قال : يا آل أبي بكر ! قاغتاظ الناظر ، فأندت قلنية :

حديث جرى يا مالك الزق واشتهر بأسفون ماوى كل من ضل أو كفر
لم منهم داح صكتيس معمم وحسبك من تيس تولى على قبر
ومن نحسهم لا أكثر الله منهم يسبوا أبا بكر ولم يشنوا عمر
غدا ما لهم لا تحفنى من ما لهم فإن مال الكافرين إلى سقر (٢)

ونذكر أنه عندما تحركت الشيعة حول داود بن شعبان الذي تحدثنا عنه من قبل — في سنة ٦٩٧ هـ ادعى هذا الذي لمن استجاب له أنه يتحمل عنهم

الصلاة ، قبل كلامه ، وفي هذا يقول علاء الدين علي بن أحمد الأسفوني لبعض أهل بلدته من قبيصة أنشدنا :

ادجع ستلقى بسنا الأهرالا لا حشت تبلغ حنذا آمالا
يامن تجمع فيه كل قبيصة فلاضرب بسورك الأمانلا
ودمحت أنك لتكلف حامل وكذا الحار يحمل الأمانلا (١)

ويقول الإدريسي أيضاً من الشيخ بهاء الدين القفطي المتوفى سنة ٦٩٧ هـ : « وفتح لنا فإنه كان بها التشيع فأشيا ، فأزال يمتد في إخماده . وإقامة الدلائل على بطلانه ، وصنف في ذلك كتاباً سماه «التصانح المفترجة في فضائح الرضة» ، ومروا بقتله فجاء الله منهم ، (٢) ويذكر عن عبد القادر بن مهذب الإدريسي المتوفى سنة ٧٢٥ هـ أنه كان إسماعيل للذهب مشتتاً بكتاب دعاهم الإسلام (٣) . معنى ذلك أن التشيع لم يقتل من مصر بؤوال دولة الفاطميين ووجود حكومات سنية متعصبة لمنهجها ، بل أذهب إلى أبعد من ذلك فأقول : إن المصريين الآن لا يزالون متأثرين ببعض العقائد الفاطمية التي كانت في مصر منذ ألف عام تقريباً . فأهل السفة من المصريين إذا أرادوا سب شخص قالوا : يا عمر III ، وهذا بقية من بقايا سب السلف الصالح في العصر الفاطمي ، وأهل مصر إلى الآن إذا ذادوا ضريح «السيدة زينب» وضموها نماذج لسفن على الضريح ، وهذا أثر آخر من تأثير العقائد الفاطمية الآن في المصريين ، فهم يقبضون الحديث المنسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم : «أهل بيتي فيكم كسيف نوح من وكها نجا» ، ومن تركها غرق» ولا يزال المصريون إلى اليوم يتسبون البركة والشفاعة لأهل البيت ، ويطوفون بأضرحتهم لتضاء الحاجات على نحو ما كان يفعله في أيام الفاطميين . والمصريون إلى اليوم يذكرون علياً والحسن والحسين وقاطنة أكثر مما يذكرون أبابكر وعمر وعثمان وغيرهم من الصحابة الأبرار . ومن فاحية أخرى نرى المصريين اليوم يحتفلون برؤية الملل على نحو ما كان يفعله الفاطميون ، وإن

(١) المصدر نفسه ص ٢٩٧ .

(٢) الطالع الجديد ١٩٧

(٣) المصدر نفسه ١٢٥

كنا نخالفهم في أننا الآن نأخذ برؤية البصر ، وكان الفاطميون يأخذون برؤية الاستبصار ، ولا نزال إلى اليوم نحتفل بمواسم الفاطميين مثل أيام عاشوراء التي اتخذناها فرحا ، وكانت في أيام الفاطميين أيام حزن ، ونحتفل بليلة نصف شعبان وليلة السابع والعشرين من رجب ، وهي أعياد فاطمية لم يعرفها المصريون قبل العصر الفاطمي ، ونرى الخطب المنبرية الآن في بعضها طابع التشيع الذي كان في العصر الفاطمي .

وإذن نصر لم تستطع إلى الآن أن تتخلص كل تتخلص من آثار التشيع الذي نشره الفاطميون .

وبعد ، فهذا الكتاب الذي قدمه الآن صورة من صور الحياة الأدبية والعلمية في مصر الفاطمية ، ولا أدعي أنها صورة كاملة صحيحة ، لأن آثار الفاطميين الأدبية والعلمية فقدت ، ولم يبق منها إلا القدر اليسير ، وهو الذي لمعت عليه في هذا البحث ، ولعل وقت ؟

فهرست الموضوعات

صفحة	
٥	مقدمة الطبعة الأولى
	الكتاب الأول : في الحياة العقلية
٢١	الباب الأول : في الدعوة الفاطمية
٢١	الفصل الأول : عقائد الفاطميين
٣٨	الفصل الثاني : مراتب الدعوة الفاطمية ومراكزها
٤٢	المساجد
٤٥	القصر
٥٠	دار العلم
٥٤	الفصل الثالث : مجالس الحكمة التأويلية
٥٨	المجلس التاسع من المائة الثانية
٦٣	الفصل الرابع : أشهر علماء الدعوة الفاطمية
٦٣	بنو النعمان
٧٥	يعقوب بن كلثوم
٨١	المزود في الدين داعي الفحاة
٨٩	الباب الثاني : في الحياة العلمية
٩٦	الفصل الأول : العلوم الفلسفية
١٠٣	ابن الميثم
١١٥	الفصل الثاني : علوم اللغة العربية والفقه
١١٥	علوم اللغة والنحو
١٢١	القراءات وعلوم القرآن
١٢٣	رواية الحديث
١٢٦	دراسة مذاهب أهل السنة
١٢٧	قهاء الشافعية

الصفحة	
١٢٨	قهاء المالكية
١٣٠	تمصّب الفاطميين لمنهجهم ١١
١٣٦	الفصل الثالث : التاريخ والسير
١٣٦	ابن زولاق
١٣٨	المسيحي
١٤٠	التصاعى
١٤٢	فن السير
١٤٣	سيرة الأستاذ جردز
١٤٥	السيرة المؤيدية
١٤٦	عائمة القول في الحياة العقلية

الكتاب الثانى : فى الحياة الادبية

١٥٣	الباب الاول : فى الشعر
١٥٣	الفصل الاول : ازدهار الشعر
١٦٠	شعر الأئمة
١٦٨	ضياح الشعر الفاطمى
١٧٢	الفصل الثانى : الشعر والأئمة
٢٠٢	الأمير تميم بن المعز
٢٠٧	الفصل الثالث : الشعر والوزراء
٢١٢	الأفضل وشعره
٢١٢	أمية بن أبى الصلت ورسالة المصرية
٢٢١	أبو على الأصاوى
٢٢٤	ظافر الحداد
٢٢٨	شعراء بنى رزك حتى آخر الدولة الفاطمية
٢٣٨	المهذب بن الزبير
٢٤٥	القاضى الرشيد بن الزبير

الصفحة	
٢٥١	القاضي الجليس
٢٥٤	عمارة اليمنى
٢٥٨	ابن قلاقس
٢٦٤	الفصل الرابع : الشعر والحرب الصليبية
٢٧٦	الفصل الخامس : في الغزل
٢٨٥	الفصل السادس : أغراض أخرى في الشعر
٢٨٥	التصوف والزهد
٢٩٠	الوصف
٣٠١	خاتمة القول في الشعر
٣٠٩	الباب الثاني : في النثر
٣٠٩	الفصل الأول : ازدهار النثر
٣١٢	النثر والائمة
٣١٨	الفصل الثاني : كتاب ديوان الإنشاء
٣٣١	ابن خيران
٣٣٥	رسالة من كتاب المؤيد
٣٣٧	ابن الفخباء
٣٤٢	ابن الصيرفي
٣٤٨	أبو الفتح بن قادوس
٣٥٣	أبو علي حسن بن زبير
٣٥٤	الموفق بن الحلال
٣٥٨	عمارة اليمنى للتأثر
٣٦٦	خاتمة
٣٧١	فهرست عام
٣٧٤	المراجع

المصادر والمراجع

- اتحاط الحفا بأخبار الأئمة الخلفاء للقرنرى : طبع دار الفكر العربى
 أخبار الدول المنقطعة للخروجى : نسخة فوتوغرافية بدار الكتب
 إخبار العلماء بأخبار الحسنة لابن القفلى : طبع القاهرة ١٣٦
 أسرار النقاء لمصطفى بن منصور : مخطوط بمكتبى
 الإشارة إلى من قال الوزارة لابن منجب للصيرفى : طبع القاهرة سنة ١٩٢٤ م
 إفاة الأمة بكشف الضمة للقرنرى : . . . سنة ١٩٤٠ م
 اقتراح الدعوة للقاضى النعمان بن محمد المغربى : نسخة خطية بمكتبى
 أبناء الزمن فى أخبار النعمان بن الحسين : طبع برلين سنة ١٩٣٦ م
 الانتصار لابن الحياط : طبع القاهرة
 الانتصار بواسطة عقد الامصار لابن دقاق : طبع بولاق سنة ١٣٠٩ هـ
 بحار الأنوار للجلسى : طبع حجر بئرب
 بدائع الأمور لابن إمام : طبع بولاق سنة ١٣١١ هـ
 بنية الوطة للسيوطى : طبع القاهرة
 تاج العروس
 تاريخ ابن الأثير
 تاريخ ابن خلدون
 تاريخ مصر لابن ميسر
 تاريخ ابن صالح الأرمى
 تاريخ الإسلام للنعمان
 تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام لبندلى جوى
 تجارب الأمم لمسكويه
 تأويل دعائم الإسلام للقاضى النعمان بن محمد : نسخة خطية بمكتبى
 التوحيد فى الرد على الملاحدة والشيعة الباطلانى : طبع دار الفكر العربى
 تصدير الألويسى

تفسير الخازن

تفسير الطبري

تفسير القرطبي

التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع لابن الحسن الملقب

: طبع باستامبول سنة ١٩٣٦ هـ

: الجمع بين آراء الحكميين الفارابي

: حسن المحاضرة للوسطى

: المحاضرة الإسلامية ترجمة الدكتور محمد

: عبد الهادي أبو ريده

: خريطة القصر لعماد الأصبهاني

: نسخة فوتوغرافية بمكتبة

جامعة القاهرة

: خرافة الأدب لابن حبه الحموي

: دستور المنجمين مؤلف مجهول

: نسخة خطية بالمكتبة الأمية

بياديس رقم ٥٩٦٨

: حطام الإسلام القاضي التهان بن محمد المنبري

: ادمية القصر للباخرزي

: الدول المنقطعة لابن ظافر

: رقم ٨٩٠

: ديوان الرسائل لابن منجب الصيرفي

: ديوان الأمير تميم

: ديوان ابن قلاص تحقيق خليل مطران

: ديوان ابن مانيه الأندلسي تحقيق زاهد علي

: ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة

(تحقيق محمد كامل حسين)

: ذخيرة الأعلام بتواضع خلفاء مصر

: نسخة خطية بالمكتبة الأمية

بياديس رقم ١٨٥٠

: راحة العقل لأحمد حيد الدين الكرماي

(تحقيق محمد كامل حسين ومحمد مصطفى حلي)

- أرد على الباطنية الفزالي : طبع لندن سنة ١٩٢٦
رسائل إخوان الصفا : طبع القاهرة
الرسالة المعروفة لأمية بن أبي العتات : نسخة خطية بدار الكتب المصرية
رسالة الرشيد والهداية لتصوير العين : من سلسلة مخطوطات الفاطميين
(تحقيق محمد كامل حسين)
رسائل الكرماني (ثلاث عشرة رسالة) : نسخة قنوزرافية بمكتبي
الرسائل المستنصرة : نسخة خطية بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن
رقع الإمر عن قضاء مصر لابن حجر : نسخة خطية بدار الكتب المصرية
رقم ١٠٥
روضة الأدب في طبقات شعراء العرب الشباب الجبازي : طبع حجر بيومي
الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة المقدسي : طبع القاهرة سنة ١٢٨٧ هـ
سراة الطغاة لجعفر بن منصور : مخطوط بمكتبي
سفر قامه لناصري عسرو توجمة الدكتور يحيى الخشاب : طبع القاهرة
سيرة الأستاذ جوفد : نسخة خطية بمكتبي
سيرة المؤيد بن الدين داعي السعاة : من سلسلة مخطوطات الفاطميين
(تحقيق محمد كامل حسين)
صبح الأعشى للقاتشندى
الطالع السعيد للأدغوى
عبد الجان العيني
عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة : طبع القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ
عيون المعارف ورياض كل متبحر طريف : طبع برومباي سنة ١٢٩٧ هـ
عيون المعارف وقنون أخبار الخلافة لقسطنطين : نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ١٧٧٩
لنيت المنجم للمصطفى : طبع القاهرة
الفاطميون في مصر للأستاذ الدكتور حسين إبراهيم حسن

- الفترات والقرانات لجعفر بن منصور البين : نسخة خطية بمكتبة
 قسح البلدان للبلاذى : طبع القاهرة
 الفخرى فى الآداب السلطانية لابن طباطبا : طبع القاهرة
 فرق الشيعة النوبختى : طبع استامبول سنة ١٩٣١
 الفرق بين الفرق للبندادى : طبع القاهرة
 الفصل لابن حزم : طبع القاهرة
 فضائل مصر لابن زولاى : نسخة خطية بمكتبة الأزهر
 فضائل مصر الكندى : نسخة خطية بدار الكتب
 المصرية رقم ٧٥٣
 الفهرست لابن التديم : طبع القاهرة
 فهرست كتب الشيعة الطوسى : طبع كلكتا سنة ١٨٥٥
 فوات الوفيات لابن شاكر : طبع القاهرة
 القاموس المحيط
 الكنى والوعترى
 كشف أسرار الباطنية لابن مالك الحاوى : طبع القاهرة سنة ١٩٣٩
 لكشف لجعفر بن منصور بتحقيق ستروتمان : طبع القاهرة
 كنوز الفاطميين للأستاذ الدكتور زكى محمد حسن
 لسان العرب
 المجالس المؤيدة للزيد فى الدين داعى العامة : نسخة خطية بمكتبة
 (ثمانية مجلس)
 المجالس والمسايرات لقاضى النعمان بن محمد المغربى : نسخة خطية بمكتبة
 المجالس المستنيرة تحقيق محمد كامل حسين : من سلسلة مخطوطات الفاطميين
 — طبع دار الفكر العربى
 مجموع أشعار الإسماعيلية : نسخة خطية بمكتبة
 مرآة الزمان لسبط ابن الجوزى : نسخة خطية بدار الكتب
 المصرية رقم ٥٥١ تاريخ
 المخصيص لابن سيدة

- مسالك الأبحار لابن فضل الله العمري : نسخة خطية بدار الكتب المصرية
 المسالك والممالك لابن حوقل
 معرفة أخبار الرجال للكشي : طبع بجاي سنة ١٣١٧
 المغرب في حل المغرب لابن سعيد : طبع لندن سنة ١٨٩٩
 مقالات الإسلاميين للأشعري
 الحق الكبير للقرظي : نسخة خطية بالمكتبة الأهلية
 ياريس رقم ٢١٤٤
 الملل والنحل للقرظي : طبع القاهرة
 معجم الأدباء لياقوت : طبع القاهرة
 معجم البلدان لياقوت : طبع فريد رفاي
 مقولات المند البيروني
 المواظرة الاعتبار في ذكر الخطوط والآثار للقرظي : طبع القاهرة
 النجوم الزاهرة لابن قفري يردى : طبع دار الكتب المصرية
 نظرية المثل والمثول للدكتور محمد كامل حسين : طبع القاهرة سنة ١٩٤٨
 قد العلم والعلماء لابن الجوزي : طبع القاهرة
 نسك المصرية لهارة النبي : طبع سالون سنة ١٨
 نهاية الأرب النووي : نسخة خطية بالمكتبة الأهلية
 ياريس
 الهداية الآمرة بتحقيق الأستاذ آصف فيطي : طبع دار الكتب الإسلامية
 بالهند
 المهمة في آداب اتباع الأئمة تحقيق محمد كامل حسين : من سلسلة مخطوطات القاطمين
 طبع دار الفكر العربي
 وفيات الأحياء لابن خلكان : طبع القاهرة
 الولاة والقضاء للكندي : طبع بيروت سنة ١٩٠٨
 بنية العمر الثمالي : طبع بيروت

المصادر والمراجع الإفرنجية

Asaf A. A. Fyzee :

- A Chronological List of the Imams and Da'is. (J. B. B. R. A. S. 1934).
- Isma'ilia Law and Its Founder.
- Materials For an Ismaili. bibliography. (J. B. B. R. A. S. Vol. 11, 1935).
- Qadi un. Nu'mans. (J. R. A. S. 1934.)

Guyard (M.S.) :

- Fragments relatifs à la doctrine des Ismailis, (Paris).

De Goeje.

- Mémoires sur les Carmathes du Bahrain et les Fatimide. (1886.)

Hamadany (H. F.) :

- The History of the Isma'ili da'wat and its literature during the last Phase of the Fatimid, (J. R. A. S. 1932)

Ivanow, (W.)

- A. Guide to Ismaili Literature. (London 1933.)
- The Organisation of the Fatimid Propaganda. (J. B. B. R. A. S. 1939.)
- The Greed of the Fatimids (Bombay 1936.)
- Ismailis and Qarmatians (J.B. B. R. A. S. 1940)
- The Rise of the Fatimids (Bombay 1942)

Lewis, (R.)

- The Origin of Isma'ilism (1940)

Massignon (L.)

- Salmam Pak (S. E. I.) Paris 1934.
- Esquisse d'une bibliographie Qarmate, 1922.

O'Leary,

- A short History of the Fatimide Khalifate 1923.

Quatremere, (N)

- Mémoire Historiques sur la Dynastic des Khalifs Fatimid J. A. 1838.

نطلب جميع منشوراتنا من فروغنا

القرع الرئيسي :

٦-١ شارع جوار صني - القاهرة

ت : ١٦٧-٧٥

فروع الفرع :

٢٧ شارع عبد العظيم لشد - متفرع من

شارع الكثر شالعين - بالمعجزة

ت : ١٦٨-٧١٧٤

فروع مدينة نصر :

٩٤ شارع عباس العقاد - المنطقة العامة

ومن مؤسسة

دأب الكتاب الحديث

للطباعة والنشر والتوزيع

مكتب شارع ميد السلام عمارة السوق الكبير

بجوار المأزق الكبير محل رقم ٣٥٠ أرضي

ت : ٣٦٧٦٥ ص ٠ ب ٢٢٧٥٤

Bibliotheca Alexandrina



0497936

